ويلبر سميث

RIVER GOD

من الكتب الأكثر مبيعًا في
قائمة نيويورك تايمز

إله النهر

رواية
من مصر القديمة

عصير الكتب

ترجمة: سليمان ع. يوسف



«وحشية الحياة في العصور القديمة جليّة في جميع جوانب حكاية تايتا، التي تضم مكيدة قاتلة في كل ركن من أركانها. من الواضح أن سميث عليمٌ بموضوع روايته، فتصويره الحيّ للشهوة وإراقة الدماء والسياسة، وفي حالة تايتا، الشرف، قائم على تفاصيل متقنة تبعث الحياة في تلك الفترة».

- Booklist

«عودة آسرة غنيّة إلى زمان امتزج فيه التاريخ بالأسطورة».

- San Francisco post

«هائلة وشجاعة وناجحة نجاحًا باهرًا... وصفٌ مفصّل ذكيٌ للحياة على نهر النيل».

- Mail on sunday

«ملحمة... انضم سميث إلى صفوف أساتذة الرواية العظماء في القرن العشرين».

- تولسا وورلد

«حيّة وساحرة... زاخرة بالشغف والحرب والخديعة والانتقام... تفاصيلها حميمية وملهمة يحملك الكاتب على رؤيتها، وسماعها، وحتى شمّها».

- Orlando Sentinel

«ملحمة أصيلة».

- The Times

إله النهر

I





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الكتاب الأول -

- العنوان الأصلي: River God
- العنوان العربي: إله النهر
- طُبِع بواسطة: Macmillan
- حقوق النشر:
Copyright © Orion Mintaka (UK) Ltd
1993, 2018
Author image © Hendre Louw
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: سليمان ع. يوسف
- تدقيق لغوي: شيماء شحاتة
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير / 2024م
- رقم الإيداع: 2023/26677م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-348-2

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار



ويلبر سميث

RIVER GOD

من الكتب الأكثر مبيعاً في
قائمة نيويورك تايمز

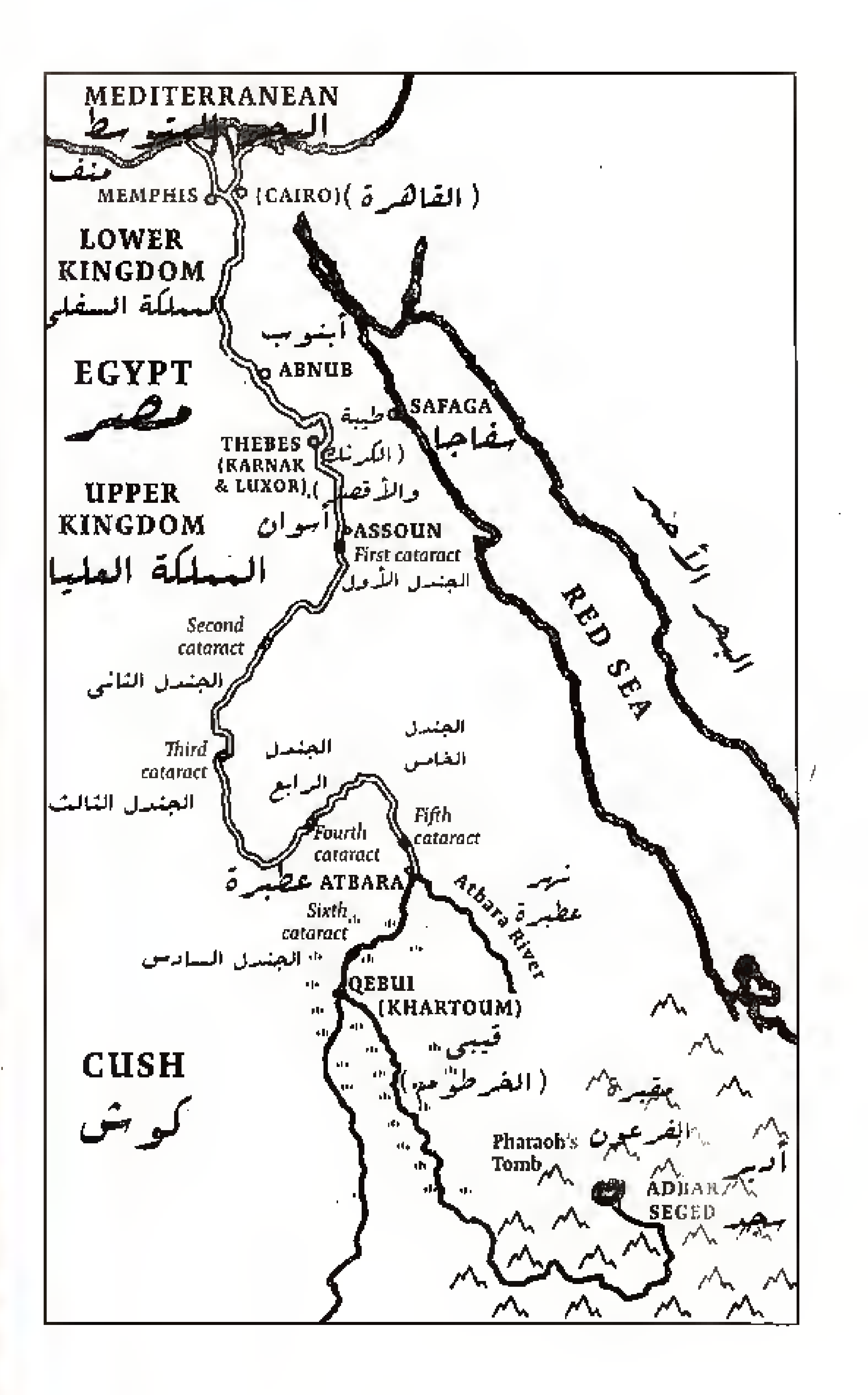


رواية

[illegible]

[illegible]

هذا الكتاب إهداءٌ إلى زوجتي،
«موخينيسو»،
أجمل ما حدث لي على الإطلاق.


MEDITERRANEAN
منف
MEMPHIS
(CAIRO)
(القاهرة)
LOWER KINGDOM
المملكة السفلى
أبنوب
ABNUB
EGYPT
مصر
طيبة
SAFAGA
سفاجا
THEBES (KARNAK & LUXOR)
(الكرنك والأقصر)
UPPER KINGDOM
أسوان
ASSOUN
First cataract
الجندل الأول
المملكة العليا
RED SEA
Second cataract
الجندل الثاني
Third cataract
الجندل الثالث
الجندل الرابع
الجندل الخامس
Fourth cataract
Fifth cataract
عطبرة
ATBARA
نهر عطبرة
Atbara River
Sixth cataract
الجندل السادس
QEBUI (KHARTOUM)
قيبى
(الخرطوم)
CUSH
كوش
Pharaoh's Tomb
ADHAR SEGED

كان النهر يمتدُّ ثقيلًا من فوق الصحراء، ساطعًا كمعدن منصهر اندلق من فرن، وبخار الحرارة يملأ السماء، والشمس تنهال على كل ذلك ضربًا كمطرقة نحَّاس. وفي السراب، بدَت التلال الهزيلة الملاصقة **للنيل** ترتعش تحت ضرباتها.

أسرع قاربنا متاخمًا أحواض البرديِّ، قريبًا بالحد الكافي ليبلغنا صرير دلاء الماء المعلقة على أذرع الشواديف[1] الطويلة المتوازنة عكسيًّا من الحقول على الجانب الآخر للمياه، ويتناغمَ صوتها مع غناء الفتاة في الجؤجؤ[2].

كانت **لوستريس** في الرابعة عشرة من عمرها، وكان **النيل** قد بدأ فيضانه الأخير في اليوم نفسه الذي أزهر فيه قمرها الأحمر[3] للمرة الأولى، في مصادفة رآها كهنة **حابي**[4] مبشِّرة بكثير من الخير. **ولوستريس** –اسم المرأة الذي اختاروه لاحقًا ليستبدل اسمها الطفوليَّ المُهمل– يعني «ابنة المياه».

أذكرها ببالغ الوضوح في ذلك اليوم. كان مقدرًا لها أن تزداد جمالًا مع مرور السنين، وأن تكبُر اتزانًا وجلالًا، لكن وهج العذرية النسويَّة ذاك لن يشعَّ منها بهذا السطوع القاهر ثانية أبدًا. أدركه كل الرجال على متن القارب، وحتى المحاربين في مقاعد التجديف، وعجزتُ كما عجز أي منهم عن إزاحة نظره عنها. ملأتني بشعور عجزي الشخصي، وباشتهاء عميق لاذع، ذلك أنني، ورغم كوني خَصيًّا، لم تُسلَّ خصيتي إلا بعد أن عرفتُ متعة جسد المرأة.

نادَتني: «**تايتا**، غنِّ معي»، وابتسمَتْ بحبورٍ عندما أطعتُها. كان صوتي أحد الأسباب العديدة التي جعلتها تُبقيني بجوارها متى استطاعت، فصوتي

(1) الشادوف: أو المِنزَفَة، آلة لرفع المياه للري ابتُكرت في مصر القديمة في عهد الفراعنة. (المترجم).

(2) جؤجؤ السفينة: صدرُها. (المترجم).

(3) قمرها الأحمر: كناية عن البلوغ الجنسي. (المترجم).

(4) حابي: إلهة نهر النيل والفيضان في الميثولوجيا المصرية. (المترجم).

الصادح يتمم صوتها النديُّ[1] الفاتن إلى حد الكمال. غنينا إحدى أغنيات الحب القرويَّة القديمة التي علمتها إياها فيما مضى، والتي لا تزال إحدى مفضلاتها:

قلبي يرفرفُ كالسمَّان إن جُرحا
لمَّا لوجه حبيبي الغرِّ قد لمحا
خدَّاي يعروهما وردُ السما سحَرًا
لبسمةٍ من شفاهٍ تمنحُ الصُّبُحا...

انضم لصوتينا ثالثٌ من الكوثل[2]. كان صوت رجل، عميق وقوي، لكنه يفتقر إلى نقاوة صوتي ووضوحه، وإن كان لي صوت شحرور يؤدي تحيَّة الفجر، فلهُ إذن صوتُ أسدٍ شابٍّ.

أدارت **لوستريس** رأسها وقد صارت ابتسامتها تتلألأ كأشعة الشمس على صفحة النيل. ورغم أن الرجل الذي عابثَته بتلك الابتسامة صديقي، وربما صديقي الحقيقي الوحيد، شعرتُ بصفراء الحسدِ اللاذعة تحرقُ مؤخر حلقي، لكنني أجبرتُ نفسي على الابتسام **لتانوس** بحُب، مثلها.

كان أبو **تانوس**، **بيانكي** سيد **حاراب**، أحد أعظم النبلاء المصريين، لكنَّ أمه ابنة عبد مُعتَقٍ من شعب **التحنو**[3]، ومثل العديد من بني شعبها، كانت شقراء الشعر زرقاء العينين، وماتت جراء حمَّى المستنقعات في طفولة **تانوس**، لذا فذكرياتي عنها منقوصة، بيد أن النساء العجائز قُلن إن جمالًا كجمالها قلَّما شوهد في كلتا المملكتين.

من الناحية الأخرى، فقد عرفتُ أبا **تانوس** وأجللتُه، قبل أن يفقد ثروته الفاحشة وكل أملاكه التي كانت ذات مرة تضاهي أملاك الفرعون نفسه. كانت له بشرة سمراء وعينان مصريتان بلون السبَج[4] المصقول، وكان رجلاً

(1) الصادح: أو تينور، نوع من الأصوات الغنائية ويعد أعلى الأصوات الرجولية، والنديّ: أو سوبرانو، نوع من الأصوات الغنائية ويعد أعلى الأصوات النسائية. (المترجم).

(2) كوثل السفينة: مؤخرها، وفيه يكون الملاحون ومتاعهم. (المترجم).

(3) التحنو: إثنية قليلة العدد وبائدة سكنت في منطقة صغيرة جدًا إلى الغرب من وادي النيل. (المترجم).

(4) السَّبَج: حجر كريم بركاني يأتي من حجارة الحمم السوداء. (المترجم).

ذا قوة بدنيَّة تزيدُ على جماله، وقلب معطاء نبيل، وقد يقول البعض إن قلبه كان معطاءً ووثوقًا أكثر مما ينبغي، ذلك أنه توفيَ عائزًا، وقلبهُ مكسورٌ بأيدي أولئك الذين ظنهم أصدقاءه، وحيدًا في الظلام، محرومًا من إشراقة حظوة الفرعون عليه.

لذا بدا أن **تانوس** قد ورث أفضل ما في والديه، في ما عدا ثروة بسيطة، فكان في طبعه وقوته كأبيه، وشابَهَ في جماله أمه. إذن لِمَ أمتعتض من حُب مولاتي إياه؟ لقد أحببتُه كذلك، ولكوني هذا الشيء التعِس الخَصيُّ، أدركُ عجزي عن نيلها لنفسي أبدًا، ولا حتى لو رفعت الآلهة منزلتي فوق منزلة العبيد. لكن مع ضلال الطبيعة البشرية: أتعطَّش لما لا يمكنني تذوُّقه أبدًا، وأحلم بالمحال.

جلست **لوستريس** على نُمرُقها[1] في المقدمة وجاريتاها متمددتان عند قدميها. كانتا بِنتين صغيرتين سوداوين من مملكة «**كوش**[2]»، رشيقتين كالنمور، وعاريتيْن تمامًا إلا من طوقين ذهبيين حول عنقيهما. **لوستريس** نفسها لم تكن ترتدي إلا تنورة من الكتَّان المُبيَّض، أنيقة وناصعة كجناحيْ ابن الماء[3]. كانت بشرةُ نصفها العلويُّ الذي قبَّلته الشمس بلون خشب الأرز المُزيَّت القادم من الجبال وراء جبيل، ونهداها بحجم وصورة تينتين ناضجتين جاهزتين للقطاف، وعلى قمتيهما عقيق ورديٌّ.

كانت قد طرحت جانبًا باروكتها الرسمية، وأرخَت شعرها الطبيعي في جديلة جانبية تتدلى حبلًا سميكًا داكنًا فوق أحد نهديها، وحسَّنت مَيلَ عينيها بخطٍّ فضي مخضرٍّ من مسحوق الدهنج[4] لامَسَ بمكرٍ جفنيها العلويين. وكان لون عينيها أخضر كذلك، لكنه الأخضر الأدكن الأصفى للنيل وقتما تنحسرُ مياهه وتضع أحمالها من الطَّمي الثمين. وبين ثدييها، حملت تمثالًا **لحابي**، إله النيل، مصوغًا من الذهب واللازورد الثمين ومُعلقًا على سلسلة ذهبية. كان قطعة بديعة بلا شك، فقد صغته لها بيديَّ هاتين.

(1) النُّمرُق: وسادة صغيرة يُتكأ عليها. (المترجم).

(2) كوش: اسم أُطلق في قديم الزمان على جزء من النوبة، يشمل المنطقة جنوب الجندل الثاني، والتي تمثل بلاد النوبة العليا حيث قامت حضارة وادي النيل النوبية الكوشية. (المترجم).

(3) ابن الماء: جنس من طيور مالك الحزين يتبع فصيلة البلشونيات المتوسطة. (المترجم).

(4) الدهنج: جوهر كالزمُرُّد. (المترجم).

فجأة، رفع **تانوس** يمناه بقبضة مضمومة، وكرجلٍ واحد، لجمَ المجدِّفون ضرباتهم ورفعوا راحات مجاديفهم عاليًا، فأخذت تتلألأ تحت أشعة الشمس وتقطر ماءً. ثم زجّ مجداف التوجيه بشدة، وأقحم الرجال على دكَّة الميسرة مجاديفهم الخلفية عميقًا، محدثين سلسلة من الدوامات الضئيلة على صفحة المياه الخضراء. تدخَّلت الميمنة بعدئذٍ بقوَّة، فدار القارب دورانًا عنيفًا حدَّ أن متنه جنح بزاوية مفزعة، ثم نسَّق الجانبان جهودهما وانطلقنا إلى الأمام. نحَّى الجؤجؤ المدبب، وعينُ **حورس**[1] الزرقاء مُزركشة عليه، أجمات البرديِّ الكثيفة جانبًا، وشقَّ طريقه خروجًا من مجرى النهر إلى المياه الراكدة للبحيرة الشاطئة خلفه.

قطعت **لوستريس** الأغنية وظلَّلت عينيها لترنو إلى الأمام، ثم صاحَت: «ها هم!»، وأشارت بيدٍ دقيقةٍ بهيَّة. كانت بقية قوارب سِرب **تانوس** موزَّعة مثل شبكةٍ على الروافد الجنوبية للبحيرة: حاجبةً المدخل الرئيس إلى النهر العظيم، وقاطعة أي مهربٍ في ذلك الاتجاه.

بطبيعة الحال، كان **تانوس** قد اختار لنفسه المركز الشمالي، لمعرفته أنه حيث ستبلغ المطاردة أشدَّ ضراوتها، وتمنيت لو لم يكن الأمر كذلك، لا لأنني رعديد، لكن عليَّ أخذ سلامة مولاتي في الحسبان دائمًا. كانت قد أوصلَت نفسها إلى متن ***أنفاس حورس*** بالمخالبة بعد الكثير من المخادعة التي -كالعادة- ورطتني فيها توريطًا عميقًا، وعندما يعرف أبوها -وسيعرف حتمًا- بوجودها في لجَّة الصيد، سأنال من سوء العاقبة ما يكفي، لكن إن عرف أيضًا أنني كنتُ المسؤول عن السماح لها بمرافقة **تانوس** ليوم كامل، فلن يحميني حتى منصبي الممتاز من غضبته، إذ إن تعليماته التي أملاها عليَّ بخصوص هذا الشاب قاطعة.

على أي حال، بدا أنني النفس المضطربة الوحيدة على متن ***أنفاس حورس***، والبقية كلهم يجيشون حماسةً. زجَر **تانوس** المجدِّفين بإشارة حاسمة من يده، وانزلق القارب حتى توقف ثم جعل يتأرجح برفقٍ فوق المياه الخضراء الراكدة إلى درجة أنني عندما ألقيت نظرة إليها رأيتُ انعكاسي يردُّ لي نظرتي، وأدهشني -كالعادة- حسنُ احتمال جمالي للسنين. في عينيَّ، رأيتُ وجهي أجمل من زهور اللوتس الزرقاء السماويَّة التي أطَّرته، لكن لم يكُن أمامي إلا وقتٌ وجيز لأبدعه، فالطاقم من خلفي يتخبَّط نشاطًا.

---

(1) حورس: إله الشمس عند قدماء المصريين، وعينه شعار قديم ذو خصائص تميميَّة. (المترجم).

رفع أحد ضبّاط أركان **تانوس** لواءه الخاص أعلى الصاري، وكان صورة تمساحٍ أزرق، ذيله المُختال منتصبٌ، وفكّاه مفترقان. لم يُخوَّل إلا ضابط من رتبة **الأفضل في عشر لاف** بامتلاك لواء خاص، وقد ظفر **تانوس** بهذه الرتبة، إلى جانب قيادة **فرقة التمساح الأزرق** من نخبة حرس الفرعون الشخصي، قبل عيد ميلاده العشرين.

وكان رفع اللواء على الصاري إشارة لبدء الصيد. بدَت بقيّة السرب في أفق البحيرة ضئيلة بفعل المسافة، لكن مجاديفها أخذت تضرب ضربًا موزونًا، فتعلو وتهبط كأجنحة إوزٍّ بري طائر تألق تحت أشعة الشمس. ومن كواثلها، امتدَّت المويجات المُركَّبة خلفها فوق المياه الرائقة واصطفَّت مدة طويلة على السطح كأنها قُدَّت من صلصال صلب.

أنزل **تانوس** الصنج من فوق الكوثل، وهو أنبوب برونزي طويل، وسُمِحَ لطرفه بالانغماس تحت سطح الماء حتى إذا ما طُرِق بمطرقة من المعدن نفسه، تفيض منه النغمات الصارَّة الرنَّانة إلى الماء مالئة طرائدنا ذعرًا. ولسوء حظ رصانتي، عرفتُ أن هذا قد يتحول عاجلًا إلى ثائرة دمويَّة.

ثم ضحك عليٌّ، مدركًا هواجسي حتى في ذروة إثارته، فقد كان ذا فطنة استثنائية بالنسبة إلى جنديٍّ جلف، وأمرني قائلًا: «تعال إلى برج الكوثل يا **تايتا**! يمكنك ضرب الصنج لنا. سيُلهيك ذلك عن سلامة جِلدتك الجميلة لبعض الوقت».

جرحني هزْلُه، لكن أراحتني دعوته، ذلك أن برج الكوثل يرتفع عاليًا فوق الماء، وتحركتُ لتنفيذ أمره من دون لعثمة مُخجلة، وبينما أعبره، توقفتُ لحظةً لأعظه بصرامة: «انتبه لسلامة مولاتي، أتسمعني أيها الفتى؟ لا تحثَّنها على الرعونة، فجموحها لا ينقصُ شيئًا عن جموحك». كان بمقدوري التكلُّم بهذه الصيغة إلى **قائد عشرة آلاف** أغرّ، ذلك أنه كان ذات مرةٍ تلميذي، وقد ذاقت عصاي في أكثر من مناسبة ذينك الردفين العسكريين. منحني ابتسامة عريضة كما كان يفعل في ذاك الزمان، بالغرور والوقاحة المعهودين نفسيهما، وأجاب: «أستحلفُك أن تترك السيدة بين يديَّ يا صديقي القديم، فليس ثمة ما ألتذ به أكثر، صدقني!». لم ألُمه على هذه اللهجة قليلة الأدب، فقد كُنت في شيء من العجلة لآخذ مجلسي في البرج، ومن هناك راقبته يستلُّ قوسه.

كانت تلك القوس شهيرة بالفعل في جميع قطع الجيش، وبالطبع على امتداد النهر العظيم من الجنادل[1] إلى البحر. صممته له وقتما غدا مستاءً من الأسلحة التافهة التي –حتى ذلك الحين– لم يُتح له غيرها، فاقترحتُ أن نجرب صنع قوس ببعض المواد الجديدة غير الخشب الواهن الذي ينمو في وادينا النهري الضيِّق؛ ربما ببعض الأخشاب الغريبة كخشب قلب الزيتون من أرض **الحيثيين**[2] أو أبنوس **كوش**، أو حتى من مواد أغرب كقرن خرتيت أو ناب فيلٍ عاجيٌ.

وما إن شرعنا في المحاولة حتى تعثرنا في مشكلات لا حصر لها، كانت أولاها سهولة انكسار هذه المواد الغريبة، ففي حالتها الطبيعية، لا يوجد بينها ما ينحني من دون تصدُّع، ولن يسمح لنا إلا أضخم أنياب الفيلة، ومن ثَمَّ أثمنها، بنحت جذع قوس كامل منه. حللتُ كلتا المشكلتيْن بفَلق عاج نابٍ أصغر إلى شظايا وإلصاقها معًا بمقاس وحجم كافيين لتشكيل قوس كاملة، غير أنها كانت أقسى من أن يشدَّها أي رجلٍ للأسف.

لكنْ من تلك المرحلة، باتت خطوة سهلة وفطريّة أن نصفِّح معًا موادنا المختارة الأربعة: خشب الزيتون والأبنوس والقرن والعاج. بالطبع، مرَّت عدة أشهُر من الاختبار في تركيب هذه المواد، وبشتى صنوف الغراء لجمعها، ولم ننجح قطُّ في صناعة غراء قويٍّ بالحد الكافي. فحللتُ هذه المشكلة الأخيرة في النهاية بربط كامل جذع القوس بسلك من الإلكتروم[3] لمنعها من التشظي، إذ جئتُ برجلين ضخمين ليعينا **تانوس** في لفِّ السلك من حولها بمجموع قوتيهما بينما لا يزال الغراء ساخنًا، وعندما برد، استقر على تركيبة تكاد تكون مثالية من القوة والليونة.

قصصتُ بعدئذٍ خيوطًا من أحشاء أسد عظيم أسود اللبدة كان **تانوس** قد صاده وقتله برمحه الحربي ذي النصل البرونزي، فدبغتها وجدلتها معًا لأشكِّل الوتر. وكانت النتيجة هذه القوس البراقة ذات القوة الاستثنائية التي لم يستطع إلا رجل واحد من بين مئات المحاولين شدُّها إلى مداها الكامل.

(1) جنادل النيل: أو الشلالات النيلية، أو الشلالات الستة، هي الشلالات التي كوَّنها النيل ويوجد منها خمسة في السودان وواحد في مصر. (المترجم).

(2) الحيثيون: شعب أناضولي أدى دورًا مهمًا في تأسيس إمبراطورية كان مركزها خاتوشا في شمال وسط الأناضول عام 1600 ق.م تقريبًا. (المترجم).

(3) الإلكتروم: سبيكة طبيعية المنشأ من الذهب والفضة مع كميات قليلة من الرصاص ومعادن أخرى. (المترجم).

كان الأسلوب النظامي للرماية كما يعلمه مدرِّبو الجيش يقتضي مواجهة الهدف، وشدَّ السهم الموتور إلى قصِّ الصدر، والمحافظة على التصويب مُهلةً متروِّية، ثم إرخاءه عند الإيعاز، لكن حتى تانوس لم يملك القوة الكافية ليشدَّ هذه القوس ويحافظ على تصويبه ثابتًا، فاضطُر إلى تطوير أسلوب جديد كليًّا، حيث صار يقف جانبيًّا أمام الهدف، مواجهًا إياه من فوق كتفه اليسرى، ثم يقذف ذراعه اليسرى باسطًا إياها ويشدُّ السهم -بجهد متشنِّج- حتى تمسَّ ريشات ذيله شفتيه وتبرُز عضلات ذراعيه وصدره مزهوَّة بمجهودها. وفي لحظة التمدد الكامل نفسها، فيما يبدو ظاهريًّا بلا تصويب، يُرخيه.

في البداية، كانت سهامه تطير خبط عشواء كنحل بريٍّ يغادر خليَّته، لكنه تدرب يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر حتى سُحجت أصابع يُمناه وجعلت تنزفُ إثر احتكاكها بالوتر، لكنها شُفيت وخشُنت، وتكدَّم باطن ساعده الأيسر وسُلخ حيث كان الوتر يجلده عقب إرخاء السهم، لكنني صنعتُ له واقيةً جلديةً تحميه. وظل تانوس واقفًا أمام الأهداف يتدرب ويتدرب.

حتى أنا فقدتُ الثقة في قدرته على إخضاع السلاح، لكنه لم يستسلم قطُّ. وببطء، ببطء مُمضٍ، سيطر عليه حتى صار أخيرًا قادرًا على إطلاق ثلاثة أسهم بسرعة تجعلها في الهواء في الوقت نفسه. كان اثنان منها يصيبان الهدف على الأقل، وهو قرص نحاسي بحجم رأس رجل منصوب على مسافة خمسين خطوة من موقف تانوس، وكانت هذه السهام تبلغ من القوة ما يجعلها تخترق بلا عناء المعدن الذي يحاكي ثخانة خنصري.

سمى تانوس هذا السلاح الجبَّار لاناتا، والذي كان -بالمصادفة المحضة- الاسم الطفليَّ المنبوذ لمولاتي، وها هو الآن واقف في الجؤجؤ، المرأة بجانبه، وسميُّها في يسراه. كانا يشكلان ثنائيًّا بديعًا، لكنه بديع بوضوح لا تحتمله راحة بالي.

صحتُ بحدة: «مولاتي! ارجعي إلى هنا حالًا! موقفك غير آمن»، ولم تتنازل وتلقي نظرة من فوق كتفها حتى، بل أشارت إليَّ من خلف ظهرها، فرأى كل طاقم السفينة ذلك، وقهقه أجسرُهم. لا بدَّ أن إحدى جاريتيها المشاكستين السوداوين قد علمتها تلك الإشارة، التي تناسب سيدات حانات جانب النهر أكثر ما تناسب ابنةً شريفة النسب من أسرة إنتف. فكرتُ في أن أحتجَّ، لكنني هجرتُ هذا الطريق الأهوج من فوري، فمولاتي لا تذعن للقيود إلا في بعض

حالاتها المزاجية. وبدلًا من ذلك، شغلتُ نفسي بضرب الصنج النحاسي بعزم كافٍ لستر ضيقي.

فاضت النغمة الصارّة المجلجلة عبر مياه البحيرة الشفيفة، وامتلأت السماء توًا بوشوشةِ الأجنحة وظلِّ ألقي فوق الشمس كأنما ارتفعت غيمة فسيحة من طيور الماء من أحواض البردي والبرك المخفية والمياه المفتوحة إلى السماء. كانت من مئة صنف وصنف: أبو منجل الأسود والأبيض ذي الرأس النسريّ، المقدَّس كرمى لإلهة النهر، وأسراب من الإوز الصيَّاح في ريشه الخمريّ، كل منها تحمل نقطة ياقوتيَّة اللون في مركز صدرها، وطيور مالكٍ حزين بلون أزرق مخضرٍ أو أسود فاحم لها مناقير كالسيوف وخفق أجنحة ثقيل، وبطٌ وفير حدَّ أن أعداده تتحدى الأعين ومصداقية الرائي.

صيد طيور الماء من أكثر الهوايات حماسةً بين النبلاء المصريين، لكننا يومها كنا نلاحق طريدة أخرى، وفي تلك اللحظة، رأيت على مسافة بعيدة أمامنا اضطرابًا فوق سطح الماء الشفيف. كان ثقيلًا وهائلًا، وخانتني معنوياتي، ذلك أنني أعرف أي وحش مُروِّع قد تحرك هناك. رآه **تانوس** كذلك، لكن ردة فعله كانت مختلفة كل الاختلاف عن ردة فعلي، إذ نبح ككلب صيد استَروَح الطريدة، وصاح رجاله معه منكبِّين على مجاديفهم، فانطلقت ***أنفاس حورس*** إلى الأمام كأنها أحد تلك الطيور التي عتَّمت قبة السماء من فوقنا، وزعقت مولاتي حماسةً ثم ضربت بقبضتها الصغيرة كتف تانوس مفتول العضلات.

تعكرت المياه مرة أخرى وبينما أشار **تانوس** إلى قائد دفَّته أن يتبع الحركة طرقتُ الصنج لأدعم شجاعتي وأحافظ عليها. وصلنا إلى النقطة حيث رأينا الحركة آخر مرة، وانسلَّ المركب حتى جمُد في حين أخذ كل رجلٍ على متنه يحدق من حوله متشوقًا.

ووحدي نظرتُ من فوق الكوثل مباشرة. كان الماء من تحتنا قليل العمق ويكاد يكون بصفاء الهواء من فوقنا. ثم زعقتُ زعقةً بشدَّة وحدَّة زعقة مولاتي ووثبتُ متراجعًا عن سور الكوثل، إذ كان الوحش من تحتنا تمامًا.

فرس النهر رفيق **حابي**، إلهة النيل، ولا يمكننا صيده إلا بإعفاء خاص منها. ولهذه الغاية، كان **تانوس** قد صلى وقدم الأضاحي في معبد الإلهة ذاك الصباح، ومولاتي ملاصقة له. **حابي** إلهتها الراعية بالطبع، لكنني أشك في أن هذا هو السبب الوحيد لمشاركتها التوّاقة في المراسم.

كان الوحش الذي رأيته تحتنا للتو ذكرًا عملاقًا عجوزًا، وفي عيني، بدا بضخامة سفينتنا، جِسمًا جبّارًا يتثاقل الخطى في قاع البحيرة، وقد بطّأت مقاومة المياه حركاته فصار يتحرك كمخلوقٍ من كابوس يثير من بين حوافره الطين كما تثير المها الغبار في إسراعها فوق رمال الصحراء.

أدار **تانوس** القارب بمجداف التوجيه وانطلقنا خلفه، لكنه ابتعد عنا بسرعة رغم عَدوِه البطيء المتكلّف ذاك، وتلاشى شبحه الداكن في أعماق البحيرة الخضراء أمامنا.

فصاح برجاله: «شُدُّوا بحق أنفاس **ست**[1] الكريهة شدوا!»، لكن عندما حلَّ أحد ضباطه عقدة كرباج السوط، عبس **تانوس** وهز رأسه. لم أره يستخدم الكرباج قطُّ إن لم يكُن استخدامه مبررًا.

وفجأةً، شقَّ الوحش صفحة الماء أمامنا ونفخ سحابة عظيمة من البخار النَّتِن من رئتيه. غمرتنا نتانتها رغم أنه بعيد وخارج مرمى السهام، وللحظة، خلق ظهره جزيرة جرانيتيةً برّاقة في البحيرة، ثم جرَّ نفسًا صافرًا وغاب في دوّامة من جديد.

جأر **تانوس**: «انطلقوا خلفه!».

وصحتُ مشيرًا من فوق الجانب: «ها هو ذا، إنه يلتفُّ عائدًا».

فضحك **تانوس** عليَّ قائلًا: «أحسنتَ صنعًا يا صديقي القديم، سنجعل منك محاربًا أيضًا». كانت الفكرة ساخرة، فأنا نسَّاخ وحكيم وفنَّان، وبطولاتي بطولات عقل، ورغم ذلك، شعرتُ برعشة بهجة كما أشعر دائمًا إزاء مديح **تانوس**، وضاع هلعي –في الوقت الراهن– في حماسة المطاردة.

ثم انضمت بقية سفن السرب من الجنوب إلى الصيد. كان كهنة **حابي** قد حافظوا على إحصاء دقيق لعدد هذه الوحوش العظيمة في البحيرة، ومنحوا مباركتهم لذبح خمسين منها في مهرجان **أوزيريس**[2] القادم، ما يترك ثلاثمئة تقريبًا من قطيع الإلهة في بحيرة المعبد، وهو العدد الذي عدَّه الكهنة مثاليًّا لإبقاء الممرات المائية خالية من الأعشاب الخانقة، ومنع أحواض البردي من التعدّي على الأراضي الزراعية، وتزويد المعبد بمؤونة منتظمة من

(1) ست: إله الحرب والفوضى والعواصف في مصر القديمة. (المترجم).

(2) أوزيريس: إله البعث والحساب ورئيس محكمة الموتى عند قدماء المصريين، وهو من آلهة التاسوع المقدس الرئيس. (المترجم).

اللحم. لم يكُن أكل لحم أفراس النهر في غير أيام مهرجان أوزيريس العشر مسموحًا إلا للكهنة أنفسهم.

ثم دار الصيد فوق المياه مثل رقصة معقَّدة، وبينما أخذت سفن السِرب تغزِل وتبرم كانت الوحوش المسعورة تفرُّ من أمامها، فتغوص وتنفخ وتنخُرُ عندما تطفو لتعود إلى الغوص ثانية. لكن مع ذلك، أخذت كل غطسة تقصر عن سابقتها، وصارت الاختراقات الملتفَّة لسطح الماء أكثر تكررًا، فقد فرغت رئاتها وما عاد بمقدورها ملؤها بالكامل قبل أن تنقضَّ السفن المُطارِدة عليها وتجبرها على الغوص من جديد. وطيلة ذلك الوقت، ظلت الصنوج البرونزية في بروج كواثل السفن تدوِّي لتمتزج مع صيحات المجذِّفين وتنبيهات قادة الدفات. ذاب كل شيء في جعجعة وبلبلة جنونيتين، ووجدتُ نفسي أصرخ وأهلل جنبًا إلى جنبٍ مع أشد الرجال تعطشًا للدماء.

كان تانوس قد ركَّز اهتمامه كله على أول الفحول وأضخمها، فتجاهل الإناث والحيوانات الأصغر التي أخذت تظهر ضمن مرمى السهام، ولحق بالوحش العظيم في كل التواءاته، مقتربًا منه بعناد كلما طفا على السطح. وحتى في فيض حماستي، لم يسعني إلا استبداع المهارة التي أدار بها تانوس *أنفاس حورس*، واستجابة أفراد طاقمه لإشاراته. لكنه من ناحية أخرى، لطالما تمتعَ بمَلَكة استخراج أفضل ما في جنوده، وإلا فكيف استطاع، بلا ثروة ولا وليٍّ عظيم يسنده، الارتقاء بهذه السرعة إلى هذه الرتبة الرفيعة؟ لقد حقق ما حققه بكفاءته الخاصة، وهذا على الرغم من الأثر الخبيث لأعدائه المتخفِّين الذين زرعوا طريقه بكل ضروب العقبات.

شقَّ الفحل فجأة سطح الماء على بُعد أقل من ثلاثين خطوة من الجؤجؤ، وخرجَ يتلألأ في شعاع الشمس، هائلًا وأسودَ ومروِّعًا، وسحبٌ من بخار فاجر تتفجَّر من منخريه كمخلوق العالم السفلي ذاك الذي يلتهم قلوب من تراهم الآلهة غير أكفاء[1].

كان تانوس قد أوتر سهمًا ثم رفع القوس العظيم وأطلقه في اللحظة الخاطفة نفسها، فعزف لاناتا موسيقاه المهيبة البرَّاقة، وهجم السهم في غشاوة تخدع الأبصار. وبينما كان يهسُّ في طيرانه لم يزل، تبعه آخرُ ثم ثالث،

(1) إشارة إلى أمِّت أو أمُت المعروفة باسم آكلة الموتى، وهي كائن خرافي يظهر في الأساطير المصرية القديمة مزيجًا بين رأس تمساح وجسد أسد وفرس نهر. (المترجم).

وهمهم وتر القوس كوتر العود. أصابت السهام هدفها، الواحد تلو الآخر، فجأر الثور عندما دفنت نفسها بكامل طولها في ظهره الرَحب، وغاص ثانيةً.

كانت تلك السهام خوازقَ[1] ابتكرتُها خصوصًا لهذه المناسبة، فاستبدلت بالذيول المريّشة عوامات دقيقة من خشب التِّبلدي كالتي يستخدمها الصيادون لتعويم شباكهم، وركّبتها لتنسلَّ عن عقب السهم بطريقة تجعلها ثابتة في أثناء الطيران لكنها تتخلخل حالما يغوص الوحش ويجرها عبر الماء. وكنتُ ربطتها بالسِّنان البرونزي بخيط كتانٍ رفيع لففته حول العقب، لكنه ينكشف حالما تنفصل العوّامات، لذا في تلك اللحظة، وبينما ينطلق الوحش مبتعدًا تحت الماء، ظهرت العوامات الدقيقة الثلاث فوق السطح وأخذت تتذبذب خلفه. وكنتُ قد طليتها بلون أصفر فاقع لتجذب الأنظار إليها وينكشف موقع الفحل مباشرة ولو كان في عمق البحيرة.

وهكذا تمكن **تانوس** من ترقب كل انقضاضات الفحل الجامحة، ومن إرسال ***أنفاس حورس*** مسرعة لتسبقه وتزرع مجموعة أخرى من السهام عميقًا في الظهر الأسود اللامع كلما خرج من المياه. بحلول هذا الوقت، صار الفحل يجرُّ مجموعة من العوامات الصفراء الجميلة خلفه، وصارت المياه تتخضَّب وتدوِّم بأحمر دمائه. وعلى الرغم من مشاعر اللحظة العنيفة، لم يسعني إلا الإشفاق على المخلوق المنكوب كلما بزغ إلى السطح يجأر تلاقيه زخَّة أخرى من السهام الهاسّة الفتّاكة. لكن مولاتي الصغيرة لم تشاركني تعاطفي، بل كانت عالقة في لجّة الاشتباك تزعق جرَّاء الرعب اللذيذ وحماسة الأمر كله.

مرة ثانية، خرج الفحل أمامنا مباشرة، لكن بمواجهة ***أنفاس حورس*** المنقضة عليه هذه المرة، وانفرج فكّاه انفراجًا واسعًا حتى إنني تمكنتُ من رؤية قعر حلقه. كان قناة من اللحم الأحمر الفاقع يمكنها ابتلاع رجل كامل بسهولة، وكان فكاه مبطنين بصف أنياب جمَّد أنفاسي ودبَّ في جلدي القشعريرة. برزت أنياب فكّه السفلي مناجل عاجية هائلة مصممة لحصاد القصبات المتينة والقوية من البردي المنتصب، ونتأت أنياب العلوي رماحًا بيضاء لامعة بثخانة معصمي يمكنها قضم أخشاب هيكل ***أنفاس حورس*** بسهولة قضمي كعكة من دقيق الذرة. كنتُ حظيت مؤخرًا بفرصة معاينة جثة فلاحة أزعجَت -في أثناء قصّها البردي على ضفة النهر- أنثى فرس نهر وَلَدَتْ

(1) الخازق: السنان النافذ. (المترجم).

من توِّها عجلًا، وشُطِرَتْ نصفين بدقة شديدة جعلتها تبدو كأنما قد ضُرِبَتْ بأشد النصول البرونزية بترًا.

صار هذا الهولة الهائج بشدقيه العامرين بتلك الأسنان البراقة منقضًّا علينا، وعلى الرغم من أنني في برج الكوثل المرتفع وبعيد عنه أقصى بعد ممكن، وجدتُ نفسي عاجزًا عن التصويت أو الحركة عجز تماثيل المعبد. تخشبتُ فزعًا.

أطلق **تانوس** سهمًا آخر حلَّق مباشرة إلى مؤخر الحلق الفاغر، لكن عذاب المخلوق كان فظيعًا إلى درجةٍ بدا معها كأنه لم يلحظ هذه الإصابة الإضافية، وإن ثبت في آخر الأمر أنها قاتلة. انقض بلا تمهُّل أو تردد مستقيمًا على جؤجؤ ***أنفاس حورس***، وفاض من الحلق المُلوَّع جوار حنق وألم قاتل مخيف، ذلك أن شريانًا تمزق في عمقه، وأرسل قطرات دم تترشش من شدقيه المنفرجين. استحال الدم المتفجر سحبًا من غشاوة حمراء تحت أشعة الشمس، جميلة ومُروِّعة في الآن نفسه، ثم اصطدم الفحل رأسيًا بجؤجؤ سفينتنا.

كانت ***أنفاس حورس*** تمخر الماء بسرعة غزال يعدو، لكن الوحش فاقها سرعةً في غضبته، وبدا جسمه متينًا متانةً أشعرتنا أننا جنحنا فوق شاطئ صخري. طار المجدفون ناشرين أطرافهم من مقاعدهم، في حين قُذِفْتُ إلى سور برج الكوثل بعزمٍ بلغ من الشدة أنه أفرغ رئتي من الهواء وأبدل به صخرة صماء من الألم في صدري.

وحتى في خضم ضائقتي الشخصية، كان قلقي كله منصبًا على مولاتي، إذ رأيتها من بين دموع الألم تطوَّح بفعل التصادم، ومد **تانوس** ذراعه محاولًا إنقاذها، لكنه كان مختل التوازن كذلك، وأعاقه القوس في يسراه. لم يتمكن إلا من كبح اندفاعها للحظة، ثم أخذت بعد ذلك تتأرجح على السور ويداها ترفرفان بيأس، وظهرها متقوِّس جراء السقطة.

صرختْ: «**تانوس**!»، ومدتْ يدًا ناحيته، فاستعاد توازنه وحاول بخفة بهلوان إمساك يدها. تلامست أصابعهما للحظة، ثم بدا أنها سُحبت بعيدًا وسقطت عن الجانب.

تمكنتُ من موقعي المرتفع في الكوثل من رؤية سقطتها، إذ انقلَبت في الجو مثل قطة، وماجَت تنورتها البيضاء وارتفعت لتكشف عن الطول الفاتن لفخذيها. بدا لي أنها سقطت سقطة نهائية، وامتزجت صيحتي المكروبة بعويلي اليائس.

صرختُ: «طفلتي! صغيرتي!» ذلك أنني كنتُ واثقًا أنها هلكتْ. شعرتُ أن حياتها بأكملها، كما عرفتُها، تعيد نفسها أمام عيني، فرأيتها ثانية طفلة دارجة، وسمعت التوددات الطفولية التي كانت تسبغها عليَّ، مربِّيها المحب. رأيتها تكبر لتصير امرأة، وتذكرت كل ما أنزلته بي من اغتباطات وآلام في القلب، وأحببتها آنذاك في لحظة فَقْدِها أكثر حتى من حبي لها في تلك السنوات الأربع عشرة الطويلة.

سقطَتْ على ظهر الفحل الثائر العريض الملطخ بالدم، وللحظة، تمددتْ فوقه ناشرةً أطرافها كأضحيَّة بشرية على مذبح ديانة ما سافلة. دار الوحش في مكانه، وارتفع عاليًا في الماء، ثم لوى رأسه الضخم البشع إلى الخلف محاولًا بلوغها، فتأججت عيناه النهمتين المضرَّجتين بجنون ثائرته، وبينما تلاطم فكَّاه العظيمين كان يهمُّ بنهشها.

بطريقة ما، تدبَّرَت لوستريس جمع شتات نفسها والتشبث بزوجٍ من جذوع الأسهم الناتئة من ظهره الواسع كالمقابض، وتمددت ناشرةً ذراعيها وساقيها. لم تعُد تصرخ، وصارت كل حيلتها وقوتها مسخَّرة للبقاء على قيد الحياة. بينما رنَّت تلك الأنياب العاجية العقفاء فوق بعضها كنصال محاربين متبارزين كانت تنهش الهواء، وعند كل عضة، بدا أنها تخفق في القبض عليها بما لا يُجاوز عرض إصبع، وتوقعتُ في أي لحظة أن يُقصَم أحد أطرافها المليحة مثل غصن دالية هش، وأن أرى دمها الحلو الشاب يمتزج بتلك السيول البهيمية المتدفقة من جروح فرس النهر.

استعاد تانوس توازنه في الجؤجؤ بسرعة، وللحظة، رأيتُ وجهه وكان مُفزِعًا. ثم ألقى القوس التي لم تعُد نافعةً إياه جانبًا، وقبض بدلًا منها على نِصاب سيفه هازًّا نصله حتى حرره من غمده المصنوع من جلد التمساح، وبرزت قطعة براقة من البرونز بطول ذراعه شُحِذَتْ حوافها حتى صار بوسعها حلاقة شعر ظهر يده.

وثب على شفير المركب وتوازن فوقه للحظةٍ يراقب التفافات الفحل المصاب بجروح قاتلة في الماء من تحته، ثم قذف نفسه وهبط كبازيٍّ منقضٍّ حاملًا سيفه بكلتا يديه وسنُّه موجَّهًا للأسفل.

نزل على رقبة فرس النهر الغليظة، وحط بساقين منفرجتين حولها كأنه موشك أن يمتطيه إلى العالم السفلي. كان وزن جسمه بأكمله، وزخم القفزة الجامحة، يدفعان السيف عندما طعن به، فغاص نصف النصل في عنق فرس

النهر عند قاعدة جمجمته، ومن مجلسه فوقه مثل خيَّال، كافح **تانوس** وأعملَ البرونز الحادَّ أكثر مستخدمًا كلتا ذراعيه وقوة تلكم الكتفين العريضتين. ثم، ومع نخسة النصل، صار الفحل مسعورًا، فبدت مقاومته حتى تلك اللحظة واهية بالمقارنة بهذه الفورة الجديدة، إذ رفع معظم جسده الهائل خارج البحيرة، مُؤرجحًا رأسه يمنة ويسرة، وملقيًا صفائح متماسكة من الماء عاليًا في الجو حتى إنها تكسرت على متن السفينة وحجبت -مثل ستارة- المشهد تقريبًا عن بصري المذعور.

راقبتُ في خضم كل ذلك الثنائي يتخبط على ظهر الوحش بلا رحمة، ثم انقصم جذع أحد السهام التي كانت **لوستريس** متشبثة بها، وكادت تُقذف بعيدًا، ولو حدث ذلك، لمزقها الوحش بلا ريب وقطَّعها إلى مِزَقٍ دامية بتلك الأنياب العاجية، بينما مد **تانوس** جسده للخلف وقبض عليها مثبتًا إياها بيسراه، لم تتوقف يمناه عن إعمال النصل البرونزي أكثر في قفا عنق الفحل.

لعجز فرس النهر عن بلوغهما، شقَّ خاصرتيه بنفسه، مُنزلًا بجنبيه جراحًا فاغرة فظيعة إلى درجة أن الماء في محيط خمسين خطوة من السفينة اصطبغ بلون الدم، وطلَّت الدماء المتفجِّرة كلًّا من **لوستريس وتانوس** بالقرمزي من رأسيهما إلى أخامص أقدامهما، فاستحال وجهاهما إلى قناعين مشوَّهين تلمعُ من داخلهما عيناهما البيضاوان.

كانت سكرات الموت العنيفة للوحش قد حملتهما بعيدًا عن جانب السفينة، وكنتُ أول من استعاد سلامة عقله على متنها، فصحتُ بالمجدِّفين: «اتبعوهما! لا تسمحوا لهما بالابتعاد»، ووثبوا إلى مواقعهم مرسلين ***أنفاس حورس*** إلى المطاردة.

في تلك اللحظة، بدا أن سنان نصل تانوس لا بدَّ قد عثر على مفصل فقرات عنق الوحش وانسلَّ عبرها، ذلك أن الجثة الهائلة تخشَّبت وتجمدت، وانقلب فرس النهر على ظهره وأطرافه الأربعة ممدودة ومتيبسة، ثم غطس تحت مياه البحيرة حاملًا **لوستريس وتانوس** معه إلى الأعماق.

كبحتُ نحيب اليأس الذي ارتفع في حلقي، وزمجرتُ أمرًا للطاقم من تحتي: «جدِّفوا بالعكس! لا تسحقوهم! وليتوجه السبَّاحون إلى الجؤجؤ!»، وحتى أنا أجفلت من قوة صوتي وسلطانه.

توقف تقدم السفينة إلى الأمام، وقبل أن أتمكن من التفكُّر في حصافة ما أفعله، وجدتُ نفسي أتقدم حملةً من المحاربين الجِسام عبر المتن. ربما كانوا ليهللوا لمشاهدة أي ضابط آخر يغرق، لكن ليس عزيزهم **تانوس**.

عن نفسي، كنتُ قد نزعت عني تنورتي وتعريت، ولم يكُن التهديد بمئة جلدة ليحملني على فعل ذلك في أي ظروف أخرى، ذلك أنني لم أسمح إلا لشخص واحد بأن يرى الجراح التي أنزلها جلاد الدولة بي منذ عهد بعيد، وقد كان الشخص نفسه الذي أمر بإعمال سكين الخصي بي في المقام الأول. لكن الآن، وللمرة الأولى، سهوتُ تمامًا عن تشوُّه رجولتي القظيع.

أنا سباح قوي، ورغم أن هذه المجازفة ترجفني كلما تذكرتها، أعتقد حقًّا أنني ربما كنت لأغوص من فوق الجانب وأسبح عبر تلك المياه المصبوغة بالدم محاولًا إنقاذ مولاتي. لكن ما إن هيأت نفسي عند سور السفينة، حتى انفتحت المياه تحتي تمامًا وبزغ رأسان يقطران ماء ويتلاصقان كزوج قنادس في طور التزاوج. كان أحدهما أسمر والآخر أشقر، لكنَّ كليهما يطلق أكثر صوت مستبعد سمعته في حياتي، إذ كانا يضحكان، بينما يعويان ويصرخان ويبقبقان ضحكًا، كانا يتخبطان ناحية جانب السفينة، وكلاهما قابض بإحكام على ذراعي الآخر إلى درجة تيقنت معها أنهما في خطر حقيقي أن يُغرِق أحدهما الآخر.

استحال قلقي كله من فوره إلى غضب إزاء هذه الرعونة، وإزاء فكرة الحماقة الرهيبة التي كنت موشكًا أن أقترفها. ومثل أمٍّ أملَت عليها غريزتها الأولى بعد إيجاد ابنها المفقود أن تجلده بالسوط، سمعتُ صوتي يفقد كل سلطانه العميق السابق ويصير حادًّا متذمِّرًا. كنتُ لا أزال أوبخ مولاتي بكل فصاحتي الشهيرة وقتما سحَبَتْها هي و**تانوس** دزينة من الأيادي المستعدَّة من الماء إلى متن السفينة، وأقذعها قائلًا: «أيتها الهمجية الصغيرة الجامحة الرعناء! أيتها الطائشة الضئيلة الأنانية معدومة الانضباط والتفكير! لقد وعدتِني! لقد حلفتِ يمينًا على بتولة الإلهة...».

فركضت إليَّ وألقت بذراعيها حول عنقي، ثم هتفَت وهي لا تزال تبقبق ضحكًا: «أوه يا **تايتا**! أرأيته؟ أريت **تانوس** يثب لنجدتي؟ ألم تكُن تلك أنبل فعلة سمعتَ بها على الإطلاق؟ مثل بطل واحدة من أحسن قصصك تمامًا».

أهملَتْ تمامًا حقيقة أنني كنتُ قاب قوسين من القيام ببادرة بطولية مماثلة، ولم يفعل ذلك إلا زيادة انزعاجي. وأضاف إليه إدراكي المفاجئ أن

لوستريس قد فقدت تنورتها، وأن الجسد البارد المبلل الذي حشرته بجسدي عارٍ بالكامل، وأن زوج الأرداف الأنعم والأكثر اكتنازًا في مصر مكشوف أمام نظرات الضباط والرجال الوقحة.

بينما امتشقتُ أقرب درع واستخدمتها لأغطي كلا جسدينا كنت أصرخ بجاريتيها أن يجدا تنورة أخرى لها، وزادت قهقهتهما من حنقي، وحالما عدتُ أنا ولوستريس محتشمي الملبس، انقضضتُ على تانوس.

– أما عنك، أيها البربريُّ المستهتر، فسأخبر مولاي إنتف بفعلتك، وسيسلخ جلد ظهرك!

فضحك مني قائلًا: «لن تفعل شيئًا كهذا (وألقى ذراعًا مبللة مفتولة العضلات فوق كتفيَّ وضمَّني بشدة رفعتني في الجو)، ذلك أنه سيسلخك بالسعادة نفسها تمامًا. ورغم ذلك، أشكر قلقك يا صديقي القديم».

نظر حوله بسرعة وذراعه لا تزال مطوِّقة كتفي، وقطَّب حاجبيه، ذلك أن *أنفاس حورس* كانت قد انفصلت عن بقية سفن السرب، لكنَّ الصيد انتهى، وأخذت كل السفن –إلاها– حصتها الكاملة من الغنائم التي أباحها الكهنة.

هز تانوس رأسه: «لقد ضيَّعنا معظم فرصنا، أليس كذلك؟» وتخَر، ثم طلب من أحد ضباطه أن يرفع إشارة استدعاء السرب.

أجبر بعد ذلك وجهه على الابتسام: «فلنفتتح إبريق جعة معًا، ذلك أن أمامنا الآن بعض الانتظار، وقد كان ما فعلنا عملًا يدبُّ بالعطش في العروق»، وذهب إلى الجؤجؤ حيث تثير الجاريتان الجلبة حول لوستريس. في البداية، كنتُ غاضبًا إلى درجة رفضي الانضمام إلى نزهتهم المرتجلة على المتن، وحافظتُ بدلًا من ذلك على وقار متحفِّظ في الكوثل.

سمعتُ لوستريس تهامس تانوس وهي تعيد ملء كوبه بالجعة المرغية: «أوه، دعه يحرد قليلًا. لقد أصاب العجوز العزيز نفسه بفزع رهيب، لكنه سيتجاوزه حالما يداهمه الجوع، فهو يحب الطعام أيَّما حب».

إن مولاتي لخُلاصة الإجحاف، فأنا لا أحرد، ولستُ نَهِمًا، وفي ذلك الوقت كنتُ بالكاد قد بلغتُ الثلاثين من عمري، وإن كان أبناء الرابعة عشرة يرون أيَّ امرئ جاوز العشرين عتيقًا، وأعترف أنني –عندما يتعلق الأمر بالطعام– أتمتع بذوق مهذَّب لذوَّاق خبير بالفعل. كانت الإوزة البرية المشوية مع التين التي تعرضها بتباهٍ أحد أطباقي المفضلة، وهي تعرف ذلك حق المعرفة.

تركتهم يعانون فَينةً أخرى، ولم يكُن إلا حين جاءني **تانوس** شخصيًا حاملًا بيده إبريقًا من الجعة وخالبني بكلّ عذوبته أن تكرَّمتُ ولِنتُ قليلًا وسمحت له أن يسوقني إلى الناصية. ومع ذلك، ظللتُ جامد التعامل معهم حتى قبَّلت **لوستريس** وجنتي وقالت بصوت عالٍ بالحد الكافي ليسمع الجميع: «لقد أخبرتْني فتياتي أنكَ توليتَ قيادة السفنية مثل محارب قديم، وأنك كنتَ لتغوص في الماء في سبيل إنقاذي. أوه يا **تايتا**، ما الذي كنتُ لأفعله من دونك؟». فابتسمتُ لها آنذاك، وقبلتُ شريحة الإوزة التي أصرَّت بها عليَّ. كانت شهيَّة، وكانت الجعة بجودة ثلاث نخلات، لكنني اقتصدتُ رغم ذلك في أكلي، لأن عليَّ الانتباه إلى قوامي، ولأن سخريتها السابقة حيال شهيتي لا تزال تعتمل في نفسي بعض الشيء.

كان سرب **تانوس** متناثرًا فوق البحيرة الواسعة، لكنه بدأ يستعيد انتظامه، ورأيتُ أن بعض القوادس[1] الأخرى قد تكبَّد العطَب مثلنا، إذ تصادمت سفينتان في احتدام المطاردة، فيما هاجمت الطرائد أربعًا غيرها. ومع ذلك، أعادت التجمُّع بسرعة واتخذت مواقعها الحربية، ثم عبرتنا مسرعة في رتلٍ أحاديٍّ وبأشرطة من أعلام مثلثية زاهية ترفرف على قمم الصواري معلنةً حجم صيد كل قادس. أخذت الطواقم ترفع أنخابًا عند مرورها بمحاذاة *أنفاس حورس*، وحياهم **تانوس** بقبضة مضمومة ولواء التمساح الأزرق منكَّس على الصاري[2]، فقد كنا في أعين العالم بأسره كمن حقق نصرًا مفتخرًا في وجه صعاب مُخيفة. لعله استعراضٌ صبيانيٌّ، لكنْ من جهة أخرى، ما زال بي من الصبيانية ما يكفي لأستمتع بالمراسم العسكرية.

حالما انتهى الأمر، استردَّتْ سفن السرب مواقعها الحربية، وحافظت على أماكنها في مواجهة النسيم الخفيف الذي هبَّ من خلال الاستخدام الماهر للمجاديف ومجاديف التوجيه. وبالطبع، لم يظهر أي أثر لأفراس النهر الذبيحة حتى الآن، فرغم أن كل قادس قتل واحدًا على الأقل، وبعضها قتل اثنين أو ثلاثة، غاصت كل الجثث إلى الأعماق الخضراء للبحيرة. عرفت أن **تانوس** يتحسَّر في سره على حقيقة أن *أنفاس حورس* ليست السفينة الأنجح، وأن اشتباكنا المطوَّل مع الفحل قصَّر حصيلتنا عليه وحده، فهو معتادٌ التفوقَ.

---

(1) القادس: نوع من السفن المزودة بمجاديف لدفعها، نشأت في إقليم البحر المتوسط واستُخدمت في الحرب والتجارة والقرصنة منذ الألفية الأولى ق.م. (المترجم).

(2) تنكيس العلم: خفضه عن الصاري بنسبة معينة دلالةً على الاحترام أو التحية في بعض الحالات. (المترجم).

على أي حال، لم يكن على سجيته المتّقدة المعتادة وسرعان ما غادر الجؤجؤ ومضى ليشرف على صيانة بدن ***أنفاس حورس***.

كان هجوم فرس النهر قد أضرَّ بالألواح تحت المائية، فصرنا نتشرَّب من الماء ما يكفي ليتطلب الأمر تفريغًا متواصلًا لبطن السفينة بالدِّلاء الجلدية، وهي مهمة من أتفه المهام التي تلهي الرجال عن واجباتهم بصفتهم مجدفين ومحاربين، وفكرتُ في نفسي أنها يمكن تحسينها بلا شك.

لذا، وبينما ننتظر أن تطفو جثث الوحوش الميتة، أرسلتُ إحدى الجاريتين لتجلب لي سلة معدات الكتابة الخاصة بي، ثم بعد تفكير إضافي طفيف، بدأت أخطُّ فكرة لتفريغ الماء آليًّا من بطن سفينة مقاتلة في أثناء عملها، طريقة لا تتطلب جهود نصف الطاقم. كانت قائمة على مبدأ دلاء الشادوف نفسه، ورأيتُ أن رجلين قد يشغلانها بدلًا من دزينة يحملون الدلاء، كما هي الحال الآن.

عندما أتممتُ المخطط، رحتُ أتأمل في التصادم الذي سبَّب العطب الأصلي. تاريخيًّا، لطالما كانت التكتيكات المستخدمة في المعارك بين أسراب القوادس النهرية هي تكتيكات الاشتباكات البرية نفسها، إذ تتراصف السفن جنبًا إلى جنب ويتبادل المحاربون رشقات السهام، ثم تتراصُّ فيشتبكون ويركبون وينهون الأمر بالسيوف. ودائمًا ما كان القباطنة حريصين على تلافي التصادم، إذ يُعَد ذلك إهمالًا في الملاحة.

فكرتُ فجأة: «لكن ماذا لو...»، وبدأت أرسم مخططًا لقادس بجؤجؤ مُسلَّح، وحالما ترسخت الفكرة، أضفت عند مستوى سطح الماء قرنًا شبيهًا بقرن الخرتيت، يمكن نحته من الخشب الصلب ولفُّه بالبرونز، وإذا ما كان موجهًا إلى الأمام وقليلًا إلى الأسفل، فيمكنه اختراق بدن مركبة مقابلة وتمزيق بطنها. كنت مستغرقًا إلى درجة أنني لم أسمع **تانوس** يقترب من خلفي، ثم اختطف لفيفة البرديِّ مني وراح يدرسها بنهَم.

فهم من فوره بالطبع ما كنتُ بصدده، فعندما خسر أبوه ثروته، حاولتُ بكل ما في وسعي إيجاد سيد ثريٍّ يرعاه ويُدخله أحد المعابد بصفة نسَّاخ مبتدئ، حيث يكمل دراساته وتعليمه، إذ آمنتُ بحق أنه -وبإرشادي- يتمتع بكل الإمكانيات اللازمة ليتطور إلى أحد أعظم عقول مصر، وربما يصير في

زمن ما اسمًا يصطفُّ إلى جانب اسم **إمحوتب**[1] الذي صمَّم -قبل ألف عام- تلك الأهرامات الأولى المدهشة في سقارة.

لم أنجح، وهذا طبيعي ليس إلا، ذلك أن العدو الذي دمَّر حقده وكَيده أبا **تانوس** اعتزم اعتراض طريق **تانوس** نفسه. لم يكن ثمة رجل فوق الأرض يمكنه التغلب على نفوذ مُهلكٍ كهذا، لذا بدلًا من ذلك ساعدتُ **تانوس** على الانضمام إلى الجيش. وعلى الرغم من خيبة أملي وهواجسي، فقد كان هذا السلك خياره الشخصي منذ وقف منتصبًا للمرة الأولى وحمل سيفًا خشبيًّا في وجه الأطفال الآخرين في ساحة اللعب.

هتف مدهوشًا وهو يتفحَّص رسوماتي: «بحق الدمامل على أليتيْ **سِت**[2]! أنت وريشة التصميم الخاصة بك تعادلان عشرة أسراب كاملة في نظري!».

دائمًا ما يفزعني تجديف **تانوس** العرَضي باسم الإله العظيم ست، فرغم أن كلينا من أتباع **حورس**، فما زلت لا أعتقد بالإساءة الصارخة لأي عضو من مَجمَع الآلهة المصرية، وعن نفسي، فلا أمرُّ بمقامٍ من دون أن أصلي وأقدم أضحيَّة صغيرة، مهما كان الإله الذي يسكن فيه متواضعًا أو ثانويًّا. وهذا -في رأيي- تعقُّل بسيط وضمان جيد، فللمرء أعداء كافون بين بني البشر من دون أن يبحث عمدًا عن غيرهم بين الآلهة. وإنني متذلل **لِسِت** على وجه الخصوص، ذلك أن سمعته الرهيبة ترعبني، وأشك أن **تانوس** يعرف كل ذلك ويستمر بتجديفه عمدًا ليعابثني. على أي حال، سرعان ما ضاع انزعاجي في وهج ثنائه الحار.

سألني مُلحًّا: «كيف تفعل هذا؟ أنا الجندي، ورأيتُ اليوم كل ما رأيتَه، لِمَ لَمْ تمرَّ في بالي هذه الفكرة؟».

غرقنا من فورنا في نقاش وقّاد عن تصاميمي، وبالطبع، لم يكن من الممكن إقصاء **لوستريس** طويلًا، فجاءت لتنضم إلينا. كانت جاريتاها قد جففتا شعرها وأعادتا جَدله وهذبتا تبرُّجها، فصار بهاؤها مشتِّتًا للألباب، لا سِيَّما أنها وقفت بجواري وأسدلَت غير عابئةٍ ذراعًا هيفاء فوق كتفي. لم تكُن لتلمس رجلًا بهذه الصيغة في العلن أبدًا، فذلك ينتهك حدود الأعراف والعفة.

---

(1) إمحوتب: باني هرم زوسر المدرج، وأول مهندس معماري وطبيب في التاريخ، وأشهر مهندسي مصر القديمة. رُفع إلى درجة معبود بعد وفاته وصار إله الطب. (المترجم).

(2) سِت: إله الصحراء والعواصف والأجانب في الديانة المصرية القديمة، وصار في الأساطير اللاحقة إله الظلام والفوضى كذلك. (المترجم).

لكنني من ناحية أخرى لستُ رجلًا، ورغم أنها اتكأت عليَّ، فلم تفارق عيناها وجه **تانوس** قَطُّ.

يرجع استغراقها فيه إلى وقتِ تعلُّمها المشي. كانت تتعثر بإعجاب خلف **تانوس** المهيب ذي السنوات العشر، محاولةً بإخلاص محاكاة كل إشارة أو إيماءة تصدر عنه. إذا ما بصَق بصقت، وإذا ما تلفظ بشتيمة تلفظت لاثغةً بها نفسها، حتى اشتكى إليَّ بمرارة: «أيمكنك حملها على تركي وشأني يا **تايتا**؟ إنها محض طفلة!»، لكنه لا يبدي الكثير من التذمر الآن.

قاطعنا أخيرًا هتاف أطلقه الراصد في الجوْجؤ، فهُرعنا إلى الأمام ورحنا نحدق بفارغ الصبر إلى أرجاء البحيرة. أخذت جثة أول فرس نهر تطفو على السطح؛ ظهرَ بطنها أولًا، ذلك أن الغازات في أمعائها تمددت ونفخت الأحشاء كنُفّاخة[1] طفلٍ مصنوعة من مثانة معزة، ثم جعلت تهتزُّ على سطح الماء وأطرافها كلها ممدودة متخشبة، وأسرع أحد القوادس إليها ليستردَّها. اندفع بحار متسلقًا الجثة وربط حبلًا بإحدى أرجلها، وحالما تم ذلك، قَطَرَهُ القادس إلى الشاطئ البعيد.

بدأت الجثث الضخمة تظهر في كل مكان من حولنا، وأخذت القوادس تجمعها وتنطلق بها بعيدًا. ربط **تانوس** اثنتين منها إلى مَرَسَة[2] كوثلنا وانكبَّ المجدفون على مجاديفهم بكل قوتهم ليجرُّوها عبر الماء.

عندما اقتربنا من الشاطئ، ظلَّلتُ عينيَّ تحت أشعة الشمس المائلة ورحتُ أحدق أمامنا. بدا أن كل رجل وامرأة وطفل في **مصر العليا** ينتظر على الضفة، إذ حضر جمعٌ غفير، وأخذوا يرقصون ويغنون ويلوحون بسعف النخيل مرحبين بالأسطول المقبل، كأن الحركة المضطربة لأثوابهم البيضاء موجات نوٍّ تتكسر على حافة البحيرة الرائقة.

حالما اصطفَّت القوادس كلها بمحاذاة الضفة، خاضت فرقٌ من رجال لا يلبسون إلا أقصر الوزرات في الماء حتى آباطهم ليوثقوا الحبال بالجثث المنتفخة، وغفلوا في لجة حماستهم عن التهديد القائم دائمًا بوجود تماسيح كامنة في المياه الخضراء الكمداء. تفترس هذه التنانين الكاسرة مئات البشر

(1) النُّفّاخَةُ :لعبة للأطفال مَطّاطةٌ ينفخون فيها فتنتفخ. (المترجم).

(2) المَرَسَة: الحبل، وأمراس المركب أطنابه أو حباله. (المترجم).

كل عام، وتبلغ بها الجسارة أحيانًا أن تهاجم اليابسة وتقبض على طفل يلعب قرب حافة المياه أو فلاحةٍ تغسل الملابس أو تجلب الماء لعائلتها.

لكن هؤلاء الناس الآن، وفي خضمِّ الجوع العظيم للحم الذي استبدَّ بهم، لم يكونوا مهتمين إلا بشيء واحد، فقبضوا على الحبال وطفقوا يجرون الجثث إلى الشاطئ. وعندما انزلقَت إلى الضفة الموحلة، أبطأت عشرات الأسماك الفضية الضئيلة التي كانت تقصفُ على الجراح المفتوحة في إرخاء قبضتها وسُحبت مع الجثث، فتبعثرت على أوحال الضفة وأخذت تتخبط وترتعش مثل نجوم سقطت على الأرض.

تزاحم رجال ونساء يحملون سكاكين أو فؤوسًا تزاحُمَ النمل على الجثث. وفي هذيان طمعهم، أخذ بعضهم يعوي ويزمجر على بعض كالنسور والضباع حول صيدة أسد، بينما يتنازعون على كل قطعة جيدة من اللحم ينهالون على الجثث الهائلة تقطيعًا، وتتطاير الدماء وشظايا العظام في جداول من النصال المُعمَلة فَرمًا وتقديدًا. اصطفَّت أمام المعبد في ذلك المساء طوابير طويلة من الجرحى المنتظرين معالجة الكهنة لأصابعهم المبتورة وجراحهم التي بلغت العظام حيث انسلَّت النصال المستهترة.

وأنا انشغلتُ نصف الليلة أيضًا، ذلك أن لي في بعض الأوساط سمعة طبيب معالج تفوق سمعة كهنة **أوزيريس** حتى، ولا بدَّ لي من الاعتراف بكل تواضع أن هذه السمعة مستحقة تمامًا، ويعلم **حورس** أن أجوري معقولة أكثر بكثير من أجور رجال الدين. ولأن مولاي **إنتف** يسمح لي بالاحتفاظ بثلث ما أكسبه لنفسي، صرت رجلًا يتمتع ببعض الثروة، بصرف النظر عن مكانتي العبديَّة.

وقفت على برج كوثل ***أنفاس حورس*** أشاهد مسرحية الهشاشة البشرية الصامتة التي تجري تحتي. عادة ما يُسمح للعوام بملء بطونهم من لحوم الصيد على صدر الشاطئ، شريطة أن لا يُحمل شيء من الغنائم إلى مكان آخر. وبمعيشتنا على هذه الأرض الوارفة التي يخصبها النهر العظيم ويرويها، يتغذى شعبنا خير تغذية، لكن النظام الغذائي الثابت للطبقات الفقيرة هو الحبوب، وقد تمرُّ شهور بين آخر قضمة لحم قضموها وتاليتها.

إضافةً إلى ذلك، كان الاحتفال وقتًا تُنحّى فيه كل الضوابط الاعتيادية للحياة اليومية جانبًا، وتُمنح رخصة بالتمادي في كل الحاجات الجسمانية، في الأكل والشرب والشغف الشهواني. سيمتلئ الصباح بالبطون الأليمة

والرؤوس المصدوعة والاتهامات الزوجية، لكنه اليوم الأول من المهرجان وليس ثمة من رادع لأي اشتهاء.

ابتسمتُ وأنا أراقب أمًّا عاريةً حتى خصرها ومكسوة من رأسها إلى أخمص قدميها بالدم والشحم، تخرج من تجويف بطن فرس نهر قابضةً على كتلة سيَّالة من كبده وترميها إلى أحد سلَّاتها في جمهرة الأطفال المتدافعين الزاعقين المحيطين بالجثة، ثم بينما غطست عائدةً إلى جوف الوحش انطلق الطفل قابضًا على جائزته إلى إحدى مئات نيران الطبخ المشتعلة على الشاطئ. كان له أخ أكبر انتزع قطعة الكبد منه وألقاها على الجمر، في حين تزاحمت في الأمام زمرة من قنافذ البحر الصغيرة نافدة الصبر تريِّل كالجراء.

التقط الطفل الأكبر الكبد -الذي بالكاد لفحته النار- بغصن أخضر، وانهال عليه إخوته وأخواته فالتهموه، وحالما استُهلك راحوا ينبحون طالبين المزيد، والدُّهن والعصارة تسيل على وجوههم وتقطر من ذقونهم. من المرجح أن الصغار لم يتذوقوا لحم أبقار النهر الشهي من قبل. إنه لذيذ وغض وناعم الملمس، لكن شحمه أهم ما فيه، إذ إنه أغزر شحمًا من لحم الأبقار أو الحمير البرية المخططة؛ ولبُّ عظامه له لذةٌ حقَّة تليق بالإله العظيم **أوزيريس** نفسه. كان شعبنا يتضوَّر جوعًا للشحم الحيواني، وقد أصابهم مذاقه بالجنون، فأصابوا أنفسهم بالتخمة، وهذا حقهم في هذا اليوم.

كنت قانعًا بالانعزال عن هذه الغوغاء الخليعة، وسعيدًا بمعرفتي أن حُجَّاب مولاي **إنتف** سيؤمِّنون أحسن قطع اللحم وألباب العظام لمطابخ القصر حيث سيجهز الطباخون طبقي الخاص أحسن تجهيز. إن أفضليتي في أسرة الوزير تفوق الآخرين جميعهم، حتى القهرمان[1] أو قائد حرسه الشخصي، وكلاهما من الأحرار. بالطبع، لا يُحكى في الأمر جهارًا أبدًا، لكنْ يعترف الجميع ضمنيًا بمنصبي الممتاز والمتفوق، وقلة منهم تجرؤ على تحدِّيه.

رحت أشاهد الحجَّاب ينطلقون لحصاد حصة مولاي، الحاكم والوزير الأعظم لكُوَر[2] **مصر العليا** الاثنتين والعشرين كلها. أخذوا يلوِّحون بهراواتهم

---

(1) - القهرمان: القائم والوكيل والحافظ لما تحت يده، وهي كلمة فارسية تعني أمين الملك أو القائم بأمور الرجل. (المترجم).

(2) كورة: جمعها كُوَر، لفظة عربية استُخدمت بعد دخول العرب إلى مصر للتعبير عن المقاطعة أو الإقليم (وكانت اللفظة الإغريقية المستخدمة قبلًا: نوم). (المترجم).

بخبرتهم المولودة من طول الممارسة، ضاربين أي ظهر بادٍ أو زوج أرداف عارية تضع نفسها موضع الهدف في حين يصيحون بمطالبهم.

كانت أسنان أفراس النهر العاجية مِلكًا للوزير، وجمَعها الحجَّاب كلها بلا استثناء، فقيمتها تعادل قيمة أنياب الفيلة التي تجلبها التجارة من أراضي كوش وراء الجنادل، ذلك أن آخر فيل في مِصرنا قُتِلَ قبل ألف عام تقريبًا، في عهد أحد فراعنة الأسرة الرابعة، أو هذا ما تتبجح به النصوص الهيروغليفية على ألواح معبده. بطبيعة الحال، كان مُنتظرًا من مولاي أن يمنح عُشر جنى الصيد لكهنة حابي، لأنهم الرعاة الاعتباريون لقطيع أبقار النهر الخاص بالإلهة، غير أن تحديد مقدار هذا العُشر بيد سيدي، وعرفت، وأنا المسؤول العام عن حسابات القصر، أين سينتهي الأمر بحصة الأسد من الكنز، فمولاي إنتف لا يتمادى في سخاء غير ضروري، حتى في سبيل إلهة.

أما عن جلود أفراس النهر، فهي ملك للجيش تُصنع منها الدروع الحربية لضباط أفواج الحرس، لذا أشرف ضباط إمداد الجيش على سلخها ومعالجتها، وكانت كل منها بحجم خيمة بدويَّة.

وعن اللحوم التي لم تُستهلك على الضفة، فتُخلَّل في ماء مالح أو تُدخَّن أو تُجفف، ويُزعم أنها تُخصص لإطعام الجيش ورجال المحاكم والمعابد وغيرهم من الموظفين المدنيين في الدولة، لكن ما يجري عمليًّا هو أن جزءًا كبيرًا منها يُباع سرًّا، وتتسرَّب العائدات بصورة طبيعية تمامًا إلى خزائن سيدي، فكما قلت سابقًا، سيدي أثرى الرجال في المملكة العليا بعد الفرعون نفسه، ويزداد ثراءً كل يوم.

اندلعت قلقلة جديدة من خلفي واستدرتُ بسرعة لأرى أن سرب تانوس لا يزال قيد العمل، إذ اصطفَّت القوادس في تشكيلة المعركة، كوثلًا يحاذي الكوثل، موازية خط الشاطئ لكنها بعيدة عنه خمسين خطوة عند حافة المياه العميقة، وانتصب على سور كل منها رماة الحرابين[1] بأسلحة مستعدَّة وموجهة إلى سطح البحيرة.

فقد جذبت رائحة الدم وبقايا الذبائح التماسيح، وليس من جميع أرجاء البحيرة وحسب، بل من مسافة بعيدة تبلغ المجرى الرئيس للنيل، وجاءت متزاحمة إلى الوليمة. كان رماة الحرابين ينتظرونها، وكل جذع حربون مزوَّد

(1) الحربون: سلاح يتكون من رمح زُوِّد رأسه بخطَّافات أو كُلَّابات لمنعه من الانسلال من الفريسة بعد ضربها، ويستخدم في الصيد البحري. (المترجم).

برأس برونزي صغير نسبيًا له أسنان ضارية، وفي الرأس المعدني حبل كتان قويّ معقود في عقدة متينة.

ولرماة الحرابين أولاء مهارة مثيرة للإعجاب حقًا، فعندما تأتي إحدى تلك العظاءات المحرشفة منسلةً عبر المياه الخضراء، ترفرف بذيلها العظيم المُتوّج، وتسبح كشبحٍ طويل داكن صامت قاتل تحت سطح الماء، يكون الرامي في انتظارها، فيتركها تمرُّ من تحت القادس، ثم عندما تلوح من الطرف الآخر وبدن السفينة يحجب حركته عنها، ينحني من فوق البدن ويطعنها.

ولا تكون طعنة عنيفة، بل أقرب إلى وكزة دقيقة بعصا طويلة، ذلك أن الرأس البرونزي حاد كإبرة الجرّاح، ويُغرس بكامل طوله عميقًا تحت الجلد الثخين المحرشف للزاحف. كان الرماة يصوّبون إلى قفا العنق، وكانت هذه الطعنات تبلغ من المهارة أن العديد منها يثقب الحبل الشوكي ويقتل المخلوق مباشرة.

لكن عندما تخطئ ضربةٌ هدفها، يتفجّر الماء مع تفجُّر التمساح الجريح في تشنجات عنيفة، فتُبرَم عصا الحربون وينفصل الرأس المعدني عنها ليبقى مغروسًا في عنق الزاحف المدرَّع. ثم يشد أربعة رجال حبل الكتان ليسيطروا على تلوّيانه، وإذا ما كان التمساح ضخمًا -وبعضهم يبلغ أربعة أضعاف طول رجل متمدد على الأرض- تنطلق الحبال من البكرات مدخّنة إثر احتكاكها بحافة المركب، حارقة راحات الرجال الذين يحاولون إمساكها.

عندما حدث ذلك، توقفت حتى الحشود الجائعة على الشاطئ برهة لتهلل وتصيح بعبارات التشجيع، ولتشاهد الصراع حيث إما يخضع التمساح في آخر الأمر وإما ينفلت الحبل مثل جَلدة سوط مُسقطًا البحارة على أعقابهم فوق السفينة. كان حبل الكتّان المتين يصمد في أغلب الأحيان، فحالما يتمكن أفراد الطاقم من تدوير رأس الزاحف ناحيتهم، يصير عاجزًا عن السباحة باتجاه المياه العميقة. ثم يمكنهم جرُّه في معمعة من المياه المزبدة البيضاء إلى جانب السفينة حيث تنتظره جماعة أخرى تحمل النبابيت لتحطم جمجمته الصلبة كالصخر.

وقتما سُحبت جثث التماسيح إلى الضفة، ذهبتُ لأعاينها، وكان دبّاغو فوج تانوس قد باشروا عملهم بالفعل.

كان جدُّ ملكنا الحالي مَن منح الفوج لقب «**حرس التمساح الأزرق**» التعظيميّ وأسبغ عليه لواء التمساح الأزرق، وكانت دروع أجساد عناصره

تُصنع من الجلود المقرّنة لهذه التنانين، التي تبلغ من الصلادة بعد أن تُعالج وتُملّح -كما يجب- أن تصدَّ سهمًا أو تردَّ طعنة سيف عدو. ووزنها أخف بكثير من المعدن، ولبسها تحت شمس الصحراء أبرَد بكثير. وكانت رؤية **تانوس** في خوذته المصنوعة من جلد التمساح والمزينة بريش النعام، وصدارته المصوغة من الجلد نفسه، المصقولة والمتألقة بزُهيرات برونزية، تجعل الرعب يدبُّ في قلب أي عدو، أو التشنج في بطن أي عذراء تنظر إليه.

وبينما أقيس وأدوّن أطوال الجثث وحجومها، وأراقب الدباغين يعملون، لم أشعر بأقل تعاطف خاطف حتى ناحية هذه الوحوش القبيحة كما شعرت ناحية أبقار النهر الذبيحة، ففي رأيي، لا يوجد وحش في الطبيعة أشنع من التمساح، مع احتمال استثناء الأفعى السامة.

زاد حقدي مئة ضعف عندما شقَّ دبَّاغٌ بطن أحد أضخم هذه الحيوانات المشوَّهة، وانزلقَت منه إلى الطين بقايا مهضومة جزئيًا لبنتٍ صغيرة. كان التمساح قد ابتلع النصف العلوي من جسدها كاملًا، من الخصر فأعلى، ورغم أن اللحم قد ابيضَّ واستحال رخوًا ناصل اللون بفعل العصارات الهاضمة، وبدأ بالانسلاخ عن جمجمتها، كانت قنزعة البنت لا تزال سليمة ومضفورة وملفوفة بعناية فوق وجهها المُخيف الخَرِب. ولإضافة لمسة رهيبة أخرى، كان ثمة قلادة حول حلقها وأساور جميلة من الخزر الخزفي الأزرق والأحمر حول معصميها العظميين.

ولم تكد هذه الجثة المُروِّعة تنكشف حتى صدحت زعقة مدوية وفاطرة للفؤاد حد أنها اخترقت اصطخاب الجموع، وشقَّت امرأة طريقها بين الجنود دافعة إياهم في انطلاقها لتنهار على ركبتيها بجوار الرفات التعِسة، ثم مزقت ملابسها وراحت تندبُ بولولة التفجُّع المُفزعة.

«ابنتي! فتاتي الصغيرة!».

كانت المرأة نفسها التي جاءت إلى القصر في اليوم السابق لتُبلغ عن فقدان ابنتها، فأخبرها المسؤولون أن الطفلة على الأرجح قد اختُطفت وبيعت في سوق النخاسة بأيدي إحدى عصابات قطاع الطرق التي تروِّع الريف. كانت هذه العصابات قد صارت ذات بأس في البلاد، تجري أعمال سلبها ونهبها العاصية بوقاحة في وضح النهار وصولًا إلى بوابات المدن.

ونبه مسؤولو القصر المرأة إلى أنه لا شيء يمكنهم فعله لاسترداد ابنتها، ذلك أن العصابات خارج أي سلطان تملكه الدولة.

تبين هذه المرة أن هذا التكهُّن الأليم عارٍ عن الصحة، إذ تعرفت الأم على الحُلي التي ما زالت تزين الجثمان الضئيل المُحزن. ذاب قلبي تعاطفًا مع الأم الثكلى، وأرسلتُ جارية لتجلب جرّة خمر فارغة. ورغم أن المرأة وابنتها غريبتان عني، بينما عجزتُ عن منع عينيَّ أن تجودا بالدمع كنت أساعدها على جمع البقايا ووضعها في الجرة لدفنها دفنًا لائقًا.

عندما مضت تترنح بعيدًا بين الحشود المعربدة غير المهتمة، حاملةً الجرة مضمومة إلى صدرها، تفكَّرتُ في أنه، وبصرف النظر عن كل الطقوس والصلوات التي ستبذلها الأم في سبيل ابنتها، وحتى في الحالة بعيدة الاحتمال إذ يمكنها تحمُّل الكلفة الصاعقة لأكثر عمليات التحنيط بدائية، لن تتمكن روح الطفلة من بلوغ الخلود في الحياة الآخرة أبدًا. فليتحقق ذلك، يجب أن تكون الجثة سليمة وكاملة قبل التحنيط. كانت كل مشاعري مشغولة بالأم المنكوبة، فمن نقاط ضعفي أنني كثير التفجُّع، حتى إنني أحمل على عاتقي هموم كل بائس يعبر طريقي بأحزانه. كان من الأسهل لو أن لي قلبًا أقسى، وعقليَّة أكثر كلبيَّة[1].

وكما يحدث دائمًا عندما ينتابني الحزن أو الكرب، تناولتُ ريشتي ولفيفتي وبدأت بتدوين كل ما يجري من حولي، كل شيء من رماة الحرابين، والأم المفجوعة، وسلخ أبقار النهر والتماسيح وقِصابتها على الشاطئ، إلى السلوك السائب للرعاع القاصفين المعربدين.

كان أولئك الذين حُشوا لحمًا وأُتخموا جعةً يشخرون حيث سقطوا، ذاهلين عن ركل الذين ما زالوا قادرين على الاستواء لهم ودَوْسِهم عليهم. أما الأصغر سنًّا والأكثر مجونًا فأخذوا يرقصون ويتعانقون ويستغلون الظلام الآخذ في الهبوط والغطاء الهزيل للشجيرات القليلة وأحواض البردي المَدوسة ليستروا تناكحهم السافر. كان هذا السلوك الخليع محض عرضٍ من أعراض الضائقة التي نزلت بالبلاد كلها، وما كانت الحال لتبلغ هذا المبلغ لو ثمة فرعون قوي، وإدارة أخلاقية وسوية في كورة طيبة العظمى، فالعامة يمتثلون لمن يَعلونهم.

لكنني أخذت أدوِّن بأمانة رغم استنكاري الشديد للأمر، وهكذا مرَّت ساعة سريعة وأنا جالسٌ متربّع ومستغرق تمامًا فوق مؤخرة متن **أنفاس حورس**، أخربش وأخطط، حتى غطست الشمسُ وبدأت تخمدُ نفسها في النهر العظيم،

(1) الكلبية: أو الفلسفة التشاؤمية، مذهب فلسفي أسسه الفيلسوف أنتيستنيس في القرن الرابع ق.م، والتشاؤميون لا يثقون بوجود الخير في الطبيعة البشرية. (المترجم).

تاركةً بريقًا نحاسيًا على الماء ووهجًا دخانيًا في سماء الغرب كما لو أنها أضرمت النار في أحواض البردي.

كانت الحشود على الشاطئ تزداد خشونة وجموحًا أكثر فأكثر، ونشط عمل العاهرات. راقبت كاهنة حبٍ بدينة ووقور، تلبس حِرز دعوتها على جبهتها، وتقود بحارًا نحيلًا بنصف حجمها من أحد القوادس إلى الظلال خلف ضوء النار. أسقطت هناك ثوبها وهبطت على ركبتيها في التراب، معطية إياه زوجًا مُرتجًا من الأرداف الضخمة، فأطلق صديقنا الضئيل صيحةَ فرحٍ واعتلاها ككلبٍ يعتلي كلبته. بدأت برسم عجائب سلوكهم، لكنَّ الضوء تلاشى سريعًا واضطررتُ إلى التوقف لذاك اليوم.

حالما نحّيت اللفيفة جانبًا، أدركتُ مُجفلًا أنني لم أرَ مولاتي من قبل حادثة الطفلة الميتة، ووثبتُ واقفًا في نوبة ذعر. كيف وسعني أن أكون على هذا القدر من الإهمال؟ لقد تربَّت مولاتي تربية صارمة، تحت إشرافي، وكبرت طفلة صالحة وخلوق، مدركة تمام الإدراك الواجبات والالتزامات التي فرضتها الأعراف والقوانين عليها، ومدركة كذلك شرف العائلة الرفيعة التي تنتمي إليها، ومكانتها في المجتمع. وفوق ذلك، كانت تهاب سطوة أبيها وانفعاله بقدر ما أهابها؛ فبالطبع وثقتُ بها.

وثقت بها بقدر ما كنتُ لأثق بأي شابة أخرى قوية العزيمة في فورة أنوثتها الشهوانية الأولى في ليلة كهذه، وهي وحيدة في هذه الظلمة مع الجندي الوسيم الذي يضاهيها شهوانية والذي افتُتنت به أتم الافتتان.

لم يكُن فزعي على بتولة مولاتي الهشة، التميمة السماويَّة التي قلَّما تُندب بعد أن تُفقَد، بقدر ما كان على خطر الأذى الأشدّ الذي سيحيق بجلدي. ذلك أننا سنرجع في الصباح إلى **الكرنك** وقصر سيدي **إنتف**، حيث سيعج المكان بالألسنة الثرثارة التي ستنقل حكاية أي زلة أو رعونة اقترفها أي منا إليه.

جواسيس مولاي يتخللون كل طبقة من طبقات المجتمع وكل زاوية من زوايا الأرض، من أحواض السفن والحقول إلى قصر الفرعون نفسه. كانوا أكثر عددًا من جواسيسي حتى، ذلك أنه يملك أموالًا أكثر ليدفع لعملائه، رغم أن العديد منهم خدم كلينا بنزاهة وتشابكت شبكاتنا في مستويات عديدة. وإن ألحقت **لوستريس** العار بنا كلنا، أبيها وعائلتها وأنا، معلمها وراعيها، فسيعرف مولاي **إنتف** بذلك في الصباح، وسأعرف أيضًا.

عدوتُ من أقصى السفينة إلى أقصاها باحثًا عنها، ثم تسلقتُ برج الكوثل ومسحتُ الشاطئ بعينيّ في حال من اليأس، فلم أرَ أثرًا لها أو لتانوس، واستحث ذلك أسوأ مخاوفي.

لم أعرف من أين أبدأ البحث عنهما في هذه الليلة المسعورة، وانتبهتُ إلى نفسي أعتصر يديَّ من ألم الإحباط، فكففتُ عن ذلك من فوري. دائمًا ما أبذل جهودًا مضنية لتلافي أي مظهر من مظاهر الخنوثة، إذ إنني أمقت كثير المقت تلك المخلوقات البدينة المزهوّة المخادعة التي عانت البَتر الذي عانيتُه، ودائمًا ما أحاول التصرف كرجلٍ بدلًا من خصيٍّ.

سيطرتُ على نفسي بجهد وتصنّعتُ السحنة الباردة العازمة التي رأيتها على ملامح تانوس في وطيس المعركة، وعندئذٍ استعدتُ حصافتي وعُدتُ عقلانيًا من جديد. تأملتُ في السلوك المحتمل لمولاتي، ذلك أنني أعرفها معرفة حميمية بالطبع، وقد درّستُها لأربعة عشر عامًا برغم كل شيء. تبيَّنتُ أنها أنيقة جدًا ومدركة لرتبتها النبيلة بوقاحة تمنعها من الاختلاط بالجموع الثملة الفظة على الشاطئ، أو من الانسلال بعيدًا إلى الشجيرات لتلعب لعبة الوحش ذي الظهرين كما شاهدتُ البحار والعاهرة العجوز السمينة يفعلان، وعرفتُ أنني عاجزٌ عن نداء أحد سواي ليساعدني في بحثي، فذلك سيضمن أن يسمع مولاي إنتف بكل القصة. لذا كان لزامًا عليَّ البحث بنفسي.

إلى أي مكان خفيٍّ تركت لوستريس نفسها تنساق؟ كأي شابة في عمرها، كانت مسحورة بفكرة الحب الرومانسي، وأشك في أنها فكرت بجدية بالجوانب الأكثر عمليةً لممارسته البدنيّة قبلًا، برغم قصارى جهود هاتين الفاسقتين السوداوين الصغيرتين لتنويرها. لم تظهر أي قدر واضح من الاهتمام حتى في تقنية المسألة عندما حاولتُ تحذيرها كما يملي عليَّ واجبي، بما يكفي على الأقل لأحميها من نفسها.

أحسستُ أن عليَّ البحث عنها في مكان يرقى إلى آمالها الحسَّاسة في الحب. لو كان ظهر أنفاس حورس يحمل مقصورة لهُرعتُ إليها، لكنَّ قوادسنا النهرية صغيرة، وهي سفن مقاتلة نفعيَّة جُرِّدت لمصلحة السرعة والقدرة على المناورة، فبينما ينام الطاقم على المتن العاري، لا ينال القبطان وضباطه إلا كُنَّة من القصب تسترهم ليلًا، ولم تكُن هذه مُجهُزة في الوقت الراهن، لذا لا مكان على متن السفينة يمكنهما الاختباء فيه.

كانت **الكرنك** والقصر يبعدان سفرَ نصف يوم، وكان العبيدُ قد بدؤوا من توِّهم في نصب خيامنا على إحدى الجزر الشاطئية التي خُصصت لمنح جماعتنا الخصوصية عن دهماء[1] البشر. ومن تقصير العبيد أن يكونوا بهذا التواني، لكنهم علقوا في زحام الاحتفالات، ورأيتُ في ضوء المشعل أن بعضهم أكثر من مختل التوازن في حين يكافح في ربط حبال التثبيت الوتدية. ولم يكونوا قد نصبوا خيمة **لوستريس** الشخصية بعد، لذا فأسباب الراحة الفاخرة من بُسُط وستائر موشّاة ومفارش محشوة بالزغب وأغطية كتانية ليست متاحة للعاشقَين، إذن فأين تراهما يكونان؟

في تلك اللحظة، جذب انتباهي وهجٌ أصفر خفيف لمشعل بعيد فوق البحيرة، فثارت بديهتي من فورها، وأدركتُ -بالنظر إلى صلة مولاتي بالإلهة **حابي**- أن معبدها في الجزيرة الجرانيتية الخلّابة الصغيرة في وسط البحيرة هو بالضبط المكان الذي سيستميل **لوستريس** بلا مقاومة، ففتشتُ الشاطئ بحثًا عن وسيلة ما توصلني إلى الجزيرة، ورغم وجود أسراب من المراكب الصغيرة المشدودة إلى الشاطئ، كان المراكبيُّون يتساقطون في ثمالتهم.

ثم رأيتُ **كراتاس** على الشاطئ، تنتصب ريشات النعام على خوذته عاليًا فوق رؤوس الحشد، ووقفته الشمّاء تميّزه عنهم.

صحتُ به: «**كراتاس**!»، فنظر ناحيتي ولوح بيده. كان **كراتاس** كبير ملازمي **تانوس**، وبمعزل عني، أصلب أصدقائه العديدين، وكان بمقدوري أن أضع به ثقةً لا أجرؤ على وضعها بأيٍّ غيره.

صرختُ: «ائتني بقارب! أيَّ قارب!»، بصوتٍ مهتاج وحاد إلى درجة أنه بلغه بوضوح، وكان من شيَم الرجل أنه لا يهدر لحظة حتى في المساءلة أو التردد. مشى موسِّعًا خطاه إلى أقرب زورق على الشاطئ، ورأى نُوتيَّهُ راقدًا كجذع شجرةٍ في بطنه، فأمسكه من قفاه ورفعه رفعة واحدة ثم ألقاه على الشاطئ، ولم يتحرّك النوتيُّ قيد أنملة، بل ظل راقدًا في خَدَر النبيذ الرخيص، مَطويًا بالوضعية التي ألقاه **كراتاس** عليها. ثم أطلق **كراتاس** المركب بنفسه، وركنه بعد بضع دفعات من عصا التسيير بحذاء **أنفاس حورس**، فتشقلبت في عجلتي عن البرج وحططتُ متكومًا على نفسي في مقدمة المركب الضئيل.

(1) الدَّهْمَاءُ: عامَّةُ الناس وسَوَادُهم. (المترجم).

ناشدته وأنا أتسلَّق ساقيَّ: «إلى المعبد يا **كراتاس**! ولتمنَّ علينا الإلهة الطيبة **حابي** بأن لا نكون قد تأخرنا أكثر مما يجب!».

خطفَنا نسيم المساء الذي ملأ الشراع المثلثيّ بسرعة عبر المياه المعتمة إلى المرسى الحجري أسفل المعبد، ثم ربط **كراتاس** حبل القارب بإحدى حلقات الإرساء، وهمّ باللحاق بي إلى اليابسة، لكنني منعتُه.

قلتُ له: «لا تتبعني، لأجل **تانوس**، لا لأجلي، أرجوك».

تردد لحظةً، ثم أومأ برأسه: «سأكون منصتًا إن ناديْتِ»، واستلّ سيفه ثم قدمه إليَّ من طرف المقبض، «أستحتاج إليه؟».

هززتُ رأسي: «لن أواجه هذا النوع من الخطر. وأيضًا، خنجري معي، لكن أشكرك على ثقتك». وتركته في القارب ثم هُرعتُ إلى الحجرات الجرانيتية لمدخل معبد **حابي**.

ألقَت مشاعل الأسل في حاملاتها على أعمدة المدخل الشاهقة ضوءًا أحمر مرتعشًا بدا أنه يدب بالحياة في النقوش الغائرة على الجدران ويجعلها ترقص. حابي إحدى آلهتي المفضلة، ولأتحرى الدقة، هي ليست إلهًا ولا إلهةً، بل مخلوقٌ خنثويٌّ غريب مُلتحٍ يحوز في آن معًا قضيبًا عملاقًا ومهبلًا يعادله بالتجويف، وثديين سخيين يمنحان الحليب للجميع. هي تأليه **النيل**، وربة الحصاد، وتعتمد مملكتا مصر وكل الشعوب فيهما اعتمادًا تامًّا عليها وعلى الفيضان الدوري للنهر العظيم الذي هو ذاتها الثانية. يمكنها تغيير جنسها، أو -كالعديد غيرها من آلهة مصرنا- اتخاذ شكل أي حيوان تشاء، وتجليها المفضلة هو فرس النهر. وبصرف النظر عن جنسانية الربة المبهمة، دائمًا ما تعدها مولاتي **لوستريس** أنثى، وأنا كذلك، وقد يخالفنا كهنة **حابي** هذا الرأي.

كانت صورها على الجدران الحجرية هائلة وأمومية، ولأنها مطلية بالألوان الأساسية المتَّقدة، الأحمر والأصفر والأزرق، أشعَّت برأس بقرة نهر عطوف يبدو أنها تدعو كل الطبيعة إلى الخصوبة والتكاثر. ولم تكن هذه الدعوة ملائمة لقلقي الراهن البتة، إذ عراني الفزع أن تكون وصيَّتي الثمينة تستغلُّ سماح الإلهة في هذه اللحظة.

رأيت كاهنة راكعةً إلى المذبح الجانبي، فهُرعتُ إليها وأمسكتها من حاشية ردائها وجذبته بعجالة قائلًا: «أيتها الأخت المقدسة، أخبريني، أرأيتِ السيدة

لوستريس ابنة الوزير الأعظم؟». لم يكُن ثمة إلا قلة قليلة من المواطنين لا تعرف مولاتي شخصيًا في مصر العليا، وقد أحبها الجميع لجمالها وروحها المشرقة وعريكتها الطيبة، وكانوا يحتشدون من حولها ويهللون لها في الشوارع والأسواق إذا ما مشَت بينهم.

عبست الكاهنة فيَّ بوجهٍ مجعّد وفمٍ أدرد، ووضعت إصبعًا عجفاء على جانب أنفها مع نظرة خبيثة وخبيرة تؤكد أسوأ مخاوفي.

هززتُها ثانية، لكن بلطف أقل: «أين هي أيتها الأم المبجلة العجوز؟ أستحلفك أن تنطقي!». لكنها بدلًا من ذلك هزَّت رأسها ودوَّرت عينيها ناحية بوابات الحَرم الداخلي.

انطلقتُ فوق البلاط الجرانيتي وقلبي يسبق في عدوه ساقيَّ المسعورتين، لكنني استبدعت في قمة شقائي جسارة مولاتي، فرغم أنها تتمتع بحق دخول قدس الأقداس لكونها من طبقة النبلاء العليا، أيتمتع سواها في مصر كلها بالشجاعة اللازمة ليختار مكانًا كهذا لموعده الغرامي؟

توقفتُ عند مدخل الحرم. لقد صدق حدسي. كان كلاهما في الداخل، كما تهيَّبتُ تمامًا، واستحوذ يقيني الخاص فيما يجري عليَّ حتى إنني كدتُ أصيحُ جهارًا لأوقفه، ثم زجرتُ نفسي.

فقد رأيتُ مولاتي في لباس كامل، بل أكمل من عادتها، إذ سترت ثدييها ونشرَت فوق رأسها شالًا من الصوف الأزرق. وكانت راكعة أمام تمثال حابي الهائل، والإلهة تسطع من فوقها، مزينةً بأكاليل من زنابق الماء.

وكان تانوس راكعًا بجوارها، بعد أن طرح عنه أسلحته ودرعه وكوَّمها بجوار باب الحرم، ولم يعد لابسًا إلا قميصًا كتانيًا وغلالة قصيرة وينتعل صندلًا. شابكَ الثنائي أيديهما، وبينما كاد وجهاهما يُشرقان يهمسان بإجلال معًا.

دُحِضَتْ شكوكي الخسيسة، واعتراني الندم والخزي. كيف أمكنني الشكُّ في مولاتي؟ أخذتُ أنسحب بهدوء، وإن كنتُ لا أنوي تجاوز المذبح الجانبي، حيث سأقدم شكري للإلهة على حمايتها، ومن حيث يمكنني مراقبة الإجراءات الإضافية بحذر.

لكن في تلك اللحظة، نهضت لوستريس واقفةً ودنَت من تمثال الإلهة بخجل، وسحرتني بهاؤها البتَّاتي حدَّ أنني تلكأت لحظة إضافية لأراقبها.

ثم حلّت من حول عنقها مُجسّم الإلهة اللازوردي الذي صنعته لها، وأدركتُ بغُصّة أنها موشكة على تقديمه أضحيةً. كنتُ قد صنعت لها هذه الجوهرة بكل حبي، ومقتتُ رؤيتها تغادر رقبتها. وقفتْ بعد ذلك على رؤوس أصابعها وعلقته حول عنق الصنم، ثم بينما ركعت وقبّلت القدم الحجرية كان **تانوس** يشاهد ولا يزال راكعًا حيث تركْته.

ثم نهضتْ واستدارتْ لترجع إليه، لكنها رأتني آنذاك في المدخل. حاولتُ التلاشي في الظلال، فقد كنتُ مُحرجًا من تلصُّصي على لحظة بهذا القدر من الحميمية، لكن الغبطة أضاءت وجهها قبل أن أتمكن من الهرب، وركضت إليَّ فأمسكت بيديَّ.

قالت: «أوه يا **تايتا**، كما أنا سعيدة أنك هنا، أنت دون الجميع! هذا ملائم جدًّا، ويجعل الأمر كله في غاية المثالية»، ثم ساقتني إلى مقدمة الحرم ونهض **تانوس** وجاء مبتسمًا ليأخذ بيدي الثانية، وقال: «شكرًا لحضورك، أعرفُ أن بوسعنا الاعتماد عليك دائمًا». تمنيتُ لو أن دوافعي كانت بالنقاء الذي يظنان، لذا حجبتُ وجداني المذنب عنهما بابتسامتي المحبَّة.

أمرتني **لوستريس**: «اركع هنا! هنا، حيث يمكنك سماع كل كلمة يقولها أحدنا للآخر. ستشهد علينا أمام **حابي** وكل آلهة مصر»، وكبستني حتى نزلتُ على ركبتيَّ ثم عادت و**تانوس** إلى مكانيهما أمام الإلهة وأمسك كل منهما بيد الآخر، ناظرًا في عينيه تمامًا.

نطقت **لوستريس** أولًا هامسةً: «أنتَ شمسي. يومي مظلمٌ من دونك».

فأجابها **تانوس** بهدوء: «أنتِ نيلُ قلبي. مياه حبكِ تروي روحي».

- أنتَ رجلي، في هذا العالم وكل العوالم التالية.

فقال **تانوس** بصراحة ووضوح، ورجّعت الأروقة الحجرية صدى صوته: «أنتِ امرأتي، وأعاهدك على الحب. أقسم لك عليه بأنفاس **حورس** ودمائه».

فبكت **لوستريس**: «أقبل عهدك وأردُّه لك مضاعفًا مئة ضعف. لا يمكن لأحد أن يحول بيننا أبدًا. لا شيء يمكنه تفريقنا. نحن واحد، إلى أبد الدهر».

وقدمَت وجهها لوجهه فقبّلها، قبلةً شديدة ومديدة كانت بحسب علمي أول قبلةٍ يتبادلها الزوجان على الإطلاق، وشعرتُ بالامتياز لشهودي لحظة حميمية كهذه.

عندما تعانقا، غادرَت ريح باردة مفاجئة البحيرة ودارَت عبر أروقة المعبد خافتة الإضاءة مرجفةً ألسنة لهب المشعل، فتشوَّش وجها العاشقَين للحظة أمام عيني وبدت صورة الإلهة تهتزُّ وترتعش. ثم عبرَت الريح بسرعة هبوبها نفسها، لكنَّ همسها حول الأعمدة الحجرية الهائلة كان أشبه بالضحكة الهازئة البعيدة للآلهة، فاقشعرَّ جسمي برهبة خرافية.

إن استفزاز الآلهة بمطالب متهورة أمر خطر دائمًا، وقد طلبت **لوستريس** المستحيل للتو. كانت تلك هي اللحظة التي علمتُ من سنوات أنها آتية، والتي تهيَّبتها أكثر من تهيّبي يوم موتي، فالعهد الذي قطعه **تانوس** و**لوستريس** لا يمكنه أن يصمد البتّة، لا يسعه الاستمرار مهما كانت مشاعرهما صادقة. وشعرت أن قلبي يتمزَّق داخلي وقتما أنهيا القبلة واستدارا عودًا إليّ.

سألتني **لوستريس** ووجهها يفيض غبطةً: «لمَ الحزن يا **تايتا**؟ ابتهج معي، فهذا أسعد أيام حياتي».

أجبرتُ شفتيّ على الابتسام، لكنني عجزتُ عن إيجاد أي كلمة تشجيع أو مباركة لهذين الاثنين، أحبُّ اثنين إليَّ في العالم بأسره. وظللتُ على ركبتيّ، حاملًا تلك الابتسامة الثابتة الخرقاء على شفتيّ، والخراب في روحي.

ثم أنهضني **تانوس** واحتضنني، وبينما يعانقني سألني: «ستكلم السيد **إنتف** نيابةً عني، أليس كذلك؟».

فضمَّت **لوستريس** توسُّلها إلى توسُّله: «أوه بلى يا **تايتا**، فسينصت أبي إليك. أنت الوحيد الذي يمكنه فعل ذلك لأجلنا. لن تخيِّبنا، صحيح يا **تايتا**؟ لم تخذلني قط، ولا مرة واحدة في حياتي. ستكلمه من أجلي، أليس كذلك؟».

ما عساي أقول لهما؟ لا يمكنني أن أبلغ من القسوة حد إخبارهما بالحقيقة المرة. عجزت عن نطق الكلمات التي ستفسد هذا الحب الغضّ الرقيق. كانا ينتظران أن أتكلم، أن أعرب عن سروري لأجلهما، وأن أعدهما بمساعدتي ومساندتي، لكن الكلام استغلقَ عليّ، وجفَّ فمي كأنني قضمتُ رمَّانة فِجَّة.

قالت: «ما الخطب يا **تايتا**؟ (راقبتُ الغبطة تذوي على مُحيَّا مولاتي الحبيب)، لمَ لا تبتهج لأجلنا؟».

قلت: «تعرفان أنني أحب كليكما، لكن...» عجزتُ عن المتابعة.

فساءلتني **لوستريس**: «لكن؟ لكن ماذا يا **تايتا**؟ لمَ تزعجني بالأعذار والوجه المكفهرّ في أسعد يوم ممكن؟».

كان الغضب يرتفع فيها، وفكّاها يتصلّبان، لكن الدموع تتجمع في الوقت نفسه في عمق عينيها: «ألا تريد مساعدتنا؟ أهذه هي القيمة الحقيقية لكل الوعود التي قطعتَها عبر السنين؟» واقتربَت منّي زاجّةً وجهها في وجهي تحديًا.

قلت: «لا تكلّميني بهذه الصيغة يا مولاتي أرجوك، أنا لا أستحق هذه المعاملة. لا، أنصتي لي! (ووضعتُ أصابعي على شفتيها لأحبط فورة أخرى)، ليست المشكلةُ فيَّ، بل في أبيك، إن سيدي **إنتف**...».

قالت: «بالضبط (وأبعدَت يدي عن فمها بصبرٍ يكاد ينفد)، أبي! ستذهب إليه وتكلمه كما تكلمه دائمًا، وسيكون كل شيء على ما يرام».

فشرعتُ أقول: «**لوستريس** (وكان استخدامي اسمها بهذا الأسلوب الحميم دليلًا على غمّي)، لم تعودي طفلة، ولا ينبغي لكِ تضليل نفسك بهذه الأوهام الطفولية. تعرفين أن أباك لن يوافقَ أبدًا...».

لم تنصِت إليّ، لم تُرِد سماع الحقيقة التي سأقول، لذا اندفعَتْ بكلمات قصدها أن تطغى على كلماتي: «أعرفُ أن **تانوس** لا يملك الثروة، أعرف ذلك. لكنْ مستقبلًا بديعًا يمتدُّ أمامه. سيقود يومًا ما كل جيوش مصر. سيخوض يومًا ما المعارك التي ستعيد توحيد المملكتين، وسأكون إلى جانبه».

- اسمعيني أرجوك يا مولاتي. ليست المشكلة في قلة ثروة **تانوس** وحسب، بل أكثر من ذلك، أكثر بكثير.

- سلالته ونسَبه إذن؟ أهذا ما يثقل عليك؟ أنت تعرفُ حق المعرفة أن عائلته لا تقلُّ نُبلًا عن عائلتنا، **فبيانكي** سيِّد **حاراب** كان ندَّ والدي وأعزَّ أصدقائه.

كانت قد أصمَّت أذنيها عني، لم تُدرك غور المصيبة التي نخوض، ولا **تانوس** أدرك، لكن من ناحية أخرى، رُبما كنتُ الشخص الوحيد في المملكة الذي يفهمها حق الفهم.

كنتُ قد حميتُها من الحقيقة طيلة هذي السنين، وبالطبع، لم أقدر على إخبار تانوس كذلك، فكيف لي أن أقسرها لها الآن؟ كيف لي أن أكشف لها عن حجم الكراهية التي يكنُّها أبوها للشاب الذي تُحب؟ تلك الكراهية المولودة من رحم الذنب والحسد، والتي تزداد حقدًا للأسباب نفسها.

لكن سيدي إنتف رجل أفّاك ومراوغ، بإمكانه حجب مشاعره عن المحيطين به، وإخفاء كراهيته وضغينته، وتقبيل الشخص الذي يوشك أن يدمره وإغداق الهدايا الثمينة والملاطفات المسكّنة عليه. كان يتحلى بصبر تمساح كامن في الطين عند منهل النهر ينتظر الظبي الغافل؛ يمكنه الانتظار لسنوات، بل حتى لعقد، لكن ما إن تفتح الفرصة أبوابها حتى يضرب بسرعة ذاك الزاحف ويجرُّ فريسته إلى القعر.

كانت لوستريس ذاهلةً ذهولًا بهيجًا عن ضغينة أبيها، حدُّ تصديقها أنه أحب بيانكي سيد حاراب، كما أحبه أبو تانوس. لكنْ من ناحية أخرى، فأنى لها أن تعرف حقيقة الأمر وقد وَقَيتُها منها على الدوام؟ كانت ببراءتها العذبة مقتنعةً أن الاعتراضات الوحيدة التي سيبديها أبوها على حبيبها هي الثروة والعائلة.

– أنت تعرفُ أنها الحقيقة يا تايتا. تانوس نبّي في قوائم النبالة، وهذا مكتوب في سجلات المعبد ليراه الجميع. كيف لأبي إنكار ذلك؟ كيف لكَ إنكاره؟

– ليس بإمكاني الإنكار أو الإقرار يا مولاتي...

– إذن ستكلم أبي من أجلنا، أليس كذلك أيها العزيز تايتا؟ قل إنك ستكلمه، أرجوكَ قلها!

لَم يسعني إلا حَني رأسي إذعانًا، وإخفاء النظرة القانطة في عينيّ.

***

كان الأسطول مُثقلًا بالحمولة في طريق عودتنا إلى الكرنك، وغاصت أبدان القوادس في الماء تحت شحناتها من الجلود الخام واللحوم المملحة، فبات تقدمنا في عكس اتجاه تيار النيل أبطأ منه في رحلة خروجنا، لكنه ظل رغم ذلك أسرع مما يحتمله قلبي المُثقل وفزعي المتعاظم.

تهلل العاشقان وجذلا بحبهما المُعلن حديثًا وثقتهما فيَّ لأزيل العقبات من طريقهما، وعجزتُ عن حمل نفسي على حرمانهما يوم الفرح هذا، لمعرفتي أنه سيكون أحد أيام الفرح الأخيرة التي سيعيشانها. أحسب أنني لو تمكنتُ من استحضار الكلمات أو استجماع الشجاعة اللازمة، لحثثتهما – في ذلك المكان والزمان– على إكمال حبهما الذي عارضتُه أيما معارضة في الليلة السابقة، ذلك أنهما لن ينالا فرصة ثانية أبدًا، ليس بعد أن أحذّر سيدي

إنتف عن طريق محاولتي المحكومة بالفشل في الوساطة لهذا الزواج. فحالما يعرف ما يوشكان أن يفعلاه، سيحول بينهما ويفرق شملهما إلى أبد الدهر.

لذا ضحكتُ وابتسمتُ بابتهاج مثلهما، وحاولتُ إخفاء مخاوفي عنهما، وكان الحب قد أعماهما حدَّ أنني نجحت، بينما في أي وقت آخر كانت مولاتي لتعلم ذات صدري من فورها، فهي تعرفني تقريبًا كما أعرفها.

جلسنا معًا في الجوْجؤ، ثلاثتنا، وناقشنا إعادة تمثيل آلام أوزيريس، ما سيكون العنوان البارز في المهرجان، فقد عهِدَ سيدي إنتف إليَّ بإدارة الحفل، ومنحتُ كلًا من لوستريس وتانوس دوريّ البطولة.

يُقام المهرجان كل سنتين، عند إشراقة بدر أوزيريس التمام. مرَّ زمان كان المهرجان فيه مناسبة سنوية، لكن نفقات الحياة الملكية واختلالها الناجمين عن النقل الاضطراري للبلاط من إلفنتين إلى طيبة كانا هائلين حد أن الفرعون أقرَّ مدة فاصلة أطول بين المهرجانات. لطالما كان فرعوننا رجلًا متعقّلًا في ما يخص ذهبه.

وفّر لي التخطيط للحفل إلهاءً ممتازًا عن المواجهة الشاخصة مع مولاي إنتف، لذا رحتُ أمرّن العاشقين على سطورهما. أوكلتُ إلى لوستريس دور إيزيس[1]، زوجة أوزيريس، في حين تولى تانوس دور حورس البطولي. كان كلاهما متسليًا كثيرَ التسلي بفكرة أن يؤدي تانوس دور ابن لوستريس، واضطررتُ إلى أن أشرح لهما أن الآلهة دائمة الشباب، وأنه من الممكن أن تبدو إلهة ما أصغر سنًّا من ذريّتها.

كنتُ قد كتبت نصًا جديدًا للحفل بدلًا من النص الذي ظل دون تغيير لألف سنة تقريبًا، فلغة النص القديم عتيقة وغير مواتية للجمهور المعاصر، وسيكون الفرعون ضيف الشرف عندما يُقدَّم الأداء في معبد أوزيريس في الليلة الأخيرة من المهرجان، لذا انشغل بالي بنجاحه أيما انشغال. وقد واجهتُ بالفعل معارضةً لنسختي الجديدة من الآلام من النبلاء والكهنة الأكثر تحفظًا، إلا أن تدخل مولاي إنتف غلب على اعتراضاتهم.

وسيدي ليس رجلًا شديد التديُّن، وما كان ليزج بنفسه في الأحوال الطبيعية في سجالات لاهوتية، لكنني أدرجتُ بضعة سطور مصممة لتسليته وتملّقه،

(1) إيزيس: إلهة رئيسة في الديانة المصرية القديمة كان أول ذكر لها في أسطورة أوزيريس حيث أحيت زوجها الملك الإلهي المذبوح أوزيريس وأنجبت وريثه حورس. (المترجم).

وقرأتها عليه مقتطعةً من سياقها، ثم نوّهت بلباقة بأن المعارضة الكبرى لنسختي مصدرها كاهن **أوزيريس** الأعلى، وهو عجوز متزمّت أحبط ذات مرة اهتمام سيدي **إنتف** بشمّاس شاب وسيم، وكان ذلك تجاوزًا لم يسامح مولاي الكاهن الأعلى عليه قطُّ.

وهكذا تقرر أن تؤدّى نسختي للمرة الأولى، فكان أمرًا جوهريًا أن يُبرز الممثلون مهابة شِعري كلها، وإلا قد تكون آخر مرة يُسمع فيها.

وكان كل من **تانوس** و**لوستريس** يحوز صوتًا خطابيًا مُدهشًا، واعتزما مجازاتي على وعدي بمساعدتهما، فقدّما لي أفضل ما عندهما، وهكذا كان الاختيار أخّاذًا والإلقاء مذهلًا حتى إنني نسيتُ نفسي لوهلة.

ثم أعادني نداء الراصد من آلام الآلهة إلى شواغلي الدنيوية الخاصة، إذ بلغ السرب آخر حنيات النهر، حيث تقبع المدينتين التوءمتين **الأقصر والكرنك**، وبينهما تقوم **طيبة** الكبرى، مترامية على الضفة أمامنا تتألق كعقد من اللآلئ في أشعة الشمس المصرية الصارخة. لقد انتهى فاصلنا الرائع، ولا بدَّ لنا من مواجهة الواقع مرة أخرى، وبينما أنهض واقفًا شعرت بانهيار معنوياتي.

- **تانوس**، عليك أن تنقلني و**لوستريس** إلى قادس **كراتاس** قبل أن نقترب أكثر من المدينة، فتبع مولاي سيرصدوننا من اليابسة، ولا ينبغي لهم رؤيتنا بصحبتك.

ابتسم لي **تانوس** وقال: «لقد تأخرت بعض الشيء، أليس كذلك؟ كان يجدر بك التفكير في ذلك قبل بضعة أيام».

وأيّدت **لوستريس** احتجاجه: «سيعلم أبي بأمرنا في القريب العاجل، وقد تسهل مهمتك إن أخطرناه بنوايانا مقدمًا».

فاكتسيتُ أصلب سحنة عندي وأكثرها استياءً قائلًا: «إن كنتما أعلمَ مني، فعليكما المضي بالأمر بطريقتكما ولن أؤدي أي دور إضافي في قضيتكما المجنونة هذه»، فتراجعا من فورهما.

أشار **تانوس** لقادس **كراتاس** أن يقترب جانبيًا. لم يكن أمام العاشقين سوى لحظات قليلة ليتودعا، ولم يجرؤا على العناق أمام أعين نصف السرب، لكنَّ النظرات وكلمات الحب التي تبادلانها أدّت الغاية نفسها تقريبًا.

لوَّحنا من برج كوثل سفينة كراتاس **لأنفاس حورس** وهي تبتعد عنا وتنطلق بمجاديفها اللمَّاعة كأجنحة اليعسوب إلى مرساها أمام مدينة **الأقصر**، في حين تابعنا طريقنا أعلى النهر إلى قصر الوزير الأعظم.

***

حالما رسونا على الرصيف البحري للقصر، أجريتُ تحقيقًا حول مكان مولاي وارتحتُ لمعرفتي أنه قد عبر النهر ليقود تفتيشًا تقرر في آخر دقيقة لقبر الفرعون والمعبد الجنائزيِّ على الضفة الغربية. كان قبر الملك ومعبده قيد البناء منذ اثنتي عشرة سنة، منذ أن اعتمر تاج المملكتين ذي الأبيض والأحمر، وقد اقترب من الاكتمال أخيرًا، لذا سيتوق الملك إلى زيارته حال انتهاء المهرجان وتفرغه له. وكان القلق يغزو مولاي **إنتف** خشية أن يخيب أمل الملك، فحارس المقابر الملكية أحد ألقاب سيدي وتشريفاته الكثيرة، وإنها لمسؤولية ثقيلة.

منحني غيابه يومًا إضافيًا أحضِّر فيه حجتي وأخطط استراتيجيتي. على أي حال، كان الوعد المقدَّس الذي استخلصه العاشقان مني هو أن أتكلم بالنيابة عنهما عند أول فرصة، وكنت أعرف أن ذلك سيكون في الصباح عندما يعقد مولاي جلسته الأسبوعية.

وحالما رأيت مولاتي وقد استكنَّت بأمان في الحريم، هُرعتُ إلى مهجعي الخاص في جناح القصر المخصص لأصحاب الوزير الأعظم المميزين.

كانت ترتيبات سيدي **إنتف** المنزلية بمستوى مكر بقية وجوده نفسه، فله ثماني زوجات، كلهن جلبن إلى سرير زواجه إما جهازًا هائلًا وإما علاقات سياسية نافذة. لكنَّ ثلاثًا فقط من هاته النساء حملن أطفاله، إذ أنجب صبيين إلى جانب سيدتي **لوستريس**.

بحسب علمي، وقد كنتُ عليمًا بكل ما يجري داخل القصر ومعظم ما يجري خارجه، لم يزُر مولاي الحريم في السنوات الخمس عشرة الأخيرة، وكان إنجاب **لوستريس** آخر مناسبة أدى فيها واجباته الزوجية، ذلك أن ميوله الجنسية تسلك مسالك أخرى، فعشراء الوزير الأعظم الخصوصيين الذين يعيشون في جناحنا من القصر مجموعة من أجمل ما يمكن إيجاده من الغلمان في المملكة العليا، حيث حلت العناية بهم في المئة عام المنصرمة

محل صيد طيور الماء والصيد البري بوصفها الشاغل المفضل لمعظم النبلاء، وهذا محض عرض آخر من أعراض الأسقام التي اكتنفت أرضنا الحبيبة.

كنتُ الأكبر سنًا في مجموعة الغلمان المختارة هذه، وعلى عكس الكثيرين ممن جاءت بهم السنون غيري، الذين ما إن بدأ جمالهم الجسماني بالزوال أو الخبو حتى أرسلهم سيدي إلى المزاد العلني في سوق النخاسة، صمدتُ. وليس لأن جمالي قد ذوى، بل العكس، فقد ازداد جاذبيةً مع نضوجي. ولا تحسبَنّي مغرورًا إذا ما ذكرت ذلك، لكنني اعتزمتُ ألا أدوّن إلا الحقيقة في هذه الحكايا، فهي استثنائية بالحد الكافي من دون أن أضطر إلى اللجوء للتواضع الزائف.

لا، قلما شغل مولاي نفسه بشأني في تلك الأيام، ويا له من تجاهل امتننتُ له حق الامتنان. وحينما كان يفعل ذلك، كان يفعله عادةً عقابًا لي، فهو مدرك تمام الإدراك الألم البدني والإذلال الذي طالما سببته ملاطفاته لي. ورغم أنني كنت لا أزال طفلًا عندما تعلمتُ إخفاء اشمئزازي وتصنُّع المتعة في الفعال المنحرفة التي أجبرني عليها، فلم أنجح في خداعه قطُّ.

وعلى نحو غريب، لم تنتقص مشاعر تقززي وبغضي لهذا الأمر الشاذ شيئًا من ملذّته البتة، بل بدا أنها تعززها، إذ لم يكن سيدي إننف رجلًا لطيفًا ولا عطوفًا، وقد أحصيت على مر السنين المئات من الغلمان الذين جُلبوا إليّ ممزقين ينتحبون بعد أول ليلة مع مولاي. كنت أطببهم وأبذل جهدي لأواسيهم، وربما هذا سبب مناداتهم لي بآخ-كير في مهاجع الغلمان، وهو اسم يعني الأخ الأكبر.

لعلّي لم أعُد ألعوبة مولاي المفضلة، لكنه ثمّنني أكثر من ذلك بكثير، فقد كنتُ أشياء كثيرة أخرى في نظره: طبيبًا وفنانًا وموسيقيًا ونسّاخًا ومعماريًا ومحاسبًا ومستشارًا ومؤتمنًا ومهندسًا ومربيًا لابنته. لستُ ساذجًا حد تصديقي أنه أحبني أو وثق بي، لكنني أظنه اقترب من ذلك في بعض الأوقات بقدر استطاعته. ولهذا أقنعتني لوستريس بمناشدته نيابةً عنها.

لم يشغل سيدي إننف شاغل في ما يخص ابنته الوحيدة إلا الحفاظ على قيمة زواجها في حدها الأقصى، وكان هذا واجبًا آخر أوكله إليّ بالكامل. كان أحيانًا لا يكلمها كلمةً واحدةً من فيضانٍ حتى تاليه، ولم يظهر أي اهتمام ملحوظ في التقارير المنتظمة التي أعددتها له عن تدريبها وتدريسها.

وبالطبع، لطالما عانيتُ الأمرَّين في إخفاء مشاعري الحقيقية تجاه **لوستريس** عنه، لمعرفتي أنه سيستغلها ضدي عند أول فرصة بلا شك. حاولت دائمًا إعطاءه انطباع أنني أرى تثقيفها والعناية بها واجبًا غليظًا أستاء بعض الشيء من فرضه عليَّ، وأنني أشاركه ازدراءه ونفوره من جنس النساء كله. لا أخاله قد أدرك قبلًا أنني، ورغم خِصائي، كنت أحمل داخلي مشاعر ورغبات رجلٍ طبيعي ناحية الجنس الآخر.

كان انصراف سيدي عن ابنته السبب الذي أغواني بين الحين والآخر، تحت إلحاح مولاتي، على خوض مجازفات مخبولة كرعونتنا الأخيرة هذه على متن *أنفاس حورس*، إذ إنه يمنحنا احتمالًا على الأقل أن ننجو بفعلتنا.

انكفأتُ مبكرًا في ذلك المساء إلى مهجعي الخاص، حيث كان همي الأول إطعام أعزائي وتدليلهم. أعشق الطيور والحيوانات، وعندي قدرة على التعامل معها تذهلني شخصيًا. كانت تربطني صداقة حميمة بدزينة من القطط، ذلك أنه لا أحد يمكنه ادعاء امتلاك قطةٍ أبدًا، بيد أنني امتلكتُ من الناحية الأخرى زمرة من الكلاب الممتازة، وكنتُ و**تانوس** نستخدمها في صيد المها وسباع الصحراء.

كانت الطيور البرية تتوافد إلى شرفتي لتنعم بحسن ضيافتي، وتتنافس بصخبٍ فيما بينها على مَجثمٍ[1] فوق كتفي أو على يدي، والجسور بينها يأخذ طعامه من بين شفتيّ. اعتاد غزالي الأليف أن يحتكَّ بساقي كإحدى القطط، وصقريْ أن يخقفقا[2] لي من مجثميهما على الشرفة. كانا صقريْ صحراء نادرين، جميلين وضاريين، وكنتُ أنا و**تانوس** -متى استطعنا- نأخذهما إلى الصحراء لنطيِّرهما خلف طيور الحباريْ العملاقة، فأبتهَج عظيم البهجة بسرعتهما وبهائهما الجوي عندما ينقضان على فريستهما. لو حاول أيٌّ أحد غيري مداعبتهما، لنال منه الحد القاطع لتلك المناقير الصفراء المعقوفة، لكنهما بين يديَّ يصيران مهادنين كالعصافير.

لم أنادِ أحد الغلمان ليجلب لي وجبة عشائي حتى انتهيت من الاعتناء بحديقة حيواني، فجلستُ في شرفتي المطلة على الامتداد الأخضر الواسع للنيل ألتذُّ بطبق السُّمَّن البري الصغير الفاخر المطهوّ بالعسل وحليب الماعز الذي أعدَّه لي كبير الطباخين خصوصًا ليرحب بعودتي إلى الديار. ومن هناك،

(1) المَجثَم: مكان جثوم الحيوان أو الطائر. (المترجم).

(2) الخقفقة: صوت الصقر الرقيق. (المترجم).

يمكنني ارتقاب عودة صندل[1] سيدي من الضفة البعيدة. ثم جاء والشمس تتقدُ على الشراع المربع الوحيد، وشعرتُ بمعنوياتي تنخسف. قد يرسل في طلبي هذا المساء، ولستُ مستعدًّا لمواجهته.

ثم غمرني الارتياح عندما سمعت راسفر، قائد حرس القصر، ينادي محظيَّ سيدي في ذلك الوقت، وهو فتى بدوي ذو عينين لوزيتين داكنتين لا يكاد يبلغ العاشرة من عمره. بعد فترة وجيزة، بينما سمعتُ الولد يحتج بصوتٍ عالي الطبقة كان يجرُّه راسفرَ من أمام بابي إلى المدخل المغطى بالستائر لمخدع الوزير الأعظم. ورغم أني سمعتها مراتٍ كثيرة من قبل، لم أقدر على تقسية نفسي في مواجهة أصوات الأطفال، وشعرتُ بغُصَّة الشفقة المعهودة. أراحني رغم ذلك أنني لم أكُن المطلوب في تلك العشية، ذلك أنني سأحتاج إلى نوم هانئ لأظهر بأبهى صورة في الصباح.

استيقظتُ قبل الفجر وشعور الجزع ما زال يثقل كاهلي، وحتى سباحتي الطقسية في مياه النيل الباردة لم تخفف منه شيئًا، فعدتُ مسرعًا إلى غرفتي حيث ينتظرني غلامان ليدهنا جسدي بالزيت ويسرحا شعري. كنتُ أمقتُ بدعة التبرُّج الجديدة بين النبلاء، فجلدي وبشرتي نقيِّين بالحد الكافي لئلا يحتاجان إليه، لكن سيدي يحب أن يتبرَّج صِبيَته، وأردتُ إسعاده في ذلك اليوم تحديدًا.

ورغم أن صورتي في المرآة البرونزية طمأنتني، لم أجد قابليةً على تناول فطوري، وكنت أول عضوٍ من حاشية مولاي ينتظر وصوله في الحديقة المائية حيث يعقد جلسته كل صباح.

بينما أنتظر اجتماع بقية المجلس، رحتُ أراقب الرفرافيات[2] المنهمكة في عملها. كنتُ قد صممتُ الحديقة المائية وأشرفتُ على بنائها، فأنتجتُ مُجمعًا عجيبًا من القنوات والبِرَك التي تفيض إحداها إلى الأخرى، وجُمعت النباتات المُزهرة من جميع أجزاء المملكة وما بعدها، فرسمت لوحة ألوان تسدر الأبصار، وزُوِّدت البرك بمئات ضروب الأسماك التي يهبها النيل لشباك الصيادين، لكنّ كان لزامًا إعادة ملئها يوميًّا نتيجة لسرقات الرفرافيات.

(1) الصندل: سفينة نقل مسطحة القاع تُستخدم في الأنهار ونحوها. (المترجم).

(2) الرفرافيات: فصيلة من الطيور تنتمي إلى الشقراقيات. (المترجم).

كان سيدي إنتف يتمتّع بمراقبة الطيور وهي تحوّم في الجو كأحجار لازوردية، ثم تنقضّ لتضرب الماء في ومضة رذاذ وترتفع ثانيةً حاملةً شُطفة فضيّة تنتفض في مناقيرها الطويلة. أحسبُ أنه كان يرى نفسه مفترسًا مثلها، صيّاد رجال، وأنه كان ينظر إلى الطيور على أنها من بني قومه. لم يسمح للبستانيين بمكافحتها قط.

انضمت إليَّ بقية المجلس بالتدريج، وكان العديد منهم أشعث ومتثائبًا من آثار النوم، أما سيدي إنتف فأحب الاستيقاظ باكرًا وإنجاز معظم أعمال الدولة قبل اشتداد حرّ النهار، لذا جلسنا ننتظر وصوله باحترام تحت أشعة الشمس الأولى.

همس الحاجب وهو يتخذ مكانه بجواري: «إنه في مزاجٍ حسنٍ هذا الصباح»، وشعرتُ بوخزة أمل ضئيلة. قد أتمكن من النجاة من العواقب الجدية لوعدي الأرعن الذي قطعته للوستريس.

ثم قام اضطراب وغمغمة بيننا عندما هب نسيم النهر من بين أحواض البردي وخرج سيدي إنتف علينا.

جاء بمشية مَهيبة وهيئة مُترفة، فقد جعله ثقل ألقابه وسلطانه متغطرسًا، وكان محيطًا عنقه بذهب الثناء، وهي قلادة من ذهب أحمر مستخرج من مناجم لوت ألبسه إياها الفرعون بيديه. سبقه مدّاحُه، القزم مجحدر الساقين الذي اختير لجسده المشوه وصوته الجهوريّ، إذ طالما تسلّى سيدي بإحاطة نفسه بالطُرَف، جميلة كانت أم بشعة، وراح القزم –متبخترًا ومتوثبًا على ساقيه المقوّستين– يترنم بقائمة ألقاب سيدي وتشريفاته.

«انظروا عماد مصر! حيوا حارس مياه النيل! انحنوا أمام صاحب الفرعون!».

كانت كلها ألقابًا منحه إياها الملك، والعديد منها يفرض عليه واجبات والتزامات معينة، فمثلًا: كان مسؤولًا بوصفه حارس مياه النيل عن مراقبة مستويات الفيضانات الموسمية للنيل وتدفقاتها، وهو واجبٌ فُوِّض بطبيعة الحال إلى العبد المخلص تايتا الذي لا يعرف التعب.

فأمضيت نصف عامٍ مع فريق من المهندسين والرياضيين العاملين تحت إمرتي، نقيس الجروف الصخرية في أسوان ونحفرها حتى يصير بالإمكان معايرة ارتفاع المياه التي تعلوها بدقة وحساب حجم الفيضان. ومن خلال

هذه الأرقام تمكنت من تقدير أشهر الحصاد مُقدمًا، ما سمح للحكومة بترقُّب كل من القحط والوفرة والتخطيط لهما. وسُر الفرعون من عملي فأسبغ المزيد من التشريفات والمكافآت على مولاي **إنتف**.

«اركعوا أمام أمير **الكرنك** وحاكم كُوَر مصر العليا الاثنتين والعشرين كلها! حيوا سيد المدينة الجنائزية وحافظ المقابر الملكية!».

وتبعًا لهذه الألقاب، كان سيدي مسؤولًا عن تصميم وبناء أضرحة الفراعنة الذين توفوا منذ زمن بعيد والذين لا يزالون أحياء، والحفاظ عليها. ومرة أخرى، أُلقِيَتْ أوزار هذه الواجبات على كتفي العبد طويل الأناة. كانت زيارة سيدي إلى قبر الفرعون البارحة أولى زيارته منذ مهرجان **أوزيريس** الماضي، وكُنت أنا من أرسِلَ في الغبار والقيظ ليلاطف المعماريين الكذابين والبنائين المتآمرين ويشتمهم. كثيرًا ما ندمتُ على السماح لسيدي بإدراك مدى مواهبي.

اختصَّني من المجموعة من دون أن يظهر ذلك، إذ لامسَت عيناه الصفراوين الحاقدتين كعيني فهد بري عينيَّ، وأمال رأسه بعض الشيء، فمشيتُ خلفه عندما مرَّ، وذُهلتُ كما أُذهَل دائمًا إزاء طوله وعرض كتفيه. كان رجلًا وسيمًا وسامة صارخة ذا أطراف طويلة رشيقة وبطن مسطح صلب ورأس أسديٍّ يزيِّنه شعر كثيف لمَّاع، وكان عمره آنذاك أربعين عامًا قضيتُ عشرين منها تقريبًا عبده.

قادنا سيدي **إنتف** إلى الظُلَّة في وسط الحديقة، وهي بناء مسقوف بلا جدران محيطة تحجب نسيم النهر البارد، وجلس متربِّعًا على الأرضية المرصوفة إلى الطاولة المخفضة التي بُسطت عليها لفائف الدولة، فاتخذتُ مكاني المعتاد خلفه. لقد بدأت أعمال النهار.

وفي خلال الصباح، مالَ سيدي ميلًا طفيفًا إلى الخلف مرتين، لم يُدِر رأسه ولم ينبس ببنت شفة، لكنه كان يطلب نصيحتي، وتكلمتُ بصوتٍ خفيض من دون أن أحرِّك شفتيَّ تقريبًا، فلم يسمعني سواه ولم تدرك إلا قلة قليلة هذه التبادلات بيننا.

غمغمتُ مرة: «إنه يكذب»، وثانية: «ريتيك رجل أفضل للمنصب، وقد عرضَ هدية قوامها خمسة خواتم ذهبية لخزينة سيدي الخاصة»، وخاتم ذهبي آخر لي إذا ما ضُمن المنصب، لكنني لم أذكره آنذاك.

عند الظهيرة، صرف سيدي جَمع المسؤولين والمُلتمسين، وطلب وجبة منتصف النهار الخاصة به. ولأول مرة في ذلك اليوم، بقينا وحدنا، فيما عدا راسفر، الذي كان قائد حرس القصر وجلاد الدولة الرسمي في آن معًا، واتخذ موقعه عند بوابة الحديقة، حيث تكون الظُلة في مرمى نظره لكن خارج مجال سمعه.

دعاني سيدي بإشارة منه لأتقدم إلى جوار مرفقه وأتذوق اللحوم والفاكهة اللذيذة التي مُدت أمامه، وبينما انتظرنا أن تُظهر أي آثار تسمُم محتملة نفسها فيَّ، ناقشنا أعمال الصباح بالتفصيل.

ثم ساءلني بخصوص الحملة على بحيرة حابي وصيد أفراس النهر العظيم، فبيَّنت له كل شيء وأعطيته أرقام العوائد التي تنتظره من لحوم أبقار النهر وجلودها وأسنانها مضخمًا التقديرات بعض الشيء، فابتسمَ. كانت ابتسامته صريحة وفاتنة، وما إن يراها المرء حتى يفهم قدرة سيدي إنتف على التلاعب بالرجال والتحكم بهم. وحتى أنا، مَن ينبغي أن يكون أكثر تعقلًا، تخدرتُ بها مرة ثانية.

وبينما يقضم قطعة غضة باردة من شريحة لحم فرس نهر، جررتُ نفسًا واستحضرتُ جراءتي وبدأتُ مناشدتي: «فليعلم سيدي أنني سمحت لابنتكم بمرافقتي في الحملة»، ورأيتُ في عينيه أنه كان يعرف ذلك بالفعل، وينتظر أن أحاول إخفاءه عنه.

سألني بتلطُف: «ألم تفكر في طلب إذني سابقًا؟»، فتحاشيتُ النظر في عينيه وبينما ركزت على تقشير حبة عنب له أجبته: «لم تسألني إلا عندما كنا على وشك المغادرة، وكما تعلمون، فإن حابي راعيتها، وكانت ترغب بعبادتها وتقديم أضحية لها في معبد البحيرة».

فكرَّر كلامه: «لكنك لم تسألني بأي حال، أليس كذلك؟»، وقدمتُ له حبة العنب، فباعد بين شفتيه وسمح لي بوضعها في فمه. ولا يمكن لذلك أن يعني إلا أن موقفه وديٌّ ناحيتي، لذا من الواضح أنه لم يكتشف بعد الحقيقة الكاملة بخصوص تانوس ولوستريس.

- كان سيدي في مجلس مع أمير أسوان آنذاك، ولم أكن لأجرؤ على إزعاجه. وأيضًا، لم يكن ثمة أذى مما يسعني إدراكه في الأمر. كان قرارًا منزليًا بسيطة ارتأيتُ أنه لا يرقى لاهتمامكم.

فقهقه قائلًا: «إن لسانك لمعسول جدًا يا عزيزي، أليس كذلك؟ وإنك لبالغ الجمال اليوم. تعجبني طريقة تلوينك جفنيك، وما هذا العطر الذي يفوح منك؟».

فأجبته: «إنه مُقطِّر من بتلات البنفسج البرِّي، وقد سعدتُ جدًّا لأنه أعجبكم، ذلك أن بحوزتي حنجورًا منه هديةً صغيرة لكم يا سيدي». وأخرجت الحنجور من محفظتي وتقدمت على ركبتيَّ لأقدمه له. فوضع إصبعًا أسفل ذقني ورفع وجهي ليقبِّلني، واستجبتُ لقبلته استجابة ملؤها الواجب حتى انسحبَ وربّت خدِّي.

- أيًا ما كان ما تنتويه، فإنك لا تزال في غاية الجاذبية يا تايتا. ما زلتَ قادرًا على جعلي أبتسم حتى بعد كل هذي السنين. لكن أخبرني، لقد أحسنت الاعتناء بالسيدة لوستريس، ولم تتركها تغيب عن ناظريك لحظة، أليس كذلك؟

فوافقته بحدة: «كما هي الحال دائمًا يا سيدي».

- إذن ألا يوجد شيء غير اعتيادي فيما يخصها تودُّ إبلاغي به؟

كنتُ لا أزال على ركبتيَّ أمامه، وفشلَت محاولتي التالية للكلام. جفَّ صوتي.

فضحك قائلًا: «لا تَصِرُّ أمامي يا عزيزي القديم، انطق كالرجال، وإن لم تكن رجلًا». كانت سخرية ضئيلة لاذعة، لكنها مدَّتني بالقوة.

- ثمة بالفعل أمر أرغب بكل ضعةٍ أن ألفت انتباه سيدي إليه، وهو في واقع الأمر يخص سيدتي لوستريس. كما أبلغتكم بالفعل، فقد طلع قمر ابنتكم الأحمر للمرة الأولى عند فيضان النهر العظيم، ومذ ذلك الحين، أخذت دوراته تتدفق بشدة كل شهر.

أبدى سيدي تجهُّمَ كُرهٍ صغير، ذلك أن وظائف الجسد الأنثوي تنفِّره. وكان ذلك في رأيي من سخرية القدر، بالنظر إلى انهماكه في القطاعات الجسدية الذكورية الأقل لذة بكثير.

فاستعجلتُ كلامي: «إن سيدتي لوستريس الآن في عمر مناسب للزواج، وهي امرأة ذات طبيعة متقدة ومحبة. أرى أنه من الحكمة أن نجد لها زوجًا بأسرع وقت ممكن».

فسألني بجفاف: «ولا شك في أن لديك زوج تقترحه. صحيح؟».

أومأت برأسي: «ثمة خاطب بالفعل يا مولاي».

- ليس خاطبًا واحدًا يا **تايتا**، بل تقصد أن تقول خاطبٌ آخر، أليس كذلك؟ فأنا أعرف ستة على الأقل، من بينهم أمير **أسوان** وحاكم **لوت** اللذين قدّما عروضًا بالفعل.

- لقد عنيتُ خاطبًا آخر بالفعل، لكنه هذه المرة خاطب وافقت السيدة **لوستريس** عليه، ذلك أنها، وكما تذكرون، أشارت إلى الأمير بقولها «ذاك الضفدع البدين»، وإلى الحاكم على أنه «ماعز عجوز شهوانيٌّ».

فهزَّ رأسه قائلًا: «إن موافقة الطفلة أو رفضها أمر لا يهمني البتة (ثم ابتسم ومسَّد خدي ليشجعني)، لكن تابع يا **تايتا**، أخبرني باسم هذا المُتيَّم الملهوف الذي سيشرِّفني بأن يصير صهري مقابل أثرى جهاز في مصر (فقوَّيت نفسي للإجابة، لكنه أوقفني بقوله) لا، انتظر! دعني أحزر».

ثم استحالت ابتسامته إلى تلك التكشيرة الخبيثة الماكرة التي أعرفها حق المعرفة، وأدركتُ أنه يعابثني.

تظاهر بأنه يتفكَّر في المسألة: «كي تقبل **لوستريس** به، لا بدَّ أن يكون شابًا ووسيمًا، ولكي تتكلمَ أنت نيابةً عنه، لا بدَّ أن يكون صديقك أو ربيبك. ولا بدَّ أن فرصة ما قد سنحت لنموذج الكمال هذا ليعلن طلبه ويستجدي دعمك. عجبًا ما تُراه يكون الزمان والمكان المناسبين لحدوث ذلك؟ أتُراه منتصف الليل في معبد **حابي**؟ هل أسيرُ في الأثر الصحيح يا **تايتا**؟».

شعرتُ بلوني يشحب. كيف عرف كل هذا القدر؟ ثم أزلق يده خلف رأسي وداعب قفا عنقي. كانت هذه الحركة في الغالب تمهيده للممارسة الممقوتة، وقبَّلني، وقال: «يمكنني أن أرى في وجهك أن تخميناتي قريبة من الهدف (وأخذ حفنة من شعري في يده بارمًا إياها برمًا خفيفًا)، لم يبقَ علينا الآن إلا التكهُّن باسم هذا العاشق الجسور. أتراه **داكا**؟ لا، لا. **فداكا** ليس غبيًّا بالحد الكافي ليستثير سخطي (ويبرم شعري بقوة تكفي لتفيض عيناي بالدموع)، **كراتاس** إذن؟ إنه وسيم وأحمق بما يكفي ليتخذ المجازفة»، وبرمَ بقوة أشد حتى شعرتُ أن كتلة من شعري خرجت في يده مصدرةً صوت تمزُّق، ولجمتُ الأنَّة في حلقي.

قال: «أجبني يا عزيزي، أكان **كراتاس**؟» وأنزل وجهي إلى حجره بالقوة.

فهمستُ متألمًا: «لا يا سيدي». كان مستثارًا استثارة تامة ولم يفاجئني ذلك، ثم حشر وجهي في حجره وأبقاني هناك.

وتصنَّع الحيرة: «ليس كراتاس؟ أواثق أنت؟ إن لم يكن كراتاس، فقد أعيتني الحيلة إذن في تخمين من سواه قد يكون على هذا القدر من الوقاحة والإهانة والغباء القاتل ليتقرَّب من الابنة العذراء لوزير مصر العليا الأعظم».

رفع صوته فجأة وصاح: «راسفر!»، وكان رأسي ملويًا في حجره فرأيتُ من بين دموعي راسفر يقترب.

في حديقة حيوان الفرعون على جزيرة إلفنتين في أسوان، كان ثمة دب أسود عملاق جلبته القوافل التجارية قبل سنوات عديدة من الشرق، وطالما ذكرني ذلك المتوحِّش المندُّب الشرس بقائد حرس سيدي الشخصي أيَّما تذكير، إذ إن كليهما يتمتع بالجسد الهائل معدوم القوام نفسه، والقوة البربرية الفِجَّة الكافية لطحن رجل حتى الموت. لكن من حيث مَلاحة الوجه وعذوبة الطبع، كان الدب مُفضلًا على راسفر بكثير.

راقبته يدنو في هرولة سريعة ورشيقة على نحو مفاجئ بالنسبة إلى تينك الساقين الثقيلتين الشبيهتين بشجرتين وبطنه المنتفخ غزير الشعر، وحُملتُ عَوْدًا عبر السنين إلى اليوم الذي اجتُثَّت فيه رجولتي.

بدا كل شيء مألوفًا، كأنني أجبر على عيش ذلك اليوم الرهيب مرة أخرى، فقد كانت تفاصيله كلها لا تزال واضحةً في ذهني حتى إنني أردتُ الزعيق ملء صوتي، وكان ممثلو تلك المأساة القديمة نفسهم: سيدي إنتف، وراسفر المتوحش وأنا، إلا أن الفتاة غائبة.

كان اسمها أليدا، وكانت في سني نفسها، ست عشرة سنة بريئة، وأَمَة مثلي. أذكرها الآن على أنها جميلة، لكنْ من المرجح أن ذاكرتي تخونني، فلو كانت كذلك لأُرسلتْ إلى حريم إحدى العائلات الكبرى، لا أن تُبعدَ إلى المطبخ. وأعرف يقينًا أنها كانت تتمتع ببشرة بلون وبريق الكهرمان المصقول وأنها كانت دافئة وناعمة الملمس. لن أنسى شعور لمس جسد أليدا أبدًا، ذلك أنني لن أختبر شيئًا مثله ثانية. كان واحدنا قد وجد السلوان وخالص العزاء في الآخر، ولم أكتشف قطُّ من الذي خاننا. لستُ رجلًا انتقاميًا، لكنني ما زلتُ أحلم أنني سأجد الشخص الذي وشى بنا يومًا ما.

كنتُ في ذلك الحين محظيَّ سيدي **إنتف**، عزيزه المميز، وعندما اكتشف أنني لم أكن مخلصًا له، أصاب كبرياءه جرحٌ عميقٌ دفعه إلى حدود القتل.

فجاء **راسفر** ليأخذنا، جارًا إيانا، كلٌّ في يد، إلى مخدع سيدي **إنتف** بسهولة كما لو كنَّا زوج هررة، وبينما عرَّانا من ثيابنا هناك جلس سيدي متربعًا على الأرض كما يجلس الآن تمامًا، ثم قيَّد **راسفر** معصمي **أليدا** وكاحليها بسيور من الجلد الخام. كانت شاحبة وترتعش، لكنها لم تبكِ، ولم أحبَّها وأُعجب بشجاعتها في أي وقت سبق أكثر من تلك اللحظة.

أشار لي سيدي **إنتف** بأن أركع أمامه فأخذ خصلة من شعري وراح يهمس بعبارات التحبُّب في أذني، ثم سألني: «أتحبني يا **تايتا**؟»، ولأنني كنتُ خائفًا، وظننتُ بطريقة غامضة ما أنه قد يصفح عن **أليدا** أجبته: «أجل يا سيدي، أحبك».

فسألني بصوت حريري: «أتحب غيري يا **تايتا**؟»، ولأنني كنتُ رعديدًا وخائنًا، أجبته: «لا يا سيدي، لا أحب سواك». سمعتُ في تلك اللحظة **أليدا** تنتحب، وكان واحدًا من أشد الأصوات ترويعًا في حياتي.

ثم نادى **راسفر**: «اجلب الفاسقة إلى هنا، وضعْها بطريقة تسمح لهما برؤية بعضهما بعضًا بوضوح. ينبغي **لتايتا** أن يرى كل ما يحدث لها».

أزلق **راسفر** أنشوطة من حبل مجدول من الجلد الخام حول جبهة **أليدا**، وكان الحبل معقودًا عقدًا قريبةً من بعضها بعضًا، فبدا كعصابة الرأس التي ترتديها النساء البدويات. ثم وقف خلف البنت وأقحم هراوة قصيرة بدينة من خشب الزيتون في أنشوطة الجلد الخام وبرمها حتى اشتدت على جلدها الناعم غير المَشُوب، فعضَّت عقد الجلد القاسية لحم أليدا وعبَسَت ألمًا.

حذره سيدي: «على مهلك يا راسفر، لا يزال أمامنا شوط طويل لنقطعه».

بدت هراوة خشب الزيتون كلعبة أطفال في كفي **راسفر** الضخمتين المشعرتين، وراح يبرمها بتروٍّ حذر، ربع دورة كل مرة. أخذت العُقد تحفر أكثر، ثم فغر فم **أليدا** وفرغت رئتاها في دفقة هواء لاهثة، وانسلَّ اللون من جلدها حتى صارت بلون رماد الموتى. كافحت بعد ذلك لتملأ رئتيها بالهواء ثم أطلقته في صرخة طويلة ثاقبة.

برم **راسفر** –ولا يزال مبتسمًا ابتسامة عريضة– الهرواة فدفن خط العقد الجلدية نفسه في جبهة **أليدا**، وتغير شكل جمجمتها. ظننتُ في البداية أنها

خدعة من عقلي المنفعل، ثم أدركتُ أن رأسها في الحقيقة يضيق ويستطيل مع اشتداد الأنشوطة، وصارت صرختها دويًا متواصلًا متتابعًا انغمس في قلبي كنصل السيف، واستمرَّ إلى ما بدا أبدية.

ثم انفجرت جمجمتها. سمعتُ العظام تتحطم بصوتٍ أشبه بجوزة نخيل تُسحق بين فكي فيل. قُطعت تلك الصرخة المُريعة المدوِّية فجأةً مع تدلي جثة **أليدا** بين يدي **راسفر**، ومُلئت روحي بالأسى واليأس حتى طفحت.

وبعد ما شعرتُ أنه الأزل، رفع سيدي رأسي ونظر إلى عينيَّ، وكانت سحنته حزينة ونادمة عندما قال لي: «لقد رحلتْ يا **تايتا**. كانت شرًّا أودى بك إلى الضلال، ويجب أن نحرص أن لا يحدث ذلك ثانية. يجب أن نحميك من أي غوايات أخرى».

وأشار إلى **راسفر** مرة ثانية، فأمسك بجسد **أليدا** العاري من كعبيه وجره إلى الشرفة، وراح قفا رأسها المسحوق يرتطم بالدرجات وشعرها يتموَّج خلفها، وألقاها بدفعة من كتفيه الهائلتين بعيدًا إلى النهر. التمعت أطرافها المرتخية وتشقلبت عندما سقطت وخبطت الماء، ثم غرقت بسرعة وانتثر شعرها حولها كسعف أعشاب النهر.

استدار **راسفر** بعد ذلك ومضى إلى طرف الشرفة حيث كان اثنان من رجاله يعتنيان بمجمرة من الفحم المشتعل، وبجوار المجمرة، صُفَّت مجموعة أدوات جراح كاملة على صينية خشبية. ألقى نظرة إليها وأومأ برأسه راضيًا، ثم عاد وانحنى أمام سيدي **إنتف** قائلًا: «كل شيء في حالة جاهزية».

مسح سيدي وجهي المخطَّط بالدموع بإصبعه، ورفع الإصبع إلى شفتيه كما لو أنه يتذوق أساي. ثم همس: «تعالَ يا عزيزي الجميل»، وأنهضني فساقني إلى الشرفة. كنت ذاهلًا معميًا بدموعي حتى إنني لم أدرك تهلُكتي الخاصة إلى أن أمسكني الجنديان وألقياني على الأرض باسطين أطرافي فوق البلاط الآجرِّي، وثبَّتا معصمي وكاحلي فلم يعد بإمكاني تحريك شيء سوى رأسي.

ركع مولاي عند رأسي، بينما ركع **راسفر** بين فخذي المتباعدين، وقال: «لن تقترف هذا الشر ثانيةً يا **تايتا**».

وفي تلك اللحظة انتبهتُ إلى المبضع البرونزي الذي كان **راسفر** قد أخفاه في يمناه. ثم أومأ سيدي له، فمد يده الحرة إلى أسفلي وقبض عليَّ وشدَّني حتى شعرتُ أنه ينتزع أحشائي من بين ساقيَّ.

ابتسم راسفر: «يا لهما من بيضتين ممتازتين! (ثم أراني المبضع، واضعًا إياه أمام عيني)، لكنني سأطعمهما للتماسيح، مثلما فعلت بحبيبتك الضئيلة بالضبط»، وقبّل النصل.

توسّلت إليه: «أرجوك يا مولاي، ترأف بي...» لكنّ تضرُّعي انتهى في صرخة حادة عندما بضعني راسفر، وشعرتُ كما لو أن سيخًا متوهجًا حرارةً قد أُقحِم في بطني.

رفع راسفر كيس الجلد المجعد الشاحب ومكنوناته المثيرة للشفقة: «ودِّعهما أيها الصبي الحلو»، ثم هَمَّ بالنهوض، لكنَّ سيدي منعه، وقال له بهدوء: «لم تُنهِ عملك بعد، أريده كله».

حدَّق راسفر إليه للحظة، غير مستوعب الأمر، ثم قهقه حتى تنطَّط كرشه وجأر: «بحق دماء حورس، من الآن فصاعدًا سيُضطر الصبي الحلو إلى أن يقرفص كفتاة عندما يريد التبول!»، وضرب ثانيةً، ثم انفجر ضاحكًا وهو يرفع إصبع اللحم التي كانت ذات مرة الجزء الأكثر حميمية من جسدي.

قال راسفر: «هوِّن عليك يا فتى، سيكون مشيُك أخف بكثير من دون هذا الوزن»، وهمَّ يمشي وهو يترنَّح ضحكًا ناحية حافة الشرفة كأنه ينتوي رمي ما يحمله إلى النهر، لكنَّ سيدي ناداه بحدةٍ ثانية.

وأمره: «أعطنيها!»، فوضع راسفر بكل طاعة فُتات رجولتي الدامي في يديه. تفحصه سيدي بفضول لبضع ثوانٍ، ثم كلمني من جديد: «لستُ قاسيًا إلى درجة حرمانك من هذا التذكار الفاخر إلى الأبد يا عزيزي. سأرسلها إلى المحنِّطين، وعندما تصير جاهزة سأجعلهم يعلقونها في قلادة محاطة باللؤلؤ واللازورد لتكون هديتي لك في مهرجان أوزيريس القادم. وهكذا، في يوم دفنك، يمكنك وضعها إلى جوارك في القبر، وإن كانت الآلهة رؤوفة، فقد تسمح لك بالاستفادة منها في الحياة الآخرة».

كان ينبغي لهذه الذكريات المُروِّعة أن تنتهي عندما أوقف راسفر النزيف بمغرفة من ورنيش الحناطة المغلي أخذها من المجمرة، وحملتني وطأة الألم غير المحتملة إلى غياهب النسيان الميمون، لكنني صرتُ الآن عالقًا في الكابوس، كل شيء يحدث ثانية، إلا أن أليدا غائبة هذه المرة، وبدلًا من سكين الإخصاء، يحمل راسفر سوطًا من جلد أفراس النهر في قبضته المشعرة العظيمة.

كان السوط يعادل الامتداد الكامل لذراعيْ **راسفر**، ويستدق حتى تبلغ نهايته سُمك خنصره. راقبته فيما مضى وهو ينجُره بنفسه، إذ قشر الطبقة الخارجية الغليظة من شريط الجلد المدبوغ الطويل حتى انكشف الجلد الداخلي، متوقفًا بانتظام ليختبر اتزانه وثقله، وظل يضرب الهواء به حتى عول وانتحب كريح الصحراء في عبورها أخاديد تلال **لوت**. كان بلون الكهرمان، وصقله **راسفر** بحُبٍّ حتى صار أملس وشفيفًا كالزجاج، لكنه مرنٌ حدٌّ أن بمقدوره ثنيه في قوس مثالي بين كفيه. وقد ترك دماء مئة ضحية تجف عليه وتصبغ نهايته المستدقة بلون صدئي لمَّاع رائع من الناحية الجمالية.

كان **راسفر** فنانًا في استخدام هذه الأداة الشنيعة. بإمكانه إرسال نقرة خاطفة إلى فخذ شابة غضٍ لا تخلِّف عليه سوى أثر قرمزي لا يخترق الجلد البتة، لكنه يلسع بضراوة العقرب، تاركًا ضحيته تتلوَّى وتنتحبُ مضاضةً، أو يمكنه بدزينة من الضربات المهسهسة أن يعري ظهر رجل من الجلد واللحم تاركًا أضلاعه وقمة عموده الفقري مكشوفة.

صار **راسفر** واقفًا فوقي يبتسم ملء فمه وهو يثني السوط الطويل بين يديه، فقد كان يحب وظيفته، ويكرهني بكل عنف حسده ومشاعر الدونية التي زرعها ذكائي وحُسن مظهري وحظوتي فيه.

مسَّد سيدي **إنتف** ظهري العاري وتنهَّد: «إنك لخبيث في بعض الأوقات يا عزيزي القديم. تحاول خداعي وأنا الذي تدين له بأخلص الولاء، لا، بل أكثر من مجرد الولاء، بوجودك نفسه (وتنهَّد ثانية) لِمَ تفرض هذا الكدر عليَّ؟ ينبغي أن تكون أعقل بكثير من أن تزعجني بطلب خِطبة ذاك الوقح الصغير. كانت محاولة سخيفة، لكن أظنني أفهم سبب إقدامك عليها؛ إنَّ حِسَّ الرحمة الطفولي إحدى نقاط ضعفك الكثيرة، وأرجح أنه سيكون يومًا ما سبب سقوطك النهائي. غير أنني أراه أحيانًا طريفًا ومُحببًا، ولعلي قد سامحتك عليه عن طيب نفس، لكن لا يمكنني التغاضي عن حقيقة أنك عرَّضت القيمة السوقية للبضائع التي أسلمتك أمرها للخطر. (ثم برمَ رأسي محررًا فمي كي أجيبه)، ولأجل ذلك، يجب أن تُعاقَب. أتفهمني؟».

همست: «أجل يا سيدي»، لكنني أدرتُ عينيَّ لأراقب السوط في يديْ راسفر. حشر سيدي إنتف وجهي ثانية في حجره، ثم خاطب راسفر من فوق رأسي.

- وظِّف كل براعتك يا **راسفر**. لا تشق جلده لو سمحت، لا أريد لهذا الظهر الناعم المبهج أن يُشوَّه إلى الأبد. عشر جلدات تكفي بدايةً، وعُدّها جهارًا.

كنت قد شاهدت مئة بائس أو أكثر يخضع لهذا العقاب، وبعضهم محاربون وأبطال متفاخرون، ولم يقدر أيُّهم على البقاء صامتًا تحت سوط **راسفر**. بيد أنه من الأفضل للمرء أن لا يبقى صامتًا، ذلك أنه يرى الصمت تحديًا شخصيًا لمهارته، وكنت أعرف ذلك حق المعرفة، كوني مررتُ بهذا الدرب قبلًا، فتجهزت تمامًا لابتلاع أي كبرياء غبية وللإشادة بفن **راسفر** بصوت عالٍ، وملأتُ رئتي استعدادًا.

نخر **راسفر**: «واحدة!»، وصفَّرَ السوط. وكما تنسى امرأة شدَّة ألم الولادة فيما بعد، كنتُ قد نسيت لسعته الحادة، وصرختُ بصوت أقوى مما انتويت حتى.

غمغم سيدي **إنتف** في أذني: «أنت محظوظ يا عزيزي **تايتا**، فقد أمرتُ كهنة **أوزيريس** بتفحص البضائع الليلة الماضية، ولا تزال سليمة». تلوَّيتُ في حجره، ولم يكن ذلك جراء الألم فحسب، بل جراء فكرة أن يتحسس جِداء المعبد الفاجرين العجائز فتاتي الصغيرة ويتطفلوا عليها.

كان **لراسفر** طقسه الصغير الخاص في إطالة العقاب وضمان أن يتلذذ وضحيته بكل لحظة أقصى التلذذ، حيث يهرول بعد كل جلدة في دائرة صغيرة حول مكان الاجتماع، ناخرًا عبارات الحث والتشجيع لنفسه، وحاملًا السوط كسيف احتفالي. ومع إتمامه الدائرة، يتخذ مكانه للجلدة الثانية، ويرفع السوط عاليًا.

صاح: «اثنتان!»، وزعقتُ ثانية.

❊❊❊

كانت إحدى إماء **لوستريس** تنتظرني على شرفة مهجعي الواسعة. بينما أصعد درجات الحديقة أعرج ألمًا حيتني قائلة: «تأمرك مولاتي أن تحضر عندها من فورك».

أجبتها: «أخبريها أنني متوعك»، محاولًا التملص من الاستدعاء، ثم ناديت أحد الغلمان ليُبلسم إصاباتي، وأسرعت إلى مخدعي لأتخلص من البنت. لم يكن بوسعي مواجهة **لوستريس** بعد، فقد خفت من إبلاغها بفشلي، ومن

حملها أخيرًا على مواجهة الواقع واستحالة حبها لقانوس، لكنَّ البنت السوداء تبعتني وهي ترنو إلى آثار الجلد المزرقة على ظهري برعب لذيذ.

فصِحتُ من فوق كتفي: «اذهبي إلى مولاتك وأخبريها أنني جريح، وأنني عاجز عن القدوم إليها».

- لقد قالت لي إنك ستحاول التملص من الأمر، لكنها أمرتني أيضًا بأن ألازمك وأحرص أن لا تفعل.

فبينما وبختها بصرامة كان الصبي يدهن ظهري بمرهم شافٍ من إعدادي: «إنك لأمةٌ وقحة».

وافقتني العفريتة مبتسمة: «أجل، لكنك كذلك أيضًا»، وتفادت الصفعة الفاترة التي وجهتها إليها بسهولة.

فأذعنتُ: «اذهبي وأخبري مولاتك أنني آتٍ».

- أمرتني أن أنتظر وأحرص على مجيئك.

وبينما أعبر حارسي بوابة الحريم هكذا حظيتُ بمن يرافقني. كان الحارسان خصيين مثلي، لكنهما، وعلى عكسي، ضخمين ومخنثين، وكانا قويين شرسين رغم بدانتهما، أو ربما بسببها، لكنني استخدمت نفوذي في الماضي لأؤمّن لهما هذه الوظيفة السهلة، لذا سمحا لي بالعبور إلى مهاجع النساء مع تحية احترام.

لم يكن الحريم كبيرًا ولا رحراحًا مثل مهاجع الغلمان، وبدا محل اهتمام سيدي إنتف الحقيقي واضحًا، فقد كان مُجمعًا من الأكواخ اللبنية المحاطة بجدار لبني مرتفع، وليس فيه من الحدائق والزينة إلا ما نهضت لوستريس وإماؤها به بمساعدتي. أما زوجات الوزير فكُن بدينات وكسلانات أكثر مما ينبغي ومنشغلات بفضائح الحريم ودسائسه ليفرغن طاقاتهن.

وكان مسكن لوستريس أقربها إلى البوابة الرئيسة، محاطًا بروضة جميلة فيها بركة زنبق وطيور مغردة تزقزق في أقفاص مجدولة من الخيزران المفلوق، وجدرانه اللبنية مزينة بجداريات بهيجة لمشاهد من النيل أو لأسماك وطيور وإلاهات ساعدتُ في رسمها.

كانت إماؤها محتشدات في مجموعة مقهورة في المدخل، وثمة أكثر من واحدة تبكي ووجهها مسطَّرٌ بدموعها. شققت طريقي عبْرهنَّ إلى الداخل المعتم البارد، وسمعتُ من فوري مولاتي تنشج في الغرفة الداخلية، فهُرعتُ

إليها، مستحيًا من أنني كنتُ رعديدًا إلى درجة محاولة التملص من واجبي تجاهها.

وجدتها مستلقية على وجهها فوق السرير المنخفض، وكامل جسمها يرتجف من شدة الأسى، لكنها سمعت وقع دخولي وانتفضت عن السرير مسرعة إليّ.

- واه يا **تايتا**! سيرسلون **تانوس** بعيدًا! غدًا يصل الفرعون إلى **الكرنك**، وسيحمله أبي على أمر **تانوس** بأخذ سربه أعلى النهر إلى **إلفنتين** والجنادل. واه يا **تايتا**! إنها رحلةُ عشرين يومًا إلى **الجندل الأول**. لن أراه ثانية أبدًا. يا ليتني مِتُّ. سأرمي بنفسي في **النيل** لتلتهمني التماسيح. لا أريد العيش من دون **تانوس**...

قالت كل ذلك في غولة يأس واحدة متصاعدة، فهدهدتُها بين ذراعي: «رويدك يا طفلتي، أنى لك معرفة كل هذي الأمور المُروِّعة؟ قد لا تحدث أبدًا».

- أوه، بلى سيفعلون. لقد أرسل لي **تانوس** رسالة، ذلك أن **لكراتاس** أخ في حرس أبي الشخصي، وقد سمع أبي يناقش الأمر مع **راسفر**، إذ اكتشف أمري **وتانوس** بطريقة ما. إنه يعرف أننا كنا في معبد **حابي** وحدنا. واه يا **تايتا**، لقد أرسل أبي الكهنة ليفحصونني. أنزل أولئك العجائز القذرون الفظائع بي، وآلمني ذلك كثيرًا يا **تايتا**.

عانقتها عناقًا لطيفًا، ولا يتكرر كثيرًا أن تسنح لي الفرصة بفعل ذلك، لكنها ردَّت لي العناق بكل قوتها وقد تحوَّل تفكيرها من جراحها الخاصة إلى حبيبها.

بكَت قائلةً: «لن أرى **تانوس** ثانية أبدًا (وذكرني ذلك بصغر سنها الحقيقي، إذ لا تعدو كثيرًا كونها طفلة، هشة وتائهة في أساها)، سيدمره أبي».

حاولت طمأنتها: «حتى أبوكِ عاجز عن مس **تانوس**، فهو قائد أحد أفواج نخبة حرس الفرعون الشخصي، رجلٌ من رجال الملك. لا يتلقى **تانوس** أوامره إلا من الفرعون، ويتمتع بالحصانة الكاملة لتاج مصر المزدوج (ولم أُرِدف أن هذا على الأرجح السبب الوحيد الذي منع أباها من تدميره حتى الآن، بل أردفتُ بلطف...) أما عن عدم رؤية **تانوس** ثانية، فستمثُلين أمامه في الحفل، وسأحرص على أن تحظيا بفرصة للحديث بين الفصول».

- لا يمكن أن يسمح أبي باستمرار الحفل بعد الآن.

- لا بديل لديه، إلا إن كان مستعدًا لتخريب إنتاجي، والمخاطرة بإثارة استياء الفرعون، وثقي أنه لن يفعل ذلك أبدًا.

فانتحبت قائلة: «سيرسل **تانوس** بعيدًا، ويأتي بممثل آخر ليؤدي دور **حورس**».

- لا يوجد وقت كاف لتدريب ممثل آخر. سيؤدي **تانوس** دور الإله **حورس**، وسأوضح ذلك لسيدي **إنتف**، وستحظين **وتانوس** بفرصة للتكلم، وسنجد مخرجًا لكليكما.

غالبَت دمعها ورفعت إليَّ نظرة تشي بخالص الثقة: «آهٍ يا **تايتا**، أعرف أنك ستجد مخرجًا. دائمًا ما تجده...» ثم توقفت فجأة وتغيرت سحنتها، إذ تحركت يداها على ظهري، مكتشفة الكدمات المُحززة التي رسمها سوط **راسفر** عليه.

- آسف يا مولاتي، لقد حاولت طرح طلب خِطبة **تانوس**، مثلما وعدتك أني سأفعل، وهذه نتيجة حماقتي.

وقفت خلفي ورفعت الغلالة الكتانية الخفيفة التي أسدلتُها على جراحي، وشهقت: «إن هذا لمن عمل **راسفر**. أوه يا عزيزي البائس **تايتا**، لمَ لم تحذرني أن هذا سيحدث، وأن أبي معارض أعنف المعارضة لعلاقتي **بتانوس**؟».

شقَّ عليَّ ألا أشهق إزاء هذه الصفاقة الساذجة، أنا الذي توسَّل إليهما وحذرهما واتُّهم بالمقابل بعدم الولاء. لكنني أمسكتُ عن الكلام، وإن كان ظهري لا يزال يخفق أشدَّ الخفقان.

أضاعت مولاتي بؤسها للوقت الراهن على الأقل في قلقها على جراحي السطحية، فبينما تطببني أمرتني أن أجلس على سريرها وأخلع عني غلالتي، وعوَّضني حبها وعطفها الصادقين عن افتقارها للمهارات الطبية. أخرجها هذا الإلهاء من أعماق يأسها السحيقة، وسرعان ما عادت تثرثر بأسلوبها المتحمس المعتاد وتخط الخطط لتحبط سخطَ أبيها وتجمع شملها **بتانوس**.

بينما أوضحت بعض هذه الخطط حُسن إدراكها، أظهرت أخرى، أبعد احتمالًا، يفاعتها الواثقة وقلة معرفتها وخبرتها في دروب الحياة الخبيثة، إذ أعلنَت في إحدى المراحل: «سوف أقدم أداءً ممتازًا بدور **إيزيس** في الحفل، وسأجعل من نفسي مُحبَبةً إلى قلب الفرعون حتى إنه سيمنحني أي عطيَّة

أطلبها منه. ثم أتوسل إليه أن يزوجني **تانوس**، وسيقول... (وهنا قلدت نبرة الملك المفخمة المراسمية بذكاء أجبرتني على الابتسام): أُعلن خِطبة **تانوس** سيد **حاراب**، ابن **بيانكي**، على السيدة **لوستريس** ابنة **إنتف**، وأرقي خادمي الصالح **تانوس** إلى رتبة **أسد مصر العظيم** وقائد كل جيوشي. وآمر أيضًا بأن تُعاد إليه كل الأملاك التي كانت فيما مضى لأبيه النبيل **بيانكي** سيد **حاراب**...»، وهنا توقفت فجأة في خضم مداواتها جراحي ولفت ذراعيها حول عنقي.

- يمكن أن يحدث ذلك، صحيح يا عزيزي **تايتا**؟ أرجوك قل إنه ممكن!

فابتسمتُ إزاء سُخفها: «لا رجل طبيعي يمكنه مقاومتك يا مولاتي، ولا حتى الفرعون العظيم نفسه». ولو علمتُ حينها مدى اقتراب كلماتي من الحقيقة، أحسب أنني كنت لأضع جمرة متوهجة على لساني قبل أن أنطقها.

عاد وجهها يشعُّ أملًا، وكفاني بذلك ثوابًا. ثم أسدلتُ غلالتي ثانية لأنهي تطبيبها المتحمِّس أكثر مما يجب لظهري، وقلت: «أما الآن يا مولاتي، إن كنتِ تبتغين أداءً بارعًا ولا يُقاوم في دور **إيزيس**، فلا بدَّ لك من بعض الراحة».

كنتُ قد جلبت معي جرعة مصنوعة من مسحوق الزهرة المنوِّمة المسماة بالخشخاش المنثور، وكانت بذور هذه الزهرة الثمينة قد جُلبت في البداية إلى مصرنا عبر القوافل التجارية من أرض جبلية في الشرق البعيد، غير أنني صرت الآن أستنبتُ زهورها الحمراء في حديقتي، وعندما تسقط أوراقها، أخدش قوقعة البذرة بشوكة ذهبية ثلاثية الأسنان، فيسيل من هذه الجروح حليب أبيض كثيف أجمعه وأجففه وأعالجه وفق الوصفة التي طورتُها. بمقدور هذا المسحوق أن يبعث على النوم، أو يثير الأحلام الغريبة، أو يسكن الألم.

بينما غمغمتْ استكانَتْ إلى سريرها والتفَّت على نفسها كهرَّة وَسْنى: «ابقَ معي لبعض الوقت يا تايتا، احتضنِّي حتى أنام كما كنت تفعل في طفولتي»، وبينما أحيطها بذراعيَّ فكرت بأنها لا تزال طفلة.

ثم همسَتْ: «سيسير كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟ وسنعيش في سعادة أبدية كما يحدث في قصصك، صحيح يا **تايتا**؟».

وعندما نامت، قبّلت جبهتها برفق وغطيتها بدثار من الفرو قبل أن أتسلل من مخدعها.

***

في اليوم الخامس من مهرجان **أوزيريس**، ركب الفرعون تيار النهر إلى **الكرنك** من قصره على جزيرة **إلفنتين**، في رحلة تستغرق عشرة أيام على قادس نهريٍّ سريع، وجاء بكامل أُبَّهته مع جميع حاشيته ليرأس مراسم مهرجان الإله.

كان سرب **تانوس** قد غادر **الكرنك** قبل ثلاثة أيام، وانطلق مسرعًا بعكس التيار ليلقى الأسطول العظيم ويرافقه في المرحلة الأخيرة من الرحلة. لذا لا أنا رأيته ولا **لوستريس** منذ عاد ثلاثتنا من الصيد الكبير، فكانت رؤية قادسه يلفُّ حنية النهر متحلقًا بأقصى سرعة التيار والرياح الصحراوية الشديدة تضرب عرضه متعة استثنائية لكلينا، إذ تقدمت ***أنفاس حورس*** الأسطول، قائدةً إياه صعودًا من الجنوب.

وقفت **لوستريس** في حاشية الوزير الأعظم خلف أخويها **مينسيت** **وسوبيك**. كان الشابان بهيَّيْن وجميلي الطلعة، لكنَّ فيهما من صفات أبيهما أكثر من اللازم في رأيي، ولم أثق بـ**مينسيت** تحديدًا، الأكبر، أما الأصغر فكان تابعًا لأخيه.

ووقفتُ بعيدًا خلفهم في حشد بطانة الوزير والموظفين الأقل شأنًا، من حيث أمكنني مراقبة كل من **لوستريس** وسيدي **إنتف**. رأيتُ قفا عنقها يتورَّد مسرَّة وحماسة عندما لمحَت قوام **تانوس** المشيق في برج كوثل ***أنفاس حورس***، إذ تألقت الحراشف على صِدارته المصنوعة من جلد التمساح تحت أشعة الشمس، ورفرفت باقة ريش النعام على خوذته في الهواء الذي أثاره عبور القادس.

أخذت **لوستريس** تتقافز إثارةً وتلوِّح بكلتا ذراعيها النحيلتين فوق رأسها، لكن زعقاتها وطرافة سلوكها ضاعت في هدير الجماهير الغفيرة التي سطَّرت ضفتي النيل لاستقبال فرعونها. كانت **طيبة** المدينة الأكثر سكانًا في العالم، وخمَّنتُ أن ربع مليون نسمة تقريبًا قد خرجت للترحيب بالملك.

في هذه الأثناء، لم يقلِّب **تانوس** بصره يمنة ولا يسرة، بل ظل محدقًا أمامه بصرامة حاملًا سيفه المسلول قبالة وجهه تأديةً للتحية العسكرية. تبعت بقية السرب ***أنفاس حورس*** في المثلث الواسع لتشكيلة ابن الماء، والتي سُميت كذلك نسبة إلى نسق طيران هذه الطيور عند عودتها في المغيب إلى مجاثمها. كانت كل ألويتها وأوسمتها الحربية تخفق في لهيب واجف من

ألوان قوس القزح، مقدمةً عرض «نبيل أسرى الجنون» في تهليلات الحشود وتلويحها بسعف النخيل.

ومرَّ بعض الوقت قبل أن يندفع أول مركب من الموكب الرئيس عابرًا الحنية من خلفهم. كان مُحملًا بسيدات حاشية الملك ونبلائها، ثم تبعه مركب آخر، ثم سرب فوضوي طائل من سفن كبيرة وصغيرة. اكتسحت مجرى النهر بعد ذلك ناقلات تعج بخدم القصر وغلمانه وكل تجهيزاتهم ومعداتهم، وعبَّارات محملة بالثيران والماعز والدجاج للمطابخ، وسفن مُذهَّبة زاهية الألوان تحمل شحنات من أثاث القصر وكنوزه، ومن النبلاء والمخلوقات الأقل شأنًا، الممتزجة مزجًا مزعجًا بطريقة تبتعد كل البعد عن البحَّارة وأساليبهم. ويا له من تناقض أبداه العرض الذي قدمه سرب تانوس عندما استدار بعكس التيار وحافظ على تشكيلته المتباعدة متدسيًا في مواجهة تيار النيل السريع!

وأخيرًا، وصل صندل الفرعون الملكي متثاقلًا إلى الحَنية، فارتفعت تهليلات الحشد إلى أوجها، وتابعت هذه المركبة الهائلة، أكبر مركبة بناها بنو البشر، طريقها بمهابة إلى حيث كنا ننتظر استقبالها على الرصيف الصخري أسفل قصر الوزير الأعظم.

كان أمامي وفرة من الوقت لأتفحصها وأتأمل قدر ملاءمة حجمها وتصميمها وتوجيهها الدولة والحكومة الحاليتين لمصرنا، مصرنا الصامدة في العام الثاني عشر من عهد الفرعون ماموس، ثامن حاملي الاسم والثامن في سلالته، والأضعف حتى الآن في أسرة ضعيفة ومتذبذبة. كان الصندل الملكي بطول خمسة قوادس مقاتلة مصطفة في رتل أحادي، لكنَّ ارتفاعه وعرضه غير متناسبين إلى درجة آذت غرائزي الفنية إيذاءً شديدًا. وكان بدنه الهائل مطليًا بالألوان الصاخبة التي كانت موضة العصر، وتمثال أوزيريس الحيزومي[1] مُعسجدٌ بصفيحة ذهبية حقيقية. غير أنه عندما دنا من المرسى حيث ننتظره، رأيت أن الألوان البراقة قد بهتت في بقع متناثرة وأن جانبيه مخططان بخطوط داكنة كحمار الزَّرَد حيث تغوط طاقمه من فوق السور.

انتصبت في وسط السفينة حُجرة هي مخدع الفرعون الخاص، وكانت مبنية بمتانة بألواح سميكة من خشب الأرز الثمين، ومحشوة بأثاث ثقيل إلى درجة أثرت يا للأسف في خصائص الصندل الملاحية. فوق هذا الصرح

(1) الحيزوم: مقدم السفينة، والتمثال الحيزومي نحتٌ خشبي يُثبت على الحيزوم ويرتبط بدور السفينة وطبيعة عملها. (المترجم).

البشع، وراء سياج مزيَّن مجدول من الزنابق الفضة، وتحت ظُلَّة من جلود الغزال المدبوغة بإتقان والمُخيَّطة بعضها ببعض بمهارة، والمكسوَّة لوحات لكبار الآلهة والإلهات، جلس الفرعون في عزلة مهيبة. كان منتعلًا صندلًا[1] من الذهب المخرَّم، ولابسًا رداءً من كتان نقيٍّ نقاءً ساطعًا كالسحب الركامية العالية في عز الصيف، ومعتمرًا التاج المزدوج الطويل: تاج مصر العليا الأبيض وعليه رأس الإلهة النسر نخبيت[2]، مدموجًا بالتاج الأحمر ورأس الإلهة الصل وادجيت[3]، إلهة دلتا النيل.

وبرغم التاج، كانت الحقيقة الساخرة هي أن حاكمنا المحبوب هذا خسر الدلتا قبل عشر سنوات تقريبًا، فقد حكم مصر السفلى في أيام اضطرابنا فرعون آخر، فرعون اعتمر التاج المزدوج كذلك، أو على الأقل نسخته الخاصة منه، فرعون مُدَّعٍ كان خصمًا لدودًا لحاكمنا، واستنزفت حروبه المستمرة علينا كلا المملكتين من الذهب ودماء الشباب، فقسَّم النزاع الداخلي مصر ومزَّقها، وطالما كانت الحال هكذا في تاريخنا الممتد ألف سنة أو نحوها عندما يتسربل الضعفاء بعباءة الفرعون. كنا في حاجة إلى رجل شديد وجسور وذكي يقبض على المملكتين بقبضته.

لتدوير المركبة صعبة الانقياد مع التيار وإيصالها إلى مرساها على رصيف القصر، كان على القبطان أن يوجهها إلى الضفة البعيدة، ولو فعل ذلك، لانفتح أمامه النيل على اتِّساع عرضه ليُكمل دورته، لكنْ من الواضح أنه أساء تقدير شدة الرياح والتيار وبدأ دورته من منتصف المجرى. تأرجح الصندل في البداية متثاقلًا في التيار، ومال ميلانًا شديدًا عندما استقبل ارتفاعُ الحجرة على سطحه رياح الصحراء الساخنة كأنه شراع، فثارت ثائرة نصف دزينة من عُرفاء البحارة على السطح الأسفل وراحت سياطهم تعلو وتهبط، والماء يحمل صوت جلد الأكتاف العارية.

وبتحفيز السياط، أجهد المجدِّفون مجاديفهم بجنون خضِّ الماء على طول بدن السفينة محيلًا إياه رغوة. مئة مجداف في كل جانب تشدُّ تلقاء

(1) الصندل هنا خُف بنعل متين له سيور من الجلد يثبت بها في القدم. (المترجم).

(2) نخبيت: أو نخبت، إلهة مصرية قديمة تُجسد على هيئة نسر وكانت الربة الرئيسة لمدينة نخن عاصمة الإقليم الثالث لمصر العليا. (المترجم).

(3) وادجيت: إلهة الكوبرا الفرعونية، تُعرف في العالم اليوناني باسم أوتو أو بوتو، ومدينة بوتو أول عاصمة لأول دولة منظمة في مصر السفلى قبل توحيد القطرين، وموقعها الحالي قرب مدينة دسوق في شمال الدلتا بمنطقة تل الفراعين (المترجم).

بعضها وليس بينها واحدٌ يبذل أي جهد في مزامنة ضربته. امتزجت شتائمهم وصيحاتهم مع الأوامر التي يصرخ بها قادة الدفة الأربعة الذين يصارعون مجداف التوجيه الطويل في الكوثل، وفي هذه الأثناء، مرر **نِميت**، الأميرال المُسنُّ وقبطان الصندل، أصابعه بالتناوب في لحيته الطويلة الهزيلة الشهباء وخبط يديه في انزعاج عقيم.

وعاليًا فوق هذه الجلَبة، جلس الفرعون، جامدًا كتمثال وغير مُبالٍ بكل ما يحدث. أوه، هذه مصرنا من غير ريب.

ثم أخذ معدل استدارة الصندل ينخفض حتى لم يعُد يتأرجح، بل صار يتجه رأسًا إلى مكان وقوفنا على الضفة، مُقيَّدًا بقوة جذب التيار وشدة دفع الريح المعاكسة لها. بدا القبطان والطاقم، على الرغم من جهودهم الجامحة وغريبة الأطوار، عاجزين عن إتمام المناورة وسوقه إلى المجرى، أو عن إيقافه ومنعه من حراثة متاريس الرصيف الجرانيتية برأسه وتهشيم جؤجؤه العظيم المُذهَّب.

وعندما أدرك الجميع ما يوشك أن يحدث، خبَت تهليلات الحشد المشاهد من الشاطئ تدريجيًا وحلَّ صمت مُروِّع على كلتا ضفتي النيل اللتين يبلغهما الصراخ والجعجعة من متن المركبة الهائلة بوضوح.

ثم فجأةً، شُدَّت أعين الحشد كلها إلى أسفل النهر، وقتما غادرت ***أنفاس حورس*** موقعها في طليعة السرب وانطلقت تمخر الماء صعودًا بدفع مجاديف محلقة، مجاديف تطعن الماء وتدفعه وتتأرجح ثم تطعن ثانية في تناغم مثالي، ودفعَت نفسها أسفل جؤجؤ الصندل بعنف جعل الحشد يشهق بصوت أعلى من صوت الرياح في أحواض البردي، إذ بدا الاصطدام حتميًا، لكنْ في آخر لحظة ممكنة، أشار **تانوس** بقبضة مضمومة رفعها فوق رأسه، وفي الوقت نفسه، عكس كلا الجانبين التجديف وحرَّك قائد الدفة مجداف التوجيه إلى أقصى مداه.

تمهَّلت ***أنفاس حورس*** وانحرفَت أمام التقدم الثقيل للصندل الضخم، فتلامسَت المركبتان تلامسًا بخفَّةِ قُبلةِ عذراء، وللحظة، صار برج كوثل ***أنفاس حورس*** بمستوى السطح الرئيس للصندل تقريبًا.

في تلك اللحظة، تموضع **تانوس** على واقية البرج، وقد رمى صندله من قدميه وتجرَّد من درعه وألقى أسلحته جانبًا، وعقد حول خصره طرف حبل كتَّانيّ خفيف. ثم وثب، والحبلُ يطارده، عبر الفجوة الفاصلة بين السفينتين.

هاج الناس ونفضوا أنفسهم كما لو أنهم يفيقون من سُبات، وإن كان فيهم من لا يعرف تانوس بعد، فسيعرفه قبل انقضاء هذا اليوم. بالطبع، كانت شهرة تانوس قد حُقِّقَت بالفعل في حروب النهر ضد جحافل الغاصب في المملكة السفلى، لكنْ لم يره في المعارك إلا جنوده، ولا يحمل الفعل المنقول وقع الفعل المرئي بأم العين نفسه أبدًا.

والآن، على مرأى من الفرعون، والأسيطيل الملكي، وسكان الكرنك كلهم، قفز تانوس من متن إلى متن وحطَّ بخفَّة نمر.

«تانوس!» أثق أن مولاتي لوستريس كانت أول الهاتفين باسمه، لكنني كنتُ التالي.

صحتُ: «تانوس!»، ثم تلقف كل من حولي الصيحة وراحوا ينشدون: «تانوس! تانوس! تانوس!» كأنها قصيدة لإله اكتُشف حديثًا.

في لحظة هبوط تانوس على المتن، استدار وانطلق مسرعًا إلى الجؤجؤ، ساحبًا الحبل من يد إلى يد بينما يركض. كان طاقم قادسه قد وَصَلَ حبلًا ثقيلًا، بثخانة ذراع رجل، بنهاية حبل النقل، فأخذوا يرسلونه إلى الطرف الآخر عندما شدَّ ثقله تانوس إلى الخلف، ثم جرَّه إلى الداخل وعضلات ذراعيه وظهره تتلألأ عرقًا.

بحلول هذا الوقت، أدركت مجموعة من طاقم الصندل ما يوشك تانوس أن يفعله، فهرعت لمساعدته. وبتوجيهاته، لفوا نهاية الحبل ثلاث لفات حول دقل[1] الصندل الأمامي، وحالما صار وثيقًا أشار تانوس لقادسه بالانطلاق.

وثبت *أنفاس حورس* إلى المجرى، وراحت تحث سرعتها بعجالة، ثم فجأة، فشلَت في شد الحبل وألقاها وزن السفينة الثقيلة على جانبها. ظننتُ، للحظة مُروِّعة واحدة، أنها قد تنقلب وتغرق، لكنَّ تانوس قد توقع الصدمة وأشار لطاقمه بامتصاصها عبر عكس حركة المجاديف الطويلة بمهارة.

ورغم أن القادس جُرَّ إلى الأسفل حتى غرفَ من المياه الخضراء بكوثله، طفا فجأة واهتز وعاد يشدُّ الحبل. ولبرهة طويلة، لم يحدث شيء. لم يحمل وزن القادس التافه أي أثر في سير السفينة العظيمة الثقيل، فترابطت السفينتان كأنهما تمساح قابضٌ على خَطم جاموس عجوز لكنه عاجز عن سحبه عن الضفة. ثم استدار تانوس في جؤجؤ الصندل ليواجه الطاقم

(1) الدَّقَلُ الأمامي: خشبةٌ طويلةٌ تبرز من مقدمة السفينة. (المترجم).

المضطرب، وأوحى إليهم بإشارة آمرة واحدة جذبت كل انتباههم، وحل عليهم تغيُّر عجيب؛ كانوا ينتظرون أمره.

كان **نِمبِت** قائد أسطول الفرعون بكامله، حاملًا رتبة **أسد مصر العظيم**، وكان في السنين الماضية من الرجال شديدي البأس، لكنه الآن عجوز خرِف. تسلم **تانوس** القيادة منه من دون عناء، كأن الأمر طبيعيٌّ بقدر قوة التيار والريح، واستجاب له طاقم الصندل من فورهم.

أشار إلى المجدِّفين في الصف الأيسر: «شُدُّوا!»، فحنوا ظهورهم وشدُّوا بعزيمة.

وطعن بقبضته المشدودة الميمنةَ قائلًا: «جدفوا عكسيًّا!»، فأخذوا يحرثون الماء براحات مجاديفهم المدببة، ثم اتجه إلى السور وأشار لقائد دفة **أنفاس حورس**، مُنسِّقًا ببراعة جهود كلا الطاقمين. ولا يزال الصندل منقضًّا على الرصيف لا يفصل بينه وبين المتاريس الجرانيتية إلا شريط هزيل من المياه المفتوحة.

ثم أخيرًا، ببطء، ببطء شديد، بدأت الاستجابة. بينما أخذ الجؤجؤ مُبهرج الطلاء بالتهادي إلى المجرى كان يجرُّه القادس ليستدير. ومرة ثانية، تلاشى التهليل وحل ذاك الصمت المشؤوم علينا ونحن ننتظر أن يصطدم بالرصيف ويفقأ أحشاءه على الصخور. وعندما يحدث ذلك، لا شك بما ستكون عاقبته على **تانوس**، فقد اختطف القيادة من الأميرال الخَرِف، لذا لا بدَّ له من تحمل المسؤولية الكاملة عن أخطاء العجوز. عندما يُقذف الفرعون من عرشه بفعل الاصطدام، عندما يتدحرج التاج المزدوج بكل سموِّه على سطح السفينة، وعندما يغوص الصندل الملكي من تحته ويُجرُّ من النهر مثل جروٍ غارق على مرأى كل أتباعه، سيكون كل من الأميرال المهان **نِمبِت** وسيدي **إنتف** جاهزين لحث الفرعون على إنزال كامل ثقل انزعاجه على كاهلي الشاب المغرور حديث العهد.

وقفت عاجزًا أرتجف خوفًا على صديقي العزيز، ثم حدثت المعجزة. كان الصندل بالفعل على وشك أن يجنح **وتانوس** قريب جدًا إلى مكان وقوفي حتى إن صوته بلغني بوضوح عندما صاح: «يا **حورس العظيم**! أعنِّي الآن!».

إنني موقنٌ كل الإيقان بأن الآلهة غالبًا ما تتدخل بشؤون البشر، **وتانوس** من رجال **حورس**، **وحورس** إله الريح.

كانت رياح الصحراء تعصف منذ ثلاثة أيام وليال من الصحراء الغربية اليباب، تضرب بنصف قوة العاصفة من دون وازع طوال الوقت، لكنها انحسرت الآن. لم تنخفض تدريجيًا، بل توقفت عن النفخ وحسب، فتسطحت المويجات التي رقَّطت صفحة النهر، وهمدت أشجار النخيل التي كانت تهزُّ سعفها بشدة على طول الضفة، كأن صقيعًا مباغتًا قد جمدها.

وبعد أن تحرر الصندل من براثن الريح، تراجع إلى حالة توازن أفقي واستسلم لشدِّ *أنفاس حورس*. ثم تحوَّل جؤجؤه الأبجر إلى المجرى، ليوازي الرصيف في اللحظة نفسها التي لمس جانبه الحجارة المطلية فيها وأخمدت سرعة النيل تقدمه مثبتةً إياه بلا حراك في المياه.

أعطى **تانوس** أمرًا أخيرًا، وقبل أن تتمكن السفينة من التقهقر، أُلقيت حبال الرسو إلى الرصيف وجمعتها الأيدي المتلهِّفة بسرعة لتربطها بالمرابط الحجرية. وبخفة زغابة إوزة تطفو على سطح الماء، سكَنَ الصندل العظيم آمنًا مطمئنًا في مرساه، ولم يُزعج إرساؤه لا العرش الذي يجلس عليه الفرعون، ولا التاج الطويل فوق رأسه.

انفجرنا نحن المتفرجون في هدير ثناء على هذا العمل الباهر، ودار اسم **تانوس** بدلًا من اسم الفرعون على ألسنتنا. وبكلِّ تواضع، وحصافة، لم يُبدِ **تانوس** أي اعتراف بتصفيقنا، فمن الحماقة أن يجذب لنفسه من الانتباه الإضافي ما قد ينتقص من الترحيب الذي ينتظر الملك، وسيلغي ذلك أي حظوة ملكية أكسبته مأثرته إياها، إذ طالما كان الفرعون غيورًا على هيبته الملكية. بدلًا من ذلك، أشار إلى *أنفاس حورس* خلسة لتصطف بجانب الصندل، وعندما اختفت عن أنظارنا خلف جسامته، هبط عن جانبه إلى متنها، ليخرج من المسرح الذي حقق عليه هذا المجد، تاركًا إياه لملكه.

ومع ذلك، رأيتُ سيماء السُّخط والضِيق على وجه **نمبِت**، الأميرال العتيق **أسد مصر العظيم**، وهو ينزل إلى الشاطئ خلف الفرعون، وعرفتُ أن **تانوس** قد أكسب نفسه عدوًا قويًا آخر.

***

أمكنني في ذلك المساء الوفاء بوعدي **للوستريس** عندما جمعتُ طاقم الحفل في البروفة النهائية. وقبل أن يبدأ العرض، تدبرتُ منح العاشقين ساعةَ خلوةٍ تقريبًا.

كُنت قد نصبتُ في باحات معبد أوزيريس، الذي قُرر أن يكون مسرح حفلنا، خيامًا تؤدي دور غرف ملابس لكل الممثلين الأساسيين. ووضعت خيمة لوستريس عمدًا منعزلة بعض الشيء عن البقية، ومحجوبة عنها بالأعمدة الحجرية الضخمة التي تحمل سقف المعبد. وبينما أقف حارسًا على مدخل الخيمة، رفع تانوس الغطاء الخلفي وانسلَّ من تحته.

حاولت أن لا أتنصَّت على هتافات اغتباطهما عندما تعانقا، ولا على همساتهما وتغازلهما وضحكهما المكتوم، والآهات واللهثات الخفيضة التي استحثتها ممارسة الحب المحتشمة بعد ذلك. ورغم أنني ما كنتُ لأحاول منعهما في هذه المرحلة، كنتُ مقتنعًا أنهما لن يبلغا بممارسة الحب هذه ذروتها الختامية. وبعد زمن طويل، أكدت لي لوستريس وتانوس ذلك كل على حدة، وظلت مولاتي عذراء حتى يوم زفافها. أتساءل كم كانت لتختلف تصرفاتنا آنذاك لو علم أيٌّ منا بمدى اقتراب حلول يوم الزفاف ذلك علينا.

ورغم أنني كنتُ مدركًا أوضح الإدراك أن كل دقيقة تمرُّ وهما وحيدان في الخيمة تزيد الخطر علينا جميعًا، فلم يسعني حمل نفسي على منعهما وتفريقهما. ورغم أن الكدمات التي رسمها سوط راسفر على ظهري ما زالت تحرقني، وأن حسدي للعاشقين يحرقني بالقدر نفسه في عمق مستنقع روحي حيث أحاول دفن كل أفكاري وغرائزي التافهة، تركتهما معًا مدةً أطول بكثير مما ينبغي لي.

لمْ أسمع وقع خطوات سيدي إنتف المقتربة، فقد اعتاد تنعيل صندله بألْيَن جلود الجداء ليكتم صوت قدميه. كان يتحرك هادئًا كشبح، وكم ذاق من حاشيته وغلمانه سوط راسفر أو أنشوطته بسبب كلمة طائشة سمعها سيدي مصادفة في أثناء تمشِّيه الصامت بين ردهات القصر ودهاليزه. لكنني طورتُ على مرِّ السنين بديهة تمكنني من الشعور بوجوده في معظم الأوقات قبل أن يخرج من الظلال. ولم تكن هذه البديهة معصومة، غير أنها أجدتني خير نفع في ذلك المساء، فعندما نظرتُ حولي فجأة، كان عندي تقريبًا، يتسلل بين أعمدة الردهة ناحيتي، أهيَف وطويلًا وفتاكًا كصلٍّ منتصب.

ضحتُ بصوت عالٍ حد أنني أجفلت نفسي: «سيدي إنتف! يشرفني قدومك لحضور تمريناتنا، وسأكون في غاية الامتنان لأي نصيحة أو اقتراح...». رحتُ أثرثر بعشوائية محاولًا ستر ارتباكي وتحذير العاشقين في الخيمة خلفي.

ونجحتُ في كلا الموضوعين أكثر مما يحق لي توقعه. ثم سمعتُ جلبة الفزع المفاجئة في خيمة الملابس من خلفي عندما تفارق العاشقان، وتلاها خفق الغطاء الخلفي عندما انسل **تانوس** من تحته مثلما دخل.

ما كنت لأنجح في أي وقت آخر في خداع سيدي **إنتف** بهذه السهولة، إذ كان ليقرأ الذنب على وجهي بوضوح قراءتي الهيروغليفية على جدران المعبد أو حروفي على هذه اللفيفة، لكنَّ سخطه في ذلك المساء أعمى عينيه، ولم يكن في نيَّته إلا توبيخي على جنحتي الأخيرة، فلم يثُر ولم يهدر غضبًا، وكنت أعرف أن مولاي في أخطر حالاته عندما تكون لهجته مُهادنة وابتسامته عذبة.

قال بصوت يكاد يكون همسًا: «عزيزي **تايتا**، سمعتُ أنك عدَّلت بعض ترتيبات العرض الافتتاحي للحفل، على الرغم من أنني طلبتُها شخصيًا. لم أصدق أنك تصرفت بهذه الغطرسة، فاضطررت إلى قطع كل هذه المسافة في الحرِّ لأكتشف بنفسي».

عرفتُ أنه لا جدوى من تصنُّع البراءة أو الغباء، لذا حنيتُ رأسي وحاولتُ أن أبدو محزونًا: «مولاي، لم أكن أنا من طلب التغييرات، بل قداسته، رئيس معبد **أوزيريس**...»

لكنه قاطعني بصبر يكاد ينفد: «أجل، بالطبع فعل، لكن بعد أن حثثتَه على ذلك. أتظنني لا أعرفكما أنت والكاهن العجوز المُغمغم؟ لم تسكُن رأسه فكرة أصيلة قطُّ، في حين لا يملأ رأسك إلاها».

فاحتججت: «سيدي!».

ثم سألني، بصوت ناعم كفحيح إحدى الأصلال المقدسة التي تجتاح المعبد وتنسل على البلاطات الحجرية: «أي حيلة ضئيلة ماكرة دبَّرت هذه المرة؟ أكان حلمًا مؤاتيًا من الأحلام التي ترسلها الآلهة لك؟».

- سيدي!

بذلتُ ما في وسعي لأبدو مصدومًا إزاء الاتهام، رغم أنني في الحقيقة حكيتُ للكاهن الطيب حكاية خياليَّة بعض الشيء عن زيارة **أوزيريس** إياي في هيئة غراب أسود وتبرُّمه من الدم المهروق في معبده.

حتى ذلك الحين، لم يكن الكاهن قد أعرب عن أي اعتراض على القطعة المسرحية الواقعية التي أعدَّها سيدي **إنتف** لتسلية الفرعون، ولم ألجأ إلى الأحلام إلا عندما فشلَت كل جهودي في إقناع سيدي بالعدول عنها، فقد مقتُ

مقتًا شديدًا أن أكون طرفًا في شناعة كالتي طلب سيدي أن تؤدى في الفصل الأول من الحفل، وبالطبع أدرك أن بعض شعوب الأراضي الشرقية تقدم أضحية بشرية لآلهتها. سمعتُ أن الكيشيين، الذين يعيشون خلف النهرين التوءمين دجلة والفرات، يُلقون أطفالًا حديثي الولادة في فرن متّقد. ويحكي أرباب القوافل الذين سافروا إلى تلك الأراضي البعيدة عن فظائع أخرى تؤدى باسم الدين، عن عذارى صغيرات تُذبحن لتحسين الحصاد أو أسرى حربٍ تقطع رؤوسهم أمام تماثيل إله ثلاثي الرؤوس.

بيد أننا نحن المصريين قوم متحضرون يعبدون آلهة حكيمة وعادلة، لا وحوشًا مجنونة بسفك الدماء. حاولت إقناع مولاي بهذا، وأوضحت له أن فرعونًا واحدًا فقط قدم أضحية بشرية في الماضي، عندما ذبح أمنحتب[1] الأمراء المتمردين السبعة في معبد ست وقطّع جثثهم أرباعًا وأرسل قطعة محنطة إلى حاكم كل مقاطعة تحذيرًا. لا يزال التاريخ يذكر الفعل بنفور، ولا يزال أمنحتب حتى يومنا هذا يُعرف بالملك الدمويّ.

فعارضني قائلًا: «ليست تضحية بشرية، بل محض إعدام مُستحَق يُنفذ بطريقة عصرية بعض الشيء. لن تنكر يا تايتا العزيز أن عقوبة الموت لطالما كانت جزءًا مهمًّا من نظامنا العدليّ، صحيح؟ إنَّ تود لص سرق من الخزائن الملكية ولا بدَّ أن يموت، وإن لم يكُن موته إلا عبرة للآخرين».

بدا كلامه معقولًا، غير أنني أعلم أن العدالة لا تهمه في شيء، بل ما يهمه هو حماية كنزه وإثارة إعجاب الفرعون، الذي كان عاشقًا للحفلات والمسرح، ولم يترك لي ذلك بُدًّا من أن أحلُم لأجل الكاهن الطيب. ارتفعَت شفةُ سيدي إنتف بعد ذلك في ابتسامة كشفت عن أسنانه المثالية، لكنها جمَّدت دمي وقشعرت شعر قفاي.

ثم همس بالقرب من وجهي: «هاك بعضَ نصيحةٍ: أقترحُ أن يراودك حلم آخر الليلة، حتى يحظى الإله الذي زارك المرة الماضية أيًا ما كان بفرصة ليلغي أوامره السابقة للكاهن ويجيز ترتيباتي. وإن لم يحدث ذلك، فسأجد بعض العمل الإضافي لراسفر، وهذا وعدٌ مقدس أقطعه لك». واستدار موسعًا خطاه، تاركًا إياي مرتاحًا لأنه لم يكتشف العاشقين وبائسًا لأنني بتُّ مُجبرًا على المضي بالعرض السافل الذي أمر به.

(1) الفرعون أمنحتب الثاني، سابع ملوك الأسرة الثامنة عشرة، الذي أرسل حملة إلى بلاد تخسي في شمال سوريا وذبح بيده أمراء تخسي السبعة. (المترجم).

وعلى الرغم من ذلك نجحت البروفة، بعد مغادرة مولاي، نجاحًا مشجعًا أنعش معنوياتي، إذ أحاط **بلوستريس** وهج سعادة بعد لقائها **بتانوس** جعل جمالها إلهيًا بحق، وبدا **تانوس** بشبابه وقوَّته **حورس** الشاب مُتجسدًا.

أقلقني بطبيعة الحال دخول **أوزيريسيَ** المسرح وقد صرتُ مدركًا مصيره الذي أمر سيدي **إنتف** به. أدى دور **أوزيريس** رجل وسيم في منتصف العمر اسمه **تود**، كان أحد الحجّاب حتى قُبض عليه يمدُّ يده إلى خزائن سيدي **إنتف** ليعيل بغيًا شابة وباهظة أُغرم بها، ولستُ فخورًا أن تدقيقي الحسابات هو ما سلط الضوء على الخلل فيها.

أطلق سيدي سراحه من الحجز حيث كان منتظرًا محاكمة وحكمًا رسميين، ليؤدي دور إله العالم السفلي في الحفل، ووعد أنه لن يتخذ أي إجراء إضافي في المسألة إذا ما أدى دور **أوزيريس** بصورة مرضية. لم يكن **تود** الشقي مدركًا الخطر المخبأ في طيات هذا العرض، وألقى بنفسه في الأداء بحماسة مثيرة للشفقة، معتقدًا أنه موشك أن يكسب إعفائه. لم يعرف أن سيدي، في هذه الأثناء، قد وقَّع سرًّا على أمر إعدامه وسلم اللفيفة **لراسفر**، الذي لم يكن جلاد الدولة وحسب، بل خياري لدور **سِت** في عرضنا الصغير هذا كذلك. كانت رغبة سيدي أن يجمع الدورين في المساء التالي عندما يؤدى الحفل أمام الفرعون. ورغم أن **راسفر** خيار بدهي لدور **سِت**، فقد ندمت على منحه إياه عندما شاهدته يتدرب على المشهد الافتتاحي مع **تود**، وارتعشتُ إزاء تصوري كيف سيختلف الأداء الرئيس عن البروفة.

بعد البروفة، كانت مرافقة مولاتي إلى الحريم الواجب الأحب إلى قلبي، ولم تسمح لي بالمغادرة، بل أبقتني لأستمع إلى موجزها المتحمس لأحداث النهار الاستثنائية والدور الذي لعبه **تانوس** فيها.

- أرأيتَ كيف نادى الإله العظيم **حورس**، وكيف أعانه الإله من فوره؟ إنه يتمتع بكامل استحسان **حورس** وحمايته بلا شك، ألا توافقني الرأي؟ لن يسمح **حورس** لأي شر بأن يصيبنا، إنني واثقة من ذلك الآن.

ثم دار الكثير من الكلام حول هذا الخيال السعيد، ولا مزيد من الكلام عن الفراق والانتحار. ما أسرع تبدُّل رياح الحب الشاب!

- لا شك أن **تانوس**، بعد ما فعله اليوم، بعد إنقاذه الصندل الملكي من التحطم، قد كسب مكانة عالية لدى الفرعون أيضًا، ألا تظن ذلك يا

تايتا؟ وأمام استحسان الإله والفرعون، لا يمكن أن ينجح أبي في إبعاده الآن، أيمكنه يا تايتا؟

لقد نوديتُ لأؤيِّد كل الأفكار السعيدة التي تمرُّ ببالها، ولم يُسمح لي بمغادرة الحريم حتى حفظتُ على الأقل دزينة رسائل حب أبديٍّ أقسمتُ على حملها إلى تانوس شخصيًّا.

وعندما بلغتُ مهجعي مُنهكًا في آخر الأمر، لم أجد وقتًا للراحة فيه كذلك، فقد كان الغلمان جميعهم تقريبًا ينتظرونني، متحمسين ومهذارين بقدر مولاتي. هم أيضًا أرادوا سماع رأيي في أحداث النهار، ولا سِيَّما إنقاذ تانوس لسفينة الفرعون وأهمية هذا الفعل، فبينما أطعم حيواناتي تزاحموا حولي على الشرفة فوق النهر، وراحوا يتنافسون على انتباهي.

- أخي الأكبر، أصحيح أن تانوس نادى الإله ليساعده، وأن حورس تدخل فورًا؟ أرأيتَ ذلك يحدث؟ يقول البعض حتى إن الإله قد ظهر في هيئته الصقرية وحوَّم فوق رأس تانوس، ناشرًا جناحي حمايته فوقه. أهذا صحيح؟

- أصحيح يا آخ أن الفرعون رقَّى تانوس إلى رتبة صاحب الفرعون، ومنحه عزبة وخمسمئة فدان من الأراضي الخصبة على شاطئ النهر مكافأةً؟

- أخي الأكبر، يقولون إن العراف في الضريح الصحراوي لتحوت[1]، إله الحكمة، قد قرأ طالع تانوس، وتنبأ بأنه سيكون أعظم المحاربين في تاريخ مصر وأنه سينال عند الفرعون حظوة تفوق الجميع يومًا ما.

من المسلِّي تذكر هذه الثرثرات الطفولية، والانتباه إلى الحقائق الغريبة المحتجبة بين ثناياها، لكنني آنذاك صرفتُها مثلما صرفت الأطفال، بقسوة زائفة.

عندما أعددتُ نفسي للنوم، كانت أُخرى أفكاري أن تانوس قد سكن قلوب سكان المدينتين التوءمتين الأقصر والكرنك واستقر فيها، لكن هذا الامتياز مُشكِلٌ وباهظ الثمن، فالشهرة والشعبية تولدان الحسد في المراتب الرفيعة، وتملُّق الدهماء ليس ثابتًا، ذلك أنهم في الغالب ما يستمتعون بتمزيق النجوم

(1) تحوت: أو توت، إله الحكمة عند المصريين القدماء وأحد أرباب ثامون الأشمونين الكوني. يُعدُّ من أهم آلهة مصر القديمة ويُصوَّر برأس أبو منجل. (المترجم).

الذين سئموا منهم بقدر ما استمتعوا في رفعهم إلى هذه المنزلة في المقام الأول.

من الآمن كثيرًا أن يعيش المرء خفيًا غير ملحوظ، كما أحاول دائمًا أن أعيش.

***

في ظهيرة اليوم السادس من المهرجان، انتقل الفرعون في موكب مهيب من دارته في غمرة الأراضي الملكية بالريف المكشوف بين **الكرنك والأقصر**، مرورًا بالجادة المراسمية المبطنة بتماثيل الأسود الجرانيتية، إلى معبد **أوزيريس** على ضفة النيل.

بينما كانت الزلاجة الضخمة التي ركبها عاليةً علوًا أجبر الحشود الغفيرة المصطفة على جانبي الجادة على لَيّ أعناقهم خلفًا ليرفعوا أبصارهم إليه فوق عرشه العظيم المذهَّب تمر متدحرجة كان يجرها عشرون ثورًا أبيض ناصعًا بأكتاف هائلة محدودبة ورؤوس مُقرَنة مكللة بالأزهار، وسحجت قاعدتها البلاط سحجًا شديدًا ترك ندوبًا على الكتل الحجرية.

قاد الموكب مئة موسيقي يعزفون على السمسميات[1] والقيثارات، ويضربون الصنوج والطبول، ويهزون الخشخيشات والسيسترومات[2]، وينفخون في قرون المها الطويلة المستقيمة وقرون الكِباش الجبلية الملتفّة. تبعتهم جوقة قوامها مئة من أحسن الأصوات في مصر، تغني ترانيم الثناء على الفرعون وذاك الإله الآخر **أوزيريس**، وبطبيعة الحال، كُنت قائد الجوقة. مشى خلفنا حرس شرفي من فرقة التمساح الأزرق بقيادة **تانوس** شخصيًا، وخصته الحشود بتهليل مميز عندما مر مُريِّشًا ومُدرعًا من أمامها، وزعقت العذراى وسقطت غير واحدة منهن مغشيًا عليها في الرمل وقد غلبتها الهستيريا التي أثارتها الشهرة المُكتسبة حديثًا.

وراء الحرس الشرفي، مشى الوزير ومسؤولو المناصب العليا لديه، ثم النبلاء وزوجاتهم وأطفالهم، ثم سرية من فرقة الصقر، وأخيرًا عربة الفرعون العظيمة. وبالإجمال، كان جَمعًا لعدة آلاف من أثرى أهل المملكة العليا وأشدهم نفوذًا.

(1) السمسمية: آلة وترية مصرية محلية ترجع جذورها إلى مصر القديمة. (المترجم).

(2) السيستروم: آلة موسيقية من عائلة الإيقاع، وترتبط بصورة رئيسة بمصر القديمة. (المترجم)..

عند دنوّنا من معبد **أوزيريس**، وجدنا رئيس المعبد وجميع كهنته منتصبين على الدرج بين البوابات الشاهقة لاستقبال الفرعون **ماموس**. كان المعبد قد طُليَ حديثًا، والنحتُ الغائر على الجدران الخارجية يتألق ألوانًا في وهج غروب الشمس الأصفر الدافئ، وثمة غيمة زاهية من الألوية والرايات ترفرف على سارياتها المثبتة في تجاويف الجدار الخارجي.

عند قاعدة الدرج، هبط الفرعون من زلاجته وبدأ يتسلق الدرجات المئة في جلال مهيب. كانت الجوقة قد اصطفَّت على جانبي الدرج، واحتللتُ الدرجة الخامسة عشرة، لذا تمكنتُ من تفحص الملك بدقة في بضعة الثواني التي استغرقها مروره بقربي.

وكنتُ أعرفه خير المعرفة بالفعل، ذلك أنه كان أحد مرضاي فيما سبق، لكنني نسيتُ مدى صغر حجمه، وأعني صغره بالنظر إلى كونه إلهًا، إذ لم يبلغ طوله ارتفاع كتفي، رغم أن التاج المزدوج جعله أكثر جاذبية بكثير. كانت ذراعاه مطويتين فوق صدره في الوقفة المراسمية وحاملًا عصا الراعي والمذبة[1] الخاصين بمنصبه الملكي وألوهيته، ولاحظتُ مثلما لاحظتُ قبلاً أن يديه مدداوان وناعمتان وأنثويتان تقريبًا، وأن قدميه صغيرتان ودقيقتان. كان يلبس خواتم في كل أصابع يديه وقدميه، وتمائم في عضُديه وأساور في معصميه، وكانت صدارة الذهب الأحمر الثقيلة على صدره مرصَّعة بألوان مختلفة من القيشانيّ[2] الذي يصوِّر الإله **تحوت** حاملاً ريشة الحقيقة، ويعدُّ هذا المصاغ كنزًا مُبجلًا عمره خمسمئة عام تقريبًا ارتداه سبعون ملكًا من قبله.

أسفل التاج المزدوج، بُيِّض وجهه بمسحوق يحاكي بياض الجثث، وكُحلت عيناه بإفراط بكحلٍ أسود فاحم، ولُوِّنت شفتاه بأحمر قرمزيٍّ. وتحت المكياج الثقيل، كان تعبير وجهه نزقًا، وشفتاه رقيقتان ومستويتان وجدِّيتان، وعيناه مواربتين ومضطربتين، وفكرتُ في نفسي بأن ذلك غير مستغرب.

فأسُس هذه العائلة المصرية العظيمة متصدعة، والمملكة ممزقة ومتداعية، وحتى الإله لا يبرأ من الهموم. في زمان مضى، امتد ملكها من

(1) عصا الراعي والمذبة: رموز كانت مستخدمة في المجتمع المصري القديم، وهي في الأصل سمات الإله أوزوريس التي أصبحت شارة للسلطة المصرية القديمة. (المترجم).

(2) القيشاني: خزف مغطى بقشرة رقيقة بيضاء عليها طلاء أبيض شفاف تحته رسوم. (المترجم).

البحر، عبر مصبات الدلتا السبعة، جنوبًا إلى أسوان والجندل الأول. كانت أعظم إمبراطورية على سطح الأرض، لكنه هو وأسلافه تركوها تنسلُّ كلها من بين أصابعهم، وباتت حدودها المتقلصة تعج بأعدائها المعطعطين مثل الضباع والنسور وبنات آوى في انتظار افتراس جيفة مصرنا.

فقد احتلت الجنوب قبائل إفريقيا السوداء، وسكنت الشمال على طول ساحل البحر الكبير شعوب البحر القرصانية، وسيطرت جحافل الفرعون الكاذب على امتداد الروافد السفلى للنيل. وفي الغرب أقام البدو الغدارون والليبيون الماكرون، في حين بدا أن قبائل جديدة تظهر في الشرق يوميًا، قبائل تدب أسماؤها بالذعر في أمة صيَّرتها الهزائم رعديدة ومتذبذبة. الآشوريون والميديون والكيشيون والحوريون والحيثيون، كأن عديدهم لا ينتهي.

وأي أفضلية تظل لحضارتنا العتيقة إن كبُرت ضعفًا ووهنًا مع كِبر سنها؟ كيف لنا أن نقاوم البربري بعزمه الوحشي وجبروته القاسي وشهوته للسلب والنهب؟ كنتُ على يقين من أن هذا الفرعون، كأولئك الذين سبقوه مباشرة، عاجز عن قيادة الأمة إلى أمجادها السابقة، بل كان عاجزًا عن إنجاب ولي عهد حتى.

بدا أن هذه الحاجة إلى ولي عهد لإمبراطورية مصر تقض مضجعه أكثر من خسارة الإمبراطورية نفسها، إذ كان قد اتخذ حتى ساعتها عشرين زوجة لم ينجبن له إلا البنات، قبيلة فعلية من البنات، من دون صبي واحد، ولم يقبل أن العيب فيه بوصفه الأب، بل استشار كل طبيب ذائع الصيت في المملكة العليا وزار كل عرّاف في كل ضريح ذي شأن.

عرفت كل هذا لأني كنت أحد الأطباء المتبحّرين الذين أرسل في طلبهم. أعترف أنني شعرت آنذاك ببعض الارتعاد إزاء وصف علاج لإله، وتساءلت عن سبب حاجته إلى استشارة محض فانٍ في موضوع حساس كهذا. ومع ذلك، وصّيت بحمية غذائية قوامها خصى الثّيران المقلية بالعسل وأشرتُ عليه بالبحث عن أجمل عذراء في مصر وحملها إلى سريره الزوجي في غضون عام من أول إزهار لقمر أنوثتها.

لم أومن كثير الإيمان في علاجي، لكن خصى الثيران، إذا ما طُهيت وفق وصفتي، طبق لذيذ، وافترضت أن البحث عن أجمل عذراء في البلاد قد يلهي الفرعون ويتبين أنه ليس مسليًا فحسب، بل ممتع كذلك. ومن وجهة نظر

عملية، إذا ما ضاجع الملك عددًا كافيًا من الشابات، فلا بدَّ أن تلقي إحداهن بجروٍ في الحريم في آخر الأمر.

بأي حال، عزيتُ نفسي بأن علاجي ليس قاسيًا كبعض ما اقترحه أقراني، ولا سِيًّما تلك الوصفات المقرفة التي لفقها دجالو معبد أوزيريس الذين يسمون أنفسهم أطباءً، ذلك أن توصياتي وإن لم تكن فعَّالة حقًّا، فعلى الأقل لن تضر. هذا ما كنت أعتقد، ويا لحجم خطئي الذي كشفته الأقدار. لو علمتُ حينها عواقب حماقتي، لفضَّلت أخذ مكان توت في الحفل على إسداء الفرعون نصيحة طائشة كهذه.

شعرتُ بالسعادة والإطراء وقتما سمعتُ أن الفرعون قد أخذ نصيحتي على محمل الجد وأمر أمراءَه وحكامَه بأن يطوفوا طول البلاد من تل العمارنة إلى الجنادل بحثًا عن ثيران ذات خصى كثيرة العصارة وأي عذراء قد تلائم المواصفات التي حددتُها لأم ابنه. وأبلغتني مصادري في بلاط الملك بأنه قد رفض بالفعل مئات المتقدمات الطامحات إلى لقب أجمل عذراء في البلاد.

ثم عبرني الملك بسرعة وغاب في المعبد بين عويل الكهنة وتمايل رئيسهم المتذلل. تبعه مباشرة الوزير الأعظم وكل حاشيته، ثم دار الصخب المخجل للمواطنين الأدنى منزلة في بحثهم عن أماكن يشاهدون منها تمثيلية الآلام. كانت المساحة داخل المعبد محدودة، ولا يُسمح إلا للعظماء والنبلاء والأثرياء بما يكفي لرشوة الكهنة اللصوص بدخول الباحة الداخلية. أما البقية فعليهم المشاهدة من بين البوابات في الباحة الخارجية، وتخيب آمال آلاف عديدة من المواطنين فلا يجدون بدًا من الرضا بسماع التمثيلية مرويةً. حتى أنا، المنتج، عانيتُ كثيرَ المشقةِ في شقِّ طريقي بين الزحام البشري، ولم أنجح إلا عندما رأى تانوس ضائقتي وأرسل اثنين من رجاله لينقذاني ويفتحا لي ممرًّا إلى الباحات المحجوزة للممثلين.

قبل أن يتسنَّى للحفل البدء، كنا مُلزمين بتحمل سلسلة من الخطب الطنانة، أولًا من الموظفين ووزراء الحكومات، ثم من الوزير الأعظم شخصيًا. منحني فاصل الخطب هذا فرصة لأتأكد من أن كل ترتيبات الحفل سليمة، فمضيت من خيمة إلى خيمة أتفحص أزياء ممثليَّ ومكياجهم، وأسكِّن نوبات توتر المزاج ورهاب المسرح التي تهجم في اللحظات الأخيرة.

كان **تود** البائس فزعًا ومضطربًا من احتمال أن لا يُرضي أداؤه سيدي **إنتف**. تمكنتُ من طمأنته بأنه سيرضيه من دون شك، ثم أعطيته جرعة من الزهرة المنومة، والتي من شأنها تخفيف الألم الذي يوشك أن ينزل به.

عندما وصلت إلى خيمة **راسفر**، وجدته يشرب النبيذ مع صاحبين له من حرس القصر، ويشحذ سيفه البرونزي القصير بحجر شحذ. كنتُ قد أعددتُ مكياجه ليجعله أبغض بعد، ما لم يكن إنجازًا سهلًا بالنظر إلى مستوى القباحة العالي الذي بدأنا منه. وأدركتُ مدى نجاحي وقتما نظر إليَّ شزرًا بأسنانه المسودَّة وعرض عليَّ كأسًا من النبيذ.

- كيف حال ظهرك الآن أيها الفتى الجميل؟ فلتتذوق شراب الرجال! لعله يعيد إليك خصيتيك!

كنتُ معتادًا لواذعه، وحافظتُ على كرامتي بإخباره أن سيدي **إنتف** قد أبطل أوامر رئيس الكهنة وأن الفصل الأول سيؤدَّى بصيغته الأصلية.

فرفع سيفه قائلًا: «لقد تحدثت إلى سيدي **إنتف** بالفعل. تحسس حدَّ النصل أيها الخصيُّ، أودُّ التوثُّق من أنه يحظى بقبولك». وغادرتُه شاعرًا ببعض الغثيان.

وعلى أن **تانوس** لن يدخل المنصة حتى الفصل الثاني، فقد كان في زيه الكامل بالفعل، وقبض على كتفي، مسترخيًا ومبتسمًا: «حسنًا يا صديقي القديم، هذه فرصتك، فبعد هذا المساء، ستذيع شهرتك كاتبًا مسرحيًا في جميع أصقاع مصر».

فقلت له: «مثلما ذاعت شهرتك بالفعل، إن اسمك على كل لسان (لكنه بينما بدَأ الحديث بالضحك بتواضع غير مكترث أكملت...) هل حضَّرت خُطبتك الختامية يا **تانوس**؟ أتود قراءتها عليَّ الآن؟».

جرت العادة على أن يختتم الممثل الذي يؤدي دور **حورس** التمثيلية برسالة إلى الفرعون، رسالة هي في ظاهرها من الآلهة، لكنها في الحقيقة من رعاياه. في الأزمنة الغابرة، كانت هذه هي المناسبة الوحيدة في العام حيث يتمكَّن الشعب، بواسطة الممثلين، من لفت نظر الملك إلى القضايا المهمة التي لم يكن بإمكانهم محادثته بخصوصها في أي وقت آخر. لكن إبَّان حكم سلالة الملوك الأخيرة هذه، سقطت هذه العادة، وصارت خُطبة الختام تقريظًا آخر للفرعون الإلهيّ.

مرّت أيام وأنا أطلب من **تانوس** أن يسمعني خطابه، لكنه ماطلني في كل مرة بأعذار واهية حتى صرتُ أشك في نواياه كل الشك، فألححتُ عليه بقولي إن هذه هي الفرصة الأخيرة، فضحك عليَّ، وقال: «لقد قررت أن يكون خطابي مفاجئًا لك بقدر ما سيكون مفاجئًا للفرعون، وهكذا يستمتع كلاكما به أكثر».

لم يكن ثمة ما يمكنني فعله لإقناعه، إذ إن بمقدوره أحيانًا أن يكون أعند وأحرَن شاب همجي التقيته على الإطلاق، فتركته في حنق ليس بقليل، ومضيتُ أبحث عن صحبة أكثر أنسًا.

جمَّدتني الصدمة عندما انحنيتُ داخلًا خيمة ملابس **لوستريس**، فرغم أنني صممت زيها بنفسي وأرشدتُ إماءها بدقة إلى طريقة تنفيذ البودرة وأحمر الشفاه والكحل، لم أكُن مستعدًا لهذا الطيف السماوي الواقف أمامي. وللحظة، اقتنعتُ أن معجزة أخرى قد حدثت وأن الإلهة قد صعدت بالفعل من العالم السفلي لتحل محل مولاتي، فشهقتُ شهقة عالية وبدأتُ حقيقةً بالتقهقر على ركبتي في رهبة خرافية عندما قهقهت مولاتي وأيقظتني من وهمي.

قالت: «أليس هذا ممتعًا؟ لا أطيق انتظار رؤية **تانوس** في زيِّه الكامل، إنني واثقة من أنه لا بدَّ يبدو كالإله نفسه». واستدارت ببطء لتمكنني من استبداع زيها، مرسلة ابتسامة لي من فوق كتفها.

فهمستُ: «ليس أشبه بالآلهة منك يا سيدتي».

سألتني بصبر يكاد ينفد: «متى ستبدأ التمثيلية؟ لا يسعني الانتظار أكثر».

نصبتُ أذني تلقاء قماشة الخيمة وأنصتُّ لحظةً لطنين الخطابات في القاعة الكبيرة، وأدركتُ أن هذا هو الخطاب الأخير وأن سيدي **إنتف** سينادي الممثلين ليبدؤوا في أي لحظة.

أمسكتُ بيد **لوستريس** واعتصرتها، ثم نبهتها: «تذكري الوقفة الطويلة والنظرة الشامخة قبل أن تبدئي خطابك الافتتاحي».

صفعتْ كتفي مداعبةً، وقالت: «انصرف من هنا أيها النقَّاق العجوز، سيكون كل شيء مثاليًا، وسترى».

في تلك اللحظة سمعتُ صوت سيدي **إنتف** يعلو «الإله السماوي الفرعون **ماموس**، الأسرة المصرية العظيمة، عماد المملكة، العادل، العظيم، البصير، الرحيم...»، وبينما توالت الألقاب والتشريفات خرجتُ مسرعًا من خيمة

لوستريس وشققت طريقي إلى موقعي الافتتاحي خلف العمود المركزي، نظرتُ حول العمود ورأيت أن الباحة الداخلية للمعبد مكتظة وأن الفرعون وكبيرات زوجاته جالسون في الصف الأول على مقاعد خفيضة من خشب الأرز، يرتشفون الشراب البارد أو يقضمون التمر والفاكهة المجففة.

كان سيدي إنتف يخاطبهم من مقدمة المنصة المنصوبة أسفل المذبح، والتي كانت مسرحنا، وكان بدنها الأساسي لا يزال محتجبًا عن الجمهور بستائر كتانية، فتفحصتها مرة أخيرة، وإن تأخر الوقت على فعل أي شيء إضافي حيالها الآن.

خلف الستائر، زُيِّنت خشبة المسرح بأشجار النخيل والسنط التي زرعها البستانة تحت توجيهي، وكان بنَّائيَّ قد أوقفوا عن عملهم في مقبرة الملك لكي يبنوا حوضًا حجريًا في مؤخر المعبد يمكن تحويل جدولٍ منه إلى المنصة ليمثل نهر النيل.

في الجزء الخلفي من الخشبة، شُدت بإحكام من الأرض إلى السقف ملاءات كتانية رسم فنانو المدينة الجنائزية عليها مشاهد مذهلة، وفي الظلمة الجزئية للغروب، وتحت خفق وميض المشاعل في حاملاتها، بدا التأثير واقعيًا حتى إنه يأخذ الرائي إلى عالم مختلف في زمان سحيق.

وكانت ثمة مباهج أخرى أعددتُها لتسلية الفرعون، من أقفاص الحيوانات والطيور والفراشات التي ستُطلق لتحاكي خلق العالم على يد الإله آمون رع[1]، إلى الشعلات والمشاعل التي عالجتها بمواد كيميائية لتحترق مصدرةً ألسنة لهبٍ قرمزية وخضراء وهّاجة. وأغرقت الخشبة بضوء خفيٍّ وسحب دخانية، كالّتي تعمُّ العالم السفلي حيث تعيش الآلهة.

- فلتُمنح الحياة الأبدية يا ماموس ابن رع! نحن رعاياك المخلصون، مواطنو طيبة، نتضرع إليك أن تدنو وتولي اهتمامك المقدَّس لهذه التمثيلية المتواضعة التي نهديها لفخامتك.

اختتم سيدي إنتف خطابه الترحيبي وعاد إلى مجلسه. وعندما نُفخ في قرون الكبش المخبأة، خرجتُ من خلف العمود وواجهت الجمهور. كانوا قد

(1) آمون رع: أو آمن رع، أو آمنرع: إله الشمس والريح والخصوبة وأحد الآلهة الرئيسة في الميثولوجيا المصرية القديمة. (المترجم).

تكبدوا الانزعاج والملل فوق البلاطات الصخرية، وصاروا جاهزين بالكامل لبدء التسلية، فرحبوا بدخولي بهتاف مبحوح، وحتى الفرعون ابتسم ترقبًا.

رفعتُ كلتا يدي طالبًا الصمت، ولم أبدأ بمقدمتي إلا بعد أن ساد تمامًا.

«بينما كنتُ أتمشى تحت شعاع الشمس، شابًا ملؤه حميَّة الصبا، سمعتُ الموسيقا المشؤومة بين القصب على ضفة النيل. لم أتعرف صوت القيثارة، ولم أخف، فأنا في عنفوان رجولتي، ومَصون في عشق معشوقتي. كان جمال الموسيقا فائقًا، فمضيتُ مبتهجًا أبحث عن الموسيقيّ، ولم أعرف أنه الموت، وأنه يعزف على قيثارته ليدعوني وحدي».

نحن المصريين مأخوذون بالموت، لذا لمستُ من فوري وترًا عميقًا في باطن جمهوري، فتنهدوا وارتعدوا.

«قبض الموت عليَّ وحملني بذراعيه العظميتين ناحية آمون رع، إله الشمس، وتماهيتُ مع ضوء وجوده الأبيض. ومن مسافة شاسعة، سمعتُ معشوقتي تنتحب، لكنني لم أرَها، وغابَت أيامي كلها كأنها لم تكُن».

كانت هذه أول قراءة على الملأ لنثري، وعرفتُ من فوري تقريبًا أنني تمكنت منهم، إذ كانت وجوههم ذاهلة ومُنتكِبَة، ولا يُسمع صوتٌ واحدٌ في المعبد.

«أجلسني الموت في مكان عالٍ رأيتُ منه العالم مثل ترس مدوَّر لامع في بحر السماوات الأزرق. رأيتُ جميع البشر والمخلوقات التي عاشت في جميع الأزمان. ومثل نهر عظيم، سار الزمان عكسيًّا أمام عيني. جلستُ مئة ألف عام أشاهد كفاحها وموتها. شاهدت كل البشر يرجعون من الموت والشيخوخة إلى الطفولة والولادة، وأخذ الزمان يزداد سحقًا شيئًا فشيئًا، حتى عاد إلى ولادة أول رجل وأول امرأة، فشاهدتهما في لحظة ولادتهما، ومن ثم قبلها. وأخيرًا، خلا سطح الأرض من البشر، ولم يعد ثمة إلا الآلهة.

لكن النهر ظلَّ يتدفق متجاوزًا زمن الآلهة حتى وصل إلى **نون**[1]، إلى عصر الظلمة والهيولى البدئية، ثم لم يعد بمقدور نهر الزمان أن يتدفق أكثر من ذلك، لذا عكَس جريانه، وبدأ الزمان سيره إلى الأمام كما ألفته في أيامي على الأرض، وشاهدت آلام الآلهة تتمثل أمامي».

(1) نون: أو نوو، أول آلهة قدماء المصريين ويتمثل بالماء. (المترجم).

كان جمهوري كله متعمقًا في لاهوت مجمع آلهتنا، لكن لم يسبق لأحد منهم أن سمع المسرحيات اللاهوتية تُقدَّم بهذه الطريقة المُبتدعة، فبينما أُكمِل جلسوا صامتين مسحورين.

«ومن هيولى **نون** وظلمته، بزغ **آمون رع**، الذي خلق نفسه بنفسه، ثم شاهدتُ **آمون رع** يدعك عضوه التناسلي، ويستمني قاذفًا منيَّه في الأمواج الهائلة التي خلقت اللطخة الفضية التي نعرفها باسم **الطريق اللبني**[1] في الخواء المظلم. ومن هذا المَنِيّ وُلِدَ **جب ونوت**[2]، الأرض والسماء».

ثم كسر صوت واحد الصمت الواجف في المعبد: «باقِ- حرّ[3] ! باقِ- حرّ! آمين!»، إذ عجز الكاهن العجوز عن تمالك نفسه، وأقر بنسختي من قصة الخلق. شدهني تغيُّر موقفه حتى كدتُ أنسى السطر التالي، فبرغم كل شيء، كان أعنف نقّادي حتى ساعتها، والآن فزت بقلبه تمامًا، وحلّق صوتي انتصارًا.

«ثم اقترن **جب ونوت** وتجامعا، كما يتجامع رجل وامرأة، ومن اتحادهما المُخيف وُلد الإلهان **أوزيريس وست**، والإلهتان **إيزيس ونيفتيس**[4]».

ثم أومأتُ إيماءة عريضة وانزاحت الستائر الكتانية رويدًا لتكشف عن العالم التخيُّلي الذي خلقتُه. لم يُرَ شيء كهذا في مصر من قبل، وشهق الجمهور دهشةً، فانسحبتُ في خطوات مدروسة، واتخذ الإله **أوزيريس** مكاني على المنصة. تعرَّفه الجمهور فورًا من غطاء رأسه الطويل الشبيه بالحوجلة، وذراعيه المطويتين فوق صدره، وعصا الراعي والمذبة اللتين يحملهما، إذ تحتفظ كل أسرة بتُمَيثيله في ضريحها العائلي.

فاضت صيحة إجلال من كل حلقوم، وفي الواقع، كان المسكّن الذي أعطيته لتود يثير تألّقًا غريبًا في عينيه، مضفيًا عليه حضورًا سماويًّا غريبًا جعل شبهه بالإله مقنعًا. بعصا الراعي والمذبة، رسم **أوزيريس** علامات باطنية وخطب بصوت رنان: «انظروا النهر **آتور**[5]!».

---

(1) الطريق اللبني: أو درب التبانة، هي المجرة التي تنتمي إليها مجموعتنا الشمسية. (المترجم).

(2) جب: إله الأرض في مصر القديمة، وأحد آلهة التاسوع المقدس، تزوج من أخته الإلهة نوت، إلهة السماء، وأنجبا أوزوريس وإيزيس وست ونفتيس. (المترجم).

(3) باق في الهيروغليفية تحمل معانٍ عدة أحدها (خادم)، وحر تعني الإله الصقر حورس، وربما يقصد الكاتب أن يقول (يا خادمَ حورس!). (المترجم).

(4) نيفتيس: إلهة الولادة والموتى وفقًا للمعتقدات المصرية القديمة. (المترجم).

(5) أتور: (Atur, Ator) من الأسماء التاريخية لنهر النيل. (المترجم).

ومرة أخرى، جلجل الجمهور ودمدوا عندما تعرفوا النيل، فالنيل يمثل مصر ومركز العالم.

نادى صوت آخر «باق- حرا»، وبينما أشاهد من مجلسي المخفي بين الأعمدة، ذُهِلْتُ وسُرِرْتُ عندما أدركتُ أن المنادي هو الفرعون نفسه. لقد حظيت مسرحيتي بالرضى الدنيوي والإلهيّ، وبتُّ على يقين من أن نسختي ستصير الرسمية من الآن فصاعدًا، لتحل محل الأصلية البالغة من العمر ألف عام. ضمنتُ لي مكانًا في الخلود، وسيعيش اسمي طيلة الألفية.

أشرتُ ببهجةٍ ليُفتَح الحوض وتبدأ المياه بالتدفق عبر مسرحنا، وفي البداية، لم يستوعب الجمهور، ثم أدركوا أنهم يشهدون حقًا ظهور النهر العظيم، وأطلقت آلاف الحلاقيم صيحة: «باق- حرا *باق- حرا*».

هتف **أوزيريس**: «شاهدوا المياه تعلو!»، واكتسح الطوفان النيل استجابة لأمره.

ثم هتف ثانية: «شاهدوا المياه تنحسر!»، وانحسرت عند أمره، «ثم تعلو ثانية!».

كنت قد أعددت دلاء صباغ تضاف إلى المياه عندما تُصب من الحوض في مؤخر المعبد. في البداية صباغ أخضر يحاكي فترة انخفاض منسوب المياه، ثم عندما يعلو ثانية، صباغ أدكن يحاكي بأمانة لون مياه الطوفان المرتفع المحملة بالطمي.

ثم أمر **أوزيريس**: «والآن شاهدوا الحشرات والطيور فوق الأرض!»، ففُتحت الأقفاص في مؤخر المنصة، وملأت المعبد سحابة من الطيور البرية الصيَّاحة والملقلقة والمدوِّمة، والفراشات الملوَّنة رائعة الجمال.

كان المشاهدون كالأطفال، يمدون أيديهم، مسحورين ومفتونين، ليختطفوا الفراشات من الجو ثم يطلقونها ثانية فتطير بين أعمدة المعبد الشاهقة. ثم هبط أحد الطيور البرية، هدهدٌ طويل المنقار له نسق لوني باهر من الأبيض والقرفيّ والأسود، غير هيَّاب وجثم على تاج الفرعون.

سُرَّت الحشود وراحت تهتف: «إنه فأل خير!»، «مباركة للملك! يعيش الملك أبدًا!»، وابتسم الفرعون.

كان من رذالتي أن ألمحتُ لاحقًا لسيدي **إنتف** بأنني دربت الطير ليميِّز الفرعون، وصدقني رغم استحالة ذلك، فلي سمعة ذائعة فيما يخص الحيوان والطير.

على الخشبة، راح **أوزيريس** يجول في الجنة التي خلقها، وأعد الجو للحظة الدرامية التي سيثب فيها **سِت** إلى المسرح مطلقًا زعقة تجمِّد الدم في العروق. وعلى أنهم يتوقعونها، صدم حضوره العنيف والشنيع الجمهور، وصرخت النساء وغطَّينَ أفواههن، واكتفين بالنظر من بين أصابعهن المرتجفة.

جأر **سِت** في سخط غيرته: «ما هذا الذي فعلته يا أخي؟ أترى نفسك أعلى مني شأنًا؟ ألستُ إلهًا أيضًا؟ أتخص نفسك بالخلق كله حتى لا يمكنني أنا، أخوك، مشاركتك إياه؟».

أجابه **أوزيريس** بهدوء، وبدا جلاله نائيًا وباردًا إذ أطبق العقَّار سيطرته عليه: «لقد منحه أبونا، **آمون رع**، لكلينا. لكنه أعطانا كذلك الحق في اختيار طريقة تصرفنا به، للخير أو الشر...» لعلعت الكلمات التي لقنت الإله إياها في جميع زوايا المعبد. كانت أحسن ما كتبت، وشُغِفَ الجمهور بها. لكنني الوحيد الذي يعرف ما يوشك أن يحدث، وبينما أقوِّي نفسي تجهزًا له فسد جمال تأليفي وسطوته.

اقترب **أوزيريس** من نهاية خطابه: «هذا هو العالم كما أظهرتُه، فإن شئت مشاركتي إياه في سِلْم وحب أخٍ لأخيه، يا مرحبًا بك، لكنْ إن جئت ثائرًا محاربًا، وإن كان الشر والبغضاء قد أترعا قلبك، فإني آمرُ إيَّاك بالرحيل». ثم رفع ذراعه اليمنى المتسربلة بكتان لامع شفيف من ردائه ودلَّ **سِت** على طريق مغادرة فردوس الأرض.

حدَّب **ست** تلكما الكتفين الضخمتين المشعرتين مثل جاموس، وجأر حتى تطاير البصاق من شفتيه في غمامةٍ عطَّرتها الأسنان المتعفنة في فكَّيه فأمكنني شمها من حيث أقف، ثم رفع سيفه العريض البرونزي عاليًا وهجم على أخيه. لم يجرِ المِران على هذا قطُّ، وباغت به **أوزيريس** تمامًا، فوقف وذراعه اليمنى لا تزال ممدودة، ثم هسهس النصل في هبوطه من شدَّة الضربة. قُصَّت اليد عن معصمها بدقة تقليمي بتيلة من بتائل الدالية المزروعة في شرفتي، وسقطت عند قدمي **أوزيريس** لترقد هناك بأصابع ترتعش ارتعاشًا واهيًا.

كانت المفاجئة تامة والسيف حادًا حتى إن **أوزيريس** لم يتحرك لوهلة طويلة، فيما خلا بعض التمايل، ولا بدَّ أن الجمهور قد صدق أنها حيلة مسرحية أخرى، وأن اليد الساقطة دُمية، وأمعن في تهدئتهم أن الدماء لم

تنبجس من فورها. كانوا مندمجين أشد الاندماج لكنهم غير فَزعين، إلى أن تهادى **أوزيريس** خلفًا وقبض على جذع ساعده مطلقًا صرخة مُريعة، وفي تلك اللحظة تدفق الدم من بين أصابعه ورذَّ على ردائه الأبيض، ملطخًا إياه كأنه نبيذ مُراق. وبينما لا يزال ممسكًا الجذع، راح يترنّح فوق المنصة وبدأ بالصراخ. أفسد صراخه، الذي خرج حادًا وحاملًا ألمًا إنسانيًا واضحًا، جوّ الرضا بين المشاهدين، إذ عرفوا أن ما يشاهدونه ليس زائفًا، لكنهم علقوا في صمت مذعور.

قبل أن يتمكن **أوزيريس** من بلوغ حافة المنصة، وثب **سِت** خلفه بساقيه المقوستين الغليظتين، وأمسك بجذع ذراعه مستخدمًا إياه مقبضًا ليجره عَودًا إلى منتصف المسرح، حيث ألقاه ناشرًا أطرافه فوق البلاط الحجري، فسقط التاج المُزيَّن عن رأسه وهبطت ضفائر شعره الداكن على كتفيه عندما تمدد في بركة آخذة بالاتساع من دمه.

صاح **أوزيريس** و**سِت** واقف فوقه: «اعفُ عني أرجوك»، فضحك **سِت**، وكانت ضحكته جؤارًا ملء حلقه من المتعة الحقيقية. تحول **راسفر** إلى **سِت**، وراح **سِت** يستمتع بوقته أيّما استمتاع.

أيقظت الضحكة الوحشية الجمهور من غيبوبته، لكن الوهم كان مكتملًا، ولم يعودوا مصدقين أنهم يشاهدون مسرحية، بل صار هذا المشهد المفزع واقعًا في نظرهم جميعًا، وبينما يشهدون مقتل إلههم تصاعد صراخ النساء وهدير الرجال.

وَعوَوا[1] قائلين: «اعفُ عنه! اعفُ عن الإله العظيم **أوزيريس**!»، لكنّ أحدًا لم ينهض من مجلسه أو يهرع إلى المنصة محاولًا منع تمثيل المأساة، إذ كانوا يعرفون أن صراعات الآلهة وآلامها خارج سلطة البشر الفانين.

مد **أوزيريس** يده الباقية وتحسس ساقَيْ **سِت**، وبينما لا يزال يضحك، تلقف **سِت** معصمه وشد ذراعه إلى كامل طولها، متفحصًا إياها كما قد يتفحص جزار كتف ماعزٍ قبل أن يبتره.

صاح صوت من الجمهور مثقلٌ بشهوة الدم: «اقطعها!»، وتبدَّل الجو ثانية.

ثم صاح آخر: «اقتله!». لطالما أرّقني الأثر الذي يحمله منظر الدماء والموت العنيف على الرجال مهما كانوا معتدلين، وحتى أنا هيَّجني هذا

(1) وعوع القوم: ضجُّوا وأجلبوا. (المترجم).

المشهد المُروِّع، أصابني بالغثيان والذعر، صحيح، لكنه هيَّج تحتهما حماسة متمردة.

قطع سِت الذراع بتلويحة عرضية من نصله، فسقط أوزيريس تاركًا الطرف المرتعش في يده الحمراء. وحاول النهوض، لكنْ لا يدين تسندانه، فراحت ساقاه تركلان ركلًا متشنجًا، ورأسه يتقلب يَمنة ويَسرة ولا يزال يصرخ. حاولت إجبار نفسي على الإشاحة بنظري، ورغم أن صفرائي صعدت وأحرقت مؤخر حلقومي، ظللت أشاهد.

قطَّع سِت الذراع قطعًا ثلاثًا من مفصلي الرسغ والمرفق، وألقى القطع، واحدة واحدة، إلى صفوف الجمهور المحتشدة. بينما تبرم في الجو مَن تمر فوقهم، نقَّطت بقطرات ياقوتية اللون، فزأروا كما تزأر السباع في حديقة حيوان الفرعون وقت الطعام، ورفعوا أيديهم ليلتقطوا بقايا إلههم المقدسة هذه.

تابع سِت عمله باستمتاع متفانٍ، فقرمَ قدمي أوزيريس من عند الكاحلين، ثم الربلتين والركبتين، والفخذين من مفصلي الوركين. وكلما ألقى قطعة منها، غطغط الدهماء طالبين المزيد.

عوى صوتٌ بينهم: «تميمة سِت! أعطنا تميمة سِت!»، وتلقف البقية الصيحة. تقول الأسطورة إن التميمة هي أقوى التعاويذ السحرية كلها، وإن الشخص الذي يحوزها يسيطر على جميع قوى الظلام في العالم السفلي، وهي الجزء الوحيد من أجزاء جسد أوزيريس الأربعة عشر الذي لم تسترده إيزيس وأخته نفتيس من أقاصي الأرض حيث فرَّقها سِت. وتميمة سِت هي العضو نفسه الذي حرمني راسفر منه، والذي يشكل محور القلادة الجميلة التي أهداني إياها سيدي إنتف هزءًا.

وَعوَى الرعاع ثانية: «أعطنا تميمة سِت!»، فمدّ سِت يده ورفع الغلالة المخضَّلة بالأحمر عن أسفل الجذع مقطَّع الأوصال، وما زالت ضحكته لم تنقطع. ارتجفتُ عندما تعرفتُ ذاك الصوت معدوم الرحمة الذي كثيرًا ما سمعته في جلسات عقابي، وعشتُ -تعاطفًا- اللفحة المباغتة بين ساقي مرة ثانية عندما التمع السيف القصير في كف سِت المشعر الغارق بدماء الضحية بالفعل، ورفع العضو المثير للشفقة عاليًا.

ناشده الحشد وتوسلوا إليه: «أعطنا إياها! أعطنا قوة التميمة!» وقد حولهم المشهد إلى وحوش كاسرة.

تجاهل سِت تضرعاتهم وصاح: «هدية. هدية من إله لإله. أنا سِت، ربُّ الظلمات، أهدي هذه التميمة للفرعون الإلهيِّ، ماموس المقدس». وقفز هابطًا الدرج الحجري على تينك الساقين المقوَّستين القويتين فوضع العضو عند قدمي الفرعون.

وما أدهشني أن الملك انحنى والتقطه ليحتفظ به، وكان وجهه تحت البودرة والطلاء مسحورًا، كأنه عضو الإله الحقيقي. لا شك أنه في تلك اللحظة رآه كذلك، وظل حاملًا إياه في يمناه في أثناء كل ما تلا.

بعد أن لاقت هديته القبول، أسرع سِت عائدًا إلى المنصة ليكمل مذبحته، وأكثر ما أبى مفارقتي هو أن ذاك المخلوق التعِس مبتور الأطراف ظل حيًّا وصاحي الحواس حتى النهاية. أدركت أن العقار الذي أعطيته لتود لم يبلِّد حواسه إلا قليلًا، ورأيتُ مضاضة مُروِّعة في عينيه وهو راقد في بحيرة من دمه يقلِّب رأسه ذات اليمين وذات الشمال، الجزء الوحيد الذي لا يزال يملك تحريكه.

وعن نفسي، انتابتني راحة عارمة عندما ضرب سِت بعد ذلك فقطع الرأس ورفعه من ضفائره السميكة المجدولة أمام الجمهور ليستبدعوه، وحتى في تلك اللحظة، بينما دارت عينا المخلوق البائس دورانًا جامحًا في محجريهما ألقى آخر نظرة على هذا العالم، ثم ركدَت والتمعت، وقذف سِت بالرأس إليهم.

وهكذا انتهى الفصل الأول من التمثيلية في تصفيق حماسي متصاعد هدد بهزِّ أعمدة المعبد الجرانيتية حتى تنخلع من أساسها.

***

نظَّف معاونيَّ من العبيد في فترة الاستراحة بقايا المذبحة الشنيعة عن المسرح. كنت قلقًا تحديدًا من أن تدرك مولاتي لوستريس حقيقة ما حدث في الفصل الأول، وأردت لها أن تظن أن كل شيء جرى كما تمرننا عليه، لذا رتبت أن تبقى في خيمتها، وأن يحرس أحد رجال تانوس مدخلها لضمان ذلك وضمان أن لا تتلصص إحدى عذاراها الكوشيَّات على الفصل الأول وتهرع إليها لتبلغها بما رأت. عرفتُ أنها لو علمت الحقيقة، فسيمنعها اضطرابها من أداء دورها. وبينما يستخدم معاونيَّ دلاء ماء من نيل منصتنا لغسل الأثر المُروِّع، أسرعتُ إلى خيمة مولاتي لأطمئنها وأرضي نفسي بأن إجراءاتي لوقايتها كانت فعَّالة.

استقبلتني بسعادة: «أوه يا تايتا، سمعتُ التصفيق، لقد أحبوا مسرحيتك، وإنني سعيدة جدًّا لأجلك، فأنت تستحق هذا النجاح أكبر استحقاق (ثم ضحكت ضحكة تآمرية)، بدا كأنهم صدقوا أن مقتل **أوزيريس** حقيقي، وأن دلاء دماء الثور التي تقعتَ تود بها هي دماء الإله بحق».

وافقتُها قائلًا: «بالفعل يا سيدتي، بدا أنهم خُدعوا تمامًا بحيلتنا الصغيرة»، رغم أنني ما زلتُ أشعر بالدوار والتوعُّك جراء ما عشتُه لتوِّي.

لم تَشُكُّ مولاتي **لوستريس** بشيء، وعندما قُدتُها إلى المنصة، بالكاد ألقت نظرة على اللطخات الرهيبة العالقة على الأحجار. أوقفتها وقفتها الافتتاحية، وعدلتُ ضوء المشعل ليناغيها، وعلى أنني كنتُ معتادًا جمالها، فقد ظل يخنق حلقومي ويُجري في عينيَّ دموعًا لاذعة.

تركتها محتجبة بالستائر الكتانية، وخرجتُ لأواجه جمهوري. لم يُلاقِني تصفيق ساخر هذه المرة، وكانوا فردًا فردًا، من الفرعون حتى أدنى الخدم شأنًا، بينما أصف بنثري الرشيق تفجُّع **إيزيس** وأختها **نفتيس** على موت أخيهما أسرى لصوتي.

عندما تنحيتُ وأزيحتْ الستائر كاشفة صورة **إيزيس** المفجوعة، شهق الجمهور شهقة مسموعة إزاء بهائها، فبعد الرعب والدم في الفصل الأول، صار حضورها مُحركًا للمشاعر أكثر.

بدأت **إيزيس** بغناء مرثية الميت، وسرى صوتها عبر ردهات المعبد المقبضة. ومع تمايل رأسها على إيقاع صوتها، أخذ ضوء المشعل ينعكس في شعاع مندفع وامض عن القمر البرونزي الذي يعتلي غطاء رأسها ذي القرنين.

بينما تغني راقبتُ الفرعون باهتمام. لم تفارق عيناه وجهها، وأخذت شفتاه تتحركان بصمت انسجامًا مع الكلمات التي تفيض من حلقها.

قلبي غزالٌ جريحٌ
مزّقته مخالب حُزني الأسديَّة..

راحت ترثي، وراح الملك وكل حاشيته يتحسَّرون معها.

لم يعُد في قرص العسل حلاوة،

ولم يبق عطرٌ في زهرة الصحراء.

روحي معبدٌ خاوٍ،

هجره إله الحب.

في الصف الأول، أخذت واحدة أو اثنتين من زوجات الفرعون تنشج وتنتحب، لكن لم يلقِ أحد نظرة عليهما حتى.

أنظر إلى وجه الموت المقيت مبتسمةً،

وبسرور سأتبعه،

عسى أن يدلني على ذراعي سيدي الغالي.

لم يعُد البكاء حكرًا على زوجات الملك، بل صارت النساء كلهن يبكين، ومعظم الرجال كذلك. كانت كلماتها وجمالها أشدّ مما يمكنهم مقاومته، وبدا محالًا أن يُظهر إلهٌ المشاعر نفسها التي يُظهرها إنسان فانٍ، لكن الدموع البطيئة كانت تحفر سواقيَ في البودرة البيضاء على خدي الفرعون، وبينما يحدق إلى مولاتي لوستريس راح يرمش بجفنيه اللذين أثقلهما الكحل كاليومة.

دخلت نفتيس وغنت ثنائية مع أختها، ثم مضت الأختان يدًا بيد للبحث عن أشلاء جثة أوزيريس المبعثرة.

بالطبع لم أضع الأعضاء الحقيقية المقطوعة من جثة تود لتعثرا عليها، فقد استعاد معاونيٌّ في خلال الفاصل تلك الأجزاء وأخذوها للمحنطين بتوجيهات مني. كنت معتزمًا دفع تكاليف جنازة تود من جيبي، إذ بدا ذلك أقل ما يمكنني فعله لتعويض المخلوق التعس عن دوري في مقتله. وبصرف النظر عن القطعة المفقودة التي لا يزال الفرعون ممسكًا إياها بيده، آملُ أن تمنح الآلهة استثناءً لتود وتسمح لطيفه بالعبور إلى العالم السفلي، وأنه سيغفر لي هناك بعض الشيء، من الحكمة أن ينمي المرء صداقاته حيثما أمكنه، في هذا العالم أم في تاليه.

لتمثيل جسد الإله، جعلتُ فناني المدينة الجنائزية يصنعون لي مومياء رائعة من الكارتوناج[1]، تصوِّر **أوزيريس** في شارات مُلكِه الكاملة متخذًا وضعية الموت بذراعين مطويتين فوق صدره، وكُنت قد قطَّعتُ هذا الصندوق إلى ثلاث عشرة قطعة تتراكب معًا كمكعبات الأطفال.

وكلما استعادت الأختان قسمًا من هذه الأقسام، غنَّتا ترنيمة ثناءٍ على أعضاء الإله، على يديه وقدميه، وعلى أطرافه وجذعه، وأخيرًا على رأسه المقدس.

هاتان العينان، الشبيهتان بنجمتين في السماوات،
لا بدَّ أن تلمعا إلى الأبد.
لا الموتُ مُخمِدٌ جمالًا كهذا أبدًا،
ولا اللفائف الجنائزية محتويةٌ هذا الجلال.

وعندما جمعتِ الأختان أخيرًا جسد **أوزيريس** كله، باستثناء التميمة المفقودة، راحتا تفكِّران جهارًا في طريقة إعادته إلى الحياة.

وكانت هذه فرصتي لأضيف إلى التمثيلية العنصر الجوهري الذي يُكسب أي عمل مسرحيٍّ إعجاب الذوق العام، إذ ثمة مسحة خَليعة فاحشة في معظمنا، ومن خير الكاتب المسرحي أو الشاعر أن يتذكر ذلك إن أراد أن يقدِّر غالبية جمهوره عمله.

فأنطقتُ الربة **نفتيس**: «لا توجد إلا طريقة واحدة مضمونة لإعادة سيدنا وأخينا العزيز إلى الحياة. على إحدانا ممارسة فعل التكاثر مع جسمه الكسير لإرجاعه كلًّا من جديد وقدح شرارة الحياة فيه».

اضطرب الجمهور ومالوا إلى الأمام مترقبين هذا الاقتراح، ففيه عناصر تجتذب حتى أشدِّهم شبقًا، بما في ذلك سِفاح القربى وجِماع الموتى.

عانيتُ الأمرَّين في إيجاد طريقة لتمثيل هذا الحدث من أسطورة قيامة **أوزيريس** على المسرح، وقد صدمتني مولاتي عندما أعلنتْ نفسها مستعدة

(1) الكارتوناج: نوع من المواد المستخدمة في أغلفة التوابيت والمومياوات والأقنعة الجنائزية المصرية القديمة من الفترة الانتقالية الأولى إلى العصر الروماني. (المترجم).

لأداء دورها حتى النهاية، حتى إنها بلغت من الوقاحة أن توضح، بتكشيرتها الماجنة تلك، أنها قد تكتسب بعض المعرفة والخبرة القيِّمة من فعلها ذلك. لم أعرف يقينًا أكانت تعابثني أم إنها كانت لتفعلها حقًّا، غير أنني لم أمنحها الفرصة لتُبيِّن أمانتها من عدمها، إذ إن سمعتها وشرف عائلتها أثمن من أن يُمسَّا.

لذا وعند إشارتي، أسدلت الستائر الكتانية مرة ثانية وغادرت مولاتي **لوستريس** المنصة لتحلَّ محلها إحدى بغايا الطبقة العليا والتي عادة ما كانت تمارس مهنتها بإتقان في قصر للحب قرب المرفأ. كنتُ قد عينتُ هذه المومس من بين عدة قابلتهم لأن جسدها الفتيَّ البديع يشبه جسد مولاتي كثير الشبه. بالطبع، لم يكن وجهها قادرًا على الاقتراب بجماله من وجه مولاتي، لكنني لم أعرف وجهًا يمكنه ذلك بأي حال.

حالما اتخذت الربة البديلة مكانها، أُشعلت المشاعل في مؤخر المسرح لتُلقي ظلها على الستائر، وبدأت تتعرّى بأشدِّ الأساليب إثارة. هلَّل ذكور الحضور لمرأى التفافاتها الظليلة، مقتنعين بأنهم يشاهدون مولاتي **لوستريس**، وردت العاهرة على هذا التشجيع بعرض داعر متصاعد كاد يحصد من استحسانهم ما حصده مذبح **أوزيريس** في الفصل الأول.

ثم آن أوان القضية التي أوقفتني، بوصفي المؤلف، وقفةً مديدة، فأنى لي اختراع الخصوبة من دون وتدٍ أشدُّها إليه؟ وقد رأينا **أوزيريس** للتو يُحرَم من وتده عنوةً. اضُطررت في النهاية إلى الانكفاء إلى تلك الوسيلة المسرحية البالية التي طالما ازدريت وجودها في أعمال أي كاتب مسرحي آخر، وأعني تدخل الآلهة وقواهم الخارقة للطبيعة.

وبينما أخذت مولاتي **لوستريس** ترنَّم من الأكناف، وقفت ذاتها البديلة الظليلة فوق تمثال **أوزيريس** المُحنط ورسمَت سلسلة من الإشارات الباطنية: «أخي العزيز، بالقوى الاستثنائية والخارقة التي منحني إياها جدنا **آمون رع**، أُعيد إليك الأعضاء الرجولية التي مزقها **سِت** القاسي بوحشية عن جسدك».

كنتُ قد زودتُ غطاء المومياء بأداة يمكنني رفعها عبر شد جديلة كتانية رفيعة تمتد على بكرة معلقة في سقف المعبد فوق مضجع **أوزيريس** مباشرة. وعند كلمات إيزيس، ارتفع القضيب الخشبي، المعلق بفرج الإله، والذي يعادل طول ذراعي، في جلال مهيب حتى انتصب تمامًا، وشهق الجمهور إعجابًا.

عندما داعبته إيزيس، هززتُ الخيط لأجعله يتوثّب ويرتعش، فأحب الجمهور ذلك، لكنهم أحبوه أكثر عندما اعتلَت الإلهة مومياء الإله المتمددة. وبالحكم من الحركات البهلوانية المقنعة لنشوتها الزائفة، فلا بدَّ أن العاهرة التي اخترتُها لأداء الدور كانت إحدى دعاة فنها العظماء بحق، ذلك أن الجمهور أقر إقرارًا كاملًا بأدائها الممتاز، وحثوها على الاستمرار بالصفير والصياح وصراخ التوصيات البذيئة.

في أوج العرض، أُطفئت المشاعل وانغمس المعبد في الظلام، ثم جرى التبديل مرة ثانية في الظلمة، وعندما أُشعِلَت المشاعل كانت مولاتي لوستريس واقفةً في منتصف المنصة حاملة رضيعًا بين ذراعيها. كانت إحدى إماء المطبخ متفهِّمة بالحد الكافي لتلد قبل عدة أيام، وقد استعرتُ صغيرها لأجل هذه المناسبة.

رفعت مولاتي الرضيع عاليًا: «هاكم ابن أوزيريس، إله العالم السفلي، وإيزيس، إلهة القمر والنجوم»، فلوَى وجهه ذاهلًا إزاء بحر الغرباء أمامه، واستحال أحمر قانيًا عندما بكى.

رفعت إيزيس صوتها فوق صوته وهتفت: «حيوا حورس الصغير، إله الريح والسماء، وصقر السماوات!».

كان نصف الجمهور من أتباع حورس، لذا كانت حماستهم لراعيهم مطلقة، فنهضوا في هَوشة هادرة، وانتهى الفصل الثاني بنصر آخر لي وخزي للإله الرضيع، الذي تبيَّن بعد معاينة لاحقة أن قد وسَّخ قماطه توسيخًا عجيبًا.

***

افتتحتُ الفصل الأخير بنص آخر من نصوصي أصف فيه طفولة حورس وبلوغه أشدَّه. تكلمتُ عن المهمة المقدسة التي حمَّلته إياها إيزيس، وبينما أتكلم، أُزيحت الستائر لتكشف عن الإلهة واقفةً في منتصف المسرح.

كانت إيزيس تستحم في النيل رفقة إمائها، ورداؤها المُبلل ملتصقٌ بجسمها حتى إن بهاء جلدها الشاحب يسطع من خلاله، وقد غُطيت قمتا ثدييها المبهمين ببراعم زهور صغيرة وردية اللون.

دخل تانوس من الأكناف متقمصًا حورس، وهيمن على المسرح من فوره. كان في الدرع المصقول وشموخ المحارب نقيضٌ مثاليٌّ لجمال الإلهة، وقد ركّزَت لائحة تشريفاته الحربية الطويلة في حروب النهر، إلى جانب

إنجازه الأخير بإنقاذه الصندل الملكي، انتباه الشعب بأكمله عليه. في هذه اللحظة، كان تانوس عزيز الجماهير، وقبل أن يسعه النطق، بدؤوا بالتهليل له، واستمر التصفيق طويلًا حتى اضطُرَّ الممثلون إلى الثبات في وقفاتهم الافتتاحية.

بينما التفَّ التهليل حول تانوس، انتقيتُ بضعة وجوه من بين الحضور ورحتُ أراقبُ تفاعلاتها. عبَس نِمبِت، وتأفف غليظ التأفف تحت لحيته، من دون أن يبدي أي محاولة لإخفاء حقده، وابتسم الفرعون بلباقة وأومأ برأسه إيماءة خفيفة، فأدرك الجالسون خلفه استحسانه واستُنهضت حماستهم. أما سيدي إنتف، وليس من شيَمه التحليق بعكس الرياح الغالبة، فرسم أعذب ابتساماته وأومأ برأسه اتفاقًا مع الفرعون، لكنْ كانت عيناه، إذا ما نُظِرَ إليهما من موقعي، قتَّالتين.

خمد التصفيق أخيرًا وصار بمقدور تانوس نطق سطوره، لكن لم يخلُ ذلك من المشقة، إذ إنه كلما توقف ليجرَّ نفسًا اندلعت فورة تهليل أخرى. ولم يحل السكون التام عليهم ثانية إلا عندما بدأت إيزيس بالغناء.

لا بدَّ لشقاء أبيك،
والقدر الرهيب المُدلَّى فوق أسرتنا،
أن يُمحيا.

حذرت إيزيس ابنها النبيل بالشعر، ومدت ذراعيها إليه استجداءً وأمرًا.

حلَّت لعنةُ سِت علينا كلنا،
ولا رافع لها غيرُك.
ابحث عن عمِّك البشع،
ومن عنجهيَّته وهمجيَّته،
ستعرفه.
جَندِله عندما تجده،
وكبِّله،

وغلَّه إلى مشيئتك،
فتتحرر كل الآلهة والبشر،
من سُلطانه المروِّع إلى الأبد.

انسحبت الإلهة وهي مُستمرة في غنائها، تاركةً ابنها لمسعاه. ومثل أطفال يستقرؤون أغنية أطفال محبوبة، عرف الجمهور تمام المعرفة ما الذي ينتظرونه وانحنوا إلى الأمام متشوقين يهمهمون تشوُّقًا.

عندما عاد **سِت** أخيرًا يقفز إلى المسرح من أجل المعركة الكارثية، الصراع الأزلي بين الخير والشر، بين الجمال والقُبح، وبين الاحترام والتدنيس، كان الجمهور مستعدًّا له، واستقبله بجوقة من البغضاء العفوية والقلبيَّة، فبينما نظر إليهم **راسفر** نظرة تحدٍّ وراح يبربر بينما تبختر على المنصة وأمسك أعضاءه بيده ثم دفع بخصره ناحيتهم في حركة هازئة وإشارة سافلة جننتهم سخطًا.

فجعلوا يعوون: «اقتله يا **حورس**! حطِّم وجهه القبيح!»، وأخذ **سِت** يختال أمامهم، مُذكيًا سخطهم.

ثم هدروا في نوبة اشمئزاز..

- اقتل قاتل الإله العظيم **أوزيريس**!
- حطم وجهه!
- اجتثَّ أحشاءه!

لم تخفف حقيقة أن الحشد يعرف في عمق إدراكه أن هذا **راسفر** لا **سِت** من تفاعله - أيَّ تخفيف، وصرخوا..

- اقطع رأسه!
- اقتله! اقتله!

أخيرًا، تظاهر **سِت** برؤية ابن أخيه للمرة الأولى، ومشى ناحيته متبخترًا، مدليًا لسانه من بين أسنانه المُسوَّدة، ومُريلًا كمعتوه حتى إن خيوطًا فضية من اللعاب مُطَّت إلى صدره. ما كنتُ لأصدق قطُّ أن **راسفر** قادر على جعل نفسه أكثر تنفيرًا مما حققته الطبيعة بالفعل، لكنه أثبت أنني مخطئ.

سأل: «من هذا الطفل؟»، وتجشأ في وجه **حورس**.

لم يكُن **تانوس** متجهزًا لذلك، فتراجع لا إراديًا، وكانت تعابير اشمئزازه صادقة إذ اشتَمَّ أنفاس **راسفر** ومكنونات معدته، والنبيذ المزُّ لا يزال يختمر فيها.

استعاد **تانوس** موقفه بسلاسة ونطق سطره التالي: «أنا **حورس**، ابن **أوزيريس**».

فأطلق **راسفر** ضحكة هازئة مجلجلة..

- وما الذي تريده، يا ابن إله ميت؟
- أريد الانتقام لمقتل أبي النبيل، أريد قاتل **أوزيريس**.
- إذن كفاك بحثًا، فأنا **سِت** قهَّار الآلهة الأحطُّ شأنًا. أنا **سِت** آكِلُ النجوم، ومُدمر العوالم.

استلَّ الإلهان سيفيهما وهجم أحدهما على الآخر، ليلتقيا في منتصف المنصة رفقة صليل برونز طنان أثاره ضرب النصلِ النصلَ. كنتُ قد جربتُ، في محاولة مني لتخفيف احتمالات حدوث إصابة عرضية، استبدال السيوف الخشبية بالبرونزية، لكنْ لم يقبل أيٌّ من ممثلي بها، وتدخل سيدي **إنتف** عندما ناشده **راسفر**، آمرًا أن يُسمح لهما بحمل أسلحتهما الحربية الحقيقية، فاضطررتُ إلى الرضوخ لهذه السلطة الأعلى، وعلى الأقل، أثرى ذلك واقعية المشهد عندما صارا واقفين صدرًا لصدرٍ ونصلاهما مشتبكين، يحدق أحدهما إلى وجه الآخر.

شكَّلا ثنائيًّا استثنائيًّا، طرفي نقيض تمامًا وكُليًّا، مُشددين بذلك على مغزى المسرحية: صراع الخير الأزلي في وجه الشر. كان **تانوس** أشقر ممشوق القامة جميل الطلعة، **وسِت** أسمر دحداحًا قبيحًا مقوَّس الساقين، فبدا التناقض صريحًا وعميقًا، واستحال مزاج الجمهور ناريًّا ومتحيزًا بعنف مثل مزاج البطلين.

دفع أحدهما الآخر خلفًا في اللحظة نفسه، ثم هجما ثانية يطعنان ويشطبان ويناوران ويصدَّان. كان كلاهما سيَّافًا ماهرًا ومتدربًا أحسن التدريب، ومن أفضل أفراد جيوش الفرعون كلها. دوَّم السيفان والتمعا في ضوء الشعلة، فبديا واهيين كشعاع الشمس المنعكس من سطح النهر العظيم الذي كدَّرته الريح، وأخذ صوت رفرفتهما يعلو كصوت أجنحة الطيور

المذعورة التي تركت مجاثمها في أعالي المعبد الدجناء، لكنه يطنُّ عندما يصطدمان كطنين المطارق في مَصهَر النحَّاس.

ما بدا للرائي معمعة معركة حقيقية، كان في الحقيقة رقصة مُصممة بدقة شديدة تمرنا عليها بحذر، فصارا يعرفان بالضبط كيف ينبغي إطلاق كل ضربة وتوقيت كل مراوغة. كانا رياضيين ممتازين انخرطا في نشاط تدربا عليه طيلة حياتهما الحربية، وجعلاه يبدو عفويًا.

عندما طعن **سِت**، رفع **حورس** دفاعه متأخرًا حتى إن السنَّ لمست صدارته فعلًا وترك خدشًا صغيرًا لامعًا على معدنها. ثم عندما أرسل **حورس** نفسه في ردٍ سريع، حلَّق حدُّ سيفه قريبًا من رأس **ست** حتى جُزَّت لفةٌ من شعره الخشن الأشعث عن جمجمته، كما لو أن شفرة حلاق جزَّتها. كانت حركات قدميهما رشيقة ومعقدة كحركات راقصي المعبد، وكانا سريعين كصقرين ومَرنين كفهدين يصطادان.

كان الجمهور مسحورًا مثلي، لذا لا بدَّ أن غريزة عميقة ما قد حذَّرتني، أو ربما وكزةً من الآلهة حتى، من يعلم؟ على أي حال، شيء ما خارج إرادتي جعلني أشيح بنظري عن المشهد وألقيه إلى سيدي **إنتف** حيث يجلس في الصف الأول.

ومرة ثانية، أكانت غريزة، أم معرفتي العميقة به، أم تدخل الإله الحامي **لتانوس** ما زرع الفكرة في ذهني؟ ربما بعض من ثلاثتها، لكنني عرفتُ بيقين عاجل ومطلق سبب تلك الابتسامة الذئبية على قسمات سيدي **إنتف** الوسيمة.

عرفتُ لِمَ اختار **راسفر** لدور **سِت**، ولِمَ لم يبذل جهدًا لعزل **تانوس** عن دور **حورس**، حتى بعد أن اكتشف العلاقة بينه وبين مولاتي **لوستريس**، وعرفتُ لِمَ أمر باستخدام سيوف حقيقية، ولماذا يبتسم الآن. لم تنتهِ المذبحة لهذا المساء، بل هو متطلعٌ إلى المزيد، وقبل أن ينتهي هذا الفصل، سيُعمل **راسفر** مواهبه الخاصة مرة ثانية.

صرخت وقد انطلقتُ متقدمًا: «حذارِ يا **تانوس**! إنه فخ! إنه يعتزم...»! لكنَّ قصفَ الجمهور طغى على صيحاتي، ولم أخطُ خطوة ثانية حتى قبض عليَّ اثنان من برابرة **راسفر** بقبضات محكمة وجروني بعيدًا. كانوا قد وُضِعُوا في هذا المكان تحسبًا للحظة كهذه، لمنعي من تحذير صديقي.

أسلمتُ تضرعًا سريعًا وصامتًا أن: «مُدَّني بالقوة يا **حورس**!»، وبدلًا من مقاومتهما، دفعتُ نفسي خلفًا في اتجاه شدهما إياي نفسه، فاختل توازنهما للحظة، وتحررتُ نصف تحرر من قبضاتهما، فتدبرتُ بلوغ حافة المنصة قبل أن يستعيدا السيطرة علي.

ودعيت: «أعِن صوتي يا **حورس**!»، ثم صرخت ملء رئتي: «حذارِ يا **تانوس**! يريدُ قتلك».

وهذه المرة حلق صوتي فوق صوت الغوغاء، وسمعني **تانوس**. رأيت رأسه يرتعش وعيناه تضيقان بعض الشيء، لكن **راسفر** سمعني مثله، واستجاب من فوره، فخرج عن الروتين الذي تمرَّنَا عليه، وبدلًا من أن يتراجع أمام زوبعة التقطيع والطعن التي كان **تانوس** يُرسلها قريبةً من رأسه البهيميّ، تقدم إلى الأمام، ورفع ذراع **تانوس** حاملة السيف بحركة صاعدةٍ من سيفه.

لولا عنصر المفاجأة، لما فتح مطلقًا الثغرة التي أرسل من خلالها طعنةً تدفعها تينك الكتفين الهائلتين والجذع الجبار. كانت سنُّ سيفه مُصوبةً تحت بوصة من حافة خوذة **تانوس** وإلى عينه اليمنى مباشرة، وكان ليسفُد عينه ويفلق جمجمته حتى النخاع.

لكنَّ صيحة تحذيري منحت **تانوس** لحظة نعمة عابرة ليستجيب فيها، فاستعاد دفاعه في اللحظة المناسبة تمامًا، وبمقبض سيفه، تدبَّر لمس معصم **راسفر** بضربة مُرتجلة بلغت من القوة أن حرَفَت رأس السيف عرض إصبع، وفي الوقت نفسه أرجع ذقنه إلى الخلف وأمال رأسه. كان الأوان قد فات على تفادي الضربة كليًا، لكنَّ الطعنة التي ربما كانت لتسفُد عينه وتفلع جمجمته كبطيخة متعفنة، بالكاد شقت جبهته حتى العظم ثم تبدَّدت فوق كتفه.

وعلى الفور، تدفقت صفحة دماء من الجرح الطفيف وفاضت على وجه **تانوس** معميةً عينه اليمنى، فاضطُرَّ إلى التقهقر أمام الهجوم الذي شنه **راسفر** عليه، وتراجع يائسًا يرمش تحت الدم ويحاول مسحه بيده الحرة. بدا من المستحيل أن يقدر على الدفاع عن نفسه، ولو لم يكن حرس القصر محكمين وثاقي، لاستللت الخنجر المرصع الصغير من حزامي وهرعت لعونه.

تمكن **تانوس**، من دون مساعدتي حتى، من النجاة من ذلك الهجوم الدموي الأول. ورغم أنه جُرِحَ جُرحين آخرين، تقويرة على فخذه الأيسر وحَزًّا على زند ذراعه حاملة السيف، فقد ظلَّ يتمايل ويصد ويرواغ، وظل **راسفر**

ينقضُّ عليه من غير أن يسمح له باستعادة توازنه أو صحة بصره إطلاقًا. وفي خلال دقائق، صار **راسفر** يلهث وينخر مثل خنزير الغابات العملاق، ويركض ويتعرَّق، وجذعه المشوَّه يلتمع في ضوء الشعلة، غير أن سرعة هجومه وضراوته لم تتقلقلا قطُّ.

وعلى أنني لستُ سيَّافًا عظيمًا، لكنني دارسٌ لهذا الفن، وقد راقبت **راسفر** يتمرن في حظيرة الأسلحة حتى صرت عارفًا أسلوبه أحسن المعرفة. كان من أنصار هجوم *الخماسين*، أي الهجوم «كرياح الصحراء»، وكانت مناورة تلائم قوَّته وبُنيته الحيوانيتين ملاءمة تامة. رأيته يتمرنُ عليها في مئة مناسبة، وتكهَّنت الآن من حركة قدميه أنه يستجمع قواه لينفذها، فمن شأن هذا المجهود الأخير أن يُنهيَ الأمر كله.

وبينما أكافح في قبضة آسريَّ، صرختُ **بتانوس** ثانية: «استعدَّ *للخماسين*!»، وخلتُ أن الهدير الذي ملأ المعبد قد جرف تحذيري وأغرقه، إذ لم يُبدِ **تانوس** أي رد فعل، لكنه أخبرني لاحقًا أنه سمعني بالفعل، وأن تحذيري الثاني أنقذه مرة أخرى في عطب بصره.

تراجع **راسفر** نصف خطوة، هي التوطئة التقليدية *للخماسين*، مخففًا بذلك الضغط لحظة ليُعدَّ خصمه للضربة. نقل وزنه بعد ذلك ومدَّ قدمه اليسرى إلى الصدارة، ثم استخدم زخمه وكامل قوة ساقه اليمنى ليطلق جسمه كله إلى الهجوم، مثل طائر أكَّال جيفٍ يهمّ بالتحليق. عندما غادرت كلتا قدميه الأرض، وجَّه سنَّ نصله إلى حلق **تانوس**، فكان الأمر حتميًا، إذ لا شيء يمكنه منع ذاك النصل القاتل من التحليق إلى هدفه وإصابته إلا الدفاع التقليدي الوحيد: هجمة الإيقاف.

في تمام اللحظة التي صار **راسفر** مُلتزمًا فيها بضربته كامل الالتزام، أرسل **تانوس** نفسه بقوة مكافئة ورشاقة متفوقة. ومثل سهم يغادر وتره، حلَّق مستقيمًا ناحية خصمه، فلاقاه في الجو، وجمع نصل **راسفر** بنصله تاركًا إياه ينزلق عليه حتى المقبض، فاصطدم به بشدة وتسمَّر في مكانه. كانت ضربة إيقاف نُفِّذت تنفيذًا مثاليًا.

أُلقيت كُتلة الرجلين الضخمين وسرعتهما على كاهل النصل البرونزي في قبضة **راسفر**، فعجز عن احتمال الصدمة وانقصم من جذره تاركًا إياه لا يقبض إلا على النصاب المجزوز، ثم عادا مشتبكين صدرًا لصدر. ورغم أن سيف **تانوس** لا يزال سليمًا، كان **راسفر** قد دخل تحت دفاعه مانعًا إياه

من استخدامه. بينما صارت كلتا يدي **تانوس**، والسيف لا يزال في قبضته اليمنى، معقودتين خلف ظهر **راسفر** تدافع الرجلان وتجاذبا.

المصارعة إحدى المواد العسكرية التي يُدرَّب عليها كل محارب في الجيش المصري. راحا يدوران على المنصة وأحدهما مغلول إلى الآخر بعناق الأذرع الطاحن، وكل منهما يحاول إسقاط خصمه، مزمجرًا في عينيه، ومعقِّفًا كعبه ليعثِّره، ويتناطحان بمقدمتَيْ خوذتيهما، متكافئين حتى الآن بالقوة والعزيمة.

شعر الجمهور منذ وقت بعيد أن هذا ليس اشتباكًا زائفًا، إنما قتال حتى الموت، وتساءلتُ أكان ما شهدوه في ذلك المساء قد أتخم شهيتهم، لكنه لم يفعل، بل ظلوا نَهِمين، يوعوعون طالبين المزيد والمزيد من الدم.

حرَّر **راسفر** ذراعه أخيرًا من قبضة **تانوس** المطوِّقة، وكان لا يزال قابضًا على نصل سيفه المكسور، فطعن بالحافة المثلمة ناحية وجهه، مستهدفًا عمدًا عينه، وجرح جبهته في محاولة لتوسيعه وإلهابه، فلوى **تانوس** رأسه متفاديًا الضربة التي أصابت قمة خوذته البرونزية. ومثل أصَلَة[1] تعدِّل التفافها حول فريستها، استغلَّ **تانوس** اللحظة ليضبط قبضته الطاحنة حول صدر راسفر. كان الجهد الذي طبقه شديدًا حتى إن ملامح **راسفر** بدأت تتورَّم وتحتقن دمًا، والهواء يُعتصر منه، وصار يكافح في وجه الاختناق، ثم أخذ يضعف ضعفًا مرئيًا، وحافظ **تانوس** على الضغط حتى شُد خراج على ظهر **راسفر** إلى درجة الانفقاء وتفجَّر الصديد الأصفر في سيل آسِن سال حتى حزام تنُّورته.

عبس **راسفر**، وهو يختنق بالفعل، إزاء ألم الدُّمَّل المفقوء وخارت قواه، فشعر **تانوس** بتداعيه واستدعى احتياطيًا خفيًا من القوة. بدَّل زاوية حركته التالية، مرخيًا كتفيه بعض الشيء ليشد خصمه إلى الخلف ويرفعه موقفًا إياه على كعبيه، واختلَّ توازن **راسفر** نتيجة ذلك، فجرَّه **تانوس** ثانيةً وأرجعه خطوة، وحالما صار في حركة متراجعة، حافظ على زخمه مستمرًا. وبينما لا يزال مشتبكًا بخصمه، أخذ يسوقه خلفًا عبر المنصة باتجاه أحد الأعمدة الحجرية الهائلة، وللحظة، لم يدرك أيُّنا نيَّته، ثم رأيناه يُنزِل سن سيفه إلى وضعية أفقية ويضغط النصاب بشدة إلى عمود راسفر الفقري.

(1) الأصلة: حيَّة قويَّة عظيمة. (المترجم).

وفي دفعة واحدة، خبط رأس سيف **تانوس** بالعمود الصلب، فصرَّ المعدن على الجرانيت، ونقل النصل الصدمة التي أوقفت الرجلين الضخمين في مكانيهما، وحشرت قوتها النصاب في عمود **راسفر** الفقري. كانت لتقتل رجلًا أضعف، وحتى **راسفر** شلَّته، فأطلق مع آخر نفخة من أنفاسه الكريهة صيحة ألم، ثم انفتحت ذراعاه وسقطت قبضة سيفه المسكور من يده منزلقة على البلاط الحجري.

انثنَت ركبتا **راسفر**، وتدلَّى بين ذراعي **تانوس**، فشدَّه **تانوس** إلى خصره وألقاه خلفًا بدفعةٍ من نصفه العلوي. هبط على الأرض هبطةً ثقيلة حتى إنني سمعتُ تكسُّر أكثر من ضلعٍ من أضلاعه مثل أغصان جافة في نار مُخيَّم، وارتطمت جمجمته بالبلاط ثم ارتدَّت عنه مصدرة صوتًا كصوت بطيخةٍ سقطت من علٍ، وخرج هواء رئتيه صافرًا من حلقه.

أنَّ **راسفر** مضاضةً، وبالكاد ظلَّت عنده قوة تكفي ليرفع يديه مستسلمًا **لتانوس**، لكن **تانوس** كان مأخوذًا بحُميًا المعركة، وملتهبًا بهدير الجماهير، حدَّ أنه فقد السيطرة على أعصابه، ووقف فوق **راسفر** رافعًا سيفه عاليًا، قابضًا على نصابه بكلتا يديه. كان منظره مُروِّعًا، إذ حوَّل الدم السائل من جبهتِه وجهَه إلى قناع شيطاني لامع، ونقع العرق والدم شعر صدره وبقَّعا ثيابه.

جأر الحشد: «اقتله! اقتل الشرير!».

كانت سنُّ سيف **تانوس** مُصوَّبةً إلى منتصف صدر **راسفر**، ولممت أطراف شجاعتي تجهُّزًا للطعنة التي ستُخوزق ذلك الجسد القبيح. أردت **لتانوس** أن يفعلها، ذلك أنني أكره **راسفر** أكثر من أيٍّ منهم، وتعلم الآلهة أن لدَي أسبابي، فهو الوحش الذي أخصاني، ولطالما تُقت لانتقامي.

لكن لا جدوى. كان ينبغي لي أن أعرف عزيزي **تانوس** خيرًا من أن أتوقع منه طعن عدوٍّ مستسلم. رأيتُ نيران الجنون تبدأ بالخبو في عينيه، وهزَّ رأسه بعض الشيء، كأنه يستعيد السيطرة على نفسه، ثم، بدلًا من الطعن، أنزل سن سيفه ببطء حتى نخز صدر راسفر محض نخزة، فنشلتِ السن الحادة قطرة دم قانية كالعقيق بين شعر صدره الخشن ثم استأنف **تانوس** حواره.

- وهكذا أغلُّك إلى مشيئتي، وأطردك من النور. سوف تقضي الأبدية هائمًا في الظلمات، ولن يكون لك سلطان على النبيل والطيِّب من الرجال، بل أمنحك حُكم اللص والجبان، والمتنمِّر والمحتال، والكذَّاب والقتَّال،

وسارق القبور ومغتصب العفيفات، والكافر وخائن العهد. من اليوم فصاعدًا أنت إله الشر كله. فلترحل الآن، ولتحمل معك لعنة **حورس** وأبيه المبعوث **أوزيريس**.

رفع **تانوس** رأس سيفه عن صدر **راسفر** وألقاه جانبًا، نازعًا سلاحه عمدًا في حضرة خصمه ليظهر ازدراءه واستحقاره. صلصل النصل على البلاط، ووسع **تانوس** خطاه إلى مياه نيل مسرحنا الجارية وهبط على ركبة واحدة ليغرف حفنة ويرشُّها على وجهه غاسلًا الدم، ثم مزّق شريط كتان من حاشية تنورته وربط بسرعة الجرح على جبهته ليوقف النزف.

تركني قِردَا **راسفر** وهُرِعا إلى المسرح ليغيثا قائدهما الساقط، فأنهضاه ومشى بينهما مترنحًا يلهث ويزفر مثل ضفدع كريه، ورأيتُ أنه مصاب إصابات مأساوية. ثم بينما يعوي الجمهور هُزءًا به وبغضًا له جراه عن المسرح.

راقبت سيدي **إنتف**، وكانت تعابيره مكشوفة لحظتها، فرأيت في وجهه تأكيدَ كل شكوكي: هذه خطته لصبِّ انتقامه على **تانوس** وشفاء غليله منه، بأن ينحره أمام الشعب كله، ومن ابنته، بأن يقتل حبيبها أمام عينيها، فيكون ذلك عقابها على استهانتها برغبة أبيها.

بينما أتفكّر في العقاب الذي لا بدَّ ينتظر **راسفر** كان إحباط سيدي **إنتف** وخيبة أمله كافيين ليُشعراني برضًا متعجرف، وأحسب أنه سيفضل خشونة **تانوس** على ما سينزله مولاي به، فسيدي يبلغ أشدَّ قسوته مع الذين يخذلونه.

وكان **تانوس** لا يزال يلهث جراء إرهاق المبارزة، لكنْ بعد أن انتقل إلى مقدمة المنصة، جرَّ دزينة أنفاس عميقة ليهدئ نفسه من أجل القصيدة الخطابية التي ستختتم الحفل، وحل الصمت على الحشد عندما واجهه، إذ كان منظره في دمه وغضبه مهيبًا.

ثم رفع كلتا يديه ناحية سقف المعبد وصاح بصوت عالٍ: «أعِن صوتي يا **آمون رع**! وامنحني البلاغة يا **أوزيريس**!»، وهو الدعاء التقليدي للخطيب.

فردَّ الحشد: «أعِن صوته! امنحه البلاغة!»، ووجوههم لا تزال نشوانة بكل ما شهدوه، لكنها جوعى للمزيد من التسلية.

كان **تانوس** ذلك المخلوق النادر: رجل أفعال ورجل أقوال وأفكار في آن معًا، وأثق بأنه كان على ما يكفي من السخاء ليقرَّ بأن العديد من تلك الأفكار

زُرعت في دماغه بيد العبد المخلص تاينا، غير أنها زُرعت في أرض خصبة بأي حال.

أما عن الخطابة، فقد كانت مواعظ **تانوس** لأسرابه في عشيات المعارك شهيرة. بالطبع لم أحضرها كلها، لكنها نُقلت إليَّ حرفيًا على لسان **كراتاس**، صديقه وملازمه المخلص، ونسختُ العديد منها على مجموعة من لفائف البردي، ذلك أنها تستأهل المحافظة عليها.

كان **تانوس** ذا شعبية بين الجميع، وقادرًا على استمالة عامة الناس. كثيرًا ما فكرت في أن معظم قدراته الخاصة هذه نابعة من صدقه الشفاف وأخلاقه القويمة، وقد وثق به الرجال وتبعوه طواعية حيثما قادهم، حتى إلى الموت نفسه.

وعلى أنني لا أزال مُجهدَ الأعصاب إثر الصراع الذي شهدناه كلنا للتو وهروب **تانوس** الحَرِج من الفخ الذي نصبه مولاي **إنتف** له، كنت متشوقًا لسماع القصيدة الخطابية التي نظمها من دون مساعدتي أو مشورتي. ولأقول صدقًا، كنتُ لا أزال ممتعضًا بعض الشيء إزاء رفضه عوني، وأكثر من متوتّر في ما يخص ما قد يخرج به، فالكياسة والخُبث لم يكونا من مزايا تانوس البارزة قطُّ.

ثم أشار الفرعون داعيًا إياه ليتكلم عبر مصالبة عصا الراعي والمذبة المراسميين وإرجاعهما إلى حالهما الأول مع إمالة رأسه بلطف، وكان الحشد صامتًا ومُركزًا، وجميعهم مُنحنٍ إلى الأمام بتشوّق حتى لا يُغفل كلمة واحدة.

بدأ **تانوس** كلامه: «إن هذا المتكلم أنا، **حورس** ذو رأس الصقر»، وطفقوا يشجعونه.

- إنه ذو رأس الصقر حقًّا! اسمعوه!

«حا- كا- بتاح[1]! (استخدم **تانوس** الصيغة القديمة التي اشتُقَّ اسم مصر الحالي منها، وكان العارفون أن المعنى الحقيقي هو معبد **بتاح** قلة قليلة). أكلمك عن هذه الأرض القديمة التي مُنحناها منذ عشرة آلاف سنة، في زمن كان جميع الآلهة فيه شبانًا. أكلمك عن المملكتين اللتين هما في الطبيعة واحد لا يتجزأ».

---

(1) بتاح: هو ثالوث الربوبة المقدسة في الأساطير المصرية، وهو المعبود الخالق الذي عاش قبل وجود جميع الأشياء الأخرى وبإرادته خلق العالم من خلال التفكير به، ومن هجاء اسمه اليوناني اشتق الاسم الغربي لمصر (Egypt). (المترجم).

أومأ الفرعون برأسه، إذ كانت هذه المُسلَّمة الاعتيادية، التي وافقت عليها كلا السلطتين الدينية والدنيوية، والتي لا تعترف بالأفاك في المملكة السفلى، ولا حتى تقرُّ بوجوده.

«وا كيميت! (استخدم **تانوس** اسمًا قديمًا آخر لمصر: الأرض السوداء، تيمنًا بلون طين النيل الذي يجلبه الطوفان السنوي)، أكلمك عن هذه الأرض المصدَّعة والمنقسمة، التي مزَّقتها الحرب الأهلية، النازفة مستنزَفة الثروات».

انعكست صدمتي على وجوه جميع المنصتين إليه، فقد نطق بما لا يليق نطقه، وأردت الإسراع إلى المنصة ولطم فمه لمنعه من الاستمرار، لكنني كنتُ مبهوتًا.

«وا تا، ميري! (اسم قديم آخر: الأرض الحبيبة. لقد تعلم **تانوس** التاريخ الذي علمته إياه جيدًا)، أكلمك عن الجنرالات الشيوخ والواهنين، والأميرالات الذين يمنعهم ضعفهم وتذبذبهم من انتزاع المملكة المسروقة من أيدي المغتصب. أكلمك عن رجال عِتاق خَرِفين يهدرون ثرواتك ويهرقون دماء أحسن شُبانك كأنها ثُفل نبيذ مُز».

رأيت في الصف الثاني من الجمهور **نِمبِت**، أسد مصر العظيم، يحمرُّ غضبًا ويهرش بضيق لحيته هرشًا حانقًا. وعبس بقية كبار القادة العسكريين من حوله وأخذوا يتحركون باضطراب على مقاعدهم، مجلجلين سيوفهم في أغمادها إشارة إلى استنكارهم. وبينهم كلهم، بينما يشاهد **تانوس** يهرب من فخٍ ليسقط في تاليه لم يكن ثمة مبتسم إلا مولاي **إنتف**.

«إن أرضنا الحبيبة محاطة بلفيف من الأعداء، ورغم ذلك يفضل أبناء النبلاء قطع أباهيمهم على حمل السيف لحمايتها»، وعندما قال ذلك، نظر **تانوس** بحدَّة إلى **مينسيت وسوبيك**، أخوي **لوستريس** الكبيرين، حيث جلسا حذاء أبيهما في الصف الثاني. كان مرسوم الملك لا يعفي من الخدمة العسكرية إلا ذوي الإعاقات الجسدية التي تجعلهم غير لائقين، وقد أتقن الكهنة الجراحون في معبد **أوزيريس** فن إزالة المفصل العلوي من الإبهام بقليل من الألم أو خطر الإنتان، ومن ثَمَّ يصير محالًا أن تحمل اليد سيفًا أو تشدَّ وتر قوس. بينما كانت الأيائل الصغار تتبجح فخورة بتشوهاتها كانوا يقامرون ويعربدون في حانات شاطئ النهر، إذ لم يروا الإصبع المفقودة دلالة جُبن، بل دلالة قناعة وروح حرة.

كُنت سمعتُ أخوا **لوستريس** يجادلان: «الحرب هي اللعبة التي يلعبها الشيوخ بحيوات الشباب، والوطنية أسطورة ابتكرها أولئك المحتالون المسنون ليجرونا إلى اللعبة الجهنمية. فليحاربوا كما يشاؤون، لسنا نريد دورًا في حربهم»، وعبثًا احتججتُ بأن مزية المواطنة المصرية تحمل معها واجبات ومسؤوليات، وصرفاني بتعجرف الشباب الجُهلاء.

لكنِ الآن، تحت نظرة **تانوس** الثابتة، تململا قلقًا وأخفيا يديهما اليسريين في طيات ملابسهما، وكان كلاهما أيمنَ، لكنهما أقنعا ضابط التجنيد بالعكس ببلاغتهما ووابل من الذهب.

همهم العامة في مؤخر الردهة الكبيرة وأخذوا يخبطون بأقدامهم متفقين مع كلام **تانوس**، فقد كان أبناؤهم هم من ملؤوا دكك التجديف في القوادس الحربية، وزحفوا تحت السلاح عبر رمال الصحراء.

لكنني رحت أعتصر يديَّ في أطراف المنصة إحباطًا، ذلك أن **تانوس** بخطابه الصغير عادى خمسينَ من النبلاء الشبان في الجمهور، وهم رجال سيرثون السلطان والنفوذ في المملكة العليا يومًا ما. فاق إعجاب قطيع العامة ثقل خصومتهم مئة مرة، وصلَّيتُ أن يتوقف **تانوس**، فقد تسبب في دقائق قليلة بضرر يكفي ليترصَّدنا جميعنا مئة عام، لكنه تابع من دون اكتراث.

«وا *تا نوتري*! (هذا اسم قديم آخر كذلك: أرض الآلهة). أكلمك عن الجائر والسارق الذي يكمن في كل قمة من قمم التلال وفي كل دغل، صار الفلاح مضطرًا إلى الحرث وترسه بجواره، ولا بدَّ للمسافر من المضي وسيفه مسلول».

صفَّق العامة ثانية، فقد كانت غارات السلب والنهب التي تشنها عصابات اللصوص بلاءً رهيبًا عليهم كلهم، فلا يأمن أحد خلف جدران القرى الطينية. وكان زعماء اللصوص الذين سموا أنفسهم بالصّردان[1] متعجرفين وجريئين لا يحترمون قانونًا إلا قانونهم ولا يسلم منهم أحد.

ضرب **تانوس** على الوتر الحساس لدى الشعب ضربة دقيقة، وفجأةً حركني هاجس أن هذا كله أعمق بكثير مما يبدو عليه، فقد قامت الثورات وأُطيح بسلالات الفراعنة بتهليلات جماهيرية مثل هذه في الماضي. وقوَّت كلمات **تانوس** التالية شكِّي.

(1) الصُّرَد: جمعه صِردان، طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار يصيد الحشرات، وكانوا يتشاءمون به. (المترجم).

«بينما يصرخ الفقير تحت سياط جامعي الضرائب، يمسح النبلاء أرداف أبنائهم الفاخرة بأثمن زيوت المشرق...». فقام هدير من مؤخر الردهة، وحلت حماسة هائلة محل مخاوفي. هل خُطط لهذا بدقة؟ أكان **تانوس** أمكر وأدهى مما نسبته إليه؟

هتفتُ في قلبي: «بحق **حورس**! إن البلاد يانعة للثورة، ومَن خيرٌ مِن **تانوس** لقيادتها؟» ولم أشعر بالخيبة إلا لأنه لم يُسِرَّ إليَّ ويشركني في خطته. كنتُ لأخطط ثورة بمهارة وحنكة تصميمي حديقة مائية أو كتابتي مسرحية.

مددتُ عنقي لأنظر من فوق رؤوس الحشد، متوقعًا أن أرى في اللحظة التالية تمامًا **كراتاس** وإخوته الضباط يقتحمون المسرح على رأس فئة من محاربي السرب، وشعرتُ بشعر ساعدي وقفاي ينتصب حماسة وأنا أتصورهم يختطفون التاج المزدوج عن رأس الفرعون ويضعونه فوق جبهة **تانوس** الملطخة بالدم. ويا لها من غبطة كانت لتغمرني في انضمامي إلى هتاف «يعيش الفرعون! يعيش الملك **تانوس**!».

بينما حامت صور طائشة أمام عيني تابع **تانوس** كلامه. رأيتُ نبوءة عراف الصحراء تتحقق، وحلمت **بتانوس**، يجلس على العرش الأبيض لمصر هذه، ومولاتي **لوستريس** بجواره، وأنا أقف خلفهما مُشرقًا في حلة الوزير الأعظم للمملكة العليا. لكن لمَ بحق الآلهة لم يستشرني قبل الشروع في هذه المجازفة المخيفة؟

وأوضح السبب في كلامه التالي. لقد أسأت الظن بعزيزي **تانوس**، عزيزي **تانوس** الصادق والواضح والطيب، عزيزي **تانوس** النبيل المستقيم المأمون، الذي لا يفتقر إلا إلى الخباثة والاختلاس والخداع.

لم تكُن مكيدة، إنما كان **تانوس** يقول رأيه بلا خوف أو منَّة وحسب. وصار العامة الذين كانوا منذ لحظات فقط متمسكين بجذلٍ بكل كلمة تسقط عن لسانه، صامتين صمتًا غير متوقع أمام الطرف الحاد لذلك اللسان عندما استدار وهاجمهم.

«أنصتي إليَّ يا مصر! ما معنى أن يصير المرء من بلاد حيث يحاول اللئام سحق العِظام، حيث يُسَبُّ الوطنيُّ، ولا يُوَقَّر مُسنٌّ لحكمته، حيث يسعى الحقراء والحاسدون إلى دكِّ أولي الأخلاق إلى مستواهم الدنيء؟».

لم يهلل أحد الآن، إذ تعرف أولئك في مؤخر القاعة أنفسهم في الوصف، ونجح **تانوس** بلا جهد في عزل كل واحد بينهم، عظيمًا أم حقيرًا، غنيًا أم فقيرًا. رحتُ أنتحب متسائلًا لمَ لم يستشرني، لكنَّ الإجابة كانت واضحة جدًّا: لم يستشرني لأني كُنت لأعارض ذلك.

«أي نظام في مجتمع عبيده أحرار اللسان، ويعدُّون أنفسهم أندادًا لنبيلي المولد؟ (ثم انفجر فيهم)، أينبغي للولد سبُّ أبيه وازدراء الحكمة التي اشتراها بالشعر الأشهب والجبهة المتغضنة؟ أينبغي لعاهرة الضفة ارتداء خواتم من اللازورد ورفع نفسها فوق الزوجة الفاضلة؟».

قلت بمرارة في خلدي: «وحق **حورس** لن يرحم أحدًا بينهم من سوط لسانه»، وكما هي العادة، كان غافلًا تمامًا عن سلامته الشخصية في مسعاه إلى ما يراه السبيل الصحيح المفتوح.

لم يكن في المعبد إلا شخص واحد مسحور بما يقوله، إذ ظهرت **لوستريس** بجواري وأخذت بذراعي.

قالت في ما يشبه التنهيد: «أليس رائعًا يا تايتا؟ كل كلمة ينطقها حقيقة. إنه اليوم إلهٌ شاب بحق».

عجزت عن إيجاد أي كلمات أو جرأة لأوافقها، وبينما دلَّيت راسي أسًى تابع **تانوس** كلامه بلا هوادة.

«أيها الفرعون، أنت أبو الشعب، وإننا نناشدك طالبين الحماية والمدد. ضع شؤون الدولة والحرب في أيدي الصادقين والأذكياء. أرسل الغشاشين والحمقى ليتعفنوا في عزباتهم. أنهِ الكهنة الغدَّارين وخدم الدولة المرابين، هذه الطفيليات التي تعتاش على جسد أرضنا *تا ميري*».

يعلم **حورس** أنني أكره الكهنة أكثر من أكثرهم، لكن لا يستنزل إلا أحمق أو فائق الشجاعة غضب كل مزعجي الآلهة في مصر على رأسه، ذلك أن سلطتهم لا نهائية وبغضاءهم لدود. أما عن الموظفين الحكوميين، فقد فُتحت دروب نفوذهم وفسادهم عبر القرون، وكان سيدي **إنتف** رئيسهم جميعًا. بينما ارتجفتُ شفقةً على صديقي العزيز متبلد الذهن مضى في إعطائه التوجيهات للفرعون عن كيفية إعادة بناء المجتمع المصري بأكمله.

«أنصتْ لكلام الحكماء! أيها الملك، كرِّم الفنان والنسَّاخ، وكافئ المحارب الشجاع والخادم المخلص. واجتثَّ قطاع الطرق واللصوص من معاقلهم

الصحراوية. أعطِ الناس قدوةً وتوجيهًا في حيواتهم، فتزدهر مصرنا ثانية وترجع عظيمة».

ثم نزل تانوس على ركبتيه في وسط المنصة وبسط ذراعيه: «أيها الفرعون، أنت أبونا، وإننا نعلن حبنا لك. بالمقابل، أرنا الآن حُبَّ الأب. اسمع تضرعاتنا، نتوسل إليك».

حتى تلك اللحظة، كنتُ مخدرًا بعمق حماقة صديقي، لكنني حينئذٍ، متأخرًا أكثر مما يجب، استعدتُ حصافتي وأشرتُ باهتياج لعمال المسرح أن يسدلوا الستارة أمام تانوس قبل أن يسعه إنزال المزيد من الضرر. وبينما رفرفت طيات القماشة اللماعة وأخفته عن أنظار الجمهور، جلسوا في صمت ذاهل كأنهم لم يصدقوا ما رأوه وسمعوه في تلك الليلة.

وكان الفرعون نفسه مَنْ كَسَرَ الذهول، إذ نهض ووجهه مبهمٌ خلف المكياج الأبيض المتيبس، وسجد الحشد أمامه بينما يخرج بوقار من المعبد. وقبل أن يهبط سيدي إنتف إجلالًا مثلهم، رأيتُ تعابيره، وكانت تعابير منتصرة.

***

رافقت تانوس عَوْدًا من المعبد إلى مسكنه فقير الأثاث قرب الميناء الذي يرسو فيه سربه. ورغم أنني مشيتُ بجواره ويدي على نصاب خنجري، مستعدًّا لأن تزورنا عواقب صراحته الهوجاء من فورها، كان غير نادم البتة، وفي الحقيقة، بدا غافلًا عن غمار حماقته ومسرورًا من نفسه مفرط السرور. كنتُ انتبهت مرارًا إلى أن الرجل المُعتق حديثًا من توتُّر فظيع وخطر قاتل يصير مهذارًا ومزهوًّا، وحتى تانوس، المحارب الصلب، لم يكن استثناءً.

قال: «لقد آن الأوان لأن يقف شخص ما ويقول ما ينبغي قوله، ألا توافقني الرأي يا صديقي القديم؟». رنَّ صوته نقيًّا وعاليًا على طول الزقاق المعتم، كأنما يعتزم استدعاء أي مُغتال ينتظر، فأبقيتُ موافقتي مكتومة.

- لَمْ تتوقع ذلك مني، أم توقعته؟ صارحني يا تايتا. لقد باغتك، أليس كذلك؟

قلت: «لقد باغتتنا كلنا (تمكنتُ هذه المرة من الموافقة ببعض الحماسة المزيدة)، حتى الفرعون أُخذ على حين غرة، ولا عجب في ذلك».

- لقد أنصتَ يا **تايتا**، وأعلم أنه تلقى كل ما قلتُه. أبليتَ حسنًا هذا المساء، ألا تظن ذلك؟

عندما حاولت فتح موضوع هجوم **راسفر** الغدار عليه وطرح إمكانية أنه ربما كان بتوجيه من سيدي **إنتف**، رفض **تانوس** ذلك رفضًا قاطعًا، وقال: «هذا محال يا **تايتا**، إنك تحلم. كان السيد **إنتف** أعز أصدقاء أبي، فكيف عساه يضمر لي الشر؟ وأيضًا، أنا صهره المستقبلي، صحيح؟».

وعلى الرغم من إصاباته، أطلق صيحة ضاحكة سعيدة أيقظت النيام في الأكواخ المعتمة التي نعبرها فصرخوا بنا -مُكدَّرين- أن نصمت، وتجاهل **تانوس** احتجاجهم.

وهتف: «لا لا، لا شك في أنك مخطئ. لم يكن إلا **راسفر** يخرج ضغينته بطريقته الأسرة الخاصة. حسنًا، سيكون أكثر حصافة في المرة القادمة (وألقى ذراعه حول كتفيَّ فعانقني بشدة حتى آلمني)، لقد أنقذتَني مرتين اليوم، فلولا تحذيراتك لنال مني **راسفر** في المرتين. كيف تفعل هذه الأشياء يا **تايتا**؟ أقسم إنك عراف متكتِّم، وتتمتع بنعمة العين الداخلية»، وضحك ثانيةً.

كيف عساي أخمد غبطته؟ كان مثل صبي، صبي كبير صاخب، ولم يسعني إلا أن أحبه أكثر. لم يكن الوقت مناسبًا لإيضاح الخطر الذي وضع نفسه، وجميع أصدقائه، في معرضه.

فلينعم بساعته، وفي الغد أنطق بصوت العقل والحيطة. وهكذا، أخذته إلى المنزل وقطَّبت الشق في جبهته، وغسلت بقية جراحه ثم دهنتها بخليطي الخاص من العسل والأعشاب لمنع الغنغرينا، وأعطيته بعد ذلك جرعة كثيفة من الزهرة المنومة وتركت **كراتاس** الطيب حارسًا على رقاده.

عندما بلغت مهجعي بعد منتصف الليل بمدة، وجدت استدعاءين ينتظرانني: أحدهما من سيدتي **لوستريس** والآخر من **راسفر** المهزوم. لا شك فيمَن كنت لألبي نداءه لو مُنحت الخيار، لكنني لم أُمنحه، ذلك أن اثنين من برابرة **راسفر** أخذانني جرًّا تقريبًا إلى حيث يتمدد على فراش نقعه العرق، يشتم تارة ويئنُّ تارة، وتارة ينادي **ست** وكل الآلهة ليشهدوا ألمه ومعاناته.

حياني رافعًا نفسه بألم على أحد مرفقيه: «تاينا الطبيب! لن تصدق قدر الألم. إن صدري يلتهب، وأقسم إن عظامي جميعها مسحوقة، ورأسي يؤلمني كأنه مشدود بسيور من الجلد».

لم أبذل كثيرًا من الجهد لأكبت دموع شفقتي، لكنه أمر غريب فينا نحن الأطباء والمعالجون أن قلوبنا لا تطاوعنا في حرمان حتى أبغض الكائنات من مهاراتنا الطبية إذا ما احتاجت إليها. تنهدتُ استسلامًا، وفككتُ حقيبتي الجلدية التي تحوي معداتي الطبية، ثم بسطتُ أدواتي ومراهمي.

أفرحني أن وجدتُ تشخيص راسفر لنفسه سليمًا تمامًا، هذا بالإضافة إلى الكدمات والجروح السطحية الكثيرة، وثلاثة أضلاع مكسورة على الأقل، وكتلة في قفا رأسه بحجم قبضتي تقريبًا، فصارت عندي علة مشروعة بالكامل لأزيد مشقته أيما زيادة. كان أحد أضلاعه المكسورة في موضع حرج جدًا خارج الصف وثمة خطر حقيقي في أنه قد يثقب الرئة. وبينما يثبته البربريان ويصيح ويعوي بأكثر الأصوات إرضاءً، عالجت الضلع حتى أعدته إلى مكانه وقمطت صدره بضمادات كتانية منقوعة نقعًا جيدًا بالخل لتنكمش عندما تجف.

ثم توجهت إلى الكتلة على قفا جمجمته حيث ارتطمت بالبلاطات الحجرية. إن الآلهة لسخية في معظم الأحيان. عندما وضعت قنديلًا أمام عيني راسفر لم ينقبض بؤبؤاه، ولم يخامر ذهني أدنى شك في ما يخص العلاج اللازم، ذلك أن سائلًا دمويًا يتجمَّع في تلك الجمجمة الكريهة، ومن دون مساعدتي سيموت راسفر قبل غروب الشمس القادم، غير أنني نحيتُ الإغراء البدهي جانبًا وذكرتُ نفسي بواجب الجراح تجاه مريضه.

لا يوجد على الأرجح إلا ثلاثة جراحين في كل مصر قادرين على نقب جمجمة بنسبة نجاح جيدة، وعن نفسي، ما كنتُ لأثق كثيرًا بالاثنين الآخرين. ومرة ثانية، أمرتُ أبلهَيْ راسفر بإحكام قبضتيهما عليه ليلجما اصطراعه، وبتثبيته منبطحًا على الفراش. ومن خشونة تعاملهما وإهمالهما الواضح لأضلاع سيدهما المصابة، خمَّنتُ أن قلبيهما ليسا عامرين بمشاعر المحبة ناحيته.

وثانية، بينما أحالت جوقة الزعيق والعواء الليلة شنيعةً وأضفت البهجة على أتعابي رسمت شقًا نصف دائري حول الكتلة على جلدة رأسه، ثم سلخت شريحة كبيرة عن العظم. لم يعُد حتى هذين البربريين الضخمين قادرين

على تثبيته، وصار اصطراعه يرش الدم عاليًا إلى سقف الغرفة ويرقّشنا كلنا، فبدونا مصابين بالجدري. وأخيرًا، أمرتهم ساخطًا بتقييد معصميه وكاحليه بقوائم السرير بأربطة جلدية.

فراح ينتحب: «أوه يا تايتا الرفيق العذب، لقد جاوز الألم حدود التصديق، أعطني قطرة فقط من عصير الزهرة ذاك، أتوسل إليك يا صديقي العزيز».

الآن وقد صار مُحكم الوثاق إلى السرير، صار بمقدوري احتمال تكلفة مصارحته: «إنني أفهم شعورك حق الفهم يا عزيزي راسفر الطيب، وأنا أيضًا كنتُ لأمتن جزيل الامتنان لو حصلتُ على بعض من الزهرة وقتما استللتَ سكينك عليَّ آخر مرة. لكن وا حسرتاه يا رفيقي القديم، لقد نفد مخزن عقاقيري، ولن تجيء قافلة شرقية قبل شهر على الأقل». كذبتُ بحرص، ذلك أن قلة قليلة فقط تعرف أنني أزرع الزهرة المنومة بنفسي. ثم مددتُ يدي، عارفًا بأن الأفضل قادم، وتناولت مثقب العظام.

الرأس البشري هو العضو الجسماني الوحيد الذي يُربكني بصفتي طبيبًا، ونزولًا عند أوامر سيدي إنتف، كانت جثث جميع المجرمين المُعدمين تُسلم إليَّ، بالإضافة إلى أن تانوس كان يجلب لي الكثير من العينات الممتازة من ساحة المعركة، مخللةً على نحو ملائم في جِرار من الماء المملح. شرَّحتها كلَّها ودرستها حتى أعرف كل عظمة ومكانها الدقيق في الهيكل العظمي، وتعقبت طريق دخول الطعام إلى الفم ومروره عبر الجسد، ووجدت ذلك العضو العظيم والمدهش، القلب، مستكنًا بين الرئتين، نفّاختي هواء، ودرست أنهار الجسد التي تفيض عبرها الدماء، ورصدتُ نوعي الدماء اللذين يقرران أهواء الإنسان ومشاعره.

فثمة بالطبع ذاك الدم القانئ المَرِح الذي إذا ما سيَّله جرح مبضع أو فأس جلاد، ينبجس في دفقات منتظمة، وهو دمُ الأفكار السعيدة والمشاعر النقيَّة، دم الحب والسماحة. ثم الدم الأدكَن الكالح الذي يتدفق من دون حماسة سابقه ومرحه الوثَّاب، وهذا دم الغضب والأسى، دم الأفكار الموحشة والفِعال الخبيثة.

كل هذه المسائل درستها، وملأتُ مئة لفيفة برديٍّ بملاحظاتي. لا أعرف رجلًا في العالم أسهب هذا الإسهاب، وبالتأكيد لم يفعل أحد أولئك الدجالين في المعبد بتعاويذهم وحجبهم. بل أشك أن أحدهم قادر على التفريق بين

الكبد والمصرة الشرجية من دون الابتهال إلى **أوزيريس** وإلقاء نرد التكهن ودفع أجرة من الدهن مقدمًا.

يمكنني القول بكل تواضع إنني لم ألتقِ رجلًا يفهم الجسم البشري أحسن مني قطُّ، ومع ذلك لا يزال الرأس يربكني. أفهم بطبيعة الحال أن العينين تريان والأنف يشم والفم يتذوق والأذنين تسمعان، لكن ما غرض تلك العصيدة الباهتة التي تملأ قرعة الجمجمة؟

عجزتُ عن إدراك ذلك بنفسي، ولم يمنحني أحد تفسيرًا مُرضِيًا قطُّ، إلا أن **تانوس** اقترب من ذلك أكثر الجميع، فبعد أن أمضيت وإياه أمسية نتذوق آخر غلة النبيذ الأحمر المعتّق، استيقظ عند الفجر واقترح متأوهًا: «لقد وضع **ست** هذا الشيء في رؤوسنا انتقامًا من الجنس البشري».

التقيت مرةً رجلًا مسافرًا مع قافلة جاءت من وراء النهرين التوءمين الأسطوريين، دجلة والفرات، والذي زعم أنه درس المعضلة نفسها. كان رجلًا حكيمًا، وناقشنا ألغازًا كثيرةً على مدار نصف عام. اقترح في مرحلة من نقاشنا أن كل المشاعر والأفكار البشرية لا تنبع من القلب، بل من تلك الخثارة الهشة معدومة الملامح التي تشكل الدماغ، ولا أذكر هذا الادعاء الساذج إلا لأؤكد الزلل القاتل الذي يمكن حتى لرجل ذكي ومتعلم أن يقع فيه.

لا يمكن لأي شخص يتأمل هذا العضو الهائل، القلب، النابض بحياته الخاصة في وسط الجسد، تغذيه أنهار عظيمة من الدماء، وتحميه حواجز من العظام، أن يشك في أنه العين التي تنبثق منها كل الأفكار والمشاعر. ويستخدم القلب الدماء لينشر هذه المشاعر عبر الجسد. أشعرتَ قبلًا أن قلبك يضطرب فيك ويتسرَّع أمام موسيقا جميلة، أو وجه محبوب، أو كلمات مرهفة لخطاب مؤثر؟ أشعرتَ قبلًا بأي شيء يقفز داخل رأسك؟ حتى الحكيم المشرقي اضطُرَّ إلى الإذعان أمام منطقي القاسي.

ولا يوجد رجل عاقل يمكنه تصديق أن بركة معدومة الدم من الحليب المُروَّب هاجعة في جرّتها العظمية يمكنها استحضار سطور قصيدة أو تصميم هرم، أو تدب بالحب في قلب رجل أو تحمله على شن حرب. حتى المحنطين يغترفونها ويرمونها وقتما يجهزون جثة للرحلة الطويلة.

لكننا نواجه تناقضًا هنا، فإن أزعج شيء ما هذه الكتلة الدِّبِقة، حتى لو كان ضغط السائل المحصور فوقها، يهلك المريض لا محالة، ويحتاج نقب

الجمجمة من دون إزعاج الجَيب الذي يحوي هذه الخثارة معرفة دقيقة ببنية الرأس ومهارة عجيبة تمامًا، وأتمتعُ بكلتا الصفتين.

وبينما أحفر العظم بأناة، يحثني جؤار **راسفر**، صرت أتوقف دوريًا لأغسل شظايا العظام وبُرادتها عبر بخ الخل في الجرح، ولم تحسِّن لذعة السائل كثيرًا من رفاه المريض، إنما أنعشت درجة صوته المتراخية.

وفجأة، ثقب المثقب البرونزي الحاد الجمجمة ثقبًا دقيقًا، واندفعت دائرة عظمية ضئيلة لكنها تامة بفعل الضغط الداخلي، ثم أعقبتها على الفور دُفقة دم قاتم متجلط أصابتني في وجهي، واسترخى **راسفر** من تحتي فورًا. أدركتُ، إدراكًا ترافقه وخزة ندمٍ خفية، أنه سينجو، وبينما أقطِّب شريحة جلدة رأسه مكانها مغطيًا الفجوة التي كانت الأم الجافية[1] تخفق في أعماقها خفقًا مشؤومًا، تساءلت أكنتُ قد أسديتُ الجنس البشري خدمة عظيمة بحق بمحافظتي على هذا النموذج منه.

عندما تركت **راسفر** ورأسه مقمط بالضمادات، يشخر ويئن في رثاء ذاتٍ خنزيريٍّ، وجدتُ نفسي منهكًا بالكامل، فقد استهلكت إثارات النهار وأهواله مخزون طاقتي الرحب. لكن لم تُقدر لي الراحة بعد، ذلك أن رسول مولاتي **لوستريس** كان يحوِّم على شرفة مهجعي منتظرًا إياي، وانقضَّ عليَّ حالما وطئت الدرجة الأولى فلم يمنحني إلا مهلة كافية لأغسل دماء **راسفر** عني وأبدل ملابسي الوسخة.

وبينما أتهادى إلى مخدعها، بالكاد يمكنني تقديم قدمٍ على قدم، لاقتني سيدتي بعينين متوقدتين وقدم تدقُّ متوعدة، وهاجمتني من فورها: «أين كنت مخبئًا نفسك أيها السيد **تايتا**؟ لقد أرسلتُ في طلبك قبل الهزيع[2] الثاني، وها قد اقتربنا من الفجر. كيف تجرؤ على إبقائي منتظرة كل هذا الوقت؟ إنك تنسى مكانتك في بعض الأحيان، وتعرف حق المعرفة عقاب العبيد الوقحين...».

كانت هائجة أشد هياجها بعد أن تركتُ استياءها يتخمَّر طيلة تلك الساعات، وكان جمالها في ساعة غضبها شادِهًا، وعندما دقَّت بقدمها بحركتها الساحرة تلك، خُيِّلَ إليَّ أن قلبي لا بدَّ منفجرٌ بحبه لها.

(1) الأم الجافية: غشاء سميك مُكوَّن من نسيج ضام كثيف غير منتظم يحيط بالدماغ والنخاع الشوكي، وهي الطبقة الخارجية من طبقات الغشاء الثلاث المسماة بالسحايا. (المترجم).

(2) هَزيعٌ من الليل: طائفةٌ، أو نحوُ ثُلثِه أو رُبُعِه. (المترجم).

ثم انفجرتْ في وجهي: «لا تقف مكانك مبتسمًا لي! إنني حانقة بحق، حتى إن بإمكاني الأمر بجَلدك!»، ودقت بقدمها ثانية، فشعرتُ بالتعب يسقط عن كتفيَّ مثل حمل ثقيل. إن مجرد حضورها قادر على رد الحياة لي.

- مولاتي، يا له من دور رائع لعبتِه الليلة. بدا لي ولكل من شاهدك أن الإلهة السماوية نفسها تمشي بيننا...

- إياك أن تحاول حيلَك معي (ودقت بقدمها مرة ثالثة، لكن من دون اقتناع) لن تتملص من الأمر بهذه السهولة...

- حقًّا أقول يا مولاتي، ففي طريق عودتي من المعبد عبر الشوارع المكتظة، سمعتُ اسمك على كل لسان. كانوا يقولون إن غناءك أحسن ما سمعوه على الإطلاق، وسرق قلوبهم كلها.

- لا أصدِّق ولا حتى كلمة (لكن كان واضحًا أنها تعاني المشقة في المحافظة على حنقها) وفي الحقيقة، رأيت أن صوتي كان بغيضًا هذا المساء، فقد انخفض عن العلامة مرة على الأقل، وخرجتُ عن النوتة مراتٍ كثيرة...

- لا بدَّ لي من معارضتك يا سيدتي، إذ لم يكن صوتك أفضل من ذلك قبلًا. ويا له من جمال! لقد أثار المعبد بأسره. (مولاتي لوستريس ليست فارغة حقًّا، لكنها امرأة).

هتفَت ساخطة: «يا لك من رجل فظيع! كنت مستعدةً للأمر بجلدك هذه المرة، مستعدةً حقًّا. لكن تعال اقعد بجواري على السرير وأخبرني بكل شيء. ما زلت متحمسةً حتى إنني لا أظنني سأنام لأسبوع»، وبينما أخذت بيدي فقادتني إلى السرير كانت تثرثر بسعادة عن **تانوس**، وعن أنه لا بدَّ قد أسر القلوب كلها وقلب الفرعون بأدائه الرائع وخطابه الجسور، وعن **حورس** الرضيع الذي تفوَّط على ثوبها، وتسألني أكنت أظنها غنَّت جيدًا بحق أم قلت ذلك مجاملة.

اضطُررتُ إلى إسكاتها في آخر الأمر: «مولاتي، لقد كاد الفجر يبزغ وعلينا أن نكون مستعدين لنغادر مع حاشية البلاط في صحبة الملك عندما يعبر النهر ليعاين معبده الجنائزي ومقبرته. عليكِ أن تحظي ببعض النوم إن كنتِ تريدين الظهور بأفضل حالاتك في مناسبة ملكية مهمة كهذه».

فاحتجت قائلة: «لستُ نعسانة يا تايتا»، واستمرت في هذرها، لتتراخى على كتفي بعد بضع دقائق وتغط في النوم في منتصف كلامها.

أزلقتُ رأسها رويدًا على مسند الرأس الخشبي المنقوش وغطيتها ببساط من فراء قرد الكولبُس. لم يسعني حمل نفسي على المغادرة من فوري، فبقيت محومًا بجوار سريرها، ثم طبعت قبلة رقيقة على خدها. لم تفتح عينيها، لكنها همسَت في وَسَنها: «أتظن أنني سأحظى بفرصة لأكلم الملك في الغد؟ فلا أحد سواه قادر على منع أبي من إبعاد **تانوس**».

لم أستطع التفكير بإجابة جاهزة لسؤالها، وبينما لا أزال مرتبكًا، غرقَت في نوم عميق.

***

بالكاد تمكنتُ من جر نفسي عن كنبتي عند الفجر، فقد بدا لي أنني لم أكد أغمض عينيَّ لأنام حتى آن أوان فتحهما ثانية. ورأيتُ انعكاسي في المرآة البرونزية مُرهقًا وعيني مُسطرتين بالأرجواني، فوضعت لمسة مكياج سريعة لأغطي أسوأ ما في هيئتي المؤسفة؛ جمَّلتُ تجاويف عيني بالكحل وملامحي الشاحبة بتفريشة إثمد[1]، ثم سرّح اثنان من الغلمان شعري وسرتني النتيجة حتى إنني كدت أشعر بالبهجة على حين أهرع إلى رصيف الوزير الأعظم الخاص حيث يرقد الصندل الملكي راسيًا.

كنت بين آخر المنضمين إلى الحشد على الرصيف، لكنْ بدا أن أحدًا لم يلاحظ وصولي المتأخر، ولا حتى سيدتي **لوستريس** التي كانت على متن الصندل بالفعل، فراقبتها لبعض الوقت.

كانت قد دُعيت للانضمام إلى النساء الملكيات، ولا تضم النساء الملكيات زوجات الملك فقط، بل سراريه الكثيرات وجميع بناته. بالطبع، كانت الأخيرات سبب معظم تعاسة الفرعون؛ سرب بنات تتراوح أعمارهن بين الدبَّاءات والدارجات إلى غيرهن من البالغات عمر الزواج، وليس بينهنَّ صبي واحد. كيف يُصان خُلود الفرعون من دون سليل ذكر يحمله قدمًا؟

شق عليَّ تصديق أن **لوستريس**، مثلي، لم تنم أكثر من ساعة أو اثنتين، فقد بدت عذبة ونضرة كإحدى زهور الصحراء في حديقتي، وحتى في تلك

(1) الإثمد: عنصر كيميائي من أشباه المعادن كانت تستخدم أملاحه قديمًا في الكحل. (المترجم).

الجمهرة اللماعة من الجمال الأنثوي المنتقاة بأيدي ممثلي الفرعون والمرسلة إليه من حكامه في أطراف الإمبراطورية، برزت **لوستريس** كسنونوة في رفٍّ من القُبَّرات الصحراوية الضئيلة الشاحبة.

بحثتُ عن **تانوس**، لكنَّ سربه كان راسيًا بالفعل في أعلى المجرى، مستعدًّا لمرافقة عبور الفرعون، وقد أحال انعكاس الشمس الآخذة بالإشراق سطح النهر إلى صفيحة فضية متلألئة تعمي الأبصار لم أستطع النظر فيها.

في تلك اللحظة، سرى هدير طبول مستقر، ومد الناس أعناقهم ليشاهدوا مسير الفرعون الفخم من القصر إلى الصندل الملكي.

كان معتمرًا في ذلك الصباح *النمس الفرعوني*[1] الخفيف المصنوع من الكتَّان المُنشَّى والمطويّ، والمُثبت حول جبهته برباط *الصل الفرعوني*، الصل الذهبي المنتصب، الذي ينهض من جبهته بغطاء رأسه المتوسِّع وعينيه العقيقيتين البرَّاقتين، رمزًا لسلطة الحياة والموت التي يتمتع بها الفرعون على رعاياه. لم يحمل الملك عصا الراعي والمذبة، بل الصولجان وحده، وهو أقدس الكنوز بين جواهر العرش بعد التاج المزدوج نفسه، وذاع أن عمره يجاوز الألف عام.

وعلى الرغم من جميع شارات المُلك ومراسمه، لم يستخدم الفرعون أي مكياج، وتحت أشعة شمس الفجر المباشرة، بلا مكياج يواري حقيقته، ظهر **ماموس** نفسه عاديًا، مجرد إله محلي ضئيل ناعم له كرش صغير مُدوَّر ينتأ من فوق دكة تنورته وملامح منحوتة نحتًا متشابكًا بخطوط من القلق.

عندما مرَّ حيث أقف، ظهر عليه أنه تعرفني، ذلك أنه أومأ برأسه إيماءة طفيفة، فبسطتُ نفسي فورًا على البلاط. توقف آنذاك ثم أشار إليَّ أن أقترب، فحبوت قُدمًا على يديَّ وركبتيَّ ونقرت الأرض بجبهتي عند قدميه ثلاث مرات.

سألني بذاك الصوت الهزيل الشكِس: «ألست الشاعر **تايتا**؟».

أجبته: «أنا العبد **تايتا** يا صاحب الجلالة (فثمة أوقات تستدعي بعض التصاغُر)، لكنني مُخرِبش متواضع أيضًا».

---

(1) النمس الفرعوني: غطاء مخطط للرأس اعتمره الملك في مصر القديمة، وكان يغطي التاج بالكامل ومؤخر الرأس والعنق. له طيتان كبيرتان تتدليان خلف الأذنين وأمام الكتفين، وكان يُدمج أحيانًا مع التاج المزدوج كما في تماثيل رمسيس الثاني. (المترجم).

- حسنًا، أيها العبد تايتا، لقد خربشتَ حسنًا الليلة الماضية، ولم يسبق أن سلّاني حقلٌ هذه التسلية قطُّ. سأصدر مرسومًا ملكيًا يعلن خربشاتك المتواضعة النسخة الرسمية.

أعلن ذلك بصوت عالٍ علوًّا يكفي لتسمعه جميع الحاشية، وحتى سيدي إنتف الذي كان يتبعه من كثب ابتسم سرورًا، فلِكَوْني عبدُه، يرجع التكريم إليه أكثر مني. بأي حال، لم يكن الفرعون قد أنهى كلامه بعد.

- أخبرني أيها العبد تايتا، ألست أيضًا الجراح الذي وصف لي دواءً مؤخرًا؟

- أنا العبد الحقير نفسه، الوقح بما يكفي ليمارس بعض الطب يا صاحب الجلالة.

ثم أخفض صوته فلم يسمع سواي سؤاله: «إذن متى سيسري مفعول دوائك؟».

- سيحدث ذلك يا صاحب الجلالة بعد تسعة أشهر من تحقيقك كل الشروط التي عددتها لك (وعندما دخلنا في علاقة جراح ومريضه، شعرت بجرأة لأردف)، أتبعتَ الحمية التي أعددتها لك؟

فصاح محتجًا وفي عينيه بريق مفاجئ..

- بحق نهديْ إيزيس السخيين! إنني ممتلئ بخصى الثيران حتى إنه من العجيب أنني لا أجأر إذا ما مر قطيع أبقار أمام القصر.

كان في مزاج هنيء فجربت دعابة صغيرة من دعاباتي..

- هل وجد الفرعون العِجلة التي اقترحتُها؟

- وا حسرتاه أيها الطبيب! ليس الأمر سهلًا كما قد يبدو، فأجمل الأزهار يزورها النحل أولًا. لقد اشترطتَ وجوب أن تكون غير ممسوسة البتة، أليس كذلك؟

- عذراء وغير ممسوسة وفي ضمن فصلٍ من قمرها الأحمر الأول (ثم أضفت سريعًا، مصعّبًا اختبار وصفتي بقدر الإمكان) هل وجدتم جلالتكم من تحقق هذا الوصف؟

تبدلت تعابيره ثانية، وابتسم متفكرًا. بدت الابتسامة في غير مكانها فوق تلك الملامح الكئيبة، ثم غمغم: «سنرى، سنرى»، واستدار ليصعد سلّم

الصندل. وعندما صار سيدي **إنتف** بحذائي، أومأ لي إيماءة صغيرة يأمرني أن أصطفّ خلفه، فتبعتُه إلى متن الصندل الملكي.

كانت الريح قد انحسرت في الليل وصارت مياه النهر الداكنة ثقيلة وهاجعة مثل زيت في برطمان، لا يعكرها إلا الخطوط والدوامات فوق صفحتها حيث يجري التيار الخالد عميقًا وسريعًا. حتى **نميت** ينبغي أن يتمكن من العبور في هذي الظروف، وإن كان سرب **تانوس** متشكلٌ في تشكيلة غير مشجعة، كما لو أنه متجهز لإنقاذه من الخطأ مرة ثانية.

أخذني سيدي **إنتف** جانبًا حالما بلغنا متن السفينة، وهمَس: «ما زلت تحوز القدرة على مفاجأتي في بعض الأحيان يا عزيزي القديم (ثم اعتصر ذراعي) وقتما بدأت أشكُّ بجدية في ولائك».

باغتتني دفقة المودة هذه، لأن جلدات سوط **راسفر** على ظهري ما زالت تلسعني، لكنني طأطأت رأسي لأحجب وجهي وانتظرت أن يعطيني توجيهاته لأطيعها، الأمر الذي فعله مباشرة.

«ما كنتُ لأكتب خطبة أنسب **لتانوس** يتلوها أمام الفرعون لو حاولتُ. عندما فشل الأبله **راسفر** فشلًا مُحزنًا، أنقذتَ يومي بأسلوبك المعهود»، وفي تلك اللحظة اتضح كل شيء. لقد ظن أنني كاتب حماقة **تانوس** الجسيمة، وأنني ألفتها لصالحه. ولا يمكن أنه سمع صيحات تحذيري **لتانوس** في لجة جلبة المعبد، وإلا لكان أعقل من ذلك.

رددتُ همسه بهمس: «يسرني أنك مسرور»، وشعرتُ بارتياح هائل لغياب أي خطر يهدد موقعي النافذ. لم تكُنْ سلامتي ما أفكر فيه آنذاك، حسنًا، ليس كُلِّيًا، إنما كنت أفكر في **تانوس** و**لوستريس** أيضًا، إذ سيحتاجان إلى كل نتفة مساعدة وحماية يمكنني منحهما إياها في الأيام العاصفة التي تنتظرهما. كنت ممتنًا لأنني ما زلت في موقع يفيدهما بعض الإفادة.

«لم يكن إلا واجبي»، وهكذا حققت أعلى استفادة من هذا المكسب المفاجئ.

أجابني سيدي **إنتف**: «وسيُقابل ذلك بامتناني. أتذكر قطعة الأرض على القناة خلف معبد **تحوت** التي ناقشناها منذ بعض الوقت؟».

- بالطبع يا مولاي.

كلانا يعرف أنني أصبو إلى هذه الرقعة منذ عشر سنوات، فهي معتزل مثالي لكاتب ومكان يمكنني الانزواء إليه في شيخوختي.

- إنها لك. اجلبْ لي سند الملكية في الجلسة القادمة لأوقعه.

ذُهلتُ وذُعرتُ إزاء الطريقة الخسيسة التي تملكتها بها: أجرًا على خيانة مُتخيَّلة ارتكبتُها، وفكرتُ للحظةٍ برفض الهبة، لكن للحظة فقط، فعندما صحوت من الصدمة كنا في عرض النهر نقترب من فم القناة التي تقودنا عبر السهل إلى معبد الفرعون **ماموس** الجنائزي العظيم.

بينما كنت قد تفحَّصت هذه القناة بأقل قدر من مساعدة المعماريين الملكيين، خططتُ منفردًا تقريبًا لكامل عملية نقل جسد الفرعون المعقدة من مكان وفاته إلى المعبد الجنائزي حيث ستحدث عملية التحنيط.

افترضتُ أنه سيموت في قصره على جزيرة **إلفنتين** الصغيرة البهية، ومن ثَمَّ ستجلب جثته هبوطًا عبر النهر في الصندل الأميري، فصممتُ القناة لتتسع للسفينة الضخمة مرتاحةً، لذا انزلقت فيها الآن بأناقة انزلاق سيف في غمده.

شقت القناة المستقيمة كنصل خنجري، والتي كدح عشرات الآلاف من العبيد على مر السنين في بنائها ورصفها بالكتل الحجرية، تربة السهل الضفّي الطفالية السوداء ألفي خطوة حتى سفوح التلال الصحراوية الكالحة. وحالما أولج الصندل نفسه فيها، قبض مئتا عبد متينٍ على الحبلين الممتدين من الجؤجؤ وبدؤوا بجره بسلاسة عبر السهل وهم يغنون إحدى أناشيد العمل الحزينة الشجيَّة متقدمين في صفين على امتداد ممر الجرّ. ثم هُرِعَ الفلاحون العاملون في الحقول المجاورة للقناة ليرحبوا بنا، واحتشدوا على الضفة، منادين بالمباركات على الملك وملوحين بسعف النخيل على حين يمرُّ بهم الصندل العظيم الجليل.

عندما انزلقنا أخيرًا إلى الرصيف الحجري تحت الأسوار الخارجية للمعبد نصف المنتهي، أوثق العبيد الحبلين إلى حلقات الإرساء، وكان تصميمي دقيقًا حتى إن البوابة في جانب الصندل تراصفت بدقة مع مدخل بوابة المعبد الرئيسة.

وعندما استقرت المركبة الهائلة، نفخ البوّاق فوق الجؤجؤ في قرن الغزال الذي يحمله، فرُفِعَ الباب المنزلق ليكشف عن عربة نقل الموتى الملكية في

المدخل وحولها جماعة المُحنطين بأثوابهم القرمزية وخمسون من كهنة أوزيريس في صف خلفهم.

ثم بينما بدأ الكهنة بالإنشاد كانوا يدحرجون العربة قدمًا على محادلها الخشبية إلى متن الصندل، فصفق الفرعون بيديه استحسانًا وأسرع ليعاين هذه المركبة البشعة.

لم أشارك في إنتاج هذا الاحتفال رديء الذوق، بل كان بأسره صنيعة الكهنة، وتمادوا به لا لشيء إلا ليقال إن الزينة الذهبية المسرفة تسطع تحت أشعة الشمس المجردة سطوعًا يؤذي الأعين تقريبًا بقدر ما يؤذيها التصميم الفعلي. بينما يدفع الكهنة العربة الخرقاء إلى متن الصندل أجبرهم كل هذا الثقل الذهبي على اللهاث والتعرق، وأمال السفينة العظيمة نفسها إمالة مقلقة. كان بمقدور هذه الكمية من الذهب ملء مخازن حبوب المملكة العليا جميعها، أو بناء خمسين سربًا من السفن المقاتلة وتجهيزها ودفع رواتب طواقمها لعشر سنوات. هكذا يحاول الحرفي غير اللائق إخفاء شُحّ إلهامه خلف كنز باهر. لو أعطوني موادَّ كهذه أعمل بها، لربما رأوا نتيجة مختلفة.

كان مقدرًا لهذه الدمامة أن تُدفن في المقبرة رفقة جثة الفرعون الهامدة، ولا فرق إن كان تصميمها قد أسهم أيّما إسهام في خراب المملكة المالي أم لا، ما دام الفرعون فرحًا بها.

بناء على اقتراح سيدي إنتف، ركب الملك المركبة واتخذ مجلسه في المنصة المصممة لتحمل ناووسه، ثم ابتسم له من هناك ناسيًا كل مهابته واحتشامه الملكيين، ففكرتُ تفكيرًا تشوبه غصة شفقة أنه ربما يستمتع بأكبر قدر ناله من المتعة في حياته الكئيبة، ذلك أن موته هو الذروة التي وجّه إليها معظم طاقة حياته وانتظاره.

وفي ما كان اندفاعة واضحة، أومأ لسيدي إنتف أن ينضم إليه على العربة، ثم قلّب بصره في المتن المحتشد كأنه يبحث عن شخص آخر في الجمع، وبدا أنه وجد من يريد، إذ انحنى قليلًا وقال شيئًا ما للوزير الأعظم.

ابتسم سيدي إنتف، وميّز مولاتي لوستريس وفقًا لتوجيهاته، ثم أمرها بإشارة منه أن تأتي إلى العربة. ظهر ارتباكها واضحًا، وتورّد وجهها تحت مكياجها، وهذه ظاهرة نادرة في شخص قلّما يخرج عن رزانته، لكنها توازنت بسرعة وصعدت متن العربة برشاقة بناتيّة ورِجلٍ طويلة عادة ما تخطف الأنظار كلها.

سجدَت أمام الملك بعد ذلك ونقرت جبهتها بأرض المنصة ثلاث مرات، ثم، وأمام جميع الكهنة والحاشية كلها، فعل الفرعون فعلة استثنائية: مدَّ يده فأخذ بيد **لوستريس** وأنهضها، ثم أجلسها بجواره على المنصة. كان ذلك متجاوزًا كل الأصول ولا سابقة له، ورأيتُ وزراءه يتبادلون نظرات الذهول.

ثم حدث شيء آخر حتى هم لم يدركوه. في مهاجع الصبية حيث عشتُ طفولتي، عاش عبدٌ أصمُّ عجوز صادقني، وعلمني قراءة كلام الناس من دون سماع صوتهم، بل من حركة شفاههم بينما تشكِّل الكلام، وكانت مهارة مفيدة للغاية يمكنني باستخدامها متابعة محادثة في الطرف القصي من قاعة مزدحمة، بينما يعزف الموسيقيون ويضحك مئة رجل حولي ويصيح أحدهم بالآخر.

وفي تلك اللحظة، رأيتُ بعيني الفرعون يقول بصوت خفيض لمولاتي **لوستريس**: «حتى في ضوء النهار، صورتك سماوية كما كانت صورة الإلهة **إيزيس** تحت ضوء مشاعل المعبد».

شعرتُ بالصدمة مثل لكمة في معدتي، ورحتُ أوبِّخ نفسي أشد التوبيخ. أكنتُ أعمى؟ أم كنتُ غبيًّا وحسب؟ يمكن لأي أحمق أن يتوقع بلا ريب الاتجاه الذي بمقدور تدخلي الغشوم أن يوجه الأقدار إليه.

لا بدَّ أن نصيحتي الطريفة للملك قد حوَّلت انتباهه تحويلًا حتميًّا ناحية مولاتي **لوستريس**، كأن دافعًا خبيثًا ما تحت سطح ذهني عمد إلى وصفها بدقة لتكون أم أول أبنائه. العذراء الأجمل في البلاد، التي ستؤخذ ضمن أول فصل يتلو إزهار قمرها، إنها هي بالضبط. ثم، بالطبع، بتقديمي إياها بطلةً للحفل، عرضتها أمام الملك أرقَّ عرض ممكن.

كان ما أدركتُ فجأة أنه موشك أن يحدث خطئي بالكامل، بل بدا أنني دبَّرتُه عمدًا. والأسوأ من ذلك هو أنني لم يعد بوسعي فعل شيء حياله الآن، فوقفت تحت أشعة الشمس مذعورًا وندمانًا حتى إنني حُرمت من قدرتي الكلام والعقل لبعض الوقت.

عندما دفع الكهنة المتعرقون العربة عن المتن وعبر البوابة، سار الحشد من حولي خلفها، وحُملت معهم بلا حول ولا قوة كأنني ورقة شجر يحملها التيار بلا مقاومة. وقبل أن أتدبَّر استعادة حصافتي، وجدتُ نفسي داخل الباحة الأمامية للمعبد الجنائزي، فبدأت أشق طريقي قُدمًا مدافعًا الذين

يسبقونني بمنكبيْ لأعبرهم وأصل إلى جانب العربة قبل أن تبلغ المدخل الرئيس للمدفن الملكي.

أخذ فريق من الكهنة يدفع المركبة الذهبية الثقيلة إلى الأمام، وفريق ثانٍ يلتقط المحادل الخشبية من خلفها ويسرع إلى الأمام ليضعها أمامها، ثم حدث تأخير وجيز عندما وصلت العربة إلى المنطقة غير المرصوفة بعد من الباحة، وبينما يفرش الكهنة القش أمام المحادل لتسهيل عبور هذه الأرض الوعرة، انسللتُ سريعًا خلف صف الأسود الحجرية المنحوتة العملاقة التي تسطر طريق العربات، وأسرعت قاطعًا هذه المساحة الخالية حتى صرت بحذاء العربة. وعندما حاول أحد الكهنة سد طريقي ومنعي من الوصول إلى جانب المركبة، رمقته بنظرة كانت لتخوّف أحد الأسود الحجرية، ولفظت كلمة واحدة نادرًا ما تُسمع في حدود المعبد حملتْه على التنحي بعجالة وتركي أعبر.

بلغت بعدئذٍ الجانب القريب من العربة، ووجدتُ نفسي تحت لوستريس مباشرة، قريبًا بما يكفي لأمد يدي وألمس ذراعها، وأسمع كل كلمة تخاطب الملك بها. عرفتُ فورًا أنها استعادت كامل رزانتها التي قلقلها اهتمام الفرعون المفاجئ بها، واعتزمَت أن تظهر بأبهى حلة ممكنة في عينيه، ثم تذكرتُ ببؤس أن هذا ما خططت له بالضبط: أن تستغل محاباته لتضمن موافقته على زواجها من تانوس. حتى وقتٍ قريب يبلغ الليلة الماضية، كنتُ قد نبذت هذه الثرثرة البناتية، لكن الأمر يحدث الآن، وليس في قدرتي منعه أو تحذيرها من المياه الخطرة التي توجِّه دفتها إليها.

إن كنتُ قد أوحيتُ، في وقت سابق من هذا التأريخ، بأن مولاتي لوستريس طفلة طائشة لا تحمل في رأسها الجميل إلا الهراء الرومانسي والتمتع التافه بمباهج الحياة، فقد قصّرت في مسعاي باعتباري مؤرخًا لهذه الأحداث الاستثنائية، فعلى الرغم من حداثة سنها، كانت في بعض الأحيان أنضج من عمرها بكثير، ذلك أن بناتنا المصريات يُزهرن مُبكرًا تحت أشعة شمس النيل، وكانت أيضًا باحثة مثابرة لها ذهن متقد وجانب مُفكِّر ومُتحرٍ من طبيعتها بذلت ما في وسعي لرعايته وتنميته عبر السنين.

بلغت تحت رعايتي مرحلة تمكّنها من مجادلة الكهنة في أكثر التعاليم الدينية غموضًا، والتصدي لمحامي القصر في مسائل مثل قوانين ملكية الأراضي وقانون الري مفرط التعقيد الذي ينظم استخدام مياه النيل. وبالطبع،

كانت قد قرأت وفهمت كل لفيفة في مكتبة القصر، بما فيها عدة مئات ألَّفتُها تتراوح من الأطروحات الطبية إلى مقالاتي الدقيقة في تكتيكات الحرب البحرية، إلى جانب لفائفي الفلكية عن أسماء وطبائع الأجرام السماوية كلها، ومراجعي في الرماية والمبارزة والبستنة والبزدرة[1]. يمكنها حتى مناقشتي في مبادئي الخاصة في هندسة العمارة، ومقارنتها بمبادئ إمحوتب العظيم.

فكانت مجهَّزة أحسن تجهيز لنقاش أي موضوع من علم الفلك إلى طبيعة الحرب، ومن السياسة إلى بناء المعابد إلى قياس مياه النيل وتنظيمها، وكلها موضوعات تستميل الفرعون. وأيضًا، يمكنها السجع والإلغاز وابتداع التوريات المسلية، وذخيرتها اللغوية باتساع ذخيرتي تقريبًا. بوجيز العبارة: كانت مُحاورة بارعة ذات حس دعابة حاضر وفصاحة لسان وصوت فتّان وضحكة عذبة بشوشة. وصدقًا أقول، لا يوجد رجل أو إله يمكنه مقاومتها، ولا سيَّما عندما تكون قادرة على أن تمنح شخصًا بلا أبناء أملًا بولي عهد.

وجب عليَّ تحذيرها، لكن أنَّى لعبد أن يتطفل على مجلس يفوق منزلته بما لا يقاس؟ لذا رحت أتقافز متوترًا بجوار العربة، أنصت إلى صوتها في ذروة سحره وقد أعدَّت نفسها لاستمالة الملك.

كانت تصف له الطريقة التي أُعدّ فيها معبده الجنائزي ليماثل أكثر المظاهر الفلكية تبشيرًا بالخير، وهي مظاهر القمر ودائرة البروج في وقت ولادته. وبالطبع كانت تردد المعرفة التي التقطتها مني وحسب، ذلك أنني الشخص الذي رسم خريطة المعبد ووجهه إلى الأجرام السماوية. لكنها تكلمَتْ بإقناع حتى إنني وجدتُ نفسي أنصت لشروحاتها كأنني أسمعها أول مرة.

مرت العربة الجنائزية بوَّابة الباحة الداخلية للمعبد وتدحرجت فوق البهو المبطَّن بالأعمدة الطويلة، ثم عبرت الأبواب المُقضَّبة والمحروسة إلى الخزائن حيث صُنِّعَت الأضاحي الجنائزية التي سترافق الملك إلى قبره. عند نهاية البهو، انفتحت الأبواب المصنوعة من خشب السنط، والتي نُقشت عليها صور جميع آلهة المَجمَع، ودخلنا مَحفَظَ الجثث حيث سُتحنط جثة الفرعون يومًا ما.

---

(1) البَزْدَرة: حرفة البيزار، وهو حامل طائر البازيّ ومدرِّبه. (المترجم).

وهنا، في هذا المصلَّى الجليل، هبط الملك من عربته ومضى ليتفحص الطاولة الهائلة التي سيستلقي عليها في مراسم تحويله إلى مومياء، فعلى عكس تحنيط عامة الشعب، يستغرق التحنيط الملكي سبعين يومًا ليتم. كانت الطاولة قد نُحتت من قطعة ديوريت[1] واحدة طولها ثلاث خطوات وعرضها اثنتين، وفي السطح الداكن الأرقش للحجر، نُحت بالإزميل تجويف يلائم قفا رأس الملك، وأخاديد وظيفتها تصريف الدماء وبقية السوائل الجسدية التي تحررها مشارط المحنّطين وأدواتهم.

وقف رئيس جماعة المحنطين بجوار الطاولة، مستعدًا ليشرح العملية بأسرها للملك، وحالفه الحظ بجمهور مُصغٍ، إذا بدا الملك مفتونًا بكل التفاصيل المُروّعة، وفي نقطة ما، ظهر عليه أنه موشك أن ينسى وقاره ويتسلق حجر الديوريت ليجرب ملاءمته، كما لو أنه زيٌّ جديدٌ من الكتان قدّمه له خياطه.

لكنه كبح نفسه بجهد واضح، وانصرف بدلًا من ذلك إلى الإنصات لشرح الحانوتيّ أن الشقّ الأول سيُشق من حلقومه إلى مخبنه، فتُزال حوايا بطنه تمامًا ثم تُقسم إلى أعضائها المنفصلة: الكبد، والرئتين، والمعدة، والأعقاج. أما القلب، فيُترك في مكانه بوصفه موقد الشرارة الإلهية، وكذا تُترك الكليتان لعلاقتهما بالمياه ومن ثَمّ بالنيل، منبع الحياة.

بعد هذا الدرس المُنوّر، فحص الفرعون بإسهاب الأواني الكانوبية الأربعة[2] التي ستتلقى الحوايا. كانت منتصبة على طاولة جرانيتية أخرى أصغر حجمًا في متناول اليد، وكانت منحوتة من مَرمَر شفيف نيِّر بلون الحليب، وسداداتها مصنوعة في أشكال الآلهة ذوي رؤوس الحيوانات: **أنوبيس** برأس ابن آوى، **وسوبيك** برأس تمساح، **وتحوت** برأس أبو منجل، **وسخمت** برأس اللبؤة. وهؤلاء الآلهة هم حراس أعضاء الفرعون المقدسة حتى يُبعث في الحياة الأبدية.

على الطاولة الجرانيتية نفسها التي تحمل الأواني الكانوبية، سجَّى المحنطون أدواتهم والمجموعة الكاملة من القدور والقوارير التي تحوي أملاح النطرون والأطلية وبقية المواد الكيميائية المستخدمة في العملية. شُغف الملك بالمشارط البرونزية التي ستنتزع أحشاءه، وعندما أراه المحنط

(1) الديوريت: حجر بركاني يمتاز بلونه المحتوي نقاطًا غامقة ونقاطًا فاتحة. (المترجم).

(2) الأواني الكانوبية: أو خابية الموتى، هي أواني استخدمها قدماء المصريين خلال عملية التحنيط لتخزين وحفظ أحشاء الموتى للآخرة. (المترجم).

الملعقة الطويلة المدببة التي سُتحشر في منخريه لتغرف مكونات جمجمته، تلك الرواتب جُبنية القوام التي تأملتُها طويلًا وسُدًى، شدِهَ الملك وتناول الأداة المُقشعِرة باحترام مُبجِّل.

وبعد أن أشبع الملك فضوله على طاولة التشريح، جذبتُ مولاتي **لوستريس** انتباهه إلى النقوش الغائرة الملونة التي تغطي جدران المعبد من أرضيته حتى سقفه. ولم تكن الزخرفات مكتملة بعد، لكنها مدهشة برغم ذلك في تصميمها وتنفيذها، فقد رسمتُ معظم الرسومات الأصلية بيدي، وأشرفت إشرافًا وثيقًا على البقية التي رسمها فنانو القصر وخطُّوها على الجدران بقضبان الفحم، وحالما صارت الخطوط في مكانها، صححتُها ومذبتُها يدويًا، والآن ثمة مجموعة من كبار النحَّاتين تنقشها في الحجارة الرملية، بينما تلون من خلفها مجموعةٌ من الرسامين النقوش النهائية.

كنتُ قد اخترتُ لهذه التصاميم اللون الأزرق بجميع تدرُّجاته: أزرقُ جناحيْ الزرزور، وأزرقُ السماء والنيل تحت أشعة الشمس، وأزرقُ أوراق الأُركيد، والأزرق البرَّاق لسمك الفرخ المرتعش في شبكة الصياد، لكنني أضفت أيضًا الألوان الحمراء والصفراء النابضة بالحياة التي نحبها نحن المصريين جدًّا.

دار الفرعون، يرافقه من كثب سيدي **إنتف** بصفته حارس المقابر الملكية، دورة متمهلة حول الجدران العالية، تفحّص فيها أدق التفاصيل وعلَّق على معظمها. وبطبيعة الحال، كان الموضوع الذي اخترته للمدفن هو سفر *الموتى*، تلك الخريطة والوصف التفصيلي للطريق الذي ينبغي لروح الفرعون أن تتبعه إلى العالم السفلي، ورسوم جميع المحاكمات والأخطار التي ستواجهها فيه.

ثم توقف برهة طويلة أمام لوحتي للإله **تحوت**، برأسه الطيريِّ ومنقار أبو منجل الطويل المعقوف، يضع قلب الفرعون المنزوع من جسده على الميزان قبالة ريشة الحقيقة. فإن كان القلب فاسدًا، ترجح كفَّته على كفة الريشة، ويرميه الإله من فوره إلى الوحش ذي رأس التمساح المنتظر بالقرب ليلتهمه. اقتبس الملك بصوت خفيض الترنيمة الحارسة المنصوص عليها في الكتاب ليقي نفسه هذا البلاء، ثم تابع طريقه إلى نقشي التالي.

كانت الظهيرة قد حلَّت تقريبًا عندما أتم الفرعون تفحصه للمعبد الدفني وترأس الطريق إلى الباحة الأمامية حيث مدّ طباخو القصر وليمة فاخرة في الهواء الطلق.

ونطق: «تعالي اقعدي هنا، حيث يمكنني محادثتك أكثر في أمور النجوم!».

تجاهل الملك الأعراف مرة ثانية ليُقعد مولاتي لوستريس بجواره إلى المائدة، حتى إنه نقل إحدى كبيرات زوجاته ليفسح مكانًا لها. وفي خلال الوجبة، وجه معظم حديثه إليها، وكانت في أوج ارتياحها فأبقت الملك وجميع من حولها مفتونًا ومبتهجًا بذكائها وسحرها.

وبالطبع، لا مكان لعبد مثلي إلى المائدة، ولا يمكنني حتى تقريب نفسي إلى نطاق مولاتي لأحذرها أن تهدِّئ سلوكها في حضرة الملك. وجدت لي بدلًا من ذلك مجلسًا على قاعدة أحد الأسود الجرانيتية، من حيث يمكنني النظر إلى امتداد طاولة الوليمة ومراقبة كل ما يحدث فيها. ولم أكن المراقب الوحيد، فقد قعد سيدي إنتف منكفئًا بقرب الملك، يراقب كل شيء بعينين لامعتين حاقدتين، مثل عنكبوت وسيم قاتل في وسط شبكته.

في وقت ما من الوجبة، حوَّمت حدأة صفراء المنقار عاليًا فوقنا، وأطلقت نعقةً أشبه بصيحة ساخرة متهكمة جعلتني أرسم بعجالة الإشارة الواقية من العين الشريرة، فمن يعرف أي إله ذاك الذي اتخذ هيئة الطائر ليبلبل مساعينا البسيطة ويربكها؟

جرت العادة على أن تستريح الحاشية بعد وجبة الظهيرة ساعة أو نحوها، ولا سِيَّما في هذا الفصل الأشدّ حرًّا من العام، لكن الفرعون كان هائجًا حتى إنه لم يقبل بذلك.

وأعلن قائلًا: «سنعاين الخزائن الآن». تنحى حراس الخزينة الأولى جانبًا وقدموا أسلحتهم عندما اقتربت الجماعة الملكية، ثم تأرجحت الأبواب منفتحة من الداخل.

كنت قد صممتُ هذه الخزائن الست لا لتكون مجرد مخازن تحوي الكنز الجنائزي الهائل الذي أمضى الفرعون سنواته الاثنتي عشرة منذ أن ارتقى إلى العرش المزدوج في جمعه، بل مشاغل أيضًا يعمل فيها جيش صغير من الحرفيين والفنيين على الدوام للإضافة إلى ذلك الكنز.

وكانت القاعة التي دخلناها مخزن السلاح المحتوي مجموعة الأسلحة والعتاد الحربي، العملي منه والشعائري، التي سيأخذها الملك معه إلى العالم الآخر، وبالاتفاق مع سيدي إنتف، رتبتُ أن يكون الحرفيون جالسين إلى مقاعدهم حتى يتسنى للملك مشاهدتهم يعملون.

وبينما يعبر الفرعون صف المقاعد متمهلًا، أخذ يطرح أسئلة أريبة وتقنية حتى إن النبلاء والكهنة الذين وجهها إليهم عجزوا عن منحه أي جواب، وراحوا يتظرون حولهم مسعورين بحثًا عن شخص يمكنه الإجابة. فاستُدعيت بسرعة من مؤخر الحشد ودُفعت قُدمًا لأواجه تحقيق الملك.

تجهَّم الفرعون بكآبة عندما تعرَّفني وقال: «آه، أجل، ليس إلا العبد المتواضع الذي يكتب الحفلات ويداوي السقام. يبدو لي أن لا أحد هنا يعرف تركيب سلك الإلكتروم الذي يشدّ جذع القوس الحربي والذي يصنعه هذا الرجل لي».

- أيها الفرعون الرحيم، إن المعدن خليطٌ عُشره نحاس وخمسة أعشاره فضة وأربعتها ذهب. والذهب من الصنف الأحمر الذي لا يوجد إلا في مناجم لوت في الصحراء الغربية، فلا معدن غيره يمنح السلك اللدانة والتمطط نفسيهما.

وافق الملك بامتعاض: «وكيف تجعل الجدائل بهذه الدقة؟ ليست أثخن من شعرات رأسي».

- نخرج المعدن المتصهر من خلال تلويحه ببندول خاص صممتُه لهذا الغرض يا صاحب الجلالة. يمكننا مشاهدة العملية في مصهر الذهب لاحقًا إن تشاء جلالتك.

وهكذا تمكنت في بقية الجولة من البقاء بجوار الملك وتحويل بعض انتباهه عن **لوستريس**، لكنني لم أجد رغم ذلك الفرصة المناسبة لأكلمها وحدها.

جال الفرعون في مخزن السلاح وعاين مجموعة الأسلحة والدروع الضخمة الموجودة فيه بالفعل. كان بعضها ملكًا لأسلافه وخاض معارك شهيرة، أما البقية فصُنعت مؤخرًا ولن تشهد حربًا أبدًا، لكنها بديعة جميعها، وكل قطعة منها تحفة أعمال صانعها. فيها خوَذ وصدارات برونزية وفضية وذهبية، وسيوف حربية بنُصُب عاجية مزينة بأحجار كريمة، وأزياء مراسمية كاملة لقادة نخبة أفواج الملك كلها، ودروع وتروس من جلود أفراس النهر والتماسيح مزينة بوُرَيدات ذهبية. كانت مجموعة باهرة بحق.

قطعنا البهو من مخزن السلاح إلى مخزن الأثاث، حيث يكدح مئة نجار بخشب الأرز والسنط والأبنوس الثمين لصناعة الأثاث الجنائزي لرحلة الملك الطويلة. لا تنمو إلا قلة قليلة من الأشجار الكبيرة في وادي النهر، لذا كان

الخشب سلعة ثمينة ونادرة، تكاد قيمته تعادل وزنه من الفضة، إذ تُحمل كل عصًا منه تقريبًا مئات الفراسخ عبر الصحراء، أو تُنقل فوق النهر من الأراضي الغامضة في الشمال. وها هو مكدس هنا بإسراف رغم ذلك، كأنه شيء عادي، ورائحة النشارة الغضة تعطر الهواء الساخن.

بينما يرصِّع الحرفيون رأسية سرير الفرعون بأشكال من المحار والخشب متباين اللون، ويزيِّن آخرون مساند أذرُع الكراسي بصقور ذهبية، ومساند ظهور الكنبات المبطَّنة برؤوس أسود فضية، راقبنا. حتى ردهات القصر الملكي في جزيرة إلفنتين لم تحتوِ مهارة كهذه التي ستزين حُجيرة قبر الفرعون الصخرية الأنيقة.

ثم انتقلنا من خزينة الأثاث إلى قاعة النحَّاتين. كان النحاتون ينجرون ويُشظِّون رخامًا وحجرًا رمليًا وجرانيتًا من مئة تدُّرج لوني مختلف بالإزميل والمبرد حتى علق غبار دقيق شاحب في الهواء، وغطَّى البناؤون أفواههم وأنوفهم بشرائط كتانية استقر عليها الغبار وكَسَتْ وجوههم بُدرة بيضاء، فبينما يعمل أخذ بعضهم يسعل من خلف كِمامته، سعالًا مستمرًا جافًا يميِّز حرفته. كنت قد شرَّحتُ فيما مضى جثث العديد من النحاتين العُجُز الذين عملوا ثلاثين عامًا وماتوا وهم يمارسون مهنتهم، ووجدتُ رئاتهم قد استحالت حجارة في أجسادهم، لذا حرصتُ أن أقضي أقل وقت ممكن في مشغل البنائين مخافة أن أصاب بالعلة نفسها.

وعلى الرغم من ذلك، كانت منتجاتهم المدهشة من تماثيل متقنة نابضة بالحياة للآلهة والفرعون مدعاة للتأمل، ورأينا بينها صورًا للفرعون بحجمه الفعلي جالسًا على عرشه أو يمشي في الخارج، حيًّا وميتًا، في هيئته الإلهية وفي شكل إنسان فانٍ. ستسطِّر هذه التماثيل الطريق الممهدة المؤدية من المعبد الجنائزي في قعر الوادي إلى سور التلال السوداء التي يُحفر قبره النهائي فيها في هذه اللحظة، وعند موته، تحمل العربة الذهبية، يجرها موكب من مئة عِجل أبيض، ناووسه الهائل على طول تلك الطريق الممهدة إلى مثواه الأخير.

رقد الناووس الجرانيتي، المكتمل جزئيًا فقط، في مركز قاعة البنائين، وكان في الأصل صخرة صماء مستطيلة من جرانيت وردي طولها خمس خطوات وعرضها ثلاث وارتفاعها ثلاث احتُجِرت من مناجم أسوان، ونُقلت

عبر النهر في عبَّارة صُممت خصوصًا لهذا الغرض. احتاج جرها إلى الشاطئ ودحرجتها فوق المحادل الخشبية إلى حيث ترقد الآن إلى خمسمئة عبد.

كان البناؤون قد بدؤوا بنشر لوح ثخين من أعلاه، وعلى هذا الغطاء الجرانيتي، شرع بنَّاء كبير بتشكيل صورة تماثل الصورة المومياثية للفرعون، بذراعيْن معقودتيْن ويديْن تحملان عصا الراعي والمذبة، بينما انشغل فريق آخر من البنائين بتفريغ باطن القطعة الجرانيتية الرئيسة لتصير عُشًّا يلائم مجموعة النعوش الداخلية. فمجموع النعوش، إلى جانب الناووس الخارجي الضخم، سبعة، يتسع أحدها لتاليه مثل لعبات أحاجي الأطفال، وبالطبع، الرقم سبعة من الأرقام السحرية. أما النعش الأعمق فيصنع من الذهب الخالص، وشاهدناه لاحقًا يُستخرج بالطَّرْق من كتلة معدنية معدومة الشكل في قاعة صائغي الذهب.

كان هذا الناووس المُركَّب، هذا الجبل من الحجارة والذهب الذي يؤوي جثة الملك الملفوفة، ما ستحمله العربة الذهبية العظيمة على طول الطريق الممهدة إلى التلال، في رحلة بطيئة تستغرق سبعة أيام لتتم، تتوقف فيها كل ليلة في أحد الأضرحة الصغيرة التي وُزِّعت بانتظام على طول الطريق.

ومن الملحقات الأسرة لقاعة التماثيل مخزن الأوشبتي[1] في المؤخرة، حيث يُنحت الخدم والأتباع الذين سيرافقون الملك الميت على هيئة أقزام صغار مُتقنين من الخشب يمثلون كل درجات وجماعات المجتمع المصري التي ستخدم الملك في الآخرة حتى يتمكن من الحفاظ على منزلته وأسلوب حياته في العالم السفلي.

كان كل من الأوشبتي دمية خشبية منحوتة نحتًا بهيجًا ترتدي الزي الأصلي لمهنتها وتحمل أدواتها الملائمة؛ فمنهم المزارعون والبساتنة وصيادو الأسماك والخبازون ومخمِّرو الجعة والخادمات والجنود وجامعو الضرائب والنساخون والحلاقون، ومئات فوق مئات من العمال اليدويين المتخصصين بتأدية كل المهام الدونية والذهاب بالنيابة عن الملك إذا ما استدعاه آلهة آخرون للعمل في العالم السفلي.

---

(1) الأوشبتي: أو أوجبيتي، هي تماثيل كالمومياوات لها ملامح تشبه صاحب المقبرة كانت توضع في المقابر المصرية القديمة. (المترجم).

في مقدمة هذا الحشد من التماثيل الضئيلة، وقف وزير أعظم تشبه ملامحه المصغرة ملامح سيدي **إنتف** شبهًا شديدًا، فالتقط الفرعون هذا القزم وعاينه من كثب، ثم أداره ليقرأ الوصف على ظهره.

*اسمي السيد **إنتف**، الوزير الأعظم للملكة العليا، وصاحب الفرعون الوحيد، ومتلقي **ذهب الثناء** ثلاث مرات، وإنني مستعد لأجيب بالنيابة عن الملك.*

مرر الفرعون الدمية لسيدي **إنتف**، وسأله راسمًا ابتسامة تحت سطح سحنائه الكالحة: «أبُنيتك الجسمانية عضلات مفتولة إلى هذه الدرجة حقًا يا سيدي **إنتف**؟»، فانحنى الوزير الأعظم بعض الانحناء.

- لقد فشل النحات في إنصافي يا صاحب الجلالة.

آخر خزينة زارها الملك في ذلك اليوم كانت قاعة صائغي الذهب. ألقى الوهج الجحيمي للأفران بريقًا غريبًا على ملامح الصائغين وهم يعملون بمطلق التركيز على مقاعدهم، وكنت قد دربتهم جيدًا، لذا عندما دخلت البطانة الملكية، انحنوا معًا لتأدية السجدة الثلاثية للفرعون، ثم نهضوا واستأنفوا عملهم.

ورغم وجودنا في القاعة الكبيرة، كانت حرارة لهيب الفرن كبريتية حتى إنها تكاد تقطع الأنفاس، وسرعان ما نُقعنا بعرقنا، لكن الملك كان مفتونًا بالكنز المعروض أمامه إلى درجة ألهته عن الجو الجائر، فمضى مباشرة إلى المنصة المرفوعة في وسط القاعة حيث يعمل أمهر الصاغة وأكثرهم خبرة على النعش الداخلي الذهبي، وقد التقطوا ملامح وجه الفرعون الحي التقاطًا مثاليًا بالمعدن البرّاق من شأنه أن يجعل القناع ملائمًا رأسه المعصوب تمام الملاءمة. كان صورة سماوية بعينين من السبج والمرو[1] الشفاف، *والصل الذهبي* ذو رأس الكوبرا يطوّق جبهته. أعتقد حقًا أن فن الصاغة لم ينتج تحفة أحسن منها قطُّ في تاريخ حضارتنا البالغ ألف عام. كان الذروة والقمة، وربما تستبدع الأجيال القادمة كلها روعته يومًا ما.

حتى بعد أن استبدع الفرعون القناع الذهبي من كل زواياه، بدا عاجزًا عن الابتعاد عنه، فقضى بقية اليوم على المنصة بجواره، بينما هو جالسًا

(1) المرو: أو الكوارتز، معدن مألوف خالصه شفاف يوجد في العديد من أنواع الصخور. (المترجم).

على مقعد منخفض يُسجي صندوق تلو الصندوق من خشب الأرز المحتوي جواهر نادرة عند قدميه وتُفهرس مكنوناتها له.

لا يسعني تصديق أن كنزًا كهذا قد جُمع في مكان وزمان واحد من قبل، وكتابة قائمة بسيطة بالأغراض لا يوحي أقل إيحاء بثراء وتنوع الكنز كله. ورغم ذلك، اسمحوا لي أن أخبركم في المستهلّ بأن صناديق خشب الأرز كانت تضم بالفعل ستة آلاف وأربعمئة وخمس وخمسين قطعة، وكل يوم يُضاف إليها المزيد بينما يعمل الصاغة بلا كلل.

فيها خواتم لأصابع قدمي الفرعون كما لأصابع يديه، وفيها تمائم وتعاويذ، وتماثيل صغيرة ذهبية للآلهة والإلهات، وفيها قلائد وأساور وميداليات صدريَّة وأحزمة مطعَّمة بالصقور والنسور وسائر مخلوقات الأرض والسماء والنهر، وتيجان وأكاليل مرصَّعة باللازورد والجرانيت والعقيق والعقيق الأحمر واليشب وجميع الأحجار الكريمة التي يعزُّها الإنسان المتحضر.

تفوَّقت المهارة الفنية التي صممت كل ذلك وصنَّعته على كل ما ابتُكر في الألف عام الماضية. في الغالب ما تبدع الأمم أجمل أعمالها الفنية في تدهورها، ففي سنوات تكوين إمبراطورية ما، يكون هاجسها الغزو وجمع الثروات، ولم يحدث إلا مرة واحدة قبلًا أن حُققت بحبوحة ووُجدت رغبة لتطوير الفنون، والأهم من ذلك، رجال أثرياء ونافذون يرعونها.

كان وزن الذهب والفضة التي استُخدمت بالفعل في صناعة العربة والقناع الجنائزي وبقية مجموعة الكنز الأسرة هذه يزيد على خمسمئة تاخ، ومن ثَمَّ يحتاج إلى خمسمئة رجل قوي ليحملوه كله، وأخبرتني حساباتي أنه يعادل تقريبًا عُشر حصيلة ما استُخرِج من هذه المعادن الثمينة في تاريخنا المُسجَّل الممتد ألف عام كله. وينتوي الملك أخذ كل ذلك معه إلى القبر.

ومن أنا، العبد الحقير، لأسائل في الثمن الذي ينتوي ملكٌ دفعه مقابل الحياة الأبدية؟ يكفيني القول إن الفرعون، وبينما يجمع هذا الكنز ويخوض في الوقت نفسه حربًا ضد المملكة السفلى، غطَّس مصرنا وحده تقريبًا ومن دون مساعدة في الفاقة.

لا عجب إذن أن اختص **تانوس** في خطبته سرقات جامعي الضرائب بوصفها إحدى أشنع البلايا التي تنزل على الشعب، فبينهم وبين عصابات اللصوص التي تنهب الريف لا يعترضها شيء ولا يوقفها أحد، سُحقنا جميعًا منكوبين ومسحوقين تحت النير المالي الذي لا يحتمل أيّنا ثقله. وإن كان

لنا أن ننجو بأيِّ شكل، فعلينا الإفلات من شبكة جامعي الضرائب. لذا عندما أقدم الملك على إفقارنا لتفخيم نفسه، حوَّلنا في اللحظة نفسها إلى مجرمين، وصارت قلة قليلة منا، عظامًا أم صغارًا، أثرياء أم فقراء، تنام نومًا هانئًا في الليل. بتنا نستلقي مسهَّدين نخشى الطرقة الثقيلة لجامعي الضرائب في أي لحظة على الباب.

واهٍ كيف تأنُّ البلاد الحزينة والممتهنة تحت النير!

***

أُعِدَّتْ سلفًا مهاجع باذخة في المدينة الجنائزية على الضفة الغربية للنيل، حيث سيقضي الملك ليلته بالقرب من مرقده الأخير في التلال السوداء الكئيبة، وكانت المدينة الجنائزية، مدينة الموتى، رحيبة بقدر الكرنك نفسها تقريبًا، ذلك أنها مأوى كل المشتغلين بالبناء والعناية بالمعبد الجنائزي والمقبرة الملكية، وفيها فوج كامل من نخبة الحرس لحماية الأماكن المقدسة، فالغاصب في الشمال متكالب على الكنوز بقدر ملكنا العزيز، بينما يزداد زعماء اللصوص في الصحراء جرأة وشجاعة كل يوم، وخزائن المعبد الجنائزي إغواء موجع لكل نهَّاب في المملكتين، وما وراءهما.

استضافت أيضًا، إلى جانب الحرس، جماعات الحرفيين والصنَّاع وكل متدربيهم، وكنت مسؤولًا عن سجلات الأجور والمؤونة، لذا عرفتُ بالضبط عدد الموجودين هناك. بلغ في آخر يوم صرفت فيه الأجور أربعة آلاف وثمانمئة وأحد عشر، وفوقهم أكثر من عشرة آلاف عبد مسخر للعمل.

لن أرهق نفسي بعد الثيران والخراف التي وجب ذبحها كل يوم لإطعامهم جميعًا، ولا عربات السمك القادمة من النيل، ولا آلاف خوابي الجعة التي تُخمر يوميًا لتروي عطش صيف هذا الجمع بينما يكدحون تحت أعين الرقباء اليقظة وسياطهم الحاضرة.

كانت المدينة الجنائزية مثل باقي المدن، وفيها قصر للملك، ولكم أراحني أن انتقلنا إلى القصر لقضاء الليل، فقد كان نهارًا منهكًا. لكن مرة ثانية، لم ألاقِ إلا قليلًا من الراحة.

حاولت الوصول إلى مولاتي لوستريس، لكنْ بدا الأمر كأن مؤامرة حيكت للحيلولة بيني وبينها، فوفقًا لخادماتها السوداوات الصغيرات: كانت أولًا في بيت الخلاء، ثم تستحم، ثم تستريح ولا يمكن إزعاجها، وأخيرًا، بينما لا أزال

منتظرًا في حجرة الانتظار في مهجعها، بلغني استدعاء من أبيها، ولم يعُد بوسعي التلكؤ، بل صار لزامًا عليَّ الإسراع إلى سيدي.

حالما دخلت مخدع سيدي **إنتف**، صرف الحضور كلهم، وعندما صرنا وحدنا، قبّلني. ومرة أخرى فاجأني لطفه وأقلقتني صورته المتحمسة، فقلما رأيته في مزاج كهذا، ودائمًا ما أذن ذلك بأحداث مُفجعة.

ثم ضحك لي قائلًا: «كم يُعثر على بوابة السلطة والثروة في أقل الأماكن توقعًا! (وداعب وجهي)، وهي هذه المرة بين فخذي امرأة. لا يا عزيزي القديم، لا تؤدِّ دور البريء، فأنا أعرف تمام المعرفة أي يد ماكرة كانت لك في كل هذا. لقد أخبرني الفرعون أنك أغريته بالأمر بوعده بوريث ذكر لسلالته. بحق **سِت**! ألست الداهية بعينها؟ ولم تخبرني بكلمة عن خطتك، بل أعددتها كلها على مسؤوليتك الخاصة».

ضحك ثانية وبرَم خصلة من شعري بين أصابعه: «لا بدَّ أنك تكهّنت بمنتهى طموحي منذ البداية، رغم أننا لم نناقشه جهارًا قطُّ، لذا انصرفت إلى تحقيقه لي. بالطبع، ينبغي لي معاقبتك على جرأتك (وبرم خصلة شعري حتى هُرِعَتِ الدموع إلى عيني)، لكن كيف أغضب عليك وقد وضعت التاج المزدوج في قبضتي؟ (ثم ترك الخصلة ليقبّلني ثانيةً) لقد جئتُ للتو من حضرة الملك، وفي غضون يومين، في اختتام المهرجان، سيُعلن خطبته يد ابنتي **لوستريس**».

شعرتُ بإظلام مفاجئ وراء عيني، وتشكلت نداوة باردة على جلدي.

- لقد حرصت على أن يُقام الزواج في اليوم نفسه، بعد المراسم الختامية للمهرجان مباشرة، فلا نريد أي تأخير قد يحدث فيه ما يمنع الزواج، صحيح؟

لم يكن حدوث زفاف ملكي سريع كهذا أمرًا معتادًا، إلا أنه لم يكن جديدًا. فعندما تُختار العرائس لإتمام وحدة سياسية، أو لتوطيد غزو أرض جديدة، في الغالب ما يُقام حفل الزفاف في يوم تقريره نفسه. وقد تزوج الفرعون **ماموس** الأول، جد فرعوننا الحالي، ابنة زعيم إحدى قبائل الحوريين التي غزاها في ساحة المعركة الفعلية. بأي حال، بينما أواجه الاكتمال المؤسف لأسوأ مخاوفي لم تكن هذه السابقات التاريخية مصدر إراحة لي.

ولم يبدُ على سيدي إنتف أنه انتبه إلى كربي، فقد كان انتباهه متركزًا على مصالحه القريبة، وتابع كلامه: «قبل أن أوافق رسميًا على الزواج، ألححت على الملك ليقبل أن يرفعها إلى رتبة زوجة أولى وعقيلة الملك إذا ما منحته ابنًا (ثم صفق بيديه في نصر جامح). أنت تعي بالطبع معنى ذلك، فإذا مات الفرعون قبل أن يبلغ حفيدي سن الحكم، أصير أنا، بوصفي جده وأقرب ذكور الأسرة وصيًـ...»، ثم توقف فجأة وراح يحدق إليّ، وكنت أعرفه حق المعرفة لأفهم بالضبط ما يدور في رأسه. لقد ندم مرير الندم على هذه الرعونة، إذ لا ينبغي لأحد أن يسمع هذه الفكرة على الإطلاق، فهي الخيانة بأصفى أشكالها، وكلانا يفهم أن الفرعون لن يعيش طويلًا إذا ما حملت لوستريس بابنه. أعرب سيدي إنتف للتوّ عن نيته قتل الملك، وصار يفكر في التخلص من الشخص الوحيد الذي سمعها منطوقة، العبد الحقير، تايتا. ويعي كلانا ذلك بوضوح.

- مولاي، لستُ إلا شاكرًا أن ما خططتُ له قد جرى. أعترف الآن أنني عملتُ بمكر لأضع ابنتكم في طريق الملك، وأنني وصفتها له على أنها أم ابنه المستقبلي، واستغللت الحفل ليكون تحفة تجذب انتباهه إليها. لكنني عجزتُ عن حمل نفسي على التكلم إليكم بشؤون مصيرية كهذه حتى يُخطط لها تخطيطًا ناجعًا. لكنْ لا يزال أمامنا كمٌّ كبيرٌ من العمل لإنجازه قبل أن نعد أنفسنا آمنين....

وبدأتُ أرتجل بسلاسة قائمة بكل ما يمكن أن يخفق قبل أن يسعه السيطرة على التاج وصولجان مصر الذهبي. أوضحت له بلباقة أنه لا يزال في حاجة إليّ إن شاء تحقيق غايته، فرأيته يستريح بينما يسمع حججي، وعرفتُ أنني آمنٌ في المستقبل القريب على الأقل.

مضى بعض الوقت قبل أن أتمكن من الإفلات من حضرته بطريقة معقولة والإسراع إلى تحذير مولاتي لوستريس من المأزق الشنيع الذي وضعتها فيه، لكنني قبل أن أبلغ بابها، أدركتُ أن تحذيري إياها لن يؤدي غرضًا إلا تكديرها ودفعها إلى حافة الجنون أو حتى الانتحار، ولا يمكنني إهدار المزيد من الوقت إن كنت أريد منع الأحداث من بلوغ خاتمتها المأساوية.

لا يوجد إلا شخص واحد يمكنني اللجوء إليه الآن.

***

غادرت المدينة الجنائزية وانطلقت عبر ممر جر القناة عودًا إلى ضفة النهر حيث أعلم أن سرب **تانوس** مُعسكِر. كان القمر لا يبعد إلا ثلاثة أيام عن اكتماله، وقد أضاء تلال الأفق الغربي المتعرجة ببصيص أصفر بارد وألقى ظلالًا داكنة على السهل تحتها.

وبينما أقطع الطريق مسرعًا، سردت على نفسي قائمة بكل الكوارث والفواجع التي قد تحل بي **وبتانوس ولوستريس** في الأيام المقبلة، وأخذت أهمز نفسي كما يستنهض أسد الصحراء أسود اللبدة شجاعته بالشوكة العظمية في نهاية ذيله قبل أن يهجم على الصياد، لذا عمَّني مزاج قاصف قبل أن أبلغ ضفة النيل.

وجدتُ معسكر **تانوس** بسهولة، ملاصقًا لضفة النيل وفم القناة، وكانت سفن السرب راسية تحت المعسكر. أوقفني الحراس عند المدخل، ثم قادوني إلى خيمة **تانوس** عندما تعرفوني.

كان **تانوس** يتناول عشاءً متأخرًا رفقة **كراتاس** وأربعة آخرين من ضباطه، فنهض ليستقبلني مبتسمًا وقدَّم لي كوز الجعة الذي يحمله بيده: «إن هذه لمسرَّة مفاجئة يا صديقي القديم. بينما يجلب لك عبدي كأسًا وصحفة اقعد بجواري واجرع من جعتي. تبدو حزَّانًا ومضطربَ المزاج...».

فاختصرت هذه المجاملات بالانقضاض عليه بغضب: «فلتحل لعنة سِت عليك أيها الأبله الكبير فاقد الشعور! ألا تعي أي تهلكة رميتنا فيها؟ أنت وشدقك المتلوِّي هذا! ألم تفكر في أمان مولاتي وسلامتها؟».

وفي الحقيقة، لم أقصد أن أقسو عليه كل هذه القسوة، لكنْ حالما بدأت، شعرتُ أنني عاجز عن السيطرة على مشاعري، وخرج كل خوفي وقلقي في فيض هادر من الذم. ولم يكن كل ما اتُّهمته به حقيقيًا أو منصفًا، لكنَّ إخراجه من صدري أراحني.

تغيرت تعابير **تانوس** ورفع يدًا كأنما ليحمي نفسه: «حنانيك! لقد أخذتني على حين غرة، فأنا أعزل وعاجز عن الدفاع عن نفسي أمام هجوم دموي كهذا». خرجت لهجته مازحةً أمام ضباطه، لكن ابتسامته كانت ضامرة، وقبض على ذراعي موجهًا إياي إلى الظلمة خارج الخيمة، ثم ساقني جرًّا تقريبًا وراء حدود الفوج إلى الحقول المفتوحة المضاءة بنور القمر. كنت أشبه بطفل في قبضة يمناه المدربة على حمل السيف وشد القوس العظيم **لاناتا**.

وأمرني متجهمًا: «أخرج ما في جوفك الآن! ماذا جرى حتى صرت في حالة رذيلة كهذه؟».

كنت لا أزال غاضبًا، لكنَّ خوفي طغى على غضبي، واندفع لساني ثانيةً: «قضيت نصف حياتي أحاول حمايتك من غبائك وقد ضقتُ ذرعًا بذلك. ألا تفهم شيئًا في الحياة؟ هل صدقت حقًا أنك قد تخرج سالمًا من الحماقة غير المعقولة التي ألقيتنا جميعًا فيها الليلة الماضية؟».

- أتتكلم عن خطابي في الحفل؟ (بدا حائرًا، وأرخى قبضته الساحقة على ذراعي) كيف عساك تقول إنها حماقة؟ ضباطي جميعهم وكل الذين حادثتهم مذ ذلك الحين مسرورون بما قُلتُه...

- أيها الأحمق، ألا تدرك أن آراء جميع ضباطك وكل أصدقائك لا تساوي سمكة متعفنة عندما تؤخذ الأمور في عين الاعتبار؟ لو أننا تحت أي حكم آخر لكنتَ ميتًا الآن، وحتى عجوزنا الضعيف المتذبذب هذا لا يمكنه احتمال تركك تنجو من عواقب تطاولك. فقيمتها أعلى من قيمة عرشه. ستواجه فاتورة عليك دفعها يا **تانوس** سيد **حاراب**. ويعلم **حورس** أنها ستكون فاتورة باهظة.

فثار في وجهي: «إنك تتكلم بالألغاز. لقد أسديتُ الملك خدمة عظيمة، فهو محاط بالمتملقين المتوددين الذين يلقنونه الكذبات التي يظنون أنه يريد سماعها. لقد آن الأوان ليعرف الحقيقة، وأعرف في أعماق قلبي أنه حالما يفكر فيها، سيكون ممتنًا لي».

بدأ غضبي يتلاشى أمام إيمانه البسيط والمتأصل بانتصار الخير: «**تانوس** يا أعز أصدقائي، يا لك من بريء! لا رجل يمتنُّ لحشر الحقيقة المُرة في حلقومه أبدًا. لكن بمعزل عن ذلك، لقد أوقعت نفسك بين يدي سيدي **إنتف** مباشرة».

- سيدي **إنتف**؟ (وأمعن التحديق إليّ) ما بال سيدي **إنتف**؟ تتكلمُ عنه كأنه عدوي. لقد كان الوزير الأعظم أعز أصدقاء أبي، وأعلم أن بإمكاني الثقة بأنه سيحميني. لقد أقسم لأبي وهو في فراش احتضاره...

رأيتُ أنه، وبصرف النظر عن عريكته المرحة والصداقة التي تجمعنا، قد بدأ يغضب عليّ بحق، وربما لأول مرة في حياته، وكنت أعرف كذلك أن غضبه، رغم بطء استشاطته، يُخشى منه.

فقوَّضت غضبي أخيرًا: «أوه يا **تانوس**! لقد ظلمتُك. ثمة الكثير مما كان ينبغي لي إخبارك به ولم أفعل. لم تكن الحقيقة كما تظن البتة، لكنَّ جُبني منعني من إخبارك بأن **إنتف** ألدُّ أعداء أبيك».

- كيف يمكن لهذا أن يكون صحيحًا؟ (وهزَّ رأسه) لقد كانا صديقين، أعز صديقين، وأوّل ذكرياتي تصوُّرهما يضحكان معًا، وقد أخبرني أبي أن بإمكاني ائتمان سيدي **إنتف** على حياتي.
- لقد آمن بيانكي النبيل، سيد **حاراب**، بصدق ذلك، وكلفه إيمانه هذا ثروته كلها، وفي آخر الأمر حياته التي وضعها بين يدي **إنتف**.
- لا لا، لا بدَّ أنك مخطئ. كان أبي ضحية سلسلة من المصائب...
- وكلها بتخطيط من سيدي **إنتف**. كان يحسد أباك على فضائله وشعبيته، وعلى ثروته وتأثيره في الفرعون. أدرك أن سيد **حاراب** سيُعيَّن وزيرًا أعظم قبله، وكرهه من أجل كل ذلك.
- لا يمكنني تصديقك. لا يمكنني حمل نفسي على تصديقك. (هزَّ **تانوس** رأسه تكذيبًا، وانطفأ آخر بصيص غضب عندي).
- سأشرح لك كل شيء، كما كان ينبغي لي منذ زمن بعيد، وسأعطيك الإثباتات التي تحتاج إليها، لكنْ لا وقت أمامنا الآن. عليك أن تثق بي. سيدي **إنتف** يكرهك كما كره أباك، وأنت ومولاتي **لوستريس** في خطر. وليس خطر خسارة الحياة وحدها وحسب، بل خطر أن يخسر أحدكما الآخر إلى الأبد.
- لكنْ كيف يمكن ذلك يا **تايتا**؟ (استبد به الارتباك وهزَّته كلماتي) ظننتُ أن سيدي **إنتف** قد وافق على زواجنا. ألم تكلمه إذن؟
- بلى كلمتُه (رحت أصيح وقبضت على يده فأقحمتها تحت ظهر غلالتي) وهذا كان رده. تحسس الكدمات التي تركها السوط! لقد جلدني لمجرد اقتراحي زواجك ومولاتي **لوستريس**، إلى هذه الدرجة يكرهك وعائلتك.

حدق **تانوس** إليَّ بلسان معقود، لكنني رأيت أنه صدَّقني أخيرًا، وهكذا صار بإمكاني التطرق إلى الموضوع الذي يشغل أفكاري أكثر من خطابه متجاوز الحد حتى، أو الثأر الذي أداره الوزير الأعظم ضده بنجاح طيلة سنوات عديدة.

- أنصت لي الآن يا صديقي العزيز، وهيئ نفسك للأنباء الأسوأ حتى الساعة (لا توجد طريقة لإخباره إلا بالصراحة التي كان ليخبرني بها) بدلًا من أن يوافق سيدي **إنتف** على زواجكما، تعهد في هذه الليلة بمنح يد ابنته لآخر، وقُدِّرَ لها أن تتزوج من الفرعون **ماموس** مباشرة. وبعد أن تحمل بابنه الأول، ستصير زوجة أولى وعقيلة الملك. تقرر أن يعلن الملك الزواج بنفسه في نهاية مهرجان **أوزيريس**، وأن يقام حفل الزفاف في العشية نفسها.

تأرجح **تانوس** في وقفته تحت ضوء القمر واستحال وجهه شاحبًا شبحيًا. لم يقدر أيًّنا على الكلام لبرهة طويلة ثم أعرض عني ومشى وحيدًا إلى حقل الذرة المنتصبة، فرحتُ أتتبعه، مبقيًا إياه تحت ناظري، حتى وجد في آخر الأمر منكشفًا من الصخر الأسود وجلس عليه بنفسٍ كليلٍ كنفس رجلٍ طاعن في السن، فمشيتُ إليه برفق وأقعدتُ نفسي تحته، وظللت صامتًا عمدًا حتى تنهّد وسألني بهدوء: «هل وافقت **لوستريس** على الزواج؟».

- بالطبع لا. وعلى الأرجح أنها حتى الآن لا تعرف شيئًا عنه. لكن أمرٌ في بالك ولو مرورًا أن اعتراضها له قيمة أمام إرادة أبيها والملك؟ لن يكون لها رأي في المسألة.

- ماذا سنفعل يا صديقي القديم؟

ورغم غمِّي، شعرت بالامتنان له أنه استخدم صيغة الجمع، مشركًا إياي، ومؤكدًا على صداقتنا، فحذَّرته.

- ثمة احتمال آخر لا بدَّ لنا من مواجهته، وهو أن يعطي الفرعون في خطاب إعلان خطبته يد **لوستريس** نفسه، الأمر بسجنك، أو أسوأ من ذلك، أن يصدر حكم إعدامك، فالملك ينصت لكلام سيدي **إنتف**، وسيحرضه على ذلك بالتأكيد. ولديه في الحقيقة سبب وجيه، فأنت بلا شك مذنب بإثارة الفتن.

- لا تعنيني الحياة إن لم تكن **لوستريس** زوجتي، وإن أخذها الملك مني، فمرحبٌ به أن ينال رأسي هدية زواج.

قال ذلك ببساطة من دون تكلُّف، لذا واجهت صعوبة في تزييف الغضب وزج بعض الازدراء في صوتي.

- تتكلم مثل عجوز خرعة مثيرة للشفقة تسلم نفسها للأقدار من دون اصطراع. أي حب خالص أبديٍّ هذا الذي في قلبك إن لم تحارب من أجلها حتى!

فسألني بهدوء: «كيف تحارب ملكًا وإلهًا؟ ملكًا أقسمت له بالولاء، وإلهًا بعيدًا ومنيعًا كالشمس؟».

- بصفته ملكًا، فهو لا يستحق ولاءك، وقد أوضحتَ ذلك في خطابك أيما إيضاح. إنه عجوز ضعيف مرتبك قسَّم المملكتين وأنزف بلادنا تا-ميري حتى ركبتيها.

- وبصفته إلهًا؟

سألني ثانيةً بهدوء، كأنه لا يعبأ حقًّا بالإجابة، رغم أنني أعرفه رجلًا تقيًّا متدينًا كالعديد من المحاربين العظام، فجعلتُ لهجتي هازئة: «إله؟ في ذراعك الملوحة بالسيف ربوبية أكثر مما في جسده الناعم الضئيل كله».

فسألني بكياسة زائفة: «إذن ماذا تقترح؟ ما الذي تريدني أن أفعله؟».

أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت بلا تفكير: «ضباطك ورجالك مستعدون للسير خلفك حتى بوابات العالم السفلي، والشعب يحبك لشجاعتك وشرفك...».

وتلعثمتُ، ذلك أن سحناءه تحت ضوء القمر لم تشجعني على الاستمرار، فظل صامتًا لعشرين خفقة من خفقات قلبي المتسارع ثم أمرني بلين: «أكمل! قُل ما تريد قوله».

- ستكون يا تانوس أنبل فرعون شهدته أرضنا تا-ميري الأم في ألف عام، يمكنك، ومولاتي لوستريس بجوارك، أن تعيدا العظمة إلى هذه الأرض وهذا الشعب. استدعِ أسرابك، وقُدْ رجالك عبر الطريق المعبدة إلى حيث يرقد ذاك الفرعون الحقير ضعيفًا من دون حماية، ويمكنك بحلول فجر الغد أن تصير حاكم المملكة العليا، وربما بحلول هذا الوقت من العام القادم تكون قد هزمت الغاصب وأعدت توحيد المملكتين. (ثم وثبتُ واقفًا وواجهته) تانوس، يا سيد حاراب، إن قدرك وقدر المرأة التي تحبُّ ينتظرانك، فاقبض عليهما بيدي المحارب القويتين هاتين!

- يدا المحارب، أجل، (ورفعهما أمام وجهه) اليدان اللتان حاربتا لأجل أرضي الأم وحمتا ملكها الشرعي. لقد آذيتني يا صديقي القديم، فهاتين

ليستا يدي خائن، ولا هذا القلب قلب كافر قد يسعى إلى الإطاحة بإله وتدميره، وأخذ مكانه في مَجمع الآلهة.

فأننتُ أنينًا مسموعًا من إحباطي: «ستكون الفرعون الأعظم في السنوات الخمسمئة الماضية، ولست في حاجة إلى إعلان ربوبيتك إن كانت الفكرة تزعجك. افعلها، أتوسل إليك، من أجل مصرنا هذه، ومن أجل المرأة التي يحبها كلانا!».

- أستظل **لوستريس** تحب خائنًا مثلما أحبَّتْ جنديًّا ورجلًا وطنيًّا؟ لا أظن ذلك. (وهز رأسه).

فهممت أقول: «ستحبك بصرف النظر...»، لكنه قاطعني.

- لا يمكنك إقناعي. إنها امرأة فاضلة وشريفة، وإن صرتُ خائنًا ولصًّا، فسأخسر احترامها تمامًا. وما يعادل ذلك في الأهمية، هو أنني لن أحترم نفسي ثانية أبدًا، أو أعدَّ نفسي جديرًا بحبها العذب، إن فعلتُ ما تحثني عليه. لا تتكلم في ذلك ثانية إن كنت تثمن صداقتنا، فلا أحقية لي بالتاج المزدوج، ولن أطالب به. اسمعني يا **حورس**، وأعرض بوجهك عني إذا ما حنثتُ بهذا العهد.

لقد خُتِمَ على المسألة. كنت أعرفه جيدًا، ذاك الأبله المُغضِب الكبير، الذي أحب بكل قلبي، وأعرف أنه يعني ما يقول بالضبط، وأنه سيتشبث به مهما كلف الأمر. فاشتعلتُ في وجهه: «إذن ماذا ستفعل؟ حلَّت لعنة على قلبك العنيد، لا شيء مما أقول يزن شيئًا عندك. أتريد مواجهة هذا وحدك؟ أصرتَ فجأة أحكم من أن تحتاج إلى مشورتي؟».

- إنني مستعد للإنصات لمشورتك، ما دامت عقلانية. (ومدَّ يده فشدني مقعدًا إياي بجواره) تعالَ يا **تايتا**، وساعدنا. أنا و**لوستريس** في حاجة إليك الآن كما لم نحتج إليك من قبل. لا تهجرنا. أعِنَّا على إيجاد الطريقة الفاضلة.

تنهَّدتُ، ومشاعري تتذبذب وتتغزل مثل خشبة من حطام سفينة علقت في فيضان النيل: «أخشى أن أمرًا كهذا غير ممكن. لكن إن لم تشأ اختطاف التاج، فإياك والبقاء هنا. عليك أخذ **لوستريس** بين ذراعيك وحملها بعيدًا».

فحدَّق إليَّ تحت شعاع القمر: «أغادر مصر؟ لا يمكن أن تكون جادًّا. إنها دُنياي، ودنيا **لوستريس**».

فطمأنته: «لا! ليس هذا ما أفكر فيه. لمصر فرعون آخر. فرعون في حاجة إلى محاربين ورجال شرفاء، وعندك الكثير مما يمكنك تقديمه لملك كهذا، فشهرتك في المملكة السفلى عظيمة كما هي هنا في **الكرنك**. ضع **لوستريس** على متن *أنفاس حورس* وأرسل القادس طيرانًا إلى الشمال. لا نملك سفينة أخرى يمكنها اللحاق بك. وفي غضون عشرة أيام، بمساعدة هذه الريح وهذا التيار، يمكنك أن تقدم نفسك في بلاط فرعون **مِنف**[1] الأحمر، وتُقسم بالولاء لـ...».

فقاطعني: «بحق حورس! إنك عازم على جعلي خائنًا. أتريدني أن أقسم بالولاء للغاصب؟ إذن ماذا عن الولاء الذي أقسمت به للفرعون الحق **ماموس**؟ أليست له قيمة عندك؟ أي صنف من الرجال أكون إن أديت القسم نفسه لكل ملك أو مارقٍ ألتقيه؟ القسم ليس شيئًا يُبدَّل أو يُعدَّل يا **تايتا**، بل هو أبدي، وقد أديتُ قسمي للفرعون **ماموس**».

تَبَهْتُه بتجهُّم، وحتى هو ارتجف هذه المرة: «ذاك الفرعون الحق هو نفسه الذي سيتزوج حبيبتَك، ويأمر بلفِّ حبل المشنقة حول عنقِك».

- أنت على حق بالطبع، لا ينبغي لنا البقاء في **الكرنك**، على أنني لن أنقلب خائنًا أو أحنث بقسمي المقدس بحمل السلاح على ملكي.

عجزتُ عن إبعاد لهجة السخرية عن صوتي: «إن حِسَّ دعابتك أعقد مما يسعني استيعابه، وكل ما أعرفه هو أنه ينذر بتحويلنا كلنا إلى جثث. لقد أخبرتَني بما لن تفعله، فأخبرني الآن بما ستفعله لتنجو بحياتك وتنقذ مولاتي **لوستريس** من هذا القدر المقيت».

- أجل يا صديقي القديم، لك كل الحق في الغضب عليَّ، فقد طلبتُ عونك ونُصحك، وعندما منحتني إياهما من دون قيود أبيتُ عنهما، لكنني ألتمسُ صبرك، تحمَّلني برهة أخرى.

وثب واقفًا وبدأ يجوس كالفهد في معرض وحوش الفرعون، جيئة وذهابًا، يغمغم في سرِّه بينما يهز رأسه ضامًّا قبضتيه كأنه يواجه خصمًا، ثم وقف أمامي أخيرًا.

---

(1) منف: أو من نفر، والإنجليزية ممفيس، كانت مدينة مصرية والعاقبة القديمة لإنب-حج، أولى كور مصر القديمة. (المترجم).

- لستُ مستعدًا لأداء دور الخائن، لكنني سأجبر نفسي، بقلبٍ ملؤه الأسف، على أداء دور الجبان. إن وافقت **لوستريس** على مرافقتي، وموافقتها شرط لازب، فأنا مستعد لأن ألوذ بالفرار. سوف أخرجها من هذه الأرض التي يحبها كلانا حبًا جمًا.

- إلى أين ستذهبان؟

- أعرف أن **لوستريس** عاجزة عن هجر النهر، فهو ليس حياتها وحياتي وحسب، لكنه إلهتها أيضًا. يجب أن نبقى بجوار **حابي** النهر. وهذا لا يترك إلا اتجاهًا واحدًا مفتوحًا أمامنا (ورفع ذراعه اليمنى، الملتمعة بعضلاتها تحت ضوء القمر، مشيرًا إلى الجنوب) سنتبع النيل جنوبًا إلى أعماق **إفريقيا**، إلى أرض **كوش** وما وراءها، ثم نعبر الجنادل إلى البراري المبهمة التي لم يزرها إنسان متحضر من قبل. وربما هناك، إذا منَّت علينا الآلهة، نتخذ لنا تا-ميري أخرى.

- من سيرافقكما؟

- **كراتاس** بالطبع، والمستعدُّ من ضباطي ورجالي لخوض المغامرة. سأخاطبهم الليلة وأخيِّرهم. ربما آخذ خمس سفن، والرجال اللازمين لقيادتها. علينا أن نكون جاهزين للمغادرة عند الفجر. ألا ترجع إلى المدينة الجنائزية وتجلب لي **لوستريس**؟

سألته بصوت خفيض: «وأنا؟ ألن تأخذني معك؟».

- أنت؟ (وضحك مني، فالآن وقد اتُخذ القرار، حلَّق مزاجه عاليًا كصقر يخفق بجناحيه بعد أن أطلقته قبضة صاحبه المتقفِّزة) أمستعد حقًا لترك حديقتك وكتبك وحفلاتك وبنائك المعابد؟ ستكون الطريق محفوفة بالمخاطر، والحياة شاقة، أتريد ذلك بصدق يا **تايتا**؟

- لا يمكنني تركك تذهب وحدك من دون يدي الوادعة على كتفك، فأي حماقة وخطر قد تقود مولاتي إليه إن لم أكُن حاضرًا لأوجهك؟

فأمرني، مربتًا ظهري: «تعالَ! لم أشكَّ قطُّ في أنك ستأتي معنا، وأعرف أن **لوستريس** لن تغادر دونك على أي حال. يكفينا هذرًا، أمامنا عمل لننجزه. أولًا سنخبر **كراتاس** والبقية بما ننوي، ليتخذوا قرارهم، ثم عليك العودة إلى المدينة الجنائزية لتجلب **لوستريس**، فيما أجري تجهيزات رحيلنا. سأرسل

دزينة من خيرة رجالي معك، لكن يجب أن نتعجَّل، فقد جاوز الوقت منتصفَ الليل وحصةً لا بأس بها من الهزيع الثالث».

ولأنني أحمق رومانسي سخيف، بينما نهرع عائدين إلى معسكر الفوج تحت المعبد والطريق الممهدة تحمَّست بقدره، وداهمتني النشوة حتى تخدر شعوري بالخطر، فكان **تانوس** مَن انتبه إلى الحركة المشؤومة في ضوء القمر أمامنا وقبض على ذراعيَّ شادًّا إياي إلى أسفل كُنة شجرة خرنوب قزميَّة.

همس: «جماعة مسلحة»، ورأيتُ التماعة أسنة الرماح البرونزية. كانوا عصبة كبيرة من الرجال، وخمنتُ أنهم ثلاثون أو أربعون.

همهم متبرِّمًا: «قطَّاع طرق ربما، أو مجموعة مُغيرة من المملكة السفلى»، وحتى أنا أقلقني السلوك المُختلس للرجال المسلحين أمامنا، إذ لم يستخدموا ممر جر القناة، بل جاؤوا يزحفون عبر الحقول المفتوحة، وينتشرون ليطوِّقوا معسكر **تانوس** على ضفة النهر.

«مِن هنا!» انتقى بعين جندي خبيرة واديًا ضحلًا يهبط حتى ينضم إلى النهر وقادني إليه، فقفزنا نزولًا وركضنا منحنيين حتى بلغنا محيط المعسكر، ثم وثب **تانوس** من الوادي وأيقظ الجند بزئيره.

هتف: «إلى السلاح! إليَّ أيها الزُّرق! تشكلوا حولي!».

كانت تلك صيحة حَشد حرس **التمساح الأزرق**، وتلقفها رقباء الفِرق من فورهم، فغلَت الحياة في المعسكر حالًا، وقفز الرجال النائمون حول النيران واقفين وامتشقوا أسلحتهم المتكدسة، بينما انفلقت خيام الضباط منفتحة كأن الرجال فيها ما ناموا قطُّ، بل كانوا ينتظرون أمر **تانوس** متوترين ومستعدين، ثم تسابقوا إلى مراكزهم وسيوفهم في أيديهم. ورأيتُ **كراتاس** في المقدمة.

شدهتني رشاقة استجابتهم، رغم معرفتي أنهم كلهم محاربون قدامى خاضوا حمى المعارك. وقبل أن أتمكن من جزِّ دزينة أنفاس متحمسة، كانوا قد تشكلوا في كتائبهم، بتروس متراكبة ورماح طويلة تنتأ منها مواجهةً الظلام، ولا بدَّ أن الجماعة الغريبة في الخارج قد أجفلت بقدر ما أجفلتُ أمام هذا العرض المغوار، فرغم أنني ظللت قادرًا على تمييز الظلال المبهمة لرجال

عديدين والتماع أسلحتهم في الدُّجنة، لم يتجسد الهجوم الدموي الذي كان جميعنا يتوقعه.

وفي لحظة اكتمال صفوف تشكيلات **تانوس**، أمرهم بالتقدم، فكثيرًا ما ناقشنا ميزات الفعل الهجومي على الدفاع. أخذت الأسراب المحتشدة تتحرك إلى الأمام، متهيئة لتنطلق في هجوم كامل عند أمر **تانوس**. لا شكَّ أنه كان مشهدًا مرعبًا للرجال الواقفين في الظلام، ذلك أن صوتًا منهم تشوبه مسحة ذعر نادانا قائلًا: «نحن رجال الفرعون جئنا في أمر يخصه. أوقفوا هجومكم!».

فأوقف **تانوس** التقدم المهدِّد: «في أماكنكم أيها الزرق! (ثم ردَّ على النداء..) أي فرعون تخدمون، الغاصب الأحمر أم الفرعون الحق؟».

- إننا نخدم الفرعون الحق، **ماموس** الإلهي، حاكم المملكتين العليا والسفلى، وأنا رسول الملك.

فدعاه **تانوس**: «تقدم يا رسول الملك، الزاحف في الليل مثل اللص. تقدم وأفصح عما أتيت فيه!».

ثم قال **لكراتاس** همسًا: «تجهز للخيانة، فرائحتها تملأ الجو، وأضرم النيران تمنحنا الضوء لنرى».

أعطى **كراتاس** الأمر ورُميَتْ حزم من الأسل الجاف على نيران الحراسة، فارتفعت ألسنة اللهب وردت الظلمة، ثم تقدم قائد الجماعة الغريبة إلى هذا الوهج الأحمر وصاح: «اسمي **نيتِر، الأفضل في عشر آلاف**، وأنا قائد حرس الفرعون الشخصي. أحمل ختمَ الباز والأمر باعتقال **تانوس** سيد **حاراب** واحتجازه».

فزمجر **كراتاس**: «بحق **حورس**! إنه يكذب بوقاحة. لستَ مجرمًا توجد مذكرةٌ بالقبض عليه. إنه يهينك ويهين الفوج. اتركنا عليهم وسأحشر ختم الباز ذاك بين ردفيه».

لجمه **تانوس**: «تمهل! فلنسمع الرفيق، (ثم رفع صوته ثانيةً) أرِنا الختم أيها القبطان **نيتر**».

فرفع **نيتر** تُميثيلًا صغيرًا من خزف أزرق براق في شكل الباز الملكيّ. كان ختم الباز تفويضًا شخصيًا من الملك، ويعمل حامله بقوة الفرعون وصلاحيته كلها، ولا يمكن لأي امرئ مساءلته أو إعاقته في مسار مهمة ملكية تحت طائلة الإعدام، ولا يستجيب حامله إلا لأوامر الملك.

أقر **تانوس**: «أنا **تانوس**، سيد **حاراب**، وأعترف بختم الباز».

فهمس **كراتاس** بإلحاح: «سيدي، سيدي! لا تذهب إلى الملك، فهذا يعني موتك المحتم. لقد تكلمتُ إلى بقية الضباط. كل الفوج خلفك، لا، بل كل الجيش خلفك. أعطنا أمرك وسنتوّجكَ ملكًا قبل انبلاج الغد».

قال له **تانوس** بهدوء، لكن صوته حمل تهديدًا مؤثرًا أكثر من أي زمجرة أو هدير: «إن أذني صماء أمام هذه الكلمات، لكن هذه المرة فقط يا **كراتاس** بن **مايدم**، فإذا ما نطقتَ بالخيانة ثانية لأسلمنَّك لغضب الملك بيدي هاتين».

وأعرض عن **كراتاس** متجهًا إليّ، ثم أخذني جانبًا بغض الشيء: «لقد فات الأوان يا صديقي القديم، وعبست الآلهة في وجه مغامرتنا. إن كان الملك إلهًا بحق، فسينظر في قلبي ويرى بنفسه أنه لا يضمر شرًّا»، ثم لمس ذراعي، وكانت هذه الإيماءة الخفيفة أهم عندي من أدفأ العناقات.

ثم قال: «اذهب إلى **لوستريس** وأخبرها بما جرى، وأخبرها لِمَ جرى. قل لها إني أحبها، مهما جرى، وسأبقى على حبها في حياتي هذه وفي تاليتها. أخبرها أنني سأنتظرها، إلى نهايات الأبدية إن لزم الأمر».

ثم أعاد سيفه إلى غمده وتقدم خالي اليدين ليلاقي حامل ختم الباز وقال ببساطة: «أقف مستعدًا لتنفيذ أمر الملك».

همهس الرجال من خلفه وتذمروا، وصلصلوا بسيوفهم على تروسهم، لكن **تانوس** استدار وأسكتهم بإيماءة وتقطيبة، ثم وسع خطاه ليواجه **نيتي**، فطوّقه حرس الملك، وساروا خببًا على طول ممر جر القناة عودًا إلى المدينة الجنائزية.

كان المعسكر يعج بالشبّان الأشداء الغاضبين وقتما غادرتُهُ وتبعتُ **تانوس** وخفره على مسافة حذرة، وعندما بلغت المدينة الجنائزية، مضيتُ مباشرة إلى مهجع مولاتي **لوستريس**. غمّني أن وجدته مهجورًا إلا من ثلاث إماء سوداوات، يجهزن بطريقتهنَّ البليدة المتكاسلة المعهودة آخر ملابس مولاتهنَّ في صندوق من خشب الأرز.

سألتهن: «أين مولاتكنَّ؟».

فبينما زجّت كبراهن وأوقحهن إصبعها في أنفها أعطتني جوابًا متكبّرًا: «حيث لا يمكنك بلوغها أيها الخصي»، وضحكت الأخريات على براعة إجابتها. كن جميعًا يغرن من حظوتي لدى مولاتي **لوستريس**.

قلت: «أجيبيني باستقامة وإلا جلدتُ ظهركِ الوقح أيتها المومس الضئيلة!».

كنتُ جلدتها قبلًا، لذا لانت ودمدمت: «لقد أخذوها إلى حريم الفرعون، ولا نفوذ لك هناك، فعلى الرغم من افتقارك إلى الخصيتين، لن يسمح لك الحرس بالدخول إلى النساء الملكيات أبدًا».

كانت محقة بالطبع، لكن عليَّ المحاولة رغم ذلك، فسيدتي في حاجة إليَّ الآن أكثر من أي وقتٍ مضى في حياتها كلها.

وكما خشيت، كان الحرس على بوابة حريم الملك عنيدين، ورغم معرفتهم هويتي، اقتضت أوامرهم ألا يُسمح لأحد، ولا حتى أقرب أفراد حاشية لوستريس، بالدخول إليها.

كلَّفني الأمر خاتمًا ذهبيًّا، لكن حتى بعد هذا الإسراف، لم أحصل إلا على وعد بأن يحمل أحد الحراس رسالتي إليها، فكتبتها لها على قصاصة بردي، محاولة تشجيع ضئيلة تافهة لم أجرؤ على إخبارها فيها بما حاق بنا، أو التهلكة التي يقف تانوس فيها الآن. لم أستطع ذكره باسمه حتى، لكن كان عليَّ طمأنتها رغم ذلك على حبه وأمانه. لم تكن الرسالة استثمارًا يستحق الثمن الذي اضطُررتُ إلى دفعه، وأصعب ما عانيتُه هو معرفتي اللاحقة أن ذهبي ضاع سدى وأن رسالتي لم تصل إليها قطُّ. ألا يوجد رجل يمكننا أن نثق به في هذا العالم الغادر؟

لم أرَ تانوس ولا مولاتي لوستريس ثانيةً حتى عشية اليوم الأخير من مهرجان أوزيريس.

***

انتهى المهرجان في معبد الإله، وبدا مرةً ثانيةً أن شعب طيبة العظمى كله محشور في باحاته، ومرصوص بشدة جعلتني بالكاد أتنفس ضغطًا وحرارة.

كنت أشعر بالبؤس، ذلك أنني لم أنلْ إلا القليل من النوم في ليلتين متتاليتين بسبب القلق والإرهاق. وإلى جانب غموض مصير تانوس، أنزل سيدي إنتف على كاهلي حملًا إضافيًّا بتوكيله إياي بواجب ثقيل هو ترتيب حفل زفاف الملك من ابنته، واجبٌ عارض رغباتي أعتى المعارضة. وأضاف إلى الثقل أنني فُرِّقتُ عن مولاتي، واحتملتُ ذلك بشق الأنفس. لا أعرفُ كيف اجتزتُ هذه

المحنة. حتى الغلمان كانوا قلقين عليّ، وصرحوا أنهم لم يروا جمالي عليلًا، أو معنوياتي منهارة إلى هذا الحد من قبل.

مرتين في خلال الخطاب المطوَّل الذي ألقاه الفرعون من عرشه، وجدتُ نفسي أتمايل في وقفتي يكاد يغمى عليَّ، بينما أجبرتُ نفسي على التشبث رتب الملك العبارات المبتذلة وأنصاف الحقائق التي يسعى من خلالها إلى تمويه الحالة الفعلية للمملكة وتسكين الشعب.

وكالمتوقع تمامًا، لم يذكر مباشرةً الفرعون الأحمر في الشمال أو الحرب الأهلية التي أقحِمنا فيها إلا بمصطلحات فضفاضة مثل «هذه الأوقات العصيبة» أو «الانشقاق والعصيان». بأي حال، بعد أن تكلم لبعض الوقت، اتضح لي فجأةً أنه كان يشير إلى كل القضايا التي أثارها **تانوس** في خطبته، ويحاول إيجاد حلول لها.

صحيحٌ أنه كان يفعل ذلك بأسلوبه الأخرق المتذبذب المعهود، لكن مجرد حقيقة أنه انتبه إلى ما قاله **تانوس** قوَّتني وركَّزت انتباهي الشارد، فرحتُ أتقدم في الازدحام البشري حتى حصلت على رؤية أفضل للعرش. كان الملك آنذاك يتكلم عن وقاحة العبيد والسلوك المهين لطبقات المجتمع الأقل شأنًا، وهي مسألة أخرى ذكرها **تانوس**، وأبهجني أن سمعتُ حلَّ الفرعون، إذ أعلن قائلًا: «من الآن فصاعدًا، يحق لملاك العبيد الأمر بخمسين جلدة للعبد المتطاول، من دون الرجوع إلى رجال القضاء ليُجيزوا هذه العقوبة».

ابتسمت عندما تذكرتُ كيف كاد هذا الملك نفسه يهدم الدولة منذ اثنتي عشرة سنة ببيان رسمي معاكس تمامًا لاتجاه هذا البيان، إذ كان في حفل تتويجه لا يزال يفكر بمثالية، واعتزم إنهاء مؤسسة العبودية القديمة والموقَّرة، وإطلاق سراح كل عبد في مصر محولًا إياه إلى رجل حر.

ولا تزال هذه الحماقة مستغلقة عليَّ حتى بعد هذا الزمان، فعلى أنني عبدٌ، أرى أن العبودية والاسترقاق هما المؤسستين اللتين تقوم عليهما عظمة الأمم، إذ لا يمكن للرعاع حكم أنفسهم، ولا ينبغي أن يُؤتمن على الحكم إلا الذين وُلِدوا فيه ودُرِّبوا عليه. الحرية امتياز، وليست حقًا، والجموع تحتاج سيدًا قويًا، فمن دون التنظيم والتوجيه تسود الفوضوية، والحكم المطلق والعبودية والاسترقاق أعمدة لنظام مكننا من التطور إلى بشر متحضرين.

كانت رؤية تمرد العبيد أنفسهم إزاء احتمال أن تقحم الحرية فيهم درسًا تعليميًا. كنتُ صغيرًا جدًا آنذاك، لكنني ذُعرت أيضًا أمام احتمال أن أنتقل من

بيئتي الدافئة والآمنة في مهاجع الغلمان لأتقمَّم تلال الزبالة بحثًا عن كسرة الخبز التالية مع قطيع من العبيد المحررين الآخرين. سيد سيئ خير من غياب السيد.

بالطبع، أسقطت هذه الحماقة المملكة في البلبلة، وكان الجيش على شفير الثورة، ولو أن الفرعون الأحمر في الشمال استغل الفرصة، لربما كُتب التاريخ على نحو مختلف. في النهاية، ألغى فرعوننا بعجالة قرار الإعتاق الضال وتدبَّر التشبث بعرشه، وها هو الآن بعد عقد ونيِّف يُعلن عقوبات مزيدة على وقاحة العبيد. كان تصرفًا نمطيًا من هذا الفرعون المتردد المشوَّش حتى إنني تظاهرتُ بمسح جبهتي لأخبئ أول ابتسامة تغضِّن وجهي في اليومين الأخيرين.

تابع الملك ترتيب العبارات: «ستُمنع في المستقبل ممارسة تشويه الذات لأجل التملص من الخدمة العسكرية منعًا باتًا، وأي شاب لائق يطالب باستثناء بموجب هذا الإعفاء سيعرض أمام مجلس عدلي قوامه ثلاثة من ضباط الجيش، يكون بينهم **قائد مئة**[1] على الأقل أو ضابط من رتبة عليّة». وهذه المرة ارتسمت على شفتي ابتسامة استحسان متردد، ذلك أنها أول مرة يسير فيها الفرعون على الطريق الصحيح. كم سيحب قلبي رؤية **سوبيك وميتسيت** يظهران كفيهما ناقصي الإبهامين أمام جنديٍّ قديم قسَّته حروب النهر. أيُّ تعاطف رقيق يمكنهما توقعه! «وستكون غرامة هذه الجريمة ألف خاتم ذهبي». يا لكرش **ست** المنتفخ! ستجمد هذه الغرامة ذينك الغندورين الصغيرين في مكانهما، وسيضطر سيدي **إنتف** إلى دفعها بالنيابة عنهما.

على الرغم من مخاوفي الأخرى، فقد بدأت أشعر ببعض البهجة إذ تابع الفرعون: «من هذا اليوم فصاعدًا، ستكون ممارسة البغي لمهنتها في أي مكان عام سوى الأماكن التي خصصها القضاة لهذا الغرض جريمة تستلزم غرامة قدرها عشرة خواتم ذهبية».

هذه المرة، بالكاد قدرتُ على منع نفسي من الضحك بصوت عالٍ، فمن خلال الملك، يريد **تانوس** أن يجعل جميع سكان طيبة طهرانيين وشرفاء. تساءلت كيف سيتلقى البحارة والجنود في خارج أوقات عملهم هذا التدخل في حيواتهم البغائية. لم تطُلْ فترة استبصار الفرعون طويلًا، فأي أحمق يعرف رعونة محاولة تشريع أهواء الرجال الجنسية.

(1) قائد المئة: منصب في الجيش الروماني في العصور الكلاسيكية القديمة. (المترجم).

وبرغم شكوكي في ما يخص تدابير الملك، وجدتُ نفسي مأخوذًا بحماسة متهدِّجة. كان واضحًا أن الملك قد انتبه انتباهًا جديًا لكل مسألة طرحها **تانوس** في خطبته، ورحتُ أتساءل، أسيتابع الآن فيُدين **تانوس** بالعصيان؟

لكنَّ الفرعون لم يُنْهِ كلامه بعد: «لقد جُذِبَ انتباهي إلى أن بعض موظفي الدولة قد استغلُّوا الثقة والأمانة التي ائتمنتهم عليها. سيُستدعى هؤلاء المسؤولون، المعنيون بجمع الضرائب وإدارة المال العام، ليقدِّموا بيانات عن الأموال التي وُضِعَتْ في عهدتهم، ومن يُرى منهم مذنبًا بالاختلاس والفساد سينال حُكم الإعدام بالشنق في غير إبطاء».

هاج الناس وماجوا وتنهدوا غير مصدقين، هل سيحاول الملك حقًّا تقييد جامعي ضرائبه؟ ثم صاح صوت منفرد في مؤخر القاعة: «الفرعون عظيم! يعيش الفرعون!»، واعتُنِقَت الصيحة حتى دوّى المعبد بالهتاف.

لا بدَّ أنه كان صوتًا لم يعتدِ الملك سماعه، ذاك التصفيق العفوي، ورغم المسافة التي أقف عليها من العرش، عرفتُ أنه كان مستمتعًا به، إذ أشرقت سحناؤه الجنائزية وبدا وزن التاج المزدوج أخف على رأسه. كنتُ واثقًا أن كل هذا سيعزز بلا شك فرص **تانوس** بالإفلات من أنشوطة الجلاد.

عندما خبا التهليل أخيرًا، تابع الملك وهدم كل ما حصَّله للتو بطريقته المميزة: «سيكون وزيري الأعظم المؤتمن، السيد **إنتف** النبيل، في موضع المسؤولية الحصرية والمطلقة عن هذا التحقيق في الخدمة المدنية، وجميع صلاحيات البحث والاعتقال، والحياة والموت، آيلة إليه».

لم يتلقَّ هذا التعيين إلا أرق أصداء التصفيق، واستغللتُه لتمويه ضحكة خافتة ساخرة. لقد أرسل الفرعون فهدًا جائعًا ليحصي الطيور في قنِّ الدجاج. أي لهوٍ سيلهوه سيدي **إنتف** بين الخزائن الملكية، وأي إعادة توزيع لثروة الأمة ستجري إن تولى مولاي حساب كنوز مدخرات جامعي الضرائب السرية وحَلْبها!

يتمتع الفرعون بموهبة نادرة في قَلب مركب أنبل العواطف والنوايا أو سوقِها إلى الصخور بقيادته المتخبطة للدفة. تساءلت أي حماقة أخرى سيتدبر اجتراحها قبل أن ينهي كلامه في ذلك اليوم، ولم أُضطر إلى الانتظار طويلًا.

«إن وجود حالة من الفوضى في المملكة العليا مدعاة قلقٍ بالغ لي منذ بعض الوقت، إذ وضعت حيوات وأملاك المواطنين الشرفاء في أشد الخطر، وكنت أجريتُ ترتيبات للتعامل مع هذه الحالة الراهنة في وقت مناسب، لكنَّ المسألة طُرحت عليَّ مؤخرًا في غير أوانها وبطريقة رعناء حتى إن رائحة الفتنة تفوح منها. جرى ذلك تحت إعفاء مهرجان **أوزيريس**، غير أن ذلك الإعفاء لا يشمل الخيانة أو جريمة الكفر، أي مهاجمة شخص الملك وألوهيته» ثم وقف الفرعون وقفةً ملحوظة.

كان واضحًا أنه يتكلم عن **تانوس**، وانتقدتُ تقديره مرة ثانية، ذلك أن فرعونًا قويًا لن يشرح دوافعه للشعب، أو يسعى إلى كسب تأييدهم لتصرفاته، بل كان لينطق بالحكم ببساطة ويُنهي المسألة.

«إنني أتكلم عن **تانوس**، سيد **حاراب**، الذي أدى دور الإله العظيم **حورس** في حفل **أوزيريس**. لقد اعتُقِل بتهمة إثارة الفِتن، وانقسم مستشاريَّ في ما يخص إثم هذا الشخص، فمنهم من يرغب بأن ينال العقوبة القصوى... (رأيتُ سيدي **إنتف**، واقفًا تحت العرش، يشيح بوجهه للحظة، وأكد ذلك ما أعرفه بالفعل، أنه كان كبير من يودون رؤية **تانوس** يُعدم)، ...ومنهم من يشعر أن خُطبته في المهرجان كانت في الحقيقة بوحي من قوى سماوية وأنه لم يكن صوت **تانوس** سيد **حاراب** الذي نطق بتلك القضايا، بل صوت الإله **حورس** الحقيقي. وإن كان الاحتمال الأخير هو ما جرى، إذن فمن الواضح أنه لا ملامة يمكن أن تُلقى على الفاني الذي اختار الإله أن ينطق من خلاله».

كان الاستدلال منصفًا، لكنْ أي فرعون جدير بالتاج المزدوج يتنازل فيشرحه لهذا الحشد من عامة الجند والبحارة والمزارعين، من التجار والعمال والعبيد، الذين لا يزال معظمهم يعاني آثارَ الإفراط في النبيذ والعربدة؟ وبينما ما زلت أفكر في هذا، أعطى الملك أمرًا لقائد حرسه الذي كان واقفًا تحت العرش، وتعرفتُه على أنه **نيتر**، الضابط الذي أُرسل لاعتقال **تانوس**. سار **نيتر** بأناقة وعاد بعد لحظة يقود **تانوس** من المعتقل في مؤخر القاعة.

وثب قلبي عند مرأى صديقي، ثم أدركتُ ببهجةٍ وأملٍ أنه ليس مقيدًا، ولا أصفاد على كاحليه. ورغم أنه لم يحمل أسلحة أو شارة رتبة، وأنه يرتدي تنورة بيضاء فقط، مشى بخطوه المَرِن ورشاقته الأنيقة المعهودين، وفيما خلا قشرة الجرح الآخذ بالتعافي على جبهته حيث أصابه **راسفر**، كان غير

مخدوش، لم يُضرَب أو يُعذَّب، وشعرتُ أن تفاؤلي انتعش، إذ لم يعامَل على أنه رجل مُدان.

بعد برهة، هُشِّمَتْ كل آمالي أشتاتًا، فقد سجد تانوس أمام العرش، لكنه عندما نهض ثانية، نظر الفرعون إليه نظرة قاسية ونطق بصوتٍ لا تخالطه الرحمة: «تقف أمامي الآن يا تانوس سيد حاراب متهمًا بالخيانة وإثارة الفتن، وأراكَ مذنبًا بكلتا الجريمتين. أحكم عليك بالإعدام شنقًا، وهي العقوبة التقليدية للخائن».

عندما أحاط نيتر عنق تانوس بالحبل الكتاني ليسِمَه بسمة المحكوم بالإعدام، ارتفعت أنَّة من المشاهدين، وناحت امرأة، وسرعان ما امتلأ المعبد بصيحات التفجُّع وولولة الحداد. لم يحدث قبلًا أن رافق عرضًا كهذا إصدار حكم إعدام، ولا شيء يمكنه إظهار الحب الذي يكنه الشعب لتانوس بصورة أوضح. انتحيتُ معهم، وفرَّت الدموع من جفنيَّ فسالت على خديَّ وانهمرت على صدري مثل شلال.

انقضَّ الحراس على الحشد واستخدموا أعقاب رماحهم الطويلة في محاولة لإسكات النائحين بضربهم، ولكن بلا جدوى، وصحتُ من فوق رؤوسهم: «الرحمة أيها الفرعون المُحسن! الرحمة لتانوس النبيل!».

ضربني أحد الحراس على جانب رأسي وسقطت على الأرض نصف مبهوت، لكنْ تلقَّف الجمع صيحتي: «الرحمة، نتوسل إليك يا ماموس الإلهي!»، واحتاجت استعادة شيء من الانضباط إلى كامل مجهود الحراس، لكنْ ظلت بعض النساء ينشجن.

ولم نصمت في آخر الأمر إلا عندما رفع الفرعون صوته ثانيةً، وذلك ليتمكن جميعنا من سماع نُطقه التالي: «لقد شكا المدان حالةَ الفوضى في المملكة، وناشد العرش أن يسحق عصابات اللصوص الذين ينهبون الأرض. سُمِّيَ المُدان بطلًا، وثمة من يقولون إنه محارب جبار. إن كان هذا صحيحًا، إذن فسيكون نفسه أكثر ملاءمة من أيٍّ سواه لينفذ هذه الإجراءات التي يطالب بها».

صار الناس مرتبكين وصامتين، وبينما مسحتُ الدموع عن وجهي بساعدي اجتهدت لأسمع الكلمة التالية. «بالتالي، يؤجل حُكم الإعدام لعامين. إن كان المُدان تحت وحي حورس بحق عندما خطب خُطبته الفاتنة، إذن فسيساعده الإله في المهمة التي أحمِّلُه إياها».

باتَ الصمتُ بليغًا، وبدا أن لا أحد منا يمكنه فهم ما يسمعه، رغم أن الأمل واليأس ملآ روحي بالدرجة نفسها.

تلوَ إشارة من الملك، تقدم أحد وزراء التاج وقدم للفرعون صينية انتصب عليها تميثيل أزرق صغير، فحمله الفرعون عاليًا وأعلن: «أصدِر لسيد **حاراب** ختم الباز الخاص بالفراعنة. تحت رعاية الختم، يمكنه تجنيد جميع الرجال ومواد الحرب التي يراها ضرورية لمهمته. يمكنه الاستعانة بأي وسيلة يختارها، ولا يُسمَح لأي رجل بمنعه. هو رجلُ الملك لعامين كاملين، ولا يُجيب إلا أمر الملك. في نهاية الوقت المحدد، في آخر يوم من مهرجان **أوزيريس** التالي، سيحضر أمام العرش ثانيةً، مرتديًا أنشوطة الموت حول عنقه. إن فشل في مهمته، تُشدُّ الأنشوطة ويعدَم شنقًا حتى الموت حيث يقف الآن، وإن أتمَّها، أرفع أنا، الفرعون **ماموس**، الأنشوطة عن عنقه بيدي هاتين وأستبدل بها سلسلة ذهبية».

لم يقدرْ أيُّنا على الكلام أو الحركة رغم ذلك، وبينما يرسم الفرعون إشارة بعصا الراعي والمذبة ويقول: «أكلِّفك يا **تانوس**، سيد **حاراب**، بمهمة اجتثاث الخارجين عن القانون وعصابات اللصوص التي تروِّع هذه الأراضي من مملكة مصر العليا. ستستعيد النظام والأمان في غضون عامين، وخذلانك لي على حساب حياتك» رُحْنا نحدق مشدوهين.

اندلع هدير عنيف من الجماهير كصوت أمواج عاصفيَّة تضرب شاطئًا صخريًا. ورغم أنهم هللوا تهليلًا غافلًا، رحتُ أنتحب، ذلك أن المهمة التي حددها الفرعون أكبر من أن يحققها أي رجل فانٍ. لم تُرفَع غمامة الموت عن **تانوس**، وعرفتُ أنه في خلال عامين من اليوم سيموت في البقعة نفسها حيث يقف الآن شابًا أشمَّ شامخًا.

***

وقفتْ وحيدة في وسط الجماهير، مُهملة مثل متشرد ضائع؛ النهر الذي كان إلهتها الراعية من خلفها، وأمامها بحر من الوجوه.

كان القميص الكتاني الطويل الممتد إلى كاحليها مصبوغًا بعصارة المحار حتى صار بلون أفخر الأنبذة، لونًا يعلنها عروسًا عذراء، وكان شعرها مُرسلًا، يفيض على كتفيها في موجة داكنة ناعمة شعشعتْ تحت أشعة الشمس كأنها نار مشتعلة. وفوق هذه الجدائل الساطعة، اعتمرتِ الإكليلَ العُرسيَّ المفتول

من سويقات زنابق الماء الطويلة، الحاملة زهورًا بلون أزرق لازورديٍّ سماوي رفقة أعناق من الذهب الخالص.

كان وجهها أبيض كدقيق الذرة المطحون حديثًا، وعيناها واسعتان وداكنتان حتى إنهما ذكرتاني تذكيرًا يفطر القلوب بالبنت الصغيرة التي، في السنين الخالية، في الغالب ما أيقظتها من قبضة كابوس، وأشعلت سراجًا وجلستُ بجوار مهدها حتى ترجع إلى النوم. لم أقدر على مساعدتها هذه المرة، فكابوس اليوم واقع.

لم يكنْ بوسعي الذهاب إليها، فالكهنة وحرس الفرعون محيطون بها، مثلما فعلوا في كل الأيام الماضية، ولن يسمحوا لي بالاقتراب منها. لقد ضاعت فتاتي الصغيرة مني إلى الأبد، وعجزتُ عن احتمال هذه الفكرة.

كان الكهنة قد بنوا ظُلة العُرس من أسل النهر على الضفة فوق النيل، ومولاتي **لوستريس** تنتظر تحتها ليأتي عريسها ويطالب بها، وكان أبوها واقفًا بجوارها، بذهب الثناء يتلألأ حول عنقه وابتسامة الصِّلِّ على شفتيه.

جاء العريس الملكي أخيرًا، على إيقاع الطبول المهيب وثغاء الأبواق المصنوعة من قرون الغزلان، وفي أذني، كان لحن الزفاف هذا أحزنَ صوتٍ على وجه الأرض.

كان الفرعون معتمرًا *النمس الفرعوني* وحاملًا الصولجان، لكنه تحت الأبهة وشارات المُلك، لا يزال عجوزًا ضئيلًا له كرش بارز ووجه حزين. ولم أستطع منع نفسي من التفكير بالعريس الآخر الذي كان من الممكن أن يقف تحت الظُّلة بجوار مولاتي، لو كانت الآلهة أرحم.

رافق وزراء الفرعون وعلية موظفيه إياه مرافقة لصيقة حجبت مولاتي عن ناظري، فقد استُبعدتُ من الزفاف رغم حقيقة أنني الشخص الذي أُجبِر على ترتيب جميع تفاصيله، ولم أرَ مولاتي **لوستريس** إلا لمحات في خلال الاحتفال.

غسل كاهن **أوزيريس** الأعلى أيدي وأقدام العروس والعريس بماء مسحوب حديثًا من النيل يرمز إلى نقاء اتحادهما، ثم كسر الملك كسرة من رغيف الذرة الشعائري وقدَّمها لعروسه الشابة عهدًا. لمحتُ وجه مولاتي عندما وضع الكسرة بين شفتيها. لم تستطع أن تمضغها أو تبلعها، بل وقفت حاملةً إياها في فمها كأنها حجر.

ثم حُجبت عني ثانيةً، ولم أعرف أن الأمر قد قُضِيَ وصارت أبعد ما يكون عن ذراعي **تانوس** إلى الأبد إلا عندما سمعتُ انسحاق الإبريق الفارغ الذي حوى نبيذ الزواج بعد أن حطمه العريس بضربة من سيفه.

فتح الحشد تحت الظُّلة طريقًا وقاد الفرعون عروسه الأحدث إلى مقدمة المنصة ليقدمها للناس، فأظهروا حبهم **للوستريس** في جوقة من التزلُّف استمرت حتى طنَّت أذناي ودار رأسي.

أردتُ الفرار من الزحام والذهاب للبحث عن **تانوس**، إذ لم يحضر الحفل رغم معرفتي أن سراحه قد أُطلق وأنه عاد حرًّا. وربما كان الرجل الوحيد في طيبة الذي لم يأتِ إلى ضفة النهر ذلك اليوم. كنت أعرف أنه في حاجة ماسة إليَّ كما أنا في حاجة إليه، فالعزاء البسيط الوحيد الذي قد يجده أيُّنا في هذا اليوم المأساوي هو رفقة الثاني، غير أنني عجزتُ عن إبعاد نفسي، كان عليَّ أن أرى ما سيحدث حتى اللحظة المفجعة الأخيرة.

تقدم سيدي **إنتف** أخيرًا ليودِّع ابنته، وبينما يهبط الصمتُ على الحشد عانقها.

وقفت **لوستريس** مثل جثة في حضنه، تدلَّت ذراعاها مرتخيتين على جنبيها، ووجهها شاحب كالموت. أفلتها أبوها، لكنه ظل قابضًا على يدها يستدير ويواجه الجمهور ليقدم الهدية الشعائرية لابنته. تقليديًّا، كانت هذه الهدية إضافة على الصداق الذي يذهب مباشرة إلى العريس. لكنْ لم يحافظ إلا النبلاء على هذه العادة، التي صُممت لتمنح العروس دخلًا مستقلًّا.

قال: «الآن وقد رحلتِ من منزلي ومن كنفي إلى منزل زوجك، أهديكِ هدية الفراق، حتى تذكرينني دائمًا على أنني الأب الذي أحبك (ففكرتُ بمرارة كم أن الكلمات لا تلائم الحالة، ذلك أن مولاي **إنتف** لم يُحبَّ نفسًا حيةً غير نفسه قطُّ. بيد أنه تابع نطق البيان العتيق، كـأن المشاعر مشاعره)، سليني أيَّ عطية يا طفلتي الحبيبة، فلن أرفض لك شيئًا في هذا اليوم البهيج».

كان العرف المعتاد يقتضي أن يتفق الأب وابنته على مقدار الهدية سِرًّا قبل الاحتفال، وفي هذه الحالة، أخبر سيدي **إنتف** ابنته صراحةً بما يحق لها طلبه، وقد منحني شرف مناقشة المسألة معي في اليوم السابق، قبل إعلام **لوستريس** بقراره، إذ راح يتفكَّر: «لا أريدُ أن أسرف، لكن من الناحية الأخرى لا أريد أن أبدو شحيحًا في عيني الفرعون. فلنقُل خمسة آلاف خاتم ذهبي وخمسين فدانًا من الأراضي، لكن ليست من أراضي جانب النهر، انتبه».

وقرر أخيرًا، بتحريض مني، أن خمسة آلاف خاتم ذهبي ومئة فدان من خيرة الأراضي المروية هدية مناسبة لزفاف ملكي. وبأمر منه، أعددتُ سند ملكية الأرض وجهزت الذهب من مخزن سري يُبقيه سيدي بعيدًا عن طريق جامعي الضرائب.

سُوِّيَ الأمر، ولم يبقَ إلا أن تنطق **لوستريس** بالطلب أمام عريسها وجميع ضيوف الزفاف، لكنها وقفت شاحبة وصامتة ومنطوية، وبدت كأنها لا ترى ولا تسمع ما يجري حولها.

قال سيدي **إنتف**: «تكلمي يا طفلتي، ما الذي ترغبين به مني؟ (بدأت لهجة الحب الأبوي في صوت سيدي **إنتف** تصير مصطنعة، وهزّ يد ابنته ليوقظها)، هيا، أخبري أباك بما يمكنه فعله ليتمّ هذا اليوم السعيد».

اهتزت مولاتي كأنها تستيقظ من حلم مُريع، وراحت تنظر حولها والدموع محتشدة في عينيها تهدد بالانهمار من جفنيها المرتعشين. ثم فتحت فمها لتتكلم، لكن ما خرج من حلقها كان صرخة صغيرة ضعيفة لطير جريح، فأطبقت شفتيها وهزت رأسها بلسان معقود.

«تكلمي يا طفلتي (كان سيدي **إنتف** يعاني مشقة في الحفاظ على سيماء العاطفة الأبوية)، سَمِّ هدية زفافكِ، وسأمنحكِ إياها، مهما كان ما ترغبين به».

بدا الجهد الذي اضطُرَّتْ **لوستريس** إلى بذله جليًا لي، رغم وقوفي بعيدًا جدًّا منها، لكنها عندما فتحت فمها هذه المرة، دوَّى طلبها فوق رؤوسنا واضحًا كموسيقا القيثارة، ولا يمكن أن يوجد شخص واحد في الحشد لم يسمع كل كلمة منه.

- أريدُ هديتي العبد **تايتا**!

نكص سيدي **إنتف** خطوة كأنها أقحمت خنجرًا في بطنه، ونظر إليها مشدوهًا، وفمه ينفتح وينغلق من دون أن يفلت منه صوت. لا أحد سواي وإياه يعرف قيمة الهدية التي طالبت **لوستريس** بها، وحتى هو، بخزينة ثرواته وكنوزه التي راكمها عبر حياته، لا يطيق دفعة كهذه.

استعاد توازنه سريعًا، وعاد وجهه هادئًا وحميدًا، رغم أن شفتيه مُدَّتا ورقَّتا.

- إنكِ لمحدودة أكثر مما يجب يا ابنتي العزيزة، فعبدٌ واحدٌ ليس هدية مناسبة لعروس الفرعون، وهذا البُخل ليس من طبيعتي. حبذا لو تقبلين هدية قيِّمة بحق، خمسة آلاف خاتم ذهبي و...

- لطالما كنت بالغ السخاء معي يا أبتِ، لكنني لا أريد إلا تايتا.

ابتسم سيدي إنتف ابتسامة بيضاء، بأسنان بيضاء، وشفتين بيضاوين، وغضب أبيض. وبينما لا يزال يحدق إلى مولاتي لوستريس، أمكنني رؤية تسارع أفكاره.

كنتُ أثْمَن جميع ممتلكاته، وليس بسبب مجرد مواهبي الاستثنائية الواسعة التي شكّلت قيمتي الكاملة لديه، بل أكثر من ذلك، لأنني كنت أعرف أدق المعرفة كل خيط مفتول في بساط شؤونه المعقد. كنت أعرف كل واشٍ وجاسوس في شبكته، كل شخص رشا وكل شخص رشاه. أعرف أي الخدمات بارزة في كل مجال، وأي الخدمات تنبغي تسويتها، وأي الضغائن لم تُصفَّ بعد.

كنت أعرف جميع أعدائه، وإنها لقائمة طويلة، وأعرف من يعدُّهم أصدقاءه وحلفاءه، وهذه القائمة أقصر بكثير. كنت أعرف أين تختبئ كل شذرة من كنزه الضخم، وهوية مصرفييه وسماسرته ووكلائه، وكيف أخفى ملكية قطع عظيمة من الأراضي والمخازن والمعادن الثمينة والأحجار الكريمة في متاهة قانونية من السندات والمسميات والارتفاقات، وكلها معلومات تُبهج جامعي الضرائب وتدفع الفرعون إلى تغيير رأيه بوزيره الأعظم.

أشك في أن سيدي إنتف قادر على تذكر وتتبع ثروته كلها من دون مساعدتي. لا يمكنه تنظيم إمبراطوريته المتمددة والمُبهَمة والسيطرة عليها كما يجب من دوني، ذلك أنه أبقى نفسه منعزلًا ومنفصلًا عن معظم جوانبها المزعجة، وفضَّل أن يرسلني لأعتني بهذه التفاصيل التي، إن اكتُشفت، قد تجرِّمُه.

لذا كان السبب أنني أعرف ألف سرٍّ خبيث، وأعرف ألف فعل مُريع، اختلاس وابتزاز، وتشليح وقتل دمويٍّ، وكُلها إن نُظِرَ إليها جملة يمكنها تدمير رجلٍ بجبروت الوزير الأعظم حتى.

كُنت شخصًا لا يُستغنى عنه، ولا يمكنه التخلي عني، غير أنه لا يمكنه رفض طلب لوستريس أمام الفرعون وكامل شعب طيبة.

سيدي **إنتف** رجلٌ شديد السخط والكراهية، ورأيت فيه سابقًا اهتياجًا كان ليروّع **سِت**، إله الغضب نفسه، لكنني لم أرَ قطُّ اغتياظًا كهذا وقد حصرته ابنته في الزاوية.

نادى: «فليتقدم العبد **تايتا**»، ورأيتُ أنها حيلة ليكسب مهلةً، فشققتُ طريقي تدافُعًا بأسرع ما أمكنني إلى أسفل منصة الزفاف حتى أمنحه أقل وقت ممكن لتخطيط شيطنته التالية.

وصحتُ: «إنني هنا يا مولاي»، فحدق إليَّ بتينك العينين الفتاكتين. لقد قضينا وقتًا طويلًا معًا حتى إنه صار قادرًا على محادثتي بنظرة بوضوح محادثته إياي بكلام منطوق. ظل محدقًا إليَّ في صمتٍ إلى أن تسارع قلبي وارتعشت أصابعي خوفًا، ثم قال أخيرًا بصوت ليِّن يكاد يكون عطوفًا: «**تايتا**، أنت معي مُذ كنتَ طفلًا، وقد صرتُ أعدك أخًا أكثر منه عبدًا. غير أنك سمعتَ طلب ابنتي، وأنا بطبيعتي رجلٌ عادلٌ وكريمٌ. بعد كل هذي السنين، من غير الإنساني أن أنبذك رغمًا عنك، وأعرف أنه من غير المعتاد أن يكون لعبدٍ ما قولٌ في نبذه، لكنَّ ظروفك في الواقع غير عادية. اختر يا **تايتا**، فإن كنت ترغب في البقاء بمنزلك، المنزل الوحيد الذي عرفته في حياتك، لن يطاوعني قلبي على إبعادك، ولا حتى تلبيةً لطلب ابنتي».

لم يرفع عينيه عني، تينك العينين الصفراوين الفظيعتين، ولستُ جبانًا، لكنني حريص على سلامتي، وأدركتُ أنني أنظرُ في عيني الموت، وضاع صوتي مني.

فسحبتُ نظرتي عنه وحولتها إلى مولاتي **لوستريس**، فرأيتُ فيها من الاستغاثة والوحشة والذُعر ما جعل سلامتي لا تُحتسب، وعجزتُ عن هجرها الآن، بأي ثمن وتحت أي تهديد.

فناديتُ بأعلى صوتي: «أنّى لعبدٍ حقير أن يرفض رغبة زوجة الفرعون؟ إنني مستعدٌ لتنفيذ أمر سيدتي الجديدة»، وأملتُ أن صوتي كان ذا مسحة رجولية لا زاعقًا مثلما بدا في أذني.

ثم أمرتني سيدتي الجديدة: «تقدم أيها العبد! واتخذ مكانك خلفي».

وبينما أتسلق المنصة، اضطُررتُ إلى المرور قريبًا من سيدي **إنتف**، وبالكاد تحركت شفتاه البيضاوين المتيبستين عندما كلَّم أذني وحدها: «الوداع يا عزيزي القديم. إنك رجلٌ ميِّت».

ارتجفتُ كأن صِلًّا سامًّا انسلَّ في طريقي وأسرعتُ لآخذ مكاني في حاشية مولاتي، كأنني مصدقٌ بحقٍّ أنني سأجد الأمان في كنفها.

***

ظللتُ قريبًا من **لوستريس** في بقية الاحتفال، وخدمتها شخصيًا على مأدبة الزفاف، إذ بقيتُ محوِّمًا على مقربة منها أحاول حملها على أكل بعض اللحوم والطعام الفاخر الممدود أمامها. كانت ممتقعة وباهتة إلى حد جعلني واثقًا أنها لم تأكل شيئًا في اليومين الماضيين، منذ خطبتها وإدانة **تانوس**.

نجحتُ في النهاية في جعلها تشرب بعض النبيذ المُخفف بالماء، لكنها لم تذُق غيره. رآها الفرعون وظنَّ أنها تشرب نخبه، فبينما يشرب النخب رفع كأسه الذهبية وابتسم لها من فوق حافته، وهلل ضيوف الزفاف للزوجين ببهجة.

همسَت لي حالما انصرف انتباه الملك إلى الوزير الأعظم الجالس إلى جانبه الآخر: «**تايتا**، أخشى أنني موشكة أن أتقيأ. لا يمكنني البقاء هنا لحظة أخرى. أعدني إلى مخدعي أرجوك».

كان ذلك صفاقة وفضيحة، ولولا أن بإمكاني أداء دور الجراح، لما تمكنتُ من السيطرة عليها، لكنني تدبرتُ أن أزحف على ركبتيَّ إلى جوار الملك، وأهمس إليه من دون التسبب بأي تعليق غير لائق بين ضيوف الزفاف الذين كان معظمهم قد بلغ مبلغًا من الشرب في ذلك الوقت.

مع تحسُّن معرفتي بالفرعون، وجدتُ أنه رجل رقيق الفؤاد، وكان هذا أول دليل أعطانيه، إذ أنصت لشرحي ثم صفَّق بيديه وخاطب الضيوف قائلًا: «ستذهب عروسي الآن إلى مخدعها لتتجهز لليل المقبل». فنظروا إليها بشبق وتلقوا الإعلان بتعقيب أقذع وتصفيق خليع.

ساعدتُ مولاتي على النهوض، لكنها تمكّنت من الانحناء للملك ومغادرة قاعة المأدبة من دون مساعدة. تقيأت لاحقًا في غرفة نومها النبيذ الذي شربته في طاس حملتُه لها، ثم خرَّت على السرير. كان النبيذ كل ما حوته معدتها وتأكّدت شكوكي في أنها تُجَوِّع نفسها.

خرج صوتها ضعيفًا: «لا أريدُ العيش من دون **تانوس**»، لكنني عرفتها بما يكفي لأدرك أن إرادتها قوية كما كانت دائمًا.

فحاولت تعزيتها: «إن **تانوس** حيٌّ، وهو شاب قوي وسيعيش خمسين عامًا أخرى، ويحبك ويعد أن ينتظرك حتى نهاية الزمان، أما الملك فرجل عجوز، ولا يمكنه العيش إلى الأبد...».

استوَت في جلستها على مفرش سريرها المُفرّى وصار صوتها صارمًا وعازمًا: «أنا امرأة **تانوس**، ولن ينالني رجل آخر. أفضّل الموت على ذلك».

«كلنا يموت في النهاية يا مولاتي». أعرف أنني سأتمكن من مساندتها إذا ما تمكنت من إلهائها في بضعة الأيام الأولى من هذا الزواج، لكنها تفهمني جيدًا.

- أعرف ما أنت بصدده، لكنَّ كلماتك المعسولة لن تجدي نفعًا. سوف أقتل نفسي. آمرُك بتحضير جرعة من السُّم لأشربها.

- لستُ ضليعًا في علم السُّم يا مولاتي. (كانت محاولةً بائسة، لكنها سحقتها بسهولة).

- كثيرة هي الأوقات التي رأيتُك فيها تعطي السُّم لحيوان يُعاني. أتذكر كلبك العجوز، الذي كان يعاني ألمًا في أذنيه، وغزالك الأليف الذي مزّقه فهد؟ لقد أخبرتني أن السُّمَّ لا يسبب ألمًا، وأنه لا يختلف عن الخلود إلى النوم. حسنًا، أريد أن أخلدَ إلى النوم وأن أُحنّط وأنتقل إلى العالم الآخر لأنتظر **تانوس** هناك.

اضطُررتُ إلى محاولة الدفع بحجّة أخرى.

- لكن ماذا عني يا مولاتي؟ لم تمتلكيني إلا اليوم، فكيف يمكنك هجراني؟ ماذا سيصيبني من دونك؟ أشفقي عليَّ. (رأيتها تتردد، وظننتُ أنني تمكنتُ منها، لكنها رفعت ذقنها بعناد).

- ستكون على خير ما يرام يا **تايتا**، ستكون دائمًا على خير ما يرام، فسيستردك أبي بكل سرور بعد موتي.

- أرجوك يا صغيرتي (استخدمتُ دلع الطفولة في محاولةٍ أخيرةٍ لمخاليتها) دعينا نتكلم في هذا في الصباح، كل الأشياء تختلف تحت ضوء الشمس.

فعارضتني: «لا شيء سيختلف. سأظل مفترقة عن **تانوس**، وسيريدني ذاك العجوز المُجعّد في فراشه ليفعل أشياء فظيعة بي».

كان صوتها عاليًا حتى إن بقية أفراد حريم الملك ربما سمعوا كل كلمة، لكن من حسن الحظ أن معظمهم لا يزال في وليمة الزفاف، بيد أنني ارتعشتُ إزاء فكرة أن يُنقَل وصفها للفرعون إليه.

صار صوتها أكثر حدةً وفيه مسحة هستيريا: «امزُج لي جرعة السُّم الآن، في هذه اللحظة، وأنا أراقبك. آمرك بفعل ذلك. أتجرؤ على عصياني!»، كان هذا الأمر صاخبًا حتى إن حراس البوابات الخارجية لا بدَّ وأنهم سمعوه، ولم أجرؤ على الجدال أكثر.

- حسن يا مولاتي، سأمزجه. عليَّ أن أجلب صندوق أدويتي من غرفتي.

عندما رجعتُ والصندوق تحت ذراعي، وجدتُها قد نهضت من سريرها وأخذتْ تذرع غرفتها بعينين متلألئتين في وجه شاحب مُحزِن.

بينما أحضِّر الجرعة من قارورة زجاجية قرمزية حذَّرتني: «إنني أراقبك، إياك وتجربة أيٍّ من خدعكَ عليَّ الآن». كانت تعرف اللون الذي يُنذِر بالمحتويات القاتلة.

عندما ناولتها الزبدية، لم تُبدِ خوفًا، ولم تتوقف إلا لتقبِّل وجنتي: «لقد كنتَ أبًا وأخًا محبًا لي، وأشكركَ على هذا المعروف الأخير. أحبك يا تايتا، وسأفتقدك».

رفعت الزبدية بكلتا يديها كأنها كأس نخب لا جرعة مميتة.

وشربَت نخب **تانوس**: «**تانوس**، يا عزيزي، لن يأخذوني منك أبدًا، وسنلتقي ثانية في الجانب القصيِّ!»، ثم شربتِ الزبدية في جرعة واحدة، وألقتها لتتكسر على الأرض. وأخيرًا، تنهَّدت وسقطت خلفًا على السرير.

- تعالَ اقعد بجواري. أخاف أن أموت وحيدة.

نظرًا إلى معدتها الخاوية، كان مفعول الجرعة سريعًا جدًا، ولم تحظَ إلا بوقتٍ يكفي أن تلتفت إليَّ وتهمس: «أخبر **تانوس** ثانيةً كم أحببتُه! حتى بوابات الموت، وما بعدها»، ثم أغمضت عينيها ورحلت.

رقدَت هاجعةً وشاحبة حتى إنني وللحظةٍ فُزِعْتُ حقًا، خِفت أنني أسأت تقدير قوة مسحوق الزهرة المنومة الذي بدَّلتُ به خلاصة الداتورة[1]. ولم أطمئن حتى وضعتُ مرآة يد برونزية أمام فمها وأخبرني سطحها المتلبِّد بأنها

(1) الداتورة: نباتات شجيرية حولية سامة أزهارها كثيرة تشبه البوق. ولأوراقها وبذورها استعمالات طبية. (المترجم).

تتنفس. غطيتها بهدوء، وحاولت إقناع نفسي بأنها في الصباح ستستسلم لحقيقة أنها لا تزال حية، وتسامحني.

في تلك اللحظة، دُقَّ باب الغرفة الخارجية دقَّةً آمِرَةً وتعرفتُ صوت **أتون**، الحاجب الملكي، يطلب الدخول. كان خصيًّا آخر، وعضوًا في أخوية الخصيان الخاصة، لذا يمكنني أن أعدَّه صديقًا، فأسرعتُ لأستقبله.

قال لي بصوتٍ بناتيٍّ عالٍ متناقض جدًّا مع قوامه الضخم، ذلك أنه خُصِيَ قبل سن البلوغ: «لقد جئتُ آخذ مولاتك الصغيرة إلى متعة الملك يا **تايتا**، أهي جاهزة؟».

فبررتُ له: «لقد وَقَعَتْ واقعة صغيرة»، وأخذتُه ليرى **لوستريس** بنفسه.

نفخ خديه المُحمَّرين خوفًا عندما رأى حالها، وصاح: «ماذا عساي أقول للفرعون؟ سيأمر بضربي. لن أفعلها. إن المرأة مسؤوليتك، وعليك التبرير للملك وتحمل غضبته».

ولم يكُن واجبًا أستمتع به، لكنَّ ضيق **أتون** كان حقيقيًّا، وعندي على الأقل مكانتي الطبية لتمنحني بعض الحماية من توقعات الفرعون الخائبة. وافقتُ على مضض على مرافقته إلى غرفة النوم الملكية، لكنني حرصتُ على وجود إحدى الإماء الأكبر سنًّا والأكثر موثوقية في غرفة مولاتي الخارجية قبل أن أتركها وحدها.

كان الفرعون قد نزع عنه تاجه وباروكته، وكان رأسه أقرع وأبيض كبيضة نعامة. أجفلت نفسي أمام المنظر، وتساءلتُ كيف كانت مولاتي لتستجيب له. أشكُّ في أنه كان ليزيد رغبتها أو يعزز رأيها فيه.

بدا على الملك أنه أجفل لمرآي كما أجفلتُ لمرآه، وحدَّق واحدنا إلى الآخر لحظة قبل أن أسقط على ركبتيَّ وأسجد أمامه.

- ما هذا أيها العبد **تايتا**؟ لقد أرسلتُ في طلب شخص آخـ...
- أيها الفرعون الرحيم، لقد جئتُ بالنيابة عن مولاتي **لوستريس** لأستجدي تفهُّمك ورأفتك.

ثم شرعتُ في وصف مروِّع لحالة مولاتي **لوستريس**، وشَّيتُه بمصطلحات طبية مبهمة وشروحات يُراد منها تبديد الشهوة الملكية. ووقف **أتون** بجوازي يومئ برأسه في توكيد مُشدَّد على كل ما قلتُه.

إنني واثق بأن ذلك ما كان ليجدي نفعًا مع عريس أصغر سنًا وأكثر حيوية، متحفِّز يشبُّ للوصول إلى غايته، لكنَّ ماموس ثور عجوز، ويستحيل عدَّ النساء المليحات اللاتي تمتعن بخدمته في السنوات الثلاثين الماضية أو نحوها. لو وقفن في رتلٍ واحد لطوَّقن مدينة طيبة ذات المئة بوابة، وربما أكثر من مرة.

قاطع أتون شرحي أخيرًا: «يا صاحب الجلالة، سأحضر لك، بعد إذنك، خليلة أخرى هذه الليلة، ربما الحورية الصغيرة ذات التحكم الاستثنائي بـ...».

فصرفه الملك: «لا، لا. ثمة الكثير من الوقت لذلك بعد أن تتعافى الطفلة من وعكتها. اتركنا الآن أيها الحاجب، ثمة مسألة أودُّ مناقشتها مع الطبيب، أعني، مع هذا العبد».

حالما صرنا وحدنا، رفع الملك قميصه مُظهرًا بطنه: «ما سبب هذا برأيك أيها الطبيب؟».

عاينتُ الطفح الذي زيَّن كِرشه الناتئ، ووجدتُ أنه إصابة بالقوباء الحلقية الشائعة، فبعض النساء الملكيات يغتسلن أقل من المُستحبِّ في مناخنا الحار، وكنتُ قد لاحظتُ أن الوساخة والحكة المُعدية متلازمان. أرجح أن إحداهن قد نقلت العدوى للملك.

قال: «أهو خطِر؟ أيمكنك علاجه أيها الطبيب؟».

يعيدنا الخوف جميعًا أناسًا عاديين، وحتى الملك خضع لي كما كان أي مريض آخر ليفعل.

مضيتُ بعد استئذانه إلى غرفتي لأحضر صندوق أدويتي، وعندما عُدت، بينما أمرتُه بالاستلقاء على السرير الخشبي المطعَّم بالعاج والذهب المنمَّق أدهنُ مرهمًا على دائرة الجلد الحمراء الملتهبة على بطنه. كان المرهم من تركيبي الخاص، ومن شأنه أن يشفي الطفح في غضون ثلاثة أيام، وقد طمأنته على ذلك.

قال لي وأنا أعمل: «إنك مسؤول إلى درجة كبيرة عن زواجي من هذه الطفلة التي صارت سيدتك الجديدة. (ثم سألني) قد يشفي مرهمك الطفح، لكنْ أسيمنحني علاجك الآخر ابنًا؟ إن هذه الأوقات لعصيبة، وعليَّ إنجاب وليِّ عهدٍ قبل أن أكبُر عامًا آخر. السلالة في خطر».

نحن الأطباء مترددون دائمًا في ضمان علاجاتنا، لكنَّ المحامين والمنجِّمين كذلك أيضًا. وبينما أماطل، منحني المهرب الذي كنتُ أبحث عنه.

- لم أعُد شابًا يا تايتا. أنت طبيب ويمكنني إخبارك بهذا. لقد خاض سلاحي معارك طاحنة كثيرة، ولم يعد نصله بتَّارًا كما كان في ماضيه، ومنذ عهد قريب، خذلني في أمسِّ حاجتي إليه. ألديكَ شيء في صندوقك هذا من شأنه أن يقسِّي عنق الزنبقة الذاوي؟

- يسرني أنك ناقشت هذا الأمر معي يا جلالة الفرعون. في بعض الأحيان، تعمل الآلهة بطرائق غامضة... (ورسم كلانا إشارة درء الشر قبل أن أستمر) يجب أن يؤدَّى جماعك الأول مع سيدتي العذراء على أكمل وجه، فأي عجز، أي انحراف عن غايتنا، أي فشلٍ في رفع صولجان رجولتك الملكي عاليًا، قد يحبط مساعينا. ليس أمامنا إلا فرصة واحدة، يجب أن يكون الاتحاد الأول ناجحًا، وإن اضطُرِرنا إلى المحاولة ثانية، نضع أنفسنا في خطرِ أن تنجبَ أنثى أخرى.

كانت أساسات هذا التشخيص الطبي واهيةً إلى حد ما، ورغم ذلك، بدا كلانا متجهمًا، وهو أكثر مني.

ثم رفعتُ سبابتي: «لو أننا حاولنا اليوم، و... (لم أزِد على ذلك، بل تركتُ سبابتي ترتخي ارتخاءً إيحائيًا، وهززتُ رأسي)، لا، إننا محظوظون لأن الآلهة منحتنا فرصة أخرى».

فسألني بقلق: «ماذا يجب أن نفعل؟».

ظللتُ صامتًا برهةً طويلة، راكعًا في تفكير عميق بجوار سريره. شقَّ عليَّ أن لا أترك ارتياحي ورضاي يظهران، ففي اليوم الأول من زواج مولاتي، بدأت أشق طريقي بالفعل إلى مكانة نافذة لدى الملك، ومُنِحْتُ عذرًا مثاليًا لأبقي بكارتها سليمة لبعض الوقت على الأقل، وقت ربما يكفي لأتمكن من تحضيرها للصدمة الوحشية لفعلها التناسلي الأول مع رجل لا تحبه، بل في واقع الأمر تشمئز منه جسديًا. قلتُ لنفسي إنني، وبإدارة ذكية للموقف، قد أتمكن من إطالة فترة المهلة هذه إلى أجل غير مسمى.

- بالطبع يا صاحب الجلالة، يمكنني مساعدتك، لكنَّ ذلك سيستغرق بعض الوقت. لن يكون بسهولة علاج هذا الطفح. (كانت أفكاري

تتسابق، عليَّ اعتصار كل قطرة من هذه الإسفنجة) علينا اتباع حمية صارمة جدًا.

- لا مزيد من خصى الثيران، أتوسَّل إليك أيها الطبيب.

- أظن أنك أكلت ما يكفي منها، لكننا سنحتاج إلى تدفئة دمك وتحلية سوائلك التناسلية من أجل المحاولة المصيرية. حليب الماعز، حليب الماعز الدافئ مع العسل ثلاث مرات في اليوم، وبالطبع الجرعات الخاصة التي سأحضرها لك من قرن الخرتيت وجذر اللُّفاح.

بدا عليه الارتياح.

- أمتأكد أنت أن ذلك سيجدي؟

- لم يفشل من قبل قطُّ، لكنْ ثمة مقياس جوهري آخر.

تلاشى ارتياحه، واستوى في جلسته يرنو إليَّ قلقًا.

- ما هو؟

- التعفُّف الكامل. لا بدَّ لنا من ترك القضيب الملكي يستريح ويسترد كامل شدَّتِه وقدرته ثانية. عليك هجر الحريم وجميع متعه لبعض الوقت.

قلت ذلك بنفَس الطبيب اليقينيِّ الذي لا يمكن إنكاره، ذلك أنها طريقة موثوقة لضمان ألا تُمس مولاتي **لوستريس**، غير أنني قلقتُ من ردة فعله. كان معقولًا أن تثور ثائرته إزاء فكرة أن يُحرم لذَّاته الزوجية، وكان ممكنًا أن يطردني، فأفقد كل الأفضلية التي كسبتُها مؤخرًا. لكنني اضطُررت إلى المجازفة لمصلحة مولاتي. عليَّ حمايتها ما دام يمكنني ذلك.

فاجأني رد فعل الملك، إذ تراخى ببساطة على مسند الرأس وابتسم في انشراح ثم سألني مبتهجًا بعض الشيء: «لكم من الوقت؟». وداهمني إدراك مباغت أن قيودي جاءته كأسباب ارتياح. وقد بذلتُ، أنا الذي سيرى دائمًا ممارسة الحب مع امرأة جميلة حلمًا معجزًا مستحيل الإدراك، جهدًا هائلًا لأفهم أن الفرعون مسرور بتحريره من واجب كان ممتعًا ذات يوم، واجبًا صار جراء كثرة تأديته مُرهقًا.

لا بدَّ أن ما لا يقل عن ثلاثمئة زوجة ومحظية كانت في الحريم آنذاك، وبعض أولئك النسوة الآسيويات سيئات السمعة بسبب شهيَّاتهن النَّهِمة.

حاولت التعاطف مع الجهد الذي لا بدَّ يتطلبه التصرف مثل إله ليلة بعد ليلة، وعامًا بعد عام، ولم يروِّعني التصوُّر كما بدا أن واقعه قد أنهك الملك.

قلت: «تسعين يومًا».

فردَّد متفكرًا: «تسعين يومًا؟ تسعة أسابيع مصرية في كل منها عشرة أيام؟».

قلتُ بحزم: «على الأقل».

فأومأ برأسه من غير ضغينة وغيَّر الموضوع بلا جدال.

- حسنٌ جدًا. أخبرني حاجبي أيها الطبيب أنك، إلى جانب مهاراتك الطبية، واحد من أبرز ثلاثة منجمين في مصرنا هذه، أصحيح هذا؟

عجبتُ في سبب تلطيف صديقي الحاجب ادعاءه، وبرغم جميع محاولاتي، عجزتُ عن التفكير في الهوية المحتملة للاثنين الآخرين. لكنني أملتُ رأسي بتواضع.

- إنه يُطرِّي عليَّ يا صاحب الجلالة، بيد أنني ربما أحوز بعض المعرفة بالأجرام السماوية.

فأمرني وقد جلس متشوقًا: «اكشف لي طالعي!».

سألتُه متفاجئًا: «الآن؟».

- الآن! لمَ لا؟ فبناءً على أوامرك، لا يوجد شيء آخر حريٌّ بي فعله في هذه اللحظة. (كانت ابتسامته المفاجئة تلك محببة، وبصرف النظر عما ينويه تجاه تانوس ومولاتي، رأيتُ نفسي تميل إليه).

- عليَّ جلب بعض لفائفي من مكتبة القصر.

- أمامنا الليل بطوله، اجلب أيًّا كان ما تحتاج إليه.

كان وقت ولادة الملك وتاريخها موثقًا توثيقًا دقيقًا وعندي في اللفائف جميع ترصُّدات حركات الأجرام السماوية لخمسين جيل من الفلكيين قبلي. وبينما يشاهد الملك في توق شديد، كشفتُ الطالع الملكي أول مرة، وقبل أن أبلغ منتصف الكشف رأيت شخصية الرجل، مثلما حدستها، تؤيدها نجومه أتم التأييد. كان النجم الأحمر العظيم السيَّار، الذي نعرفه بأنه عين سِت، مهيمنًا على قدره، وهو نجم الصراع والارتياب، والاضطراب والحرب، والحزن والشقاء، وفي النهاية الموت العنيف.

لكن كيف يمكنني أن أخبره بهذه الأشياء؟

ارتجلتُ وصغتُ موجزًا مستورًا بعض الشيء عن حقائق موثقة جيدًا في حياته، ونكَّهتها ببعض التفاصيل الأقل شهرة التي جمعتُها من جواسيسي، والحاجب الملكي أحدهم، ثم أعقبت ذلك بالطمأنات المعهودة حول جودة الصحة وطول الحياة التي يرغب أي زبون بسماعها.

دُهِش الملك: «إنك تتمتع بكل المهارات التي حملتني سمعتك على توقعها».

- أشكرك يا صاحب الجلالة، يسرني أنني تمكنت من خدمتك. (بدأت بجمع لفائفي ومعدات كتابتي استعدادًا للاستئذان بالانصراف. كان الوقت قد تأخر جدًّا، وسمعتُ بالفعل من الظلمة وراء جدران القصر أول صيحة ديك).

- مهلك يا تايتا. لم آذن لكَ بالانصراف. لم تخبرني بما أودُّ معرفته حقًّا: هل سأنجب ابنًا؟ وهل ستنجو سلالتي؟

- بكل أسفٍ أيها الفرعون، إن النجوم لا تتنبأ بهذه المسائل. لا يمكنها إلا منحنا الاتجاه العام لقدرك، والاتجاه النهائي الذي ستتخذه حياتك، من دون إيضاح تفاصيل كهذه...

فقاطعني قائلًا: «آه، بلى، لكنْ ثمة وسائل أخرى لاستبصار المستقبل، أليس كذلك؟». خوَّفني المنحى الذي تقودنا أسئلته إليه، وحاولتُ قطع الطريق عليه، لكنه كان عازمًا.

- أنت تثير اهتمامي يا تايتا، لقد تحريتُ عنك، وعرفت أنك خبير في متاهات آمون رع.

أصابني الغم. كيف عرف بهذا؟ قلة قليلة فقط تعرف بموهبتي الباطنية هذه، وأردتُ أن يبقى الأمر على هذي الحال، بيد أنني عجزتُ عن إنكارها صراحةً، فظللتُ صامتًا.

قال: «لقد رأيتُ المتاهات مخفيةً في قعر صندوق أدويتك». أراحني أنني لم أحاول إنكار موهبتي فينكشف كذبي، فهززتُ كتفيَّ استسلامًا، ذلك أنني عرفتُ ما هو مقبل.

ثم أمرني: «أعمِل المتاهات من أجلي، وأخبرني إن كنتُ سأنجب وريثًا وإن كانت ستستمر سلالتي أم لا!».

كشف الطالع شيء، ذلك أنه لا يتطلب إلا معرفة بتشكيلة النجوم وخواصها، ومع بعض الصبر، ينتج عن العملية الصحيحة تنبؤ دقيق دقةً مُرضية، أما الكهانة باستخدام متاهات **آمون رع** فشيء آخر تمامًا، ذلك أنها تتطلب دَفعًا من قوة الحياة، استنفادًا لشيء ما في أعماق العراف يتركه مهدودًا ومُنهكًا.

وفي تلك الأيام، كنت مستعدًا لبذل قصارى جهدي لتجنب ممارسة هذه الموهبة. صحيحٌ أنه لا يزال ممكنًا في مناسبات نادرة إقناعي بإعمال المتاهات، لكنني أظل أيامًا بعد ذلك مستنزفًا روحيًا وبدنيًا. تعرف مولاتي **لوستريس** بقدرتي الغريبة هذه، وتعرف أيضًا الأثر الذي تحمله عليَّ، لذا منعتني، لمصلحتي، من ممارستها، إلا من أجلها بين الحين والآخر.

لكن لا يمكن لعبدٍ رفض أمر ملك. تنهدتُ ومددتُ يدي فتناولت الكيس الجلدي الذي يحوي المتاهات من قعر صندوقي، ثم نحيتُ الكيس جانبًا وحضّرتُ مزيجًا من الأعشاب اللازمة لفتح عيني الروح، لتمكينها من رؤية المستقبل. شربتُ الجرعة بعد ذلك، ثم انتظرتُ حتى أصابني الشعور المُروِّع المألوف للطفو من جسدي، وبينما أفتح الكيس الجلدي الذي يضم المتاهات شعرتُ أنني ذاهل وبعيد عن الواقع.

تتألف متاهات **آمون رع** من عشرة أقراص عاجية. عشرة هو الرقم الباطني للقدرة الأعلى، وكل قرص منها يمثل وجهًا من وجوه الوجود البشري، منذ الولادة إلى الموت والآخرة. كنتُ قد نقشتُ بيدي هاتين الرموزَ على سطح كل من المتاهات، وكانت كل منها تحفة صغيرة. ومن خلال استعمالها المستمر والنفخ عليها عبر السنين، وهبتها جزءًا من قوة حياتي الخاصة.

دلقتُها من الكيس ورحتُ أداعبها، مركزًا كل قدراتي عليها، وسرعان ما بدأت أشعر أنها دافئة كلحمٍ حيٍّ تحت لمستي، وبينما تتدفق طاقتي مني إلى الأقراص العاجية عشتُ شعورَ الاستنزاف المألوف. بينما رتبتُ المتاهات ووجهها إلى الأسفل في كدستين ودعوت الفرعون ليحمل كل واحدة على حدة ثم يمررها بين أصابعه مركزًا كل اهتمامه عليها ظل يردد في الوقت نفسه أسئلته جهارًا: «هل سأنجب ابنًا؟ هل ستستمر سلالتي؟».

استرخيتُ بالكامل وفتحت روحي لأسمح لأرواح النبوءة بالدخول. بدأ نغم صوته باختراقي، وأخذ يزداد عمقًا مع كل تكرار، مثل قذائف مقلاع تضرب النقطة نفسها.

بدأت أتمايل بعض الشيء في مجلسي، كما يرقص الصلُّ تحت تأثير مزمار حاوي الأفاعي. أدى الدواء تأثيره الكامل، وشعرتُ أن جسدي معدوم الوزن وأنني أطفو في الهواء، ثم تكلمتُ كأنني أنطق من مسافة بعيدة ورجّع صوتي صداه في رأسي على نحو غريب، كما لو كنت جالسًا في غار تحت سطح الأرض.

أمرتُ الملك أن ينفخ على كل من الكدستين ويقسمها إلى نصفين، ثم يضع نصفًا جانبًا ويستبقي الآخر. جعلته يعيد تقسيم كل كدسة ويجمع ما يبقى حتى لم يبق معه إلا اثنتان من المتاهات التي تشبه العملات المعدنية.

نفخ عليها مرة أخيرة، ثم تنفيذًا لتعليماتي، وضع كلًّا منها في إحدى يدي، أمسكتها بإحكام وضغطتها على صدري، وبينما يمتص قوة المتاهات أمكنني الشعور بقلبي يخفق تحت قبضتي المضمومتين.

أغمضتُ عيني، فرأيتُ أشكالًا تبدأ بالبزوغ من الظلمة، وملأت أصوات غريبة أذني. لم يكن لها أي شكل أو ترابط منطقي، بل بدا كل شيء مشوَّشًا. أصابني الدوار، وغُشّيت حواسي، وشعرتُ بنفسي أزداد خفةً حتى بدوتُ أعوم في الفضاء، ثم سمحتُ لنفسي بأن أحمَل إلى أعلى كأنني ورقةٌ من عشب جاف علقت في زوبعة من الزوابع الرملية التي تُرى في صيف الصحراء.

صارت الأصوات في رأسي أوضح، وترسَّخت الصور العاتمة.

«أسمع بكاء طفل رضيع». خرج صوتي مشوَّهًا، كأن حنكي قد مُزِّق عند الولادة.

«أهو صبي؟» نبض سؤال الفرعون في رأسي، فأحسستُه أكثر مما سمعتُه.

ثم بدأت رؤيتي تثبت تدريجيًّا، ونظرتُ في نفق طويل من الظلمة إلى ضوء في آخره. صارت المتاهتان العاجيتان في يدي ساخنتين كجمرتين من موقد وأحرقتا راحتيّ.

رأيتُ في هالة الضوء في آخر النفق طفلًا يرقد في بركة دموية من أمواه ولادته، وأصلة مشيمته البدينة لا تزال ملتفةً فوق بطنه، فنعقتُ: «أرى طفلًا».

وسأل الفرعون من خارج الظلمة المحيطة: «أهو صبي؟».

انتحب الصبي وركل الهواء بكلتا ساقيه، ورأيتُ بارزًا من بين فخذيه الممتلئين إصبع لحمٍ شاحب تتوَّجه قلنسوة من جلد مجعد.

أيدته: «صبي»، وشعرتُ بعطف مفاجئ تجاه وهم عقلي هذا، كأنه من لحم ودمٍ حقًا. مددتُ قلبي إليه، لكن الصورة تلاشت، وتضاءل بكاء الولادة حتى ضاع في الظلام.

«السلالة؟ ماذا عنها؟ هل ستستمر؟».

بلغني صوت الملك، لكنه بعدئذٍ ضاع في نشاز الأصوات الأخرى التي ملأت رأسي: أبواق المعركة، وصراخ رجال في صراع مميت، وطنين البرونز على البرونز، ثم رأيتُ السماء من فوقي مسودَّة بفعل أسراب السهام المارة في الأعلى.

صرختُ ليكون صوتي مسموعًا فوق أصوات الصراع التي ملأت رأسي..

- حرب! أرى معركة هائلة ستغير شكل العالم.

- هل سينجو نسلي؟

كان صوت الملك مسعورًا، لكنني لم أوله اهتمامًا، ذلك أن هديرًا مهولًا يعصف بأذنيّ، مثل صوت رياح *الخماسين*، أو جيشان مياه النيل في الجنادل العظيمة، ثم رأيتُ غيمة صفراء غريبة حجبت أفق رؤيتي، تخترقها ومضات ضوء عرفتُ أنها انعكاسات أشعة الشمس عن أسلحة الحرب.

«ماذا عن سلالتي؟».

شتَّتَ صوتُ الفرعون ذهني، وتلاشت الرؤيا. ثم ساد صمتٌ في رأسي ورأيتُ شجرة قائمة على ضفة النهر. كانت شجرة سنط كبيرة كاملة الأوراق، وأغصانها مثقلة بصُنوف الثمار، وعلى أعلى أغصانها يجثم باز، الباز الملكي، غير أنه بدّل شكله ولونه وأنا أراقبه، فتحول إلى تاج مصر المزدوج، الأحمر والأبيض، والبرديّ واللوتس الخاصين بالمملكتين مجدولين. ثم، وأمام عيني، ارتفعت مياه النيل وهبطت، وارتفعت وهبطت ثانية. رأيتُ المياه تفيض خمس مرات إجمالًا.

وبينما ما زلت أحدق بعينين مُستعرتين، عتَّمت حشرات طائرة السماء فوق الشجرة بغتةً، وهبطت غمامة كثيفة من الجراد على الشجرة، فغطتها بالكامل. عندما عادت إلى ارتفاعها، كانت الشجرة يبابًا عاريةً من آخر آثار الخضرة، ولم تبقَ ورقة واحدة على الأغصان البنية اليابسة. ثم انقلبت الشجرة الميتة وسقطت سقطة ثقيلة على الأرض، فهشّمت السقطة جذعها وانكسر

التاج إلى قسمين، وتحوَّلت الكسرتان إلى غبار طيَّرته الريح. لم يبق شيء إلا الريح وتراب الصحراء الذي تدفعه.

سألني الفرعون بإلحاح: «ما الذي تراه؟»، لكن كل شيء تلاشى ووجدتُ نفسي من جديد جالسًا على أرضية مخدع الملك. كنتُ ألهث بأنفاس متقطعة، كأنني ركضتُ مسافةً بعيدة، وأحرق العرق المالح عيني ثم انهمر على جسدي في جداول نقعت كتان تنورتي وشكلت بركة على البلاط من تحتي. وكنتُ أرتجف بحمَّى حرَّاقة وانتابني شعور الغثيان والثقل المألوف في فم معدتي الذي أعرف أنه سيرافقني لأيام قادمة.

كان الفرعون يحدق إليَّ وأدركتُ أي منظرٍ مُجهَد ومخيف أريته إياه، ثم همس: «ماذا رأيت؟ هل سيستمر نسلي؟».

لم يكُن بوسعي إخباره بحقيقة رؤيتي، لذا اخترعتُ أخرى لأرضيه: «رأيتُ غابة كلها شجر عظيم يبلغ أفق حلمي، ولا حصر لعددها، وفوق كل شجرة تاج، تاج المملكتين الأحمر والأبيض».

تنهد الفرعون وغطى عينيه بيديه لبرهة، وجلسنا صامتين، هو في الإراحة التي أعطته إياها كذبتي، وأنا في إشفاقي عليه. كذبتُ في آخر الأمر رحمةً به، فهمست: «الغابة التي رأيتُها كانت عترتَك، سيبلغون حدود الزمان، وسيعتمر كل منهم تاج مصر».

كشف عينيه، وكانت رؤية امتنانه وغبطته أمرًا مثيرًا للشفقة: «شكرًا لك يا تايتا. يمكنني رؤية أن التكهُّن قد أرهق قواك. لك أن تذهب وتستريح الآن، فالحاشية ستبحر إلى قصري على جزيرة إلفنتين في الغد، وسأخصص قاربًا لتعبر ومولاتك عبورًا آمنًا. احرسها بحياتِك، إنها الإناء الذي يحمل بذور خلودي».

كنت ضعيفًا حدَّ أنني اضطُرِرْت إلى الاستعانة بحافة السرير حتى أنهض، ثم تهاديتُ إلى الباب واتكأت على عضادته، غير أنني لم أضعف إلى درجة تمنعني من التفكير بواجبي تجاه مولاتي، فذكرتُه: «ثمة مسألة ملاءة الزواج. سينتظر الشعب عرضها، وسمعتك وسمعة مولاتي في خطر».

سألني: «وماذا تقترح يا تايتا؟».

صار يعتمد عليَّ بهذه السرعة، فأخبرته بما ينبغي فعله، فأومأ برأسه وقال: «اعتنِ بذلك!».

طويتُ بأناة الملاءة التي تغطي السرير الملكي. كانت من أفخر صنوف الكتان، أبيض كطحارير[1] الصيف العالية، ويوشيها خيط حرير نادر تجلبه قوافل التجارة لمامًا من الشرق. بينما أغادر مخدع الملك حملتُ الملاءة المطوية معي، وشققت طريقي عبر القصر الذي لا يزال معتمًا إلى الحريم.

وجدتُ مولاتي نائمة كامرأة ميتة، وكنت أعرف أنها بعد كمية الزهرة المنومة التي أعطيتها إياها، ستنام النهار بطوله وربما لن تفيق حتى المساء. جلستُ بجوار سريرها قليلًا، وشعرتُ أنني مُنهك ومُغتمٌّ، فقد استهلكتِ المتاهات روحي، ولا تزال الصور التي أثارتها تثقل علي. شعرتُ شعورًا مؤكدًا أن الرضيع الذي رأيته كان رضيع مولاتي، لكن آنذاك كيف يمكن تفسير بقية رؤيتي؟ بدا أن الأحجية لا حلَّ لها، ونحيتُ الفكرة جانبًا ذلك أن أمامي عمل ينبغي إنجازه.

قرفصتُ بجوار سرير لوستريس، وفرشتُ الملاءة الموشَّاة على الأرض. كان نصل خنجري حادًّا بما يكفي ليحلق شعر ساعدي، فانتقيتُ أحد أنهار الدم الزرقاء تحت الجلد الناعم في بطن رسغي، ونخزته بسن خنجري تاركًا الدم القاتم البطيء يقطر على الملاءة، وعندما رضيتُ عن امتداد البقعة، ربطتُ رسغي بشريط كتان لأوقف النزيف، ثم صررت الملاءة الملطخة.

كانت الأمة لا تزال حاضرة في الغرفة الخارجية، فأمرتها بأن تنام لوستريس دون إزعاج، وبمعرفتي أنها ستلقى عناية جيدة، رضيتُ بتركها وتسلُّق السلم إلى أعلى السور الخارجي للحريم.

كان الفجر لا يزال في طور انبلاجه، لكن حشدًا فضوليًا من المسنَّات والمتسكِّعين قد احتشد بالفعل تحت الأسوار، ونظر جميعهم إلى الأعلى مترقبين عندما ظهرتُ.

قدمتُ عرضًا نشرتُ فيه الملاءة قبل أن أسدلها على متاريس السور الخارجي، كان لبقعة الدم في وسط الخلفية البيضاء بياض الغيوم شكل وردة، وشاعت بين الحشد الثرثرة أمام شارة عذرية مولاتي وفحولة عريسها.

انتصبت في مؤخر الحشد قامة أطول من المحيطين بها، كان رأس صاحبها مغطى بلفاع صوفي مخطط، ولم أتعرفه إلا عندما نزعه عنه وأظهر

(1) طحارير: جمع طحرور، سحاب خفيف متفرق. (المترجم).

وجهه ورأسه المكسو شعرًا بلون الذهب الأحمر، فصرخت: «تانوس! يجب أن أكلمك».

رفع نظره إليَّ فوق السور، وكانت عيناه ممتلئتين ألمًا تمنيتُ أن لا أراه ثانية أبدًا. لقد دمرت البقعة التي على الملاءة حياته. كنت قد عرفتُ مضاضة الحب الضائع مثله، وأتذكر جميع تفاصيله حتى بعد كل السنين الطوال، لكنَّ جرح قلب تانوس حديث ولا يزال ينزف، مُنزلًا ألمًا أمضَّ من أي أذى أصابه في ساحات القتال.

إنه في حاجة إلى مساعدتي الآن، إن أراد النجاة مما أصابه.

- تانوس! انتظرني.

ألقي اللفاع على رأسه مغطيًا وجهه، وأعرض عني، وراح يتخبط مبتعدًا، متداعيًا مثل سكِّير.

صرختُ في أثره: «تانوس! ارجع! يجب أن نتكلم». لكنه لم يلتفتْ، بل حثَّ خطاه.

وبينما هبطتُ عن السور وعدوتُ خارجًا من البوابة الرئيسة، كان قد اختفى في متاهة الأزقة والأكواخ الطينية للمدينة الداخلية.

***

بحثت عن تانوس لنصف الصبيحة، لكنَّ مهجعه كان مهجورًا ولم يره أحد في أي من نواديه المعتادة.

اضطُررت أخيرًا إلى الانصراف عن البحث، والعودة إلى مهجع الغلمان، فالأسيطيل الملكي يستعد للإبحار جنوبًا، ولا يزال عليَّ جمع ممتلكاتي وتوضيبها لأكون ومولاتي جاهزين للمغادرة، لذا نحيتُ قهرًا شعور الكآبة الذي أصابتني به المتاهات ولمحة تانوس، وشرعتُ بحزم متاعي ومفارقة الديار الوحيدة التي عرفتها في حياتي.

بدا على حيواناتي الشعور بأن شيئًا مشؤومًا يحدث، إذ راحت تنخر وتزقزق وتعوي، كل منها يحاول جذب انتباهي بطريقته الخاصة. تقافزت الطيور البرية ورفرفت على الشرفة المرصوفة في الخارج، بينما في الركن الأقرب إلى سريري، بسط صقراي الحران الحبيبان أجنحتهما ثم أنهضا الريشات الممتدة على ظهريهما وصاحا بي من مجثميهما، وتزاحمت القطط

والكلاب والغزال الأليف حول ساقي، محاولة الاحتكاك بي، ومعوِّقة جهودي في حزم أمتعتي.

انتبهتُ في غيظ إلى إبريق حليب الماعز المُحمَّض بجوار سريري. كان أحد مشروباتي المفضلة، وحرص الغلمان على أن يظل مملوءًا دائمًا. ولأن حيواناتي تستلذ بالحليب الخاثر مثلي، أخذت الإبريق إلى الشرفة لأشتتها وملأت مناهلها الفخارية، فتزاحمت على المناهل تتدافع وتتحاشر، ثم تركتها لأرجع إلى مهمتي، وأغلقت الظلات المصنوعة من حُصر الأسل لأبقيها في الخارج.

عجيب كمُ الأمتعة التي بإمكان حتى العبد جمعها في حياته. كانت الصناديق والصرر قد تراكمت عاليًا مسندةً إلى أحد الجدران قبل أن أنتهي أخيرًا، وبحلول هذا الوقت، صار مزاجي المكتئب والمُضنى غالبًا تقريبًا، لكنني ما زلتُ يقظًا بما يكفي لأدرك الصمت، إذ وقفتُ لبعض الوقت في منتصف غرفتي أنصتُ مضطربًا، وكان الصوت الوحيد المسموع جلجلة الأجراس البرونزية الصغيرة على قيود أنثى الصقر حيث تجلس في الركن القصي تراقبني بنظرة الكواسر المركزة الحقودة تلك، أما الذكر، وهو أصغر حجمًا منها لكنه أوسم، فكان نائمًا على مجثمه في الركن الآخر، وقلنسوة الصقارة[1] الجلدية اللينة تغطي عينيه. لم يُصْدِر أيٌّ من بقية حيواناتي صوتًا. لم تمُؤْ أيٌّ من القطط أو تهسّ على الكلاب، ولم تزقزق الطيور البرية أو تشدو، ولم يزمجر أيٌّ من جرائي أو يتشقلب على رفيقه في لعبهم الصخَّاب.

ذهبتُ إلى ظُلات الأسل أرفعها، فاندفعت أشعة الشمس إلى الغرفة وأعمتني لوهلة، ثم استعدتُ بصري وصرختُ مذعورًا إذ رأيتُ كل الحيوانات والطيور متناثرة على الشرفة وفي الحديقة.

كانت راقدة في وضعيات الموت السائبة، كلٌّ حيث سقط، فهرعتُ إليها أنادي المقربة مني بأسمائها، وركعتُ أحمل أحدها بين ذراعيَّ وأحتضن جسده المرتخي الدافئ بحثًا عن علامات الحياة. لم يحمل أيُّها بصيصًا منها، مع أنني تفحصتها جميعها. كانت الطيور صغيرة وخفيفة في يدي، ولم يُبهِت الموت ريشها البديع.

---

(1) الصقارة: الصيد بالصقر. (المترجم).

خُيِّلَ إليَّ أن قلبي المثقل بالفعل لا بدَّ سينفجر الآن بثقل حُزني وحده، فركعتُ على الشرفة أنتحبُ وعائلتي متناثرة حولي.

مضى بعض الوقت قبل أن أتمكن من حمل نفسي على التفكير بمُسبب هذه الفاجعة، ثم وقفت ومضيتُ إلى أحد المناهل الخالية القابعة على البلاط. كانت قد لحسته حتى فرغ، لكنني شممته لأحاول إدراك طبيعة السم الذي دُسَّ من أجلي، غير أن رائحة الحليب المحمَّض أخفت جميع الروائح الأخرى، وكل ما عرفته هو أنه كان خاطفًا وقاتلًا.

تساءلت عمَّن وضع الإبريق بجوار سريري، لكنْ لا يهم يد من حملت الإناء لي، إذ إنني أعرف بيقين مطلق من أعطى الأمر بذلك، فقد قال لي سيدي **إنتف**: «الوداع يا عزيزي القديم. إنك رجلٌ ميِّت»، ولم ينتظر طويلًا حتى حول كلماته أفعالًا.

كان الغضب الذي استبدَّ بي ضربًا من ضروب العتَه، وفاقمته حالتي المضطربة ومزاجي القاتم، فوجدتُ نفسي أرتجف بفعل سخط لم أعرفه قبلًا، ثم استللت خنجري الصغير من حزامي، وقبل أن أعي ما الذي أفعله، مضيتُ أهبط درج الشرفة مسرعًا والنصل المسلول في يدي. كنتُ أعرف أن **إنتف** يزور في هذا الوقت حدائقه المائية. لم يعُد بوسعي احتمال التفكير به على أنه سيدي **إنتف**، فقد بدتْ ذكرى كل إهانة صبها عليَّ، وكل عذاب وإذلال، لامعة وواضحة في ذهني، وكنتُ ذاهبًا لأقتله، لأطعنه مئة طعنة في قلبه الوحشي الخبيث.

كنت على مرأى من بوابة الحدائق المائية عندما استعدتُ رجاحة عقلي، فثمة نصف دزينة من الحراس على البوابة، وأكثر منهم خلفها، ولن أبلغ مبلغ طعنة من الوزير الأعظم قبل أن يقطعوني إربًا. أجبرتُ قدميَّ المعجلتين على التوقف والاستدارة، ثم أزلقت الخنجر في غمده الجلدي المرصع، وسيطرت على أنفاسي. مشيتُ بعد ذلك على مهل عائدًا إلى شرفتي ولممتُ الجثث المشجية لحيواناتي.

كنت خططتُ لزراعة صف من أشجار الدلب على حاشية حديقتي، وقد حُفِرَتِ الحفر التي ستتلقاها بالفعل. لكنَّ الأشجار لن تزرع الآن وقد اقتربتُ من مغادرة **الكرنك**، وستفيد الحفر أن تكون قبورًا لمخلوقاتي الحبيبة. بلغ الوقت منتصف الظهيرة قبل أن أنتهي من القبر الأخير، لكنَّ سخطي لم يهُن،

وإن لم يكُن بوسعي تحصيل انتقامي الكامل بعد، فيمكنني على الأقل منح نفسي تجربة لمحة عنه.

كان الإبريق بجوار سريري لا يزال محتويًا بعض الحليب المحمَّض، فحملته بين يدي، وحاولت التفكير بطريقة تمكنني من إيصاله إلى مطابخ الوزير الأعظم. ستكون سقياه من الكأس نفسها ملائمة أيما ملاءمة، رغم معرفتي في صميم قلبي أن الفكرة عقيمة، فالسيد **إنتف** أمكر بكثير من أن يُنال منه بهذه السهولة، وقد أعنتُه بنفسي على ابتكار النظام الذي يستخدمه ليؤمن نفسه من السم والاغتيال. وإضافة إلى ذلك، سيكون محترسًا احتراسًا خاصًّا الآن. عليَّ أن أصبر، لكنَّ الصبر مستحيل، بيد أنني وإن لم يكُن بمقدوري قتله بعد، يمكنني تسديد دفعة أقل بوصفها عُربونًا لما أعتزم أن يحدث.

انسللت من أحد الأبواب الجانبية لمهاجع الصبية إلى الشارع وأنا لا أزال حاملًا الإبريق القاتل، ولم أضطر إلى الابتعاد حتى وجدت حلابًا محاطًا بقطيع من المعزى، وبينما أنتظر، جرَّد الضروع المنتفخة لإحداها من الحليب الدسم مالئًا الإبريق حتى شفته. أيًا كان من حضَّر السُّم، فقد استخدم ما يكفي لقتل نصف سكان **الكرنك**، وعرفتُ أن ما ظل في الإبريق أكثر من كافٍ لغايتي.

كان أحد حراس الوزير الأعظم يتسكع في باب غرفة **راسفر**، وأثبت لي وضع السيد **إنتف راسفر** تحت الحماية أنه لا يزال قيِّمًا لديه، وأن خسارة ملازمه الشخصي ستغيظه إن لم تضايقه جديًا.

تعرفني الحارس ولوَّح لي أن أدخل إلى غرفة المرض التي تشبه رائحتها رائحة الزريبة. كان **راسفر** راقدًا في سريره القذر، ممرقًا بعرقه، لكنني عرفت مِنْ توِّي أن جراحتي نجحت، ذلك أنه فتح عينيه وسبَّني بوَهن. لا بدَّ أنه كان على يقين لا ريب فيه من تعافيه الآتي حتى لم يعد في حاجة إلى تملقي.

دمدمَ في وجهي: «أين كنت أيها المسخ معدوم الخصى؟ (مقويًا عزيمتي ومحررًا إياي من بقايا أي شفقة شعرتها ناحيته)، إنني في ألم مبرح منذ حفرتَ جمجمتي، أي صنف من الأطباء أنت...!».

وأعقب ذلك المزيد من الصنف نفسه، ما تظاهرت بتجاهله، بينما أفكُّ الضمادة الوسخة عن محيط رأسه كان اهتمامي أكاديميًا صرفًا في معاينتي الجرح الصغير الذي تركه المثقب في جلدة رأسه، إذ إنها عملية أخرى نُفذت تنفيذًا مثاليًا، وشعرتُ ببعض الأسف المهني أنها ستضيع هدرًا.

- أعطني شيئًا يخفف الألم أيها الخصي!

حاول **راسفر** إمساكي من صدر غلالتي، لكنني كنت أسرع منه وتراجعتُ عن متناوله.

أثرتُ جلبةً إذ خضخضت بضع بلورات من الأملاح غير الضارة من قارورة زجاجية في زبديته، ثم زدتها حليبًا من إبريقي.

بينما أضع الزبدية قريبةً من يده قلت له: «إذا ما صار الألم أشد من المحتمل، فهذا سيخففه». حتى في هذه المرحلة، عجزتُ عن حمل نفسي على إعطائه إياها مباشرة.

رفع نفسه على أحد مرفقيه ومد يده إلى الزبدية ليكرعها، وقبل أن تمسها أصابعه، دفعتها بقدمي بعيدًا عن متناوله. ظننتُ في تلك اللحظة أنها مجرد رغبة بإطالة الانتظار، وشعرتُ بالتشفِّي إزاء شقائه عندما انتحب قائلًا: «أيها الطبيب **تايتا**، أعطني الجرعة. دعني أشرب. إن الألم في رأسي يكاد يُجنّنني».

- فلنتكلم قليلًا أولًا أيها الطبيب **راسفر**. أسمعت أن السيدة **لوستريس** قد طلبتني هدية فراقها من السيد **إنتف**؟

فكشَّر بي رغم ألمه.

- أحمق أنت إن تظن أنه سيتركك تذهب. إنك ميت.

- الكلمات نفسها التي استخدمها السيد **إنتف**. (سألته بلطف) هل ستحدُّ عليَّ يا **راسفر**؟ أستبكي عليَّ عندما أرحل؟ (فأخذ يقهقه، ثم توقف وألقى نظرة إلى الزبدية).

- بطريقتي الخاصة، لطالما كنتُ مُولعًا بك بعض الشيء. والآن أعطني الزبدية.

فسألته: «كم كنتَ مولعًا بي عندما خصيتني؟» ورفع نظره إليَّ.

- لا يمكن أنك ما زلت تكنُّ الضغينة بسبب ذلك، فقد مضى وقت طويل عليه، وأيضًا، لا يمكنني عصيان أوامر السيد **إنتف**. تعقَّل يا **تايتا**، وأعطني الزبدية.

- كنت تضحك وأنت تبترني. لِمَ ضحكتَ؟ أكنتَ مستمتعًا إلى هذه الدرجة؟

هزَّ كتفيه ثم جفل إزاء الألم الذي أنزلته به الحركة.

- أنا رجل فكِه، أضحك دائمًا. بربك يا صديقي القديم، قل إنك تسامحني وأعطني الزبدية.

وكزتها ناحيته بقدمي، فمدَّ يده وقبض عليها، بحركات لا تزال غير متسقة، وبينما يرفعها إلى فمه بشرَه اندلقت بضع قطرات من فوق حافتها.

لم أدرك ما كنتُ موشكًا أن أفعله حتى وثبت وضربت الزبدية من يده، فخبطت بالأرض من دون أن تنكسر، وتدحرجت إلى الركن مطرطشةً الحليب على الجدار.

حدقت إلى **راسفر** وحدق إليَّ، وأفزعني غبائي وضعفي. لو أن رجلًا استحق الموت بعذاب السم قبلًا، فهو هذا الرجل. لكنني آنذاك رأيتُ ثانيةً جثث حيواناتي الملتوية المتبعثرة على الشرفة، وعرفتُ لم عجزتُ عن ترك **راسفر** يشرب، فالشيطان وحده قادر على ارتكاب فعلة كهذه، وإنني أحترم نفسي أكثر بكثير من الانحدار إلى حقارة المُسمِّم.

رأيتُ الفهم يبزغ في عيني **راسفر** الداميتين، وهمس: «سُم، كانت الزبدية مسممة».

- لقد أُرسِل إليَّ من طرف السيد **إنتف**.

لا أعرف لمَ أخبرته بهذا، ربما كنت أحاول عذر نفسي عن الشناعة التي كدتُ أرتكبها. ولا أعرف لِمَ كنت أتصرف بهذه الغرابة، لعل آثار المتاهات كانت لا تزال مستبدة بي. بينما استدرت متجهًا إلى الباب ترنحتُ بعض الشيء.

فبدأ **راسفر** بالضحك من خلفي، بصوتٍ خفيض في البداية ثم أعلى، حتى بدت الضحكات الراعدة القوية تهزُّ الجدران. وجأر: «إنك أحمق أيها الخصي. كان ينبغي لك فعلها. كان ينبغي لك قتلي، ذلك أنني على يقين الآن من أنني سأقتلك، بقدر يقيني من وجود خُرم بين ردفيَّ».

ومثلما توقعت، كانت مولاتي **لوستريس** لا تزال نائمة عندما رجعتُ إلى غرفتها، فقعدت أسفل سريرها، منتويًا انتظارها حتى تفيق وحدها، غير أن جهود اليوم والليلة الماضيين القاسية كانت أكثر مما يمكنني احتماله، فتراخيت وغططت في النوم، ملتفًا على نفسي مثل جروٍ فوق البلاط.

***

أفقتُ تحت الاعتداء، إذ ضرب شيءٌ ما جانب رأسي ضربة قوية حتى إنني نهضتُ واقفًا قبل أن أصحو تمامًا، وأصابتني الضربة التالية على كتفي لاسعة إياي كالدبور.

صرخت بي مولاتي: «لقد خدعتني! لم تتركني أموت»، وضربت بالمروحة ثانيةً. كانت مروحتها سلاحًا مرعبًا، مقبضها مصنوع من خيزران بضعف طول ذراعي، والعرف في أعلاها يضم ريش نعام مصنوع من الفضة الصلبة. من حسن الحظ أنها كانت لا تزال مترنحة من تأثير الدواء والنوم الزائد، ما جعل تصويبها تائهًا، فغطستُ تحت ضربتها، ودارت بفعل عزم دورانها لتنهار على سريرها ثانيةً.

ثم ألقت المروحة وانفجرت بالبكاء: «أردتُ أن أموت، لمَ لم تتركني أموت؟».

مر بعض الوقت قبل أن أتمكّن من الاقتراب منها ولفُّ إحدى ذراعي حول كتفها لأواسيها، فسألتني: «هل آلمتُكَ يا **تايتا**؟ لم أضربك قبلًا قطُّ».

هنأتها تهنئة حزينة: «كانت محاولتك الأولى جيدة جدًا، وفي الحقيقة إنك ماهرة في الضرب حتى إنني لا أظنك في حاجة إلى المران عليه أكثر». (ودلكت جانب رأسي بطريقة مسرحية، فابتسمَت من وراء دموعها).

- أيها المسكين تايتا. إنني أعاملك معاملة سيئة جدًّا بالفعل، لكنك تستحقها. لقد خدعتني. أردتُ الموت وعصيتَني.

رأيتُ أن الوقت قد حان لتغيير الموضوع: «مولاتي، أحمل أروع الأنباء لك، لكن عليكِ أن تعديني بأن لا تخبري أحدًا بها، ولا حتى خادماتك». منذ أن تعلمَت الكلام، لم تستطع الصمود أمام سر، لكن أي امرأة تصمد؟ يكفيها الوعد بسرٍّ حتى يتشتت انتباهها، وقد أجدى ذلك نفعًا ثانية.

حتى وفؤادها مفطور، وخطر الانتحار يتدلى فوقها، تنشّفت دموعها الأخيرة وأمرتني: «أخبرني!».

كنت قد جمَّعت مؤخرًا مخزونًا مقبولًا من الأسرار أنتقي منه، وتوقفت لحظةً لأقرر خياري. ما كنت لأخبرها بتسميم حيواناتي بالطبع، ولا بلمحي **تانوس**، ذلك أنني أحتاج إلى شيء يبهجها لا شيء يمعن في إغمامها.

- ذهبت البارحة إلى غرفة نوم الفرعون وكلمته لنصف الليل.

ارتفعت الدموع إلى سطح عينيها ثانية.

- آه يا **تايتا**، أكرهه. إنه عجوز قبيح. لا أريد أن أضطر إلى...

لم أرِد المزيد من تلك الحالة المزاجية، ففي لحظات ستنتحب ثانية، لذا عاجلتها قائلًا: «لقد أعملتُ المتاهات من أجله»، وحظيت بكامل انتباهها من

فورًا، فسيدتي لوستريس مفتونة تمامًا بقدراتي التنبؤية، ولولا الأذى الذي تحمله المتاهات على صحتي، لجعلتني أعملها كل يوم.

صارت مشدودة: «أخبرني! ماذا رأيت؟». لم تعُد في رأسها فكرة انتحار، وكل حزنها صار منسيًا. كانت لا تزال صغيرة وبريئة حتى إنني شعرت بالخزي إزاء تحايُلي، رغم أنه لمصلحتها.

- لقد راودتني أعجبُ الرؤى يا مولاتي. لم أرَ صورًا بهذا النقاء قطُّ، وبصيرةً بهذا العمق...

- أخبرني! ولتعلم أنني سأموت تشوُّقًا إن لم تخبرني فورًا!

- عليك الإقسام على السرية أولًا. يجبُ أن لا تعرف أي نفسٍ أخرى بما رأيته، فهذه شؤون دولة ولها عواقب وخيمة.

- أقسم. أقسم.

- لا يمكننا الاستخفاف بهذه القضايا...

- تكلم يا تايتا. إنك تعاكسني الآن. آمرك بأن تخبرني في هذه اللحظ أو، أو، (واضطربتُ بحثًا عن تهديد لتضغط عليّ به) أو سأضربك ثانية.

- جيد جدًا. أنصتي لرؤياي: رأيتُ شجرة كبيرة على ضفة النيل، وفوق قمة الشجرة يجلس تاج مصر.

- الفرعون! الشجرة هي الملك. (فهمَت من فورها، وأومأتُ برأسي) أكمل يا تايتا، أخبرني ببقيتها.

- رأيت النيل يعلو ويهبط خمس مرات.

- خمس سنوات، مرور خمس سنوات! (وصفقت بيديها تحمُّسًا، كم تحب حل أحاجي أحلامي).

- ثم التهم الجراد الشجرة، وطاحت واستحالت غبارًا.

حدَّقت إليّ، عاجزةً عن نطق الكلمات، لذا تكلمت بالنيابة عنها.

- في غضون خمس سنوات، سيموت الفرعون، وتصيرين امرأة حرة. حرة من استعباد أبيك. حرة في الذهاب إلى تانوس، من دون رجل يمنعك.

- إن كنت تكذب عليّ، فكذبك أكثر وحشية من أن أحتمله. أرجوك أخبرني إن ما قلت حقيقة.

- إنه حقيقة يا سيدتي، لكن ثمة المزيد. رأيت رضيعًا صبيًا، ابنًا، وشعرتُ بحبي يتدفق إلى الطفل، وعرفتُ أنك أمه.
- من الأب؟ من كان أبو طفلي؟ أوه يا تايتا، أخبرني أرجوك.
- في الحلم، عرفت بيقين قاطع أن الأب تانوس. (كان هذا أول انحراف عن الحقيقة سمحت لنفسي به، لكن مرة ثانية، يعزيني اعتقادي أنه في مصلحتها).

ظلت صامتة وقتًا طويلًا، لكن أشرق وجهها بوهج داخلي كان كل المكافأة التي يمكنني طلبها أبدًا. ثم هَمَسَتْ أخيرًا..

- يمكنني الانتظار خمس سنوات، فقد كنتُ مستعدة لانتظاره إلى الأبد. سيكون صعبًا، لكنْ يمكنني انتظار تانوس خمس سنوات. كنت على صواب في عدم تركي أموت يا تايتا، فموْتي إهانة في وجه الآلهة.

ساندني ارتياحي، وشعرتُ باطمئنان أنني سأتمكن من توجيهها بأمان في خلال كل ما يخبئه المستقبل.

***

عند فجر اليوم التالي، أبحر الأسيطيل الملكي جنوبًا إلى الكرنك. ومثلما وعد الملك، كانت مولاتي لوستريس وكل حاشيتها على متن أحد القوادس الصغيرة السريعة من سرب الجنوب.

جلست مع مولاتي على النمارق تحت الظلة التي نصبها القبطان خصوصًا لها على سطح الكوثل، ورحنا ننظر خلفنا إلى مباني المدينة المبيَّضة بالجبس المتلألئة تحت الخيوط البرتقالية المحمرّة الأولى للشمس الآخذة بالصعود.

كانت تذكر تانوس بقلق مثلما فعلت مراتٍ كثيرة منذ أبحرنا.

- لا يمكنني التفكير في مكان ذهب إليه. هل بحثت عنه في كل مكان؟
- في كل مكان. قضيت نصف الصبيحة أطوف المدينة وأحواض السفن. لقد اختفى. لكنني تركت رسالتك مع كراتاس، وثقي أن كراتاس سيوصلها إليه.
- خمس سنوات من دونه، أستمرُّ أبدًا؟

***

مرت رحلة صعود النهر مرورًا سارًا بالحد الكافي في أيام طويلة متروّية قضيناها جالسين على ظهر الكوثل نتحادث أنا ومولاتي. ناقشنا كل تفصيل من تفاصيل ظروفنا المتغيرة بعمق بالغ، ودرسنا كل ما قد نتوقعه ونأمل حدوثه في المستقبل.

شرحت لها كل تعقيدات حياة البلاط وتقاليدها ونظامها، ورسمت لها سلاسل السطوة والنفوذ الخفية، وعددت لها جميع الذين في مصلحتنا أن نصادقهم والذين يُؤمَن تجاهلهم، وشرحتُ لها القضايا الراهنة، وموقف الفرعون من كل منها، ثم انصرفت إلى مناقشة شعور المواطنين وحالتهم المزاجية معها.

أدين بمعظم هذه المعرفة لصديقي **أتون**، الحاجب الملكي، إذ بدا أن كل سفينة هبطت مجرى النهر في السنوات الاثنتي عشرة الماضية من جزيرة **إلفنتين** إلى **الكرنك** حملت لي رسالة منه تعج بهذه التفاصيل الجذابة، وحملت بالمقابل دلالة ذهبية على امتناني لصديقي.

كنت مصممًا على أن نصير قريبًا في مركز البلاط وتيار السلطة. لم أدرّب مولاتي طيلة هذي السنين لأرى السلاح الذي وضعته في ترسانتها يصدأ من قلة الاستعمال، فقد كان حاصل مؤهلاتها ومواهبها العديدة هائلًا بالفعل، وظللت أضيف إليه بصبر كل يوم رغم ذلك. كانت صاحبة ذهن فطِنٍ لا يكلّ، وحالما ساعدتها في طرح المزاج الأسود الذي هدَّد بتدميرها، عادت كعهدي بها، مستعدة لتلقي إرشادي، واستغللتُ كل فرصة وسعني اقتناصُها لأشعل طموحها وتوقها إلى تولي الدور الذي خططته لها.

سرعان ما وجدتُ أن أنجع الطرق لتطويع اهتمامها وتعاونها هي اقتراح أن كل هذا يصب في خير **تانوس** ومصلحته في آخر الأمر، فأشرت إليها: «إن ملكتِ نفوذًا في البلاط تزيد قدرتك على حمايته، فقد سلَّمه الملك مهمة يقترب إنجازها من المستحيل، **وتانوس** في حاجة إلينا لينجح، وإن فشل، فأنت الوحيدة القادرة على إنقاذه من الحكم الذي حكمه الملك عليه».

- ماذا يمكننا أن نفعل لنساعده على أداء مهمته؟ (حظيتُ بانتباهها كله فور ذكري **تانوس**)، أخبرني بصدق، أيمكن لأي رجل سحق الصُّردان؟ أليست عمليّة صعبة جدًّا، حتى على رجل **كتانوس**؟

أطلقت عصابات الأشرار التي روَّعت المملكة العليا على نفسها اسم الصُّردان، تيمنًا بالصُّرَد الشرس، وصُرَد النيل طائر أصغر من الحمامة،

مخلوق صغير وسيم له صدر وعنق أبيضان وظهر ورأس أسودان، ينهب أعشاش الطيور الأخرى ويقدم عرضًا شنيعًا من جثث ضحاياه المحزنة بتعليقها على أشواك شجرة السَّنط. اسمه بالعامية الطائر السفَّاح.

استخدمه الأشرار في البداية على أنه اسم مشفَّر لإخفاء هويتهم وستر وجودهم، لكن منذ أن صاروا جبابرة وشجعان جدًّا، اعتمدوه علنًا، وغالبًا ما استخدموا ريشة الطائر السفاح السوداء والبيضاء شعارًا لهم.

كانوا في أول الأمر يتركون الريشة على باب منزل سرقوه أو على جثة أحد ضحاياهم، لكنهم في هذه الأيام صاروا أشاوس ومنظمين حتى إنهم قد يرسلون أحيانًا ريشة إلى ضحية مطلوبة تحذيرًا، وهذا في معظم الحالات كل ما يلزم لحمل الضحية على دفع أكثر من نصف ما يملكه في العالم، ذلك أنه أفضل من أن يُسلَب كلُّه، وتؤخذ زوجاته وبناته ويُغتصبن، ويُلقى وأبناؤه في حطام منزلهم المحترق فوق ذلك.

كررت مولاتي: «أترى أنه من الممكن **لتانوس**، حتى مع سلطة ختم الباز، إتمام مهمة الملك؟ لقد سمعتُ أن جميع عصابات الصُّردان في المملكة العليا تأتمر بأمر رجل واحد، رجل يسمونه *آخ-سِت*، أي أخو سِت. أهذا صحيح يا **تايتا**؟».

فكرتُ قليلًا قبل أن أجيبها. لا يمكنني إخبارها بعد بكل ما أعرفه عن الصردان، ذلك أنني لو أخبرتها، فسأضطر إلى الكشف عن طريقة وصول هذه المعرفة إلى جعبتي، وفي هذه المرحلة لن يكون ذلك خيرًا لها، ولا لمقامي. ربما يحين وقت هذا الإفصاح لاحقًا.

فوافقتها بحذر: «سمعتُ بهذه الشائعة أيضًا. يبدو لي أن **تانوس** لو وجد هذا الرجل، *آخ-سِت*، وبطش به، فسينهار الصردان، غير أن **تانوس** ليس في حاجة إلى مساعدة أي أحد سواي، يمكنه منحه إياها».

نظرَت إليَّ نظرة ماكرة، وسألت بإلحاح: «كيف يمكنك مساعدته؟ وماذا تعرف عن هذا الأمر؟».

كانت لمَّاحة ويصعب خداعها، وشعرتُ من فورها أنني أخفي شيئًا عنها، فاضطررت إلى التراجع عن خفق الجناح واللعب على وتر حبها **لتانوس** وثقته بي:

- من أجل تانوس، لا تزيدي في السؤال الآن. ائذني لي بفعل ما يمكنني لمساعدته على إتمام المهمة التي أوكله الفرعون بها وحسب.

- أجل، بالطبع لا بدَّ لنا من فعل كل ما في قدرتنا. أخبرني الآن كيف يمكنني المساعدة.
- سأظل معك في بلاط جزيرة **إلفنتين** لتسعين يومًا، لكن بعدئذٍ عليك منحي الإذن بالذهاب إليه...

فقطاعتني.

- لا، لا، إن كنت قادرًا على مساعدة **تانوس** فعليك الذهاب فورًا.

كررتُ بعناد: «تسعون يومًا»، وهي مدة المهلة التي كسبتها لها، ورغم تمزقي بين طفليَّ العزيزين هذين، يظل التزامي الأول لمولاتي.

كنت أعرف أنني لن أقدر على تركها وحيدة في البلاط من دون صديق أو مرشد، وكنت أعرف أيضًا أنني يجب أن أكون معها عندما يرسل الملك في طلبها في الليل أخيرًا.

قلت: «لا يمكنني تركك بعد، لكن لا تقلقي، لقد تركتُ رسالة **لتانوس** مع **كراتاس**. سيكونان في انتظاري، وقد شرحت **لكراتاس** كل ما يجب إتمامه قبل عودتي إلى **الكرنك**». ما كنت لأخبرها بالمزيد، وقلة من يمكنهم مضاهاتي في البلادة والمواربة عندما أعتزم ذلك.

لم يُبحر الأسطيل إلا في النهار، فلا مهارات الأميرال **نمبِت** الملاحية ولا راحة الملك وحاشيته يمكنها مجابهة العبور الليلي، لذا كنا نرسو كل ليلة، فتبرُز غابة من مئات الخيمات على ضفة النهر. ودائمًا ما اختار الخدم الملكيون أعذب البقاع للتخييم، في الغالب في أيكة من شجرات النخيل أو في جرزٍ من نبكٍ ساترٍ قريب من معبد أو قرية يمكننا استجلاب الإمدادات منها.

كان البلاط كله لا يزال في مزاج احتفالي، وعومل كل مخيم معاملة النزهة، فقام الرقص والعربدة في ضوء النيران، فيما تتآمر البطانة وتتغازل في الظلال. وأُنشئت تحالفات كثيرة سياسية وشهوانية في ثنايا تلك الليالي المنعشة، المعطرة بعبير الفاكهة من الأراضي المروية على طول النهر وهواء الصحراء الأشد لذعًا الهابِّ من أراضٍ أبعد.

استغللت كل لحظة أفضل استغلال لمصلحتي ومصلحة مولاتي، فهي إحدى السيدات الملكيات الآن بالطبع، لكن ثمة بالفعل عدة مئات منهن، ولا تزال زوجة حديثة العهد جدًّا. قد يُغير بعد نظر السيد **إنتف** مكانتها

المستقبلية، لكن شريطة أن تحمل بابن الفرعون، وهذا في يدي في الوقت الراهن.

كان الفرعون يطلبني كل عشية تقريبًا، بعد أن ننزل إلى الشاطئ، ظاهريًا لمتابعة علاج قوبائه، لكن في الحقيقة لمراجعة تحضيرات إنجاب وليّ عهد للتاج المزدوج. وبينما يراقب باهتمام، حضّرت مشروبي المقوّي للفحولة والذكورة من قرن الخرتيت المسحوق وجذر اللفاح، الذين مزجتهما بحليب الماعز الدافئ والعسل. وبعد أن شربه، عاينتُ القضيب الملكيّ وفرحتُ لمولاتي عندما وجدته لا يحوز الطول ولا الحجم اللذين يتوقعهما المرء من إله، وذهبتُ إلى أن مولاتي، حتى في عذريتها، ستتمكن من التماشي مع أبعاده المتواضعة من دون مشقة مزيدة. بطبيعة الحال، كنت معتزمًا فعل كل ما في طاقتي لتفادي تلك اللحظة المروّعة، لكن إن عجزتُ عن درئها، فإنني عازم على تسهيل عبورها إلى امرأة.

بعد أن وجدت الملك سليمًا وإن كان عاديًا في جزئه الأسفل، أوصيته بكمادة من دقيق الذرة ممزوجًا بزيت الزيتون والعسل تُطبق على القضيب الملكي ليلًا قبل النوم، ثم انصرفت إلى مداواة القوباء. ابتهج الملك أشد الابتهاج أنّ مرهمي عالج مشكلته في غضون الأيام الثلاثة التي وعدته بها، وتعززت سمعتي الطبية التي كانت محترمة بالفعل. تبجّح الملك بإنجازي أمام مجلس وزرائه، وفي خلال أيام صرت تحت طلب هائل في البلاط. ثم عندما ذاع أنني لستُ معالجًا وحسب، بل منجم استشاره الملك بنفسه أيضًا، فاقت شعبيتي أي حدود.

كل مساء كانت تزور خيمتنا سلسلة من الرسل حاملي الهدايا الثمينة لمولاتي من السيدة فلانة أو السيد فلان يتوسلون إليها أن تسمح لي بزيارتهم من أجل استشارة، ولم نلبِّ إلا الذين نريد تحسُّن معرفتنا بهم. وعندما أدخل خيمة سيد نبيل ومتنفذ، وبينما يرفع تنورته ويلفها حول خصره لأفحص بواسيره، يصير الإطراء على مولاتي وجذب نظر مريضي إلى فضائلها العديدة مسألة يسيرة.

سرعان ما اكتشفت سيدات الحريم الأخريات أنني ومولاتي **لوستريس** نغني ثنائيات جميلة معًا، وأن بإمكاننا تأليف أشد الأحاجي إثارة وقص أكثر القصص تسليةً. كنا مطلوبين عند جميع أهل البلاط، ولا سِيَّما بين أطفال

الحريم، ومتعني ذلك متعة خاصة، فإن وُجد شيء أحبه أكثر من الحيوانات، فهو الأطفال الصغار.

وعاجلًا، وصل خبر زيادة شعبيتنا إلى الفرعون، وهو المسؤول عنها في المقام الأول، وحفز ذلك اهتمامه بمولاتي، هذا إن لم يكن شديدًا بما يكفي بالفعل. في صباحات عديدة عند الإبحار، كانت مولاتي تُستدعى إلى متن الصندل الملكي لتمضي النهار بصحبة الملك، وفي معظم الأمسيات، كانت تتعشى بدعوة ملكية على مائدته، وتمتِّعه هي والجماعة المجتمعة بظرافتها الطبيعية وبهائها الطفولي، ولا شك أنني كنت حاضرًا بحذر على الدوام. وعندما لم يرسل الملك في طلبها ليلًا لإجبارها على تلك الأهوال الشنيعة الغامضة التي رسمتها في مخيلتها، بدأت تلين مشاعرها تجاهه.

كان الفرعون **ماموس**، تحت مظهره الكالح، رجلًا طيبًا وخلوقًا. سرعان ما أدركت مولاتي **لوستريس** هذا، ومثلي، بدأ تُعجب به بعض الشيء، وقبل أن تبلغ جزيرة **إلفنتين**، صارت تعامله كما تعامل عمًّا مُقربًا، فتجلس بلا تكلف على ركبته لتحكي له قصة، أو تلعب معه لعبة رمي العصي على ظهر الصندل الملكي، وكلاهما يتورَّد وجهه إجهادًا ويضحك مثل الأطفال. أسرَّ لي **أتون** أنه لم يرَ الملك على هذا القدر من الجذالة قطُّ.

رأت الحاشية كل هذا ولاحظته، وسرعان ما تعرَّفتها على أنها مفضلةُ الملك، وصارت خيامنا تستقبل زوارًا آخرين في الأمسيات، أولئك الذين لديهم طلبٌ يريدون أن تجذب مولاتي انتباه الفرعون إليه، وكانت الهدايا التي عرضوها أثمن من المقدَمة لخدماتي حتى.

كانت مولاتي قد رفضتْ هدية أبيها من أجل عبد واحد، لذا بدأت رحلتها إلى الشرق طفرانة، معتمدة على مدخراتي المتواضعة، لكنها قبل نهاية الرحلة، لم تجمع ثروة وفيرة وحسب، بل قائمة طويلة أيضًا من الخدمات التي يدين بها أصدقاؤها الجدد الأثرياء والمتنفذون. وحافظتُ على سجل دقيق لكل هذه الأصول.

لستُ متحجرًا حدَّ التظاهر بأن مولاتي **لوستريس** ما كانت لتحصِّل هذا الاعتراف من دون مساعدتي، فلا بدَّ أن يجعلها جمالها وذكاؤها وطبيعتها العذبة الدافئة مفضلةً تحت أي ظروف، إنما أقترح فقط أنني تمكنت من جعل ذلك أسرع قليلًا وأضمن قليلًا.

جلب نجاحنا معه بعض المثالب، فكالعادة، ثمة غيرة أولئك الذين شعروا أنهم أُزيحوا عن حظوتهم لدى الفرعون، وثمة أيضًا مسألة اهتمام الفرعون الشهوانيّ المتنامي بمولاتي، الذي استفحل بسبب فترة العفّة التي فرضتُها عليه.

وذات مساء في خيمته بعد أن أعطيته مسحوق قرن الخرتيت، أسرَّ إلي: «إن علاجك هذا يا تايتا، ناجعٌ أشد ما يكون حقًا. لم أشعُر بهذه الرجولة مذ كنت شابًا، قبل تتويجي وتأليهي بكثير. عندما أفقتُ هذا الصباح، كان القضيب متصلبًا تصلُبًا مُفرحًا حتى إنني أرسلتُ في طلب **أتون** ليشاهده، فتأثر بشدة وتمنى أن يُحضر مولاتك من دون تأخير».

خوفتني هذه الأنباء بكل معنى الكلمة، فاكتسيتُ أقسى تعابيري وهززتُ رأسي ثم امتصصتُ الهواء من بين أسناني وسأسأت لأبدي استهجاني: «إنني ممتن لسداد رأيك في عدم الموافقة على اقتراح **أتون** يا صاحب الجلالة، إذ كان ممكنًا لذلك أن ينقض كل جهودنا. إن كنتَ تريد ابنًا، فلا بدَّ لك من اتباع حميتي بخالص الدقة».

أثار ذلك فيَّ إدراك عجالة مرور الوقت، وقُرب انتهاء أيام المهلة التسعين، فبدأتُ تهيئة مولاتي لليلة التي سرعان ما سيصرُّ الفرعون عليها.

عليَّ أولًا تجهيز عقلها، وشرعتُ بذلك بالإشارة إلى أن الأمر محتوم، وأنها إن كانت تتمنى أن تعيش أكثر من الملك وتذهب في النهاية إلى **تانوس**، فستُضطر إذن إلى الإذعان لمشيئة الملك. وهي فتاة متعقّلة دائمًا.

تنهّدتْ: «فستُضطرُّ إذن إلى أن تشرح لي ما الذي يتوقعه مني بالضبط يا تايتا». ولم أكُن أفضل دليل في هذا المجال، فخبرتي الشخصية خبرة عابرة، لكنني تمكنتُ من إيضاح الأساسيات ومن جعلها تبدو عادية جدًا حتى لا أخوّفها بغير مبرر.

«هل سيؤلمني؟» أرادت أن تعرف، وقد عاجلتُ بطمأنتها.

- إن الملك رجل طيب، ولديه خبرة جمّة مع الفتيات الصغيرات، وأثق بأنه سيعاملك برقّة. سأحضّر لك مرهمًا من شأنه تسهيل الأمور كثيرًا، ادهنيه كل يوم قبل النوم، وسيفتح المدخل. فكري في قرارتك أن **تانوس** سيمرُّ من البوابة نفسها يومًا ما، وأنك تفعلين هذا لترحبي به لا بسواه.

حاولتُ أن أظل الطبيب اللامبالي وأن لا أشعر بمتعة شهوانية في ما عليَّ فعله لمساعدتها، ولتسامحني الآلهة، لكنني فشلتُ في قراري، إذ كانت أعضاؤها الأنثوية مثالية حتى إنها تبزُّ أجمل الزهور التي زرعتُها في حديقتي على الإطلاق، ولم تحمل وردة صحراء أوراقًا أبدَع قطُّ. عندما دهنت المرهم عليها، طرحت نداها العذب الخاص، وكان ملمسه أزلقَ وأنعم من أي بلسمٍ يمكنني اختراعه.

بينما تورَّدت وجنتاها وصار صوتها مبحوحًا همست: «حتى هذه اللحظة، كنت أحسب أن هذا الجزء مني ما له إلا غاية واحدة. ما سبب أنني، عندما تفعل ذلك، أتوق توقًا لا يحتمل إلى تانوس؟».

كانت تثق بي ثقةً مطلقة، ولا تفهم هذه الأحاسيس غير المألوفة إلا قليلًا، حتى إنني احتجتُ إلى توظيف جميع أخلاقياتي بصفتي طبيبًا لأستمر بالعلاج للمدة المطلوبة فقط، غير أنني لم أنم إلا متقطِّع النوم في تلك الليلة، تطاردني أحلام المُحال.

***

مع تقدمنا في الإبحار إلى أعماق الجنوب، ضاقت أحزمة الأراضي الخضراء على جانبي النهر، وبدأت الصحراء تحشر نفسها تلقاءنا. في بعض الأماكن، داست جروف الجرانيت الأسود الجهماء الحقول المخضوضرة بأقدامها واحتشدَت قريبةً حدَّ أنها تدلَّت فوق مياه النيل المحتقنة.

كان أوحش هذه الخوانق النهرية معروفًا باسم بوابات حابي، حيث تُخفق المياه لتصير جِبلَّة جامحة وعنيدة على حين تتلاطم عابرة الثغرة في الجروف العالية.

عبرنا بوابات حابي، ووصلنا أخيرًا إلى إلفنتين، كُبرى مجموعةٍ عظيمة من الجزر المتراصفة على عنق النيل، حيث تعصر التلال الفجَّة تدفُّقه وتجبره على عبور الخوانق.

كان لإلفنتين شكل قرش هائل يلاحق سرب الجزر الأصغر إلى الخوانق، والصحارى المتخاصمة على جانبي النهر متمايزة في اللون والشخصية، فعلى الضفة الغربية، تمتد الكثبان الصحراوية برتقالية محمومة ووحشيَّة مثل البدو الذين كانوا البشر الوحيدين القادرين على النجاة بينها، والصحراء العربية إلى الشرق قاتمة ورمادية كامدة، مرصَّعة بالتلال السوداء المتراقصة

كالحُلم في سراب القيظ. لم تشترك هذه الصحارى إلا في شيء واحد فقط، وهو أن كلتيهما قاتلة للرجال.

وأي تناقض مبهج كانته جزيرة **إلفنتين**، المغروسة مثل جوهرة دريّة خضراء في تاج النهر الفضي. سُميت بهذا الاسم بسبب الجلاميد الجرانيتية الرمادية الناعمة المتكتلة على طول شاطئها مثل قطيع من الجسئيات[1]، وأيضًا من حقيقة أن تجارة العاج المستجلب من أراضي **كوش البربرية** وراء الجنادل قد تركزت لألف عام في هذا المكان.

انبسط قصر الفرعون على معظم الجزيرة، وألمح المهرجون إلى أنه قد اختار بناءه هنا في أقصى جنوب مملكته ليكون في أبعد نقطة ممكنة عن المدّعي الأحمر في الشمال.

أمّن حيّز الماء العريض المحيط بالجزيرة إياها من هجوم العدو، لكنْ طافت بقية المدينة على كلتا الضفتين الرئيستين، فبعد **طيبة**، شكل غرب **إلفنتين** وشرقها معًا أكبر مدن المملكة العليا وأكثرها سكانًا، فكانت منافسًا جديرًا **لمنف**، عاصمة المدّعي الأحمر في المملكة السفلى.

وكما لا يُرى في أي مكان آخر في مصر كلها، كانت **إلفنتين** مغطاةً بالأشجار التي جلب النهر بذورها على ظهر ألف فيضان سنوي، وضربت جذورها في التربة الطفالية الخصبة التي نُقِلَتْ نفسها عبر المياه المتواصلة.

في زيارتي الأخيرة إلى **إلفنتين**، وقتما أرسلني سيدي **إنتف** لأتفحّص مناسيب مياه النهر بصفته حارس المياه، قضيت شهورًا عدة على الجزيرة، وبمساعدة كبير البساتنة، فهْرستُ أسماء جميع النباتات في حدائق القصر وتورايخها الطبيعية، لذا تمكنت من ذكرها لمولاتي. فيها شجرات تين لم يُرَ مثيلها في أي مكان آخر بمصر، ذلك أن ثمارها لا تنمو على الأغصان، بل على الجذع الرئيس، وجذورها متشابكة ومتلويّة كأصلات تتزاوج، وفيها شجرات دم التنين التي يسكب لحاؤها عندما يُجرح نُسغًا أحمر قانئًا، وفيها دلب كوشي ومئة صنف آخر نشرَت مظلة خضراء وارفة على الجزيرة الصغيرة الجميلة.

بُنِيَ القصر الملكي على الجرانيت الصلب الذي يهجع تحت التربة الخصبة ويشكل هيكل الجزيرة العظمي. كثيرًا ما عجبت أن كرّس كل ملوكنا، السطر

---

(1) الجسئيات: الثدييات من ذوات الجلد السميك كالفيل والخرتيت. (المترجم).

الطويل من فراعنة خمسين أسرة الذي يمتد لأكثر من ألف سنة مضت، معظم حياته وكنزه لبناء قبور فسيحة وأزلية من الجرانيت والرخام، بينما قنعوا أن يعيشوا حيواتهم في قصور جدرانها من طين وأسقُفها من قش، فقد كان هذا القصر، بالمقارنة مع المعبد الجنائزي الفاخر الذي كنت أبنيه للفرعون ماموس في الكرنك، بناءً متواضعًا جدًّا، وأهانت نُدرة الخطوط المستقيمة والتساوق كلًّا من غريزتَي الرياضيِّ والمعماريِّ فيَّ.

أظنُّ أن هذه المعمعة مترامية الأطراف من جدران وأسقف الطين الأحمر المائلة بزوايا غريبة حملت سحرًا فلّاحيًّا ما، ومع ذلك حكّتني جلدي لأخرج مسطرتي وخيط الشاقول.

حالما نزلنا إلى الشاطئ ووجدنا المسكن الذي خُصِّص لنا، ظهرت جاذبية إلفنتين بصورة أوضح. أُنزِلنا بطبيعة الحال في الحريم المسوَّر على الحافة الشمالية للجزيرة، لكن أكد حجم منزلنا وأثاثه مكانتنا المتميِّزة، وليس عند الملك وحسب، بل عند حاجبه كذلك، فأتون هو من أجرى التخصيص، ومثل الآخرين، ثبَتَ أنه أعزل أمام سحر مولاتي الطبيعي، وصار أحد أوقح معجبيها.

وضِع تحت إمرتنا دزينة غرف فيَّاحة ومهوَّاة لها فناؤها ومطبخها الخاصين، وفي السور الرئيس، قاد باب جانبي مباشرة إلى مرسى حجري على ضفة النهر. اشتريتُ في ذاك اليوم الأول نفسه زورقًا مسطح القاع يمكننا استخدامه لصيد السمك وطيور الماء، وأبقيته راسيًا في المرسى.

أما عن بقية منزلنا، فمهما يُحتمَل أنه كان مريحًا، لم أكن ولا مولاتي راضيين، وشرعنا من فورنا في تحسينه وتجميله. وبمعاونة صديقي القديم كبير البساتنة، خطَّطتُ حديقتنا الشخصية الخاصة في الفناء وزرعتها، ثم أقمتُ مجلسًا سقفه من قش لنجلس تحته في حر النهار، وأبقيتُ صقريَّ الحرِّيْن مربوطيْن إلى مجثميهما هناك.

نصبتُ على المرسى شادوفًا يرفع دفقًا مائيًا مستمرًا من النهر وجهتُه عبر مواسير خزفية إلى حديقتنا المائية بزنابقها وأحواض أسماكها، وما يطوف عن الأحواض يُصرف إلى مجرى ضيق. مشَّيتُ هذا المجرى عبر جدار مخدع مولاتي، مرورًا بزاوية محجوبة من الغرفة ليخرج من الجانب القصيِّ، ومن هناك يرجع إلى تيار النيل الرئيس. ثم نحتتُ مقعدًا من خشب الأرز المعطَّر جعلتُ في سُدته فتحة، ووضعتُه فوق المجرى، فيأخذ تيار الماء الذي لا يتوقف معه أي شيء يسقط من قاعدة المقعد. فرحت مولاتي بهذا الابتكار،

وقضت جاثمة على المقعد وقتًا أطول بكثير مما يلزم حقًا لإكمال المهمة التي صمم لأجلها أصلًا.

كانت جدران مسكننا مجرد طين أحمر، فصممنا مجموعة من الرسوم الجدارية، إذ رسمتُ المخططات ونقلتها إلى الجدران ثم لوَّنت مولاتي وإماؤها التصاميم. كانت التصاميم مشاهد من ميثولوجيا الآلهة، رفقة مناظر أسطورية مأهولة بالحيوانات والطيور العجيبة. وبالطبع، استخدمتُ مولاتي **لوستريس** نموذجًا لصورة **إيزيس**، لكن أثمة عجب في أن صورة **حورس** كانت محوريَّة في كل اللوحات، أو أنه صُوِّرَ بإصرار من مولاتي بشعر أحمر ذهبي ويبدو مألوفًا أُلفةً مذهلة؟

أحدثت هذه الرسوم ضجةً في جميع أجزاء الحريم، وتناوبت الزوجات الملكيات على زيارتنا ليشربن الشراب ويَرَيْن اللوحات. أطلقنا صرعة جديدة، وألحَّ عليَّ لأقدم المشورة في تجديد معظم الشقق الخاصة في الحريم، مقابل أجر مناسب بالطبع. وبهذه العملية، كسبنا العديد من الأصدقاء الجدد بين السيدات الملكيات وأضفنا إضافة كبيرة إلى خزينتنا المالية.

سمع الملك سريعًا بالتزيينات وجاء شخصيًا ليعاينها، فأخذته مولاتي في جولة في غرفتها، ولاحظ الفرعون مقعدها المائي الجديد الذي كانت مولاتي فخورة به حتى إنها عندما طلب منها تبيان طريقة عمله لبَّت طلبه من دون تردد، فجثمت عليه تُقَهْقِه وأرسلت دفقًا رنانًا إلى المجرى.

كانت لا تزال بريئة حدَّ أنها لا تدرك الأثر الذي يوقعه هذا العرض في نفس زوجها، وعرفتُ من مُحيَّاه أن أي محاولة قد أجريها لأؤجله أكثر من الأيام التسعين الموعودة يُرجح أن تكون شاقة.

بعد الجولة، بينما جلس الفرعون تحت سقف المجلس وشرب كأسًا من النبيذ ضحك من قلبه بصوت عالٍ على بعض نوادر مولاتي، واستدار أخيرًا إليَّ: «عليك أن تبني لي حديقة مائية ومجلسًا كهذه بالضبط يا تايتا، إلا أنها أكبر بكثير، وبينما تشتغل بها، يمكنك أن تصنع لي مقعدًا مائيًا كذلك».

عندما صار جاهزًا للمغادرة أخيرًا، أمرني بالمشي معه بعض الطريق وحدنا، ظاهريًا لمناقشة الحديقة المائية الجديدة، لكنني أعقل من تصديق ذلك، وما إن غادرنا الحريم حتى بدأ يُلِحُّ عليَّ.

- حلمتُ البارحة بمولاتك، وعندما أفقتُ، وجدتُ أن مَنيِّ قد اندلق على الأغطية. لم يحدث لي هذا منذ كنتُ صبيًا. لقد بدأت ثعليتُك هذه تحتل أفكاري نائمًا وصاحيًا، ولا شك عندي أنني قادر على إنجاب صبيٍّ منها، وأننا لا يجب أن نؤجل أكثر. ما رأيك أيها الطبيب، ألستُ مستعدًّا للمحاولة؟

- أنصحك أشد النصح أن تلتزم بالأيام التسعين يا صاحب الجلالة، فإجراء المحاولة قبل ذلك حماقة. (ونعتُ رغبة الملك بالحماقة أمر خطر، لكنني مستقتل لاحتوائها) من الطائش أكثر الطيش إفساد جميع فرصنا في النجاح من أجل فترة قصيرة جدًّا من الزمن. (رجحت كفتي في النهاية، وتركته ومظهره أكلح من أي وقت مضى).

عندما رجعتُ إلى الحريم، حذرتُ مولاتي من نوايا الملك، وهيأتُها مليًّا لتقبُّل المحتوم حتى إنها لم تظهر ضيقًا زائدًا، فقد باتت بحلول هذا الوقت مذعنة تمامًا لدورها بصفتها مفضَّلة الملك، وسهل عليها تحمُّله بسبب وعدي بأن أسرها هنا على جزيرة إلفنتين له أجل مُسمى. ولأكون منصفًا، لا يمكن في الحقيقة أن يوصف مُقامنا على الجزيرة بأنه أسر، فنحن المصريين أكثر الشعوب تحضُّرًا على وجه الأرض، وقد سمعتُ عن شعوب أخرى، كالحوريين والكوشيين والليبيين مثلًا، تعامل نساءها وبناتها بغاية القسوة والشذوذ.

يجعل الليبيون الحريم سجنًا حقيقيًا تعيش النساء فيه حيواتهن بأكملها من دون أن يلمحن ذكرًا حيًّا إلا الخصيان والأطفال. يُقال حتى إن ذكور الكلاب والقطط ممنوعة من مرور البوابات، فهوسهم التملُّكي عنيفٌ إلى هذه الدرجة.

والحوريون أسوأ من ذلك، فلا يحبسون نساءهم ويجبرونهن على تغطية أجسادهن من الكاحل إلى الرسغ وحسب، بل يُجبرونهن أيضًا على التحرك مُلثَّمات، حتى داخل حدود الحريم، وهكذا لا تحط أعين على وجه امرأة إلا عيني زوجها.

أما قبائل كوش البدائية فأسوأ الجميع، ذلك أنهم حالما تبلغ نساؤهم، يختنونهن بأشد الأساليب وحشية، إذ يقصون البظر وشفري المهبل الداخليين لانتزاع مركز المتعة الجنسية حتى لا يُغريهن أن يَزِغنَ عن أزواجهن.

قد يبدو هذا شاذًّا إلى درجة تتحدى التصديق، لكنني رأيتُ نتائج هذه العملية الوحشية بأم عيني، فثلاث من إماء مولاتي لم يقبض عليهن النخّاسون إلا بعد أن بلغن وخضعن لسكاكين آبائهن. عندما عاينت الفتحات الفاغرة

المغضّنة بالندوب التي تُركت لديهن، قزّت نفسي، وأُهينت غرائزي بصفتي معالجًا إهانة عميقة إزاء هذا التشويه لتحفة الآلهة، الجسد البشري. وكان ما لاحظته أن هذا الختان لا يحقق غايته، إذ يبدو أنه يحرم الضحية من أكثر العرائك الأنثوية ابتغاءً، ويتركها باردة ويقظة وقاسية، فتصير وحشًا معدوم الجنس.

بيد أننا نحن المصريين نحترم نساءنا، وإن لم نعاملهنَّ معاملة الأكْفاء، فإننا نعاملهن بعناية على الأقل، فلا يجوز لزوج ضرب زوجته من دون الرجوع إلى القاضي، ويقتضي واجبه القانوني أن يكسيها ويطعمها ويعيلها بما يتماشى مع منزلته في المجتمع. ولا تُحبس زوجة من زوجات الفرعون، أو من زوجات أحد النبلاء، في الحريم، بل يحق لها، إن كان معها مرافقة ملائمة من حاشيتها، أن تمشي خارجًا في شوارع المدينة أو الريف، ولا تُجبر على إخفاء مفاتنها، بل يمكنها، بحكم الموضة الراهنة وهواها الخاص، أن تجلس إلى مائدة عشاء زوجها بوجه مكشوف وصدر عارٍ، وتسلي أصحابه الذكور بالمحادثة والغناء.

يحق لها أن تمتلك بملكية خاصة عبيدًا وأرضًا وثروة منفصلة عن أملاك زوجها، رغم أن ما تحمله من أطفال ينتمون إليه وحده. يحق لها صيد الأسماك، وتطيير الصقور، بل حتى ممارسة الرماية، على أنها ممنوعة من الجهود الذكورية كالمصارعة والمسايفة. ثمة بعض النشاطات المحظورة عليها، حظرًا عادلًا في الحقيقة، كممارسة المحاماة والعمارة، لكنَّ الزوجة النبيلة شخص متنفِّذ، ولها حقوق قانونية وجاه، وبطبيعة الحال، ليست كمثل المحظيات أو زوجات عامة الرجال، اللاتي يتمتعن بما يتمتع به العجل أو الحمار من حقوق.

وهكذا كنت ومولاتي أحرارًا بالتجول في الخارج لاستكشاف المدينتين التوءمتين على كل من ضفتي النيل والريف المحيط. وسرعان ما صارت سيدتي **لوستريس** محبوبة في شوارع **إلفنتين**، وصار العامة يجتمعون حولها استجداءً لمباركتها وكرمها، ويهللون لبهائها وجمالها، مثلما كانوا يفعلون في بلدها **طيبة**. كانت تأمرني بأن أحمل على الدوام كيسًا كبيرًا من الكعك والحلويات لتحشو بها خدَّي كل صعلوك نقابله يبدو لها في حاجة إلى التغذية، وبدا أننا حيثما ذهبنا نُحاط برعيل زاعق راقص من الأطفال.

دائمًا ما بدت السعادة على مولاتي إذا جلست في باب كوخ فقير مع ربَّتِه، أو تحت شجرة في حقل فلاح مزارع، تنصتُ لكروبهم وشكاويهم وتحملها إلى الفرعون في أول فرصة سانحة، وفي الغالب ما كان يبتسم ابتسامة رحيمة ويوافق على طريقة الإصلاح التي تقترحها. وهكذا وُلدت سُمعتها على أنها نصيرة العامة. كانت عندما تمر حتى في أتعس وأفقر أرباع المدينة، تترك خلفها ابتسامات وضحكات.

وفي أيام أخرى، كنا نصطاد السمك معًا من زورقنا الصغير في معازل البحيرات التي يخلقها فيضان النيل، أو ننصب فخاخنا للبط البري. كنت قد صنعتُ قوسًا خاصة لمولاتي تناسب قوتها، بالطبع ليست ندًّا للقوس العظيمة لاناتا التي صممتها لتانوس، لكنها ملائم لصيد طيور الماء الذي ننشد، ومولاتي لوستريس قنَّاصة أحسن من معظم الرجال الذين راقبتهم عند درايا الرماية، يندر جدًّا أن تطلق سهمًا لا يضطرني إلى الغطس عن الزورق والسباحة لجلب جثة البطة أو الإوزة.

متى ما خرج الملك ليمارس الصيد بالباز، كانت مولاتي تُدعى للحضور، وبينما نحاذي أطراف أحواض البردي كنت أمشي خلفها بصقريَّ الجُؤين على ذراعي، وحالما يعلو مالكٌ حزينٌ بخفق أجنحةٍ ثقيل من بركة محتجبة بين القصب، تأخذ أحد صقريَّ وتقبِّل رأسه المقلنس، ثم تهمس له: «طِر سريعًا ودقيقًا يا جميلي!»، ثم تنزع قلنسوة الصقارة لتكشف عينيه المفترستين الصفراوين، وتطلق القاتل الصغير المُدهش عاليًا.

كنا نراقب مسحورين الصقر يحلِّق عاليًا فوق الطريدة، ثم يكسر ذينك الجناحين المِنجليين وينقض بسرعة تجعل الريح تغنِّي فوق ريشه الأرقش، وكان هول التصادم يصلنا من مسافة مئتي خطوة، فتلطخ مسحة من الريش الأزرق الباهت أزرق السماء الأدكَن، ثم تتبدد تبدُّد الدخان في نسيم النهر، إذ يثب الصقر على طريدته بمخالب معقوفة لينزل داكًّا الأرض بها، فتصرخ مولاتي انتصارًا وتركض بسرعةِ صبي لتجلب الطير، وتجود عليه بالثناء وتدلِّله، ثم تطعمه رأس المالك الحزين المقطوع.

أحب كل مخلوقات الماء والأرض والجو، وتكنُّ لها مولاتي الشعور نفسه، وطالما تساءلت لمَ إذن يتأثر كلانا برياضات المطاردة هذه؟ جرت في ذلك ولم أجد جوابًا. ربما الجواب ببساطة أن الرجل، والمرأة كذلك، أعتى مفترسات الأرض، ونشعر بقرابة إلى الصقر، بجماله وسرعته، فقد منحت الآلهة الصقرَ

المالك الحزين والإوزة طرائد مستحقة له. وبالطريقة نفسها، مُنح الإنسان الهيمنة على جميع مخلوقات الأرض. لا يمكننا إنكار هذه الغرائز التي وهبتنا إياها الآلهة.

كنت قد سمحتُ لمولاتي بمرافقتي **وتانوس** إلى غارات المطاردة وصيد السمك منذ سن مبكرة، عندما نَمَت القوة والطاقة اللازمتين لتظل معنا. ذلك أن سيدي **إنتف** كان موافقًا على خروجي إلى الصيد مع **تانوس** الشاب، ربما ليستر كراهيته لخصمه، سيد **حاراب**.

قبل ذلك بسنوات، كنت استوليتُ أنا **وتانوس** على عرزال مهجورٍ لصياد سمك اكتشفناه على حافة المستنقع تحت **الكرنك**، وجعلناه كوخ صيدنا الخاص. لم تفصل بين العرزال وحدود الصحراء الحقيقية إلا مسافة وجيزة، لذا كان أمامنا من هذه القاعدة المريحة خيار الصيد من البحيرة أو صيد الطيور البرية أو صقارة ذلك الطائر النبيل، الحباري العملاق، في الصحراء المفتوحة.

في البداية، استاء **تانوس** من تطفل هذه البنت الخرقاء ذات السنوات التسع، النحيلة مسطحة الصدر كالصبيان، على عالمنا الخاص. لكنه سرعان ما اعتاد حضورها بل حتى رأى أنه من المريح وجود شخص ينفذ مهماته ويؤدي الأعمال الصغيرة المملة في المخيم.

وهكذا، شيئًا فشيئًا، التقطت **لوستريس** معرفة العالم الخارجي وحكمته حتى باتت تعرف كل سمكة وطير باسمها الصحيح، وتطوّع الحربون أو قوس الصيد بمهارة مناسبة. وفي آخر الأمر صار **تانوس** فخورًا بها كأنه هو الذي دعاها للانضمام إلينا في المقام الأول.

كانت معنا في تلال الصخر الأسود فوق وادي النهر يوم صاد **تانوس** قاتل الماشية. كان الأسدُ ليثًا عجوزًا مُذنَّبًا له لبدة سوداء تموج في الريح مثل حقل من الذرة عندما يمشي، وصوتٌ كرعد السماوات. بينما أطلقنا زمرة كلاب صيدي عليه وتبعناها كانت تنبح على الليث صعودًا من الحظيرة المجاورة للنيل حيث قتل آخر عجوله، ثم حاصرته عند رأس شِعب صخري، فركّز علينا حالما صعدنا ونحّى الكلاب بهجومه من بينهم.

وبينما يركض ناحيتنا ينخر ويزأر، وقفت مولاتي بعزمٍ ثابت خلف كتف **تانوس** اليسرى بخطوة واحدة فقط، وقوسها الصغيرة الضعيفة موتورة عن آخرها. بالطبع، كان **تانوس** قاتل الوحش إذ أرسل من القوس العظيمة **لاناتا**

سهمًا صافرًا إلى حلقه الفاغر، لكن رأى كلانا شجاعة السيدة **لوستريس** تظهر بكامل مداها.

أظنه مرجحًا أن **تانوس** في ذلك اليوم أدرك حقيقة مشاعره تجاهها، بينما في ذهن مولاتي، ظل الصيد والمطاردة مرتبطين إلى الأبد بصور حبيبها وذكراه، وصارت مذ ذاك الحين صيادة شرهة، وتعلمَت من **تانوس** ومني أن تحترم الطريدة وتحبها، لا أن تثقل كاهلها بالذنب عندما تمارس حقوقها التي منحتها إياها الآلهة على مخلوقات الأرض الأخرى: أن تنتفع بها لحمل المتاع، وتستهلكها طعامًا، وتطاردها رياضةً.

لعلنا مهيمنون على الوحوش، لكنَّ الرجال والنساء جميعهم في الوقت نفسه ماشية الفرعون، ولا يمكن لأحدهم مخالفته. في اليوم التسعين تمامًا، أرسل الملك **أتون** ليحضر مولاتي.

***

لأجل صداقتنا ومشاعره الشخصية لمولاتي، أعطاني **أتون** إنذارًا مبكرًا، فتمكَّنت من إجراء تحضيراتي الأخيرة قبل وصوله بوقتٍ كافٍ.

مرَّنت مولاتي للمرة الأخيرة على ما يجب أن تقوله بالضبط للملك وكيف تتصرف معه، ثم دهنتُ لها المرهم الذي ادَّخرتُه لهذه المناسبة. لم يكُن مزلِّقًا وحسب، بل حوى أيضًا خلاصة عشبة أستخدمها على المرضى لتسكين آلام الأسنان وغيرها من الآلام الطفيفة، ذلك أنها تتمتع بخاصية تخدير الأغشية المخاطية الحساسة في الجسم.

ظلَّت شجاعة حتى لحظة ظهور **أتون** في باب مخدعها، ثم هجرتها شجاعتها والتفتت إليَّ بدموعٍ طافحة من جفنيها: «لا يمكنني الذهاب وحدي، إنني خائفة. تعالَ معي أرجوك يا تايتا». كانت شاحبة تحت مكياجها الذي كسوتها إياه بحذر شديد، وسيطرت عليها نوبة ارتعاش حتى اصطكَّت أسنانها البيضاء الصغيرة اصطكاكًا ناعمًا.

- تعلمين أن هذا غير ممكن يا مولاتي، فقد أرسل الفرعون في طلبك، وهذه المرة لا يمكنني مساعدتك.

وآنذاك مد **أتون** يد العون لها، فاقترح بصوته الأعجف: «ربما يمكن لتايتا الانتظار في استراحة غرفة نوم الملك، معي. فبرغم كل شيء، هو الطبيب

الملكي، وقد تُطلب خدماته». وقفت مولاتي على رؤوس أصابعها لتقبّل خدّه البدين.

وهمسَت له: «إنك طيب جدًّا يا **أتون**»، فاحمرَّت وجنتاه.

بينما نتبع **أتون** عبر متاهة الممرات إلى جناح الملك أحكمت سيدتي **لوستريس** قبضتها على يدي، واعتصرتها بشدة في الاستراحة، ثم تركَتها وذهَبت إلى باب مخدعه، وهناك توقفَت قليلًا ونظرت إليَّ خلفها. لم تبدُ أجمل أو أصغر أو أهشَّ من هذا من قبل، وانفطر قلبي، لكنني ابتسمتُ لها لأشجعها، فالتفتت عني وعبرَت الستائر، وسمعتُ دمدمة صوت الملك عندما رحَّب بها وردَّها الرقيق.

أجلسني **أتون** على مقعد إلى طاولة خفيضة، ثم فتحَ لوح **الباو**[1] بيننا من دون أن ينطق بكلمة، فلعبتُ بلا انتباه، ورحت أحرك الحجارة المستديرة المصقولة بين الطاسات المحفورة في اللوح الخشبي. فاز **أتون** بثلاث لعبات سريعة على التوالي، وكان من شديد الندرة أن يغلبني قبلًا، لكنني مشتت بفعل الأصوات التي أسمعها من الغرفة خلفي، رغم أن انخفاضها يمنعني من فهم الكلمات الفعلية.

ثم سمعت بوضوح تام مولاتي تقول، كما دربتها بالضبط: «أرجوك يا صاحب الجلالة، ترفق بي. أتوسل إليك، لا تؤذِني»، وكانت المناشدة مؤثرة حتى إن **أتون** سعل بِلين ونفَّ في كمه، بينما كان جُلُّ ما يمكنني فعله هو منع نفسي من أن أثب واقفًا وأهرع عبر الستارة لأشدها بعيدًا.

ساد الصمت لبعض الوقت هناك، ثم علت صيحة ناشجة واحدة شقَّت روحي، وعاد الصمت.

جلستُ **وأتون** رابضين على لوح **الباو**، ولم نعُد نتصنع اللعب. لا أعرف كم طال انتظارنا، لكن لا بدَّ أن الوقت كان قد بلغ الهزيع الأخير من الليل عندما سمعت أخيرًا صوت رجل عجوز يشخر من خلف الستارة، فنظر **أتون** إليَّ وأومأ برأسه، ثم نهض متثاقلًا.

وقبل أن يصل إلى الستائر، تباعدت، وخرجت مولاتي من بينها فجاءت مباشرة إلى حيث أجلس وهمست: «خذني إلى المنزل يا **تايتا**».

---

(1) الباو: لعبة ذهنية ذائعة في دول شرق أفريقيا، وهي من عائلة المنقلة. (المترجم).

ومن دون تفكير، حملتها بين ذراعي، فلفّت ذراعيها حول عنقي وأرخت رأسها على كتفي، مثلما كانت تفعل في طفولتها. حمل أتون سراج الزيت ليضيء طريق عودتنا إلى الحريم، وتركنا عند باب مخدع مولاتي. ثم مددتُها على السرير، وبينما يغلبها النعاس عاينتها، فرأيتُ بعض الدم، محض لطخة على ذينك الفخذين الحريريين، لكن النزف نفسه توقف.

سألتها برفق: «أتشعرين بأي ألم يا صغيرتي؟»، ففتحت عينيها وهزّت رأسها.

ثم ابتسمَت لي ابتسامة مفاجئة للغاية، وغمغمت: «لا أعرف فيم كل الهرج والمرج، في النهاية، لم يكن أسوأ بكثير من استخدام الكرسي المائي، ولم يطُلْ أكثر من ذلك أيضًا»، وانطوتْ في كرةٍ على نفسها وغطت في النوم من دونِ أن تصدر صوتًا آخر.

كدتُ أنتحب ارتياحًا. لقد ساعدتها جميع تحضيراتي والأعشاب المخدرة التي طبقتها على اجتياز الليلة من دون ضرر لا لجسدها ولا لروحها العذبة.

***

خرجنا في الصباح إلى الصقارة كأن شيئًا مشؤومًا لم يحدث، ولم تذكر مولاتي الموضوع إلا مرة في خلال النهار، إذ سألتني بتفكُّر عندما تنزهنا على ضفة النهر: «أسيكون الأمر مشابهًا مع تانوس في رأيك يا تايتا؟».

فطمأنتُها: «لا يا مولاتي، فأنت وتانوس تحبان بعضكما بعضًا، وسيكون الأمر مختلفًا. ستعيشين أروع لحظة في حياتك كلها».

فهمسَت: «أجل، أعرف في صميم قلبي أن هذا ما يجب أن يكون»، ونظر كلانا لا شعوريًا إلى الشمال على امتداد النيل، ناحية الكرنك البعيدة وراء الأفق.

رغم أنني أعرف خير المعرفة أين يكمن واجبي تجاه تانوس، كانت الحياة على الجزيرة عَدنيَّة، وكنت مستمتعًا بالصحبة الحصرية لمولاتي حتى إنني أجلت مغادرتي بحجة أنها لا تزال في حاجة إليَّ. وفي الحقيقة، مع أن الفرعون ظل يرسل في طلبها ليلة بعد ليلة، تمتَّعت مولاتي بمسحة صلابة ولَدانة ووُهِبَت غريزة النجاة بأقصى سعتها، فتعلمَت على جناح السرعة إرضاء الملك، لكن في الوقت نفسه البقاء صحيحة وغير متأثرة عاطفيًا بالأمر.

لم تكُن في حاجتي مثلما تانوس في حاجتي، وفي الواقع، كانت هي من بدأ بالنق عليَّ لأتركها على الفنتين وأهبط النهر ثانيةً.

ظللت أماطل حتى رجعنا إلى القصر ذات مساء بعد نهار طويل في الحقل رفقة الملك، وحرصت أن مولاتي استحمت ومُدت وجبة عشائها أمامها قبل أن أمضي إلى مسكني.

عندما دخلت غرفتي، ملأ شذى المانجو الناضجة والرمَّان الهواء، إذ وضِعَت في وسط أرضية الغرفة سلة كبيرة مغلقة عرفتُ أنها ملأى بفاكهتَي المفضلتين هاتين، ولم تفاجئني رؤيتها هناك، فلا يوم يمر من دون أن تُرسَل هدايا لي ولمولاتي من أحد يبتغي خدماتنا.

تساءلت من كان هذه المرة، وامتلأ فمي لعابًا عندما أترعت نفحة أخرى من الشذى منخريَّ، ذلك أنني لم آكل منذ الظهيرة. وعندما رفعتُ الغطاء المَجدول ومددت يدي إلى أحمر الرمانات وأنضجها، سقطت الفاكهة وتدحرجت على الأرض، ثم سمعتُ صوتَ فحيح حاد انطرحت بعده كرة سوداء عظيمة من اللفائف المتلوية والحراشف اللامعة من السلة واندفعَت على ساقيَّ.

وثبتُ إلى الخلف، لكن بسرعة غير كافية، فقد أصاب فك الثعبان المفتوح كعب صندلي بقوة كادت تفقدني توازني، ونُفِثَتْ غيمة سُمٌّ من النابين المعقوفين. نقع السائل النقي القاتل جلد كاحلي، لكنني تدبرت بوثبة أخرى أن أتجنب الضربة الثانية التي أعقبت الأولى مباشرة، ورميت نفسي على الجدار في الركن القصي من الغرفة.

واجهتُ الصلَّ وواجهني عبر عرض الغرفة. كان نصف جسده ملتفًّا على نفسه، لكن الجزء الأمامي منه منتصب بارتفاع كتفي، وعنقه متوسِّع ليظهر الشرائط البيضاء والسوداء العريضة التي تزخرفه. ومثل زنبقة سوداء مرعبة تتمايل على عنقها، راح يراقبني بتينك العينين الخرزيتين اللامعتين، وأدركت أنه يقف بيني وبين الباب الوحيد للغرفة.

صحيحٌ أن بعض الصِّلال تُربى حيواناتٍ أليفة، فيُسمح لها بالتجول في المنزل كأنه منزلها، وتلجم الجرذان والفئران التي تكتسح البناء، وتشرب الحليب من إبريق وتصير أليفة كهرَّة، لكن ثمة ثعابين أخرى من هذا النوع تُدرب بوسائل التعذيب والتهييج لتصير أدوات قاتلة في يد القتَّال. ولم يساورني الشك في ما يخص الصنف الذي أقف أمامه الآن.

أخذت أمشي جانبيًا على الجدار، محاولًا الالتفاف من حوله للوصول إلى بر الأمان، فهجم عليّ، وكانت فجوة فكيه بلون أصفر سقيم شاحب ومحالق السم تسيل من رأسي نابيه. بينما أقفز مبتعدًا عنه وأنكمش على نفسي في ركني ثانيةً صرختُ ذعرًا لا إراديًا، لكنه استعاد توازنه سريعًا بعد الضربة وارتفع منتصبًا بيني وبين الباب. كنت أعرف أن حويصلاته السُّمِّيَّة مشحونة بسمٍّ يكفي لقتل مئة رجل قوي. وبينما أراقبه، انحلَّ نصفه الأسفل تدريجيًا وبدأ بالانسلال على الأرض ناحيتي ورأسه الحانق مرتفع وعينيه الساطعتين الصغيرتين القظيعتين معلّقتين عليّ.

رأيت مرة إحدى هذه الأفاعي تسحر طيرًا حتى إنه لم يُبدِ أي محاولة هروب من دنوها المتعرج، بل رقد أمامها بمظهر استسلام جليّ، وشُللت بالطريقة نفسها، فبينما ينزلق الموت ناحيتي وجدتُ نفسي عاجزًا عن الحركة أو الصراخ.

ثم رأيت فجأة حركةً وراء الصلِّ المتمايل، إذ ظهرت مولاتي لوستريس في الباب وقد استدعتها صرختي المذعورة الأولى، فعثرت على صوتي ثانية، وصرختُ بها: «حذار! لا تقتربي أكثر!».

لم تولِ تحذيري اهتمامًا، بل استوعبت المشهد بلمحة واحدة، ولو أنها تأخرت أو ترددت لحظة، للدغني الثعبان لدغة ثالثة وأخيرة. كانت مولاتي جالسة إلى عشائها عندما سمعت صيحتي، وهي الآن واقفةٌ ببطيخة نصف مأكولة في يد وسكين فضية في الأخرى، وتفاعلت بغريزة صيادة خاطفة.

كان تانوس قد علمها ترك أسلوب الرشق الأخرق ثنائي المفاصل الطبيعي عند الأنثى، فقذفت البطيخة التي تحملها بقوة ودقة رامي رماح مُدرَّب، وأصابت الصلَّ في قفا عنقه المنبسط، وللحظة عابرة طوَّحته الضربة على الأرض المبلطة. ومثلما يُرخي وتر القوس لحربي، رفرف الثعبان منتصبًا وأدار رأسه المُروَّع ناحية مولاتي ثم أسرع إليها عبر الغرفة في هجوم مباشر.

تحررتُ من الغيبوبة في آخر الأمر، وانطلقت قُدمًا لأساعدها، لكنني كنتُ أبطأ مما يجب، فقد تأرجح الثعبان إلى الأمام مرتكزًا على ذيله، وصوَّب عليها باسطًا فكيه عن آخرهما حتى رُشَّ السم من نابيه المنتصبين رذاذًا باهتًا نقيًا. قفزت مولاتي للخلف بسرعة غزال ورشاقته أمام انقضاضة فهد صيَّاد، وأخطأ الصلُّ هدفه، وللحظة، ألقاه الزخم ممددًا عند قدميها، منبسطًا على كامل طوله البرّاق المحرشف.

لا أعرف ما الذي تلبَّسها، لكنها لم تفتقر إلى الشجاعة قطُّ. وقبل أن يتمكن الصلّ من النهوض، قفزت إلى الأمام ثانية وحطَّت بتيتك القدمين الصغيرتين الدقيقتين المصندلتين على قفا رأسه، مثبتةً إياه على البلاط بكامل وزنها.

لعلها تأمّلت أن تُهَشِّم عمود الأفعى الفقري، لكنها كانت بثخانة رسغها ولَدانة سوط راسفر، ورغم أن رأسها مثبَت، خفقت ببقية جسمها رافعة إياه ثم أنزلته وبدأت تلفه على ساقيها. لو كانت امرأة أقل وعيًا وجسارة مكانها، لربما حاولت الفرار من ذلك العناق الكريه، ولو فعلت مولاتي ذلك لماتت، ذلك أن لدغة الموت ستتلو لحظة تحرُر رأس الصلّ مباشرة.

بدلًا من ذلك، أبقت كلتا قدميها مغروستين بحزم على الثعبان المتلوِّي، وفردَت ذراعيها لتتوازن، ثم صرخت: «ساعدني يا تايتا!».

كنتُ في منتصف طريقي عبر الغرفة بالفعل، فغطستُ بطولي كله وأقحمتُ يديَّ في لفائف جسد الثعبان المتلاطمة حول ساقيها. رحت أتلمَّس طوله المتعرِّج حتى وصلت إلى حيث يضيق قبل العنق، وقبضْت عليه مُحكمًا قبضتي بأصابع متشابكة.

صرخت: «قبضت عليه! (وكاد رعبي واشمئزازي من هذا الكائن البارد المحرشف الذي يعاني في قبضتي يشوِّشني)، قبضت عليه! ابتعدي عنا! قفي بعيدًا».

قفزت مولاتي إلى الخلف مطيعةً إياي، ونهضتُ واقفًا متشبثًا بالكائن بقوة مسعورة، محاولًا إبقاء فكيه الفاغرين بعيدين عن وجهي. رفرف بذيله للخلف وجرْح محيط كتفي وعنقي، وبينما أتشبث برأسه هدد بخنقي، وبقبضته هذه صار له نفوذ عليَّ، وكانت قوته مرعبة. وجدت نفسي عاجزًا عن تثبيته، رغم أن كلتا يدي محكمة الشد على حلقه، وأخذ يحرر رأسه بالقوة تدريجيًا، شادًا إياه بعناد من بين أصابعي. وأدركتُ أنه سينقضُّ على وجهي المكشوف فور تحرره من قبضتي.

صرختُ: «لا يمكنني تثبيته»، لنفسي أكثر منه لسيدتي **لوستريس**، وكنتُ حاملًا إياه على طول ذراعي، بينما تنبض موجات القوة فيه أخذ بشد نفسه ناحية وجهي والاقتراب أكثر من عيني في كل لحظة، وينقبض ويضيِّق لفاته حول حلقي دافعًا رأسه لينسل من بين أصابعي.

ورغم ابيضاض براجمي من شدة قبضي عليه، اقترب الصل من وجهي حتى إنني رأيتُ النابين يرتعشان في سقف فكه المفتوح عن آخره، فالصل قادر على رفع نابيه أو تسطيحهما كما يشاء، ونباه إبرتان عظميتان بيضاوان، تتفجر من رأسيهما سُحب سُمٍّ باهتة. كنت أعرف أن قطرة واحدة من ذاك السم لو دخلت عينيَّ، فستعميني، وقد يدفعني ألمها الحارق إلى حافة الجنون.

لويتُ عنق الأفعى بعيدًا عن وجهي حتى تفرِّغ رشاش سُمها في الجو، وصرخت ثانية في يأس: «نادِ أحد العبيد ليساعدني!».

فتكلمت مولاتي قريبةً من خلفي: «على الطاولة! ثبِّت رأسه على الطاولة!» وفَزِعتُ، فقد ظننت أنها أطاعت أمري وركضت تستجدي العون، لكنها كانت بجواري، ورأيتُ أنها لا تزال تبرق بسكِّين الطاولة الفضية.

ترنَّحتُ وسقطت على ركبتيَّ بجوار الطاولة المنخفضة وأنا أحمل الأفعى معي، وبجهد جهيد، تدبرتُ إنزال رأسها ووضعه على حافة الطاولة وتثبيته هناك، فصارت لوح فَرم لمولاتي تُعمل سكينها عليه، وضربَت قاعدة عنق الصلّ، وراء رأسه القبيح.

شعرت الأفعى بالجرح الأول وضاعفت كفاحها، فأرسلت لفة خلف لفة من اللحم المطاطي لتنقبض حول رأسي، وراحت دفقات هواء هسَّاسة كادت تصمنا تتطاير من ثغرتها، ليمتزج الصخب الشنيع برشات السم المتدفقة من نابيها.

كان النصل الصغير حادًّا، وانشقَّ اللحم المحرشف من تحته، فانبجس الدم الثعباني الزلِق الفاتر من فوق أصابعي، لكنَّ النصل وصل إلى العظام والعمود الفقري، وراحت مولاتي تنشُر العظام بكامل قوتها وقد غضَّن الجهد وجهها. زلَّج دم الصلِّ أصابعي، وشعرت برأسه ينزلق من بينها، ثم تحرر الثعبان، لكن في الوقت نفسه، عثرت السكين على المفصل بين الفقرات وانسلَّت عبرها فالقةً العمود الفقري.

انقطع رأس الصل إثر سكرات موته وارتخى حتى صار يتدلى معلقًا بخيط من الجلد، ورغم أنه مفصول تقريبًا عن جسده، ظل ناباه يرتعشان ويقطران سُمًّا، وأرقُّ لمسة تكفي لإدخاله جلدي. رحت أشد جسده بأصابع مسعورة دامية وتدبرتُ أخيرًا فكَّه من حول حلقي، ثم رميته على الأرض.

وبينما تراجع كلانا إلى الباب، تابعت الأفعى تلويّاتها البشعة، فراحت تنعقد وتلتف في تعاريج كروية حرشفية تنزلق إحداها فوق الأخرى.

سألتُ، عاجزًا عن رفع بصري عن سكرات موت الجثة: «هل تأذيتِ يا سيدتي؟ أدخل شيء من السُم في عينيك أو على جلدك؟».

فهمسَت: «أنا بخير، وأنت يا تايتا؟».

خوّفتني نغمة صوتها بما يكفي لأنسى كربي، ونظرتُ إلى وجهها. كان رد فعلها على الخطر قد استبدَّ بها وبدأت بالارتجاف، وكانت عيناها الخضراوين الداكنتين أكبر من أن تتناسب مع ذاك الوجه الأبيض الزجاجيّ، فاضطُرِرْت إلى إيجاد طريقة ما لأحررها من قبضة الصدمة الجليدية.

وقلت بخفَّة: «حسنًا، هذا يتدبر أمر عشاء الغد. كم أحب قطعة شهيَّة من الصل المشوي».

للحظة، نظرَت إليَّ بدهشة، ثم أطلقَت ضحكة هستيرية مدويَّة، وتعلقنا بعضنا ببعض بيأس فضحكنا حتى انسكبت الدموع على خدودنا.

***

ما كنتُ لأئتمن طباخنا عليه، لذا حضَّرتُ الصلَّ بنفسي. سلختُه وأخرجتُ أحشاءه وحشوته بالثوم وأعشاب أخرى، وحفنة من دهن الضأن من إلية كبش صغير، ثم لففته في كرة أحطتُها بأوراق الموز وغطيت الحزمة كلها بغطاء سميك من الطين الرطب، وأشعلتُ نارًا حاميةً فوق قطعة الطين، كنت قد أبقيتها متأججة طيلة النهار.

شققت في ذلك المساء كرة الطين المشوية، وملأ عبير اللحم الأبيض الغض فمينا باللعاب. ثمة أشخاص أكلوا من مائدتي يقولون إنهم لم يذوقوا طعامًا ألذَّ من الذي أحضّره قط، ومن أنا لأناقض أصدقائي؟

قدمتُ الشرائح القشرية لمولاتي مع نبيذ بجودة خمس نخلات عثر عليه أتون صدفة في مخازن الفرعون. أصرت مولاتي أن أجلس معها في الفناء تحت الظُلَّة وأشاركها الطعام، واتفقنا على أنه خير من ذيل التمساح، أو حتى من لحم أجود سمكة فرخ في النيل.

ولم نتناول مسألة هوية مرسل هدية سلة الفاكهة إليَّ إلا بعد أن أكلنا حتى شبعنا وأرسلنا بقية الطعام إلى إمائها.

حاولت أن لا أخوِّف مولاتي، وحوَّلت الأمر إلى مزحة: «لا بدَّ أنه شخص لا يحب غنائي!». لكنها لم تتشتت بسهولة.

- لا تؤدي دور المهرج معي يا تايتا، فهذا اتجاهٌ موهبتك فيه شحيحة. أظنك تعلم هويته، وأظن أنني أعلم كذلك.

حدقت إليها، غير واثق من كيفية التعامل مع ما أظنه موشك. لطالما حميتها، حتى من الحقيقة. وتساءلتُ ما عمق رؤيتها لحقيقة ما بداخلي.

قالت بحسميَّة لم تترك ردًا أو إنكارًا يمكنني تقديمه لها: «لقد كان أبي. احكِ لي عنه يا تايتا. أخبرني بكل ما ينبغي لي معرفته عنه لكنك لم تجرؤ على إخباري به من قبل».

شق الأمر عليَّ في البداية، إذ إن عمرًا من التكتُّم لا يمكن التغلب عليه في لحظة، ولا يزال إدراك أنني لم أعُد تحت نير السيد إنتف بالكامل أمرًا صعبًا. كانت هيمنته عليَّ جسدًا وروحًا منذ طفولتي عميقة عمق كرهي الدائم له، وفي داخلي صنفٌ مُلحٌّ من الولاء الضالِّ صعَّب عليَّ أن أذمَّه علنًا بحرية. حاولت محاولة واهية لتضليلها بإخبارها الخطوط العريضة فقط لنشاطات أبيها السريَّة، لكنها قاطعتني باستياء.

- بربك لا تستغبِني! أعرف عن أبي أكثر مما حلمتَ به قطُّ، وقد آن لي أن أعرف بقيته. آمركَ أمرًا مباشرًا، أخبرني بكل شيء.

فأطعتُها، وكان ما في جعبتي كثيرًا حتى إن البدر بلغ منتصف السماء قبل أن أنتهي، وجلسنا في صمتٍ وقتًا طويلًا بعد ذلك. لم أفوت شيئًا، ولم أحاول إنكار دوري في أي جزء منه أو تبريره.

همسَت أخيرًا: «لا عجب في أنه يريد موتك، فما تعرفُه يكفي لتدميره. (صمتت مدة إضافية، ثم تابعت) إن أبي وحش، فكيف يمكن أن أختلف عنه أي اختلاف؟ لمَ، وأنا ابنته، لا تتملكني غرائز شاذة مثله أيضًا؟».

- علينا أن نشكر جميع الآلهة على ذلك. لكن يا مولاتي، ألا تحتقرينني أيضًا لما فعلتُه؟

فمدَّت يدها ولمست يدي: «لقد نسيتَ أنني عرفتُك طيلة حياتي، مُنذ يوم توفيت أمي وهي تلدني. أعرفُ حقيقتك، وأعرف أن كل ما فعلتَه فعلتَه مُجبرًا، وأسامحك عليه عن طيب خاطر».

ثم نهضت واقفة وراحت تمشي مشيًا قلقًا حولة بركة الزنبق قبل أن ترجع إلى حيث أجلس.

- إن تانوس في خطر مروِّع مصدره أبي، ولم أدرك حجمه حتى هذا المساء. يجب أن يُحذَّر حتى يتمكن من حماية نفسه. عليك الذهاب إليه الآن يا تايتا، من دون أن تتأخر يومًا آخر.

فهممتُ أقول: «مولاتي...» لكنها قاطعتني بفظاظة.

- لا يا تايتا، لن أنصت لأيِ عذرٍ آخر من أعذارك المراوغة. ستغادر إلى الكرنك في الغد.

***

لذا قبل إشراقة شمس الصباح التالي، خرجتُ إلى صيد السمك، وحيدًا في الزورق، لكنني حرصتُ أن تراني دزينة من العبيد والحراس على الأقل أغادر الجزيرة.

في معزل البحيرة، فتحت كيسًا جلديًا كنتُ خبأت فيه قطًا صادقني. كان حيوانًا عجوزًا نقَّبه الجرَب، وكلتا أذنيه متقرِّحة تقرُّحًا أليمًا، وقد أمضيتُ بعض الوقت أقوِّي نفسي لأريحه من شقائه. أطعمته قطعة من اللحم النيئ دسستُ فيها خلاصة الداتورة، ثم حملته في حجري أمسِّده بينما يأكل، وخرخر لي راضيًا. وحالما انسلَّ بلا ألم إلى عالم النسيان، ذبحتُه.

رششتُ الدم على الزورق، وألقيت جثة القط حيث أعرف أن التماسيح ستتخلص منها سريعًا، ثم دفعتُ الزورق إلى التيار البطيء تاركًا حرابيني وحبالي وبقية عدتي على متنه، ورحت أخوض بين أحواض البردي إلى اليابسة.

كنا قد اتفقنا أن تنتظر مولاتي هبوط الليل حتى تدق ناقوس الخطر، فلا يعثرون على الزورق الملطخ بالدم حتى ظهر الغد، ثم يستنتجون أن تمساحًا أكلني أو أن عصابة من الصردان قتلتني.

حالما صرتُ على الشاطئ، غيرتُ ملابسي بعجالة ولبستُ زيًا جلبته معي. اخترتُ أن أنتحل شخصية كاهن من كهنة أوزيريس، فكثيرًا ما كنتُ أقلِّد مشيتهم المتكلفة وسلوكهم المغرور لمولاتي، ولم تتطلب عملية التحول إلا باروكة ولمسة مكياج والزي الصحيح. ولأن الكهنة في تنقُّل دائم، يصعدون

النهر ويهبطونه، ويسافرون من معبد إلى آخر يتسوَّلون الصدقات، أو بالأحرى يطالبون بها، على امتداد طريقهم، فلن أستثير إلا قليل الاهتمام، وربما يساعد تنكُّري على ردع اعتداءٍ من الصردان، ذلك أنهم، ولإيمانهم بالأساطير، في الغالب ما يعزفون عن التصادم برجال الدين.

دُرت حول البحيرة ودخلت بلدة **إلفنتين** الغربية من الحي الفقير. وعند أحواض السفن، اقتربتُ من قبطان عبَّارة يحمِّل شحنة من الذرة في أكياس جلدية وجرار زيتٍ فخارية، وبالقدر المناسب من الغطرسة، طالبته بعبور مجاني إلى **الكرنك** باسم الإله، فهزَّ كتفيه وبصق على سطح العبَّارة، لكنه سمح لي بالركوب، فالجميع مذعن لابتزازات الأخوية. قد يزدرون الكهنة، لكنهم يخافون نفوذهم أيضًا، الروحي منه والدنيوي، ويقول البعض إن الكهانة تتمتع بسطوة تكاد تضاهي سطوة الفرعون نفسه.

كان القمر بدرًا، وقبطان العبَّارة ملَّاح أشد بأسًا من الأميرال **نمبت**، فلم نرسُ في الليلات، وبوجود النسيم وفيضان النيل الكامل من خلفنا، عبرنا عبورًا ممتازًا ولففنا في اليوم الخامس حنية النهر لنرى **الكرنك** جاثمة أمامنا.

اضطربت معدتي عندما نزلت إلى الشاطئ، فهذه بلدتي، وكل متسوِّل ومتشرِّد فيها يعرفني خير المعرفة، وإن تعرف عليَّ أحد، فسيسمع السيد **إنتف** بذلك قبل أن أبلغ بوابات المدينة. لكنَّ تنكُّري أجدى، وبينما أسرع بطريقة عازمة وكهنوتية إلى منزل **تانوس** قرب قاعدة السرب لزمتُ الأزقة الخلفية.

وجدت بابه الأمامي مفتوحًا، فدخلتُ كأنما لي الحق بذلك، وأغلقتُه بإحكام من خلفي. كانت الغرف قليلة الأثاث قفرًا، وعندما فتشتُها، لم أجد شيئًا من شأنه منحي إشارة إلى مكانه. بدا واضحًا أن **تانوس** قد غادر منذ وقت طويل، ربما منذ غادرتُ ومولاتي **الكرنك**، فقد تخثر الحليب في الإبريق بجوار النافذة وجفَّ كالجبن الصلب، وغطى العفن الأزرق كسرة من خبز الذرة تُركت على صحن بجواره.

بحسب ما أمكنني رؤيته، فلا شيء ناقص، وحتى القوس **لاناتا** لا تزال معلقة على حمَّالته فوق سريره. أمرٌ استثنائي أن يتركها **تانوس**، فطالما كانت أشبه بامتداد لجسده. خبأتها في حُجيرة سرية تحت منامته، حُجيرة كنتُ بنيتها له عندما انتقل إلى هذا المسكن. ولرغبتي بتفادي التجوال في

المدينة في وضح النهار. بقيتُ في بيت **تانوس** لبقية تلك الظهيرة، وشغلتُ نفسي بتنظيف الغبار والقذارة المتراكمة.

انسللتُ عند هبوط الليل وذهبتُ إلى ضفة النهر، ورأيتُ من فوري أن **أنفاس حورس** راسية في مرساها، ومن الواضح أنها خاضت معارك منذ آخر مرة رأيتها فيها، وقاسَت أضرار حرب، ذلك أن جؤجؤها مهشّم والألواح الخشبية في وسطها محروقة ومفحَّمة.

لاحظتُ ببعض الفخر التملُّكي أن **تانوس** قد أجرى على بدنها التعديلات التي صممتها، إذ نتأ القرن المعدني المذهَّب من جؤجؤها، فوق سطح الماء بقليل. ومن رثاثة حاله خمَّنت أنه نفذ إعدامات عنيفة في صفوف أساطيل المدّعي الأحمر.

غير أنني لم أرَ **تانوس** ولا **كراتاس** على متنها. رأيتُ ضابطًا صغيرًا تعرفته يتولى نوبة الحراسة، لكنني نبذتُ فكرة تحيَّته، وانطلقتُ بدلًا من ذلك أجوب أكواخ البحارة حول أحواض السفن.

دلَّت حقيقة أنني استُقبلت في الحانات الرخيصة والمواخير كأنني أحد روادها على أخلاقيات كهنة **أوزيريس** وطهارتهم أيما دلالة. وفي إحدى الحانات الأرفع قدرًا، تعرفتُ قوام **كراتاس** البديع. كان يشرب ويلعب بالنرد مع مجموعة من إخوته الضباط، فلم أقترب منه، بل رحت أراقبه عبر الغرفة المكتظة، وفي هذه الأثناء، صددتُ زحف سلسلة من طيور المتعة من كلا الجنسين الذين كانوا يخفضون تسعيراتهم بالتدريج سعيًا إلى إغرائي للخروج إلى الزقاق المعتم واختبار مفاتنهم المعروضة بمهارة. ولم تردع ياقتي الكهنوتية ذات الخرزات الزجاجية الزرقاء أيًّا منهم البتة.

عندما ودع **كراتاس** رفاقه وداعًا حارًا أخيرًا وشق طريقه إلى الزقاق، تبعتُ قامته الطويلة بارتياح.

زمجر فيَّ بازدراء عندما أسرعتُ إلى جواره: «ما الذي تريده مني الآن يا محبوب الآلهة؟ أهو ذهبي أم شيء مشتهى آخر؟!»، فقد أخذ الكثير من الكهنة بصرعة الشذوذ المعاصرة هذه.

قلت له: «سآخذ الذهب، فلديك منه أكثر من الآخر يا **كراتاس**»، فجمد في مكانه وراح يحدق إليَّ بريبة، ولم تكُن ملامحه المختالة الوسيمة محمرَّة ومرتبكة إلا قليلًا بفعل الخمر.

صاح: «كيف تعرف اسمي؟»، وقبض على كتفي جارًا إياي إلى مدخل بيتٍ مُضاء، وراح يفحص وجهي، ثم نتش أخيرًا الباروكة عن رأسي هادرًا: «بحق البواسير بين إليتي سِت! هذا أنت يا تايتا!».

فقلت له: «سأكون ممتنًا إن امتنعت عن الصراخ باسمي أمام العالم كله»، وتحول إلى الجديَّة من فوره.

- تعال! سنذهب إلى مسكني.

وحالما صرنا وحدنا، صب كوبين من الجعة، فسألته: «ألم تنل كفايتك منها؟».

ابتسم لي ابتسامة عريضة، وقال: «لن نعرف الإجابة إلا في الصباح. ليس الآن يا تايتا! لا تعاملني بحزم أكثر مما يجب. إننا نغير على أسطول الغاصب الأحمر منذ ثلاثة أسابيع. لكن وحق حابي العذبة، إن قرن الجؤجؤ الذي صممتَه يفعل العجائب. لقد مزقنا عشرين قادسًا من قوادسه تقريبًا وقطعنا رؤوس بضع مئات من أوغاده. ورغم أنه عمل يُلهب العطش، لم تعبُر شفتي قطرة من أي شيء أقوى من الماء في كل ذلك الوقت. فلا تستكثر عليَّ جرعة جعة الآن، واشرب معي!».

رفع كوبه بعد ذلك، وكنتُ عطشانًا أيضًا، فحييته بدوري، لكن حالما وضعت كوبي، سألته: «أين تانوس؟».

فصحا فورًا، وقال: «لقد اختفى تانوس»، ورحتُ أحدق إليه.

- اختفى؟ ماذا تعني بأنه اختفى؟ ألم يقُد الغارة عبر النهر؟

هز كراتاس رأسه.

- لا. لقد ذهب. تلاشى. أمرتُ رجالي بطواف كل شارع وكل منزل في طيبة، ولم نعثر على ما يدل عليه. وأقول لك يا تايتا إنني قلق، قلق بحق.

- متى رأيته آخر مرة؟

- بعد العرس الملكي بيومين، بعد أن تزوجت السيدة لوستريس من الملك، في عشية اليوم الذي أبحرتُ فيه مع الأسيطيل الملكي إلى إلفنتين. حاولت إدخال بعض الصواب إلى رأسه السميك، لكنه لم ينصت.

- ماذا قال؟
- سلمني قيادة ***أنفاس حورس*** والسرب بأكمله.
- لا يمكنه فعل ذلك بكل تأكيد، صحيح؟
- بلى، يمكنه. لقد استخدم سلطة ختم الباز الذي منحه إياه الفرعون.

أومأتُ برأسي.

- ثم ماذا؟ ماذا فعل؟
- لقد أخبرتك للتو. اختفى.

بينما أحاول التفكير بالأمر ارتشفتُ من كوب الجعة، وفي هذه الأثناء، ذهب **كراتاس** إلى النافذة وبال عبرها، فترشَّش بوله بصخب في الشارع وسمعتُ عابرًا يصيح به: «انتبه أين ترشّ أيها الخنزير القذر».

انحنى **كراتاس** من النافذة وعرض عليه بمرح أن يصدع له جمجمته، فانخفضت تذمرات الرجل بسرعة، ثم عاد يقهقه جراء هذا الانتصار الصغير، وسألته: «كيف كان مزاج **تانوس** عندما تركك؟».

عاد جادًا ثانية: «أقتم مزاج شهدتُه في حياتي وأبشعها. سبَّ الآلهة والفرعون. حتى إنه سب السيدة **لوستريس** ونعتها بالمومس الملكية».

جفلت عند سماع ذلك، مع أنني عرفتُ أن هذا الذي يتكلم ليس **تانوس** الذي أعرفه، إنما صوت الحب اليائس المستحيل.

- قال إن بإمكان الفرعون تنفيذ تهديده بشنقه بتهمة إثارة الفتن وإنه سيرحب بهذا الانعتاق. كان في ضائقة مُروِّعة ولم يكن ثمة شيء يمكنني فعله أو قوله لأعزيه.
- أهذا كل شيء؟ لم يُلمح إليك بما ينتويه؟

هز **كراتاس** رأسه وأعاد ملء كوبه.

فسألته: «وما مصير ختم الباز؟».

- تركه معي. قال إنه لن يحتاج إليه، وهو بأمان على متن ***أنفاس حورس***.
- وماذا عن بقية الترتيبات التي ناقشتُها معك؟ هل فعلتَ ما طلبتُه منك؟

نظر إلى كأسه والذنبُ ملء وجهه وتمتم: «بدأتُ بإجراء الترتيبات، لكن بعد رحيل **تانوس**، بدا أن لا جدوى منها. إضافة إلى أنني انشغلتُ أسفل النهر مذ ذاك الحين».

- هذا ليس من شيمك يا **كراتاس**، أن تكون غير جدير بالثقة إلى هذه الدرجة. (كنتُ وجدتُ أن الخذلان الجارح أنجع من الغضب في التعامل مع **كراتاس**) كانت سيدتي **لوستريس** معتمدة عليك. قالت لي إنها تثق بك أتم ثقة، إن **كراتاس** مثال عظيم للقوة، هذا ما قالته بالحرف.

وأمكنني رؤية ذلك ينجح ثانية، **فكراتاس** أحد معجبي مولاتي الغيورين أيضًا، وحتى تلميحة باستيائها كفيلة بالتأثير فيه.

- اللعنة عليك يا **تايتا**، تجعلني أبدو أحمق ضعيف الإرادة... (ظللتُ صامتًا، لكن يمكن للصمت أن يكون أكثر إزعاجًا من الكلمات) ما الذي تريد السيدة **لوستريس** مني فعله بحق **حورس**؟

قلت له: «لا شيء أكثر مما طلبتُ منك فعله قبل أن أغادر إلى **إلفنتين**»، فخبط الطاولة بكوبه.

- **أنا** جندي، لا يمكنني ترك واجباتي وأخذ نصف السرب في مغامرة مخبولة ما. كان الأمر مختلفًا عندما كان ختم الباز بيد **تانوس**...

فقلت له بلين: «إنه بيدك الآن».

فحدق إليَّ: «لا يمكنني استخدامه من دون **تانوس**».

- أنت ملازمه، **وتانوس** أعطاك ختم الباز لتستخدمه. وتعرف ما يجب عليك فعله به، فافعله! سأعثر على **تانوس** وأعيده، لكنْ عليك أن تكون جاهزًا بحلول ذلك الوقت. ثمة شُغل فظيع ودمويٌّ أمامنا، **وتانوس** في حاجة إليك. لا تخذله مرة ثانية.

فاحمرَّ وجهه غضبًا إزاء التعبير ووعدني: «سأجعلك تتراجع عن كلماتك هذه».

- وهذه أفخر مائدة يمكنك تحضيرها لي.

أحب الرجال الشجعان الشرفاء، يسهل جدًّا التلاعب بهم.

***

لم أكُن على يقين من طريقة إيفائي بوعدي بالعثور على **تانوس**، لكنني تركتُ **كراتاس** ليبدد انغماسه في الملذات بالنوم، وخرجتُ إلى القرية ثانية لأجرب. دُرت مرة أخرى على جميع نواديه وسألتُ كل من يُحتمل أنه قد رآه. كنتُ مدركًا الحقيقة المرة للمجازفة التي أخوضها بمتابعة تحرياتي حول

تانوس، أو لرداءة تنكُّري إذا ما قابلتُ شخصًا يعرفني جيدًا، لكن عليَّ إيجاده. ظللت على حالي طيلة الليل، حتى طردت الحانات الرديئة والمواخير على امتداد الشاطئ آخر زبائنها السكارى وأطفأت مصابيحها.

عندما بزغ الفجر فوق النهر، وقفت مُتعبًا مفطور القلب على ضفة النيل، وحاولتُ التفكير في أكان ثمة احتمال قد أغفلتُه. ثم جعلني صوتٌ صيَّاح أرفع نظري إلى أعلى، فرأيتُ فوقي سربًا هائمًا من الإوز المصري بدت حدوده واضحة أمام التدرجات الذهبية الباهتة والنحاسية للسماء الشرقية، وأحيَت في ذاكرتي من فورها تلك الأيام السعيدة التي قضاها ثلاثتنا، **تانوس** وسيدتي **لوستريس** وأنا، في صيد الطيور البرية في المستنقعات.

فشتمتُ نفسي: «أيها الأحمق! هذا هو الجواب بالطبع».

بحلول هذا الوقت، كانت حارات السوق قد عجَّت بحشد صاخب متدافع، **فطيبة** أكثر المدن ازدحامًا في العالم، وليس فيها رجل عاطل. ينفخون الزجاج ويصيغون الذهب والفضة، ينسجون الكتان ويشكِّلون القدور. التاجر يتَّجِر ويساوم، والمحامي ينافق، والكاهن يرنِّم والبغي تبغي. إنها مدينة شائقة وصارخة، وإنني أحبها.

بينما يعرض التجار والمزارعون بضاعتهم أمام ربات البيوت وحُجَّاب الأسر الثرية شققت طريقي عبر الازدحام وجعجعة المُزاح والمساومة، وفاحت من السوق رائحة كريهة باعثة على الغثيان من التوابل والفاكهة والخضار ولحوم الأسماك، وبعضها يبتعد كثيرًا عن الطزاجة. وخارت الماشية وثغت المعزاة وأضافت أزبالها إلى ما أسهم به البشر من غائط يدلف عبر المجاري المفتوحة إلى النيل الأم العجوز.

فكرتُ في شراء حمار، فأمامي مشية طويلة في أحَرّ فصول العام، ورأيتُ عروضًا على بعض البهائم المتينة، لكنني امتنعتُ في آخر الأمر عن هذا الإسراف، وليس لأسباب اقتصادية وحسب، بل لمعرفتي أنني حالما أصير في الريف المفتوح، سيجذب حيوان ثمين كهذا انتباهَ الصردان من دون أدنى شك، وقد يتجاوزون هواجسهم الدينية لأجل هذه الغنيمة. فاشتريت بدلًا من ذلك بضع حفنات من التمر ورغيف خبز، وكيسًا جلديًا لأحمل هذه المؤونة وقنينة ماء قرعيَّة، ثم انطلقت عبر الشوارع الضيقة إلى البوابة الرئيسة للمدينة.

لم أكُن قد بلغت البوابات عندما اندلعت فوضى في الشارع أمامي وجاءت جماعة من حرس القصر ناحيتي، مستخدمة هراواتها لفتح طريق بين حشود

السوق، ومن خلفها، حملت نصف دزينة من العبيد هودجًا باهرجًا ذا ستائر في سير وئيد. كنت محاصرًا بالجدران المطلية بالطين لأحد الأبنية، ورغم أنني تعرفتُ الهودج وقائد الحرس، فلم أتمكن من تفادي المواجهة.

استولى الذعر عليَّ، فربما أنجو من تفحُّص عابر من **راسفر**، لكنني واثق بأن سيدي **إنتف** سيعرفني مباشرة رغم تنكري. نظرتُ بجانبي فرأيت أَمَةً عجوزًا لها نهدان يشبهان جرتي زيت زيتون ضخمتين وظهر كفرس النهر. فرحتُ أتلوى جانبيًا حتى خبأتني جسامتها، ثم أنزلتُ باروكتي على عيني وأخذتُ أسترق النظر من خلفها.

وعلى الرغم من مخاوفي، شعرتُ بوخزة افتخار مهني لأن **راسفر** عاد واقفًا على قدميه بعد جراحتي بفترة قصيرة. كان يقود قوة الحرس باتجاه مخبئي، لكنني لم أنتبه إلا عندما حاذاني إلى أن أحد جانبي وجهه قد انهار، فبدا كأنما صُنع تمثال شمعي لملامحه الكريهة ثم وُضع قريبًا من لهب مكشوف. في الغالب ما تكون هذه الحالة نتيجة حتى لأمهر عمليات نقب الرأس. أما النصف الآخر من وجهه فاكتسى بتجهمه المعهود. إن كان **راسفر** شنيعًا من قبل، فينبغي له الآن أن يحمل الأطفال على البكاء والكبار على رسم الإشارة الواقية من العين الشريرة عندما ينظرون إليه.

مرَّ قريبًا من حيث أقف، وتبعه الهودج، ولمحتُ عبر شق بين الستائر الموشاة السيد **إنتف** يتمدد بأناقة على وسائد من الحرير النقي المستورد من الشرق، والتي لا بدَّ أن كلًّا منها كلَّفت خمسة خواتم ذهبية على الأقل.

كانت وجنتاه محلوقتين حديثًا وشعره مسرحًا في حليقات مترسِّمة. وفوق تسريحته، جُعل قمع من شمع النحل المُعطر ليذوب في الحر ويقطر على فروة رأسه نزولًا إلى عنقه فيبرّد بشرته وينعشها. واستوَت يدٌ، أصابعها متصلبة لكثرة الخواتم المرصعة، بتراخٍ على فخذ بُنيةٍ ناعمةٍ لغلام صغير جميل لا بدَّ أنه إضافة حديثة لمجموعته، ذلك أنني لم أتعرفه.

باغتتني قوة كراهيتي عندما نظرت إلى سيدي القديم، وعاد ما عانيته من جراح وإذلالات لا تُحصى على يديه مُسرعًا ليلوِّعني، وتفاقمت شدَّتها بعد شناعته الأحدث، فبإرساله الصلَّ إليَّ عرَّض حياة مولاتي للخطر. وإن كان بإمكاني مسامحته على كل شيء آخر، فلن أسامحه على هذا أبدًا.

بدأ بإدارة وجهه ناحيتي، لكن قبل أن تتلاقى أعيننا، غطست خلف المرأة الجبل الواقفة أمامي. حُمل الهودج بعيدًا في الزقاق الضيق، وبينما أحدق إليه، وجدتُ نفسي أرتعش مثلما ارتعشت بعد صراعي مع الصلّ تمامًا.

همستُ: «يا حورس الإلهي، اسمع دعواي هذه، ولا تعطني استراحة حتى يموت ويرحل إلى مولاه ست»، وشققتُ طريقي قُدمًا إلى بوابة المدينة.

***

كان الفيضان في أوجه، والأراضي على امتداد النهر في عناق خصب مع النيل. ومثلما تفعل في كل موسم منذ بدأ الزمان، أخذت تضع على حقولنا طبقة غنية أخرى من الطمي. فعندما ترجع إلى انحسارها، تسطع هذه الفسحات البرّاقة من جديد بتدرُّج الأخضر الخاص بمصرنا هذه، ويُنبت الطمي الغني وأشعة الشمس ثلاثة محاصيل تُحصَد قبل أن ينهمر النيل على ضفتيه ثانية ليسلم مكافأته.

سُيِجت حدود الحقول المغمورة بجدران سدِّيَّة تتحكم بالفيضان وتؤدي دور طرق سير كذلك. تبعتُ أحد هذه المماشي باتجاه الشرق حتى بلغتُ الأرض الصخرية على امتداد التلال السفحية، ثم انعطفت جنوبًا. وصرت في أثناء مشيي، أتوقف بين حين وآخر لأقلب صخرة إلى جانب الطريق، حتى وجدتُ ما أبحث عنه. ثم تابعتُ بعزمٍ أشد.

واظبتُ على النظر بعين الحذر إلى الأرض الوعرة الخربة، ذلك أنها بيئة توفر مكمنًا ممتازًا لعصابة من الصردان، وكنت أعبر أحد الشعاب الممتدة على الممر وقتما نُوديتُ من مسافة قريبة.. «ادعُ لي يا حبيب الآلهة!».

كانت أعصابي مشدودة حتى إنني أطلقتُ صرخة مذعورة ووثبتُ في الجو قبل أن يتسنى لي منع نفسي.

ثم رأيتُ فتًى راعيًا يجلس على حافة الشعب فوقي تمامًا.

لم يزِد عمره على عشر سنوات، لكنه بدا بعمر الخطيئة الأولى لرجل. كنت أعرف أن الصردان يستخدمون هؤلاء الأطفال كشّافين وحُراسًا، وظهر على هذا العفريت الصغير القذر أنه مثالي لهذا الدور. كان شعره ملبدًا بالوساخة، ولابسًا جلد معزى رديء الدباغة حتى إنني شممتُه من حيث أقف، وعيناه براقتين وشرهتين كعيني غراب يمرّ بهما عليّ مثمنًا لباسي وأمتعتي.

سألني: «إلى أين تتجه وما شأنك أيها الأب الطيب؟»، ونفخ نغمة طويلة مفردة في مزماره القصبي يمكن أن تكون إشارة لشخص ما يختبئ في مكان أعلى من جانب التلة.

احتجتُ إلى بضع لحظات أخرى ليستقر نبض قلبي العنيف، وكان صوتي منقطع النفس بعض الشيء عندما قلت له: «إنك قليل الحياء يا بُني، فما شأنكَ بمن أنا وإلى أين أذهب؟».

فتغير سلوكه معي من فوره: «إنني أتضوّر جوعًا أيها الكاهن اللطيف، فأنا يتيم مُجبر على الاعتناء بنفسه. أليس في كيسك الكبير ذاك كسرة خبز لي؟».

- يبدو لي أن تغذيتك جيدة. (وأعرضتُ عنه، لكنه هبط الجرف وراح يتراقص بجواري ويلحُّ عليَّ).
- دعني أرى ما في كيسك أيها الأب الفاضل. أتوسل إليك الصدقة يا سيدي الحليم.
- حسنٌ جدًا أيها البلطجيُّ الصغير.

أخرجتُ من الكيس الذي جلبته تمرةً ناضجة، فمد يده ليتناولها، لكن قبل أن تمسها أصابعه، ضممت يدي، وعندما فتحتها ثانية كانت التمرة قد استحالت عقربًا أرجوانيًا. ثم رفعت الحشرة السامة ذيلها مهددة فوق رأسها، فصرخ الصبي وفرّ عائدًا إلى الجرف.

توقف في الأعلى مدة تكفي أن يعوي عليَّ: «أنت لست كاهنًا، بل أحد جان الصحراء، إنك شيطان، لا إنسان»، ورسم الإشارة الواقية من العين الشريرة بجنون وبصق على الأرض ثم هرع صاعدًا التلة.

كنتُ قد قبضت على العقرب تحت صخرة مسطحة في طريقي منذ بعض الوقت، وبالطبع، نزعت الإبرة من طرف ذيله قبل أن أزلقه في كيسي تجهزًا لاحتمالية كهذه. كان العبد العجوز الذي علمني قراءة الشفاه قد أراني بضع حيَل أخرى، وإحداها الشعبذة[1].

توقفت عند كتف التلة التالية لأنظر خلفي، فرأيتُ الفتى الراعي على القمة العالية من فوقي، لكنه لم يكن وحيدًا، بل معه رجلان. وقفوا في جماعة

(1) الشعبذة: إظهار غير الواقع واقعًا بالحركة السريعة، وهي غير السحر، ويُعبر عنها في عرفنا بألعاب الخفة. (المترجم).

ينظرون إليَّ، وكان الصبي يومئ إيماءً عنيفًا، وحالما رأوا أنني انتبهت إليهم، اختفى الثلاثة في خط الأفق، وشككتُ أنهم سيرغبون في تعامل آخر مع كاهن عفريت.

لم أكن قد تقدمت كثيرًا عندما رأيت حركة على الطريق أمامي، فوقفتُ في مكاني وظلَّلت عيني من شمس الزوال المُزغللة، وأراحني أن تبيَّنتُ جماعة صغيرة تبدو نظيفة قادمة باتجاهي. تحركتُ قُدمًا بحذر لألاقيها، وعندما اقترب بعضنا من بعض، وثب قلبي في صدري لظني أنني تعرفتُ **تانوس** بينهم. كان يسوق حمارًا صغيرًا مقدامًا محملًا بأعباء ثقيلة، وفوق الحزمة الضخمة على ظهره جلست امرأة وطفل، لكنه تابع خبَبه بشجاعة. ورأيت أن المرأة نفسها محملة بأعباء ثقيلة، إذ انتفخت بطنها الحامل أمامها، وأن الطفل المتزن خلفها بنتٌ على شفا البلوغ.

كنتُ موشكًا أن أنادي **تانوس** وأسرع للقائه، وقتما أدركت أنني مخطئ وأن الرجل غريب ضللني قوامه الطويل الأكتف، وطريقة تحركه الرشيقة، وكثة شعره الأشقر الذهبي المشرقة. أخذ يراقبني بريبة وقد استل سيفه، ثم أبعد الحمار عن الطريق ووسَّط نفسه بيني وبين الحمل الثمين الذي يحمله.

مثلتُ دور الكاهن الذي أتقمصه: «بركات الآلهة عليك أيها الصديق الطيب»، فنخَر وأبقى سن سيفه موجهةً إلى بطني. لا أحد يثق بغريب في مصرنا هذه.

قلت: «إنك تخاطر بحياة عائلتك على هذه الطريق يا صديقي. كان ينبغي لك أن تطلب حماية قافلة، فثمة مُشلَّحون في التلال». كنت قلقًا عليه حقًا، وبدت المرأة لطيفة وخلوقًا، بينما أوشكت الطفلة أن تبكي إزاء تحذيري.

فأمرني الرجل: «امضِ في طريقك أيها الكاهن! واحتفظ بنصيحتك لمن يُقدرها».

وهمست المرأة: «إنك لسيد فاضل ولطيف. لقد انتظرنا القافلة أسبوعًا في قنا، ولم يعد بوسعنا الانتظار. أمي تعيش في **الأقصر**، وستساعدنا في ولادة طفلي».

فزمجر زوجها: «صه يا امرأة! لا نريد أي تعامل مع غرباء، وإن كانوا يرتدون أرواب الكهانة».

فترددتُ، محاولًا التفكير في ما إن كان ثمة أي شيء يمكنني خدمتهم به. كانت البنتُ شيئًا صغيرًا جميلًا بعينين سبجيَّتين داكنتين، وقد لمست قلبي

بكل معنى الكلمة. لكن الزوج حث الحمار في تلك اللحظة ليعبرني وراقبتهم يرحلون بهزة كتفين عاجزة.

قلت لنفسي: «لا يمكنك التألُّم على بني الإنسان كلهم، ولا يمكنك فرض النصيحة على من يرفضها»، ومضيتُ شمالًا من دون النظر خلفي ثانية.

بلغ الوقتُ آخر الظهيرة قبل أن أخفض نظري إلى النتوء الصخري المغروز في المستنقع الأخضر، وحتى من هذا الموقع المميز، كان مُحالًا تمييز العرزال، ذلك أنه مخفي في عمق أحواض البردي، وسقفه مصنوع من جذوعه، ما جعل تمويهه مثاليًا. ركضتُ هابطًا الطريق، أقفز من صخرة إلى صخرة، حتى وصلت إلى حافة الماء، ففي هذا البعد عن المجرى الرئيس للنيل، لم يكن الفيضان ذا شأن.

وجدت قاربًا متداعيًا مربوطًا بالرصيف. كان نصف مغمور واضطُررت إلى اغتراف الماء منه قبل أن أسلمه إلى المياه، ثم رحتُ أدفع بالعصا بحذر في القناة عبر أحواض البردي. كان العرزال ينتصب على أرض يابسة في جُزر النيل، لكن ثمة مياه الآن تكفي لإغراق رجل تحت السيقان الخشبية التي يقف عليها.

رأيتُ قاربًا فارغًا في هيئة أحسن من قاربي مربوطًا إلى أحد سيقان العرزال، فأرسيت قاربي بجواره، وتسلقتُ السلّم المتقلقل لأسترق النظر داخل كوخ صيدنا القديم. كان متألفًا من غرفة واحدة، وأشعة الشمس تتدفق عبر الثقوب في السقف القشي، لكن لا يهم، إذ إن الأمطار لا تهطل في مصر العليا على الإطلاق.

لم تمرَّ على الكوخ كركبة كهذه منذ يوم اكتشفته **وتانوس**: الملابس والأسلحة وقدور الطبخة متناثرة في أرجائه مثل مخلفات ساحة معركة، ونتانة الخمور أقوى من رائحة الطعام البائث والأجساد الوسخة.

كانت تلك الأجساد الوسخة راقدة على فراش بالقدر نفسه من الوساخة في الركن القصي، فعبرتُ الأرض المفروشة بالفضلات بحذر شديد لأبحث عن آثار الحياة فيها، وفي تلك اللحظة، نخرت المرأة وانقلبَت. كانت شابة جسدها العاري ممتلئ وفاتن، بنهدين ناهدين كبيرين وغطاء شعريٍّ مجعَّد متموج أسفل بطنها. لكن وجهها، حتى في هجوعه، صارم وعامّي. لم يساورني أي شك في أن **تانوس** قد وجدها على الضفة.

لطالما عرفتُه متنوِّقًا، ولم يكُن سِكِّيرًا قطُّ. وليس هذا الكائن وجرار الخمر الفارغة المتراكمة على كل الجدران إلا دلالة على الحضيض الذي أوصل إليه. رحتُ أنظر إليه وهو نائم، وبالكاد عرفتُه، ذلك أن وجهه مُبقَّع ومتورِّم بفعل الشرب، ومكسو لحيةً شعثاء. بدا واضحًا أنه لم يحلق منذ رأيته آخر مرة أمام أسوار الحريم.

أفاقت المرأة في تلك اللحظة، وثبتت عينيها عليَّ، وفي حركة قططية واحدة وثبت عن الفراش ومدت يدها إلى الخنجر المغمد المعلق على الجدار بجواري، فنترتُ السلاح بعيدًا قبل أن تصل إليه وهددتها بسنِّه العارية.

ثم أمرتها بهدوء: «ارحلي! قبل أن أحشر في بطنك شيئًا حتى أنتِ لم تشعري به من قبل».

لملمت ملابسها ولبستها بعجالة، بينما تحدق إليَّ تحديقة سامَّة طيلة ذلك.

ثم قالت حالما أتمت لبسها: «لم يدفع لي بعد».

- أنا واثق بأنك خدمتِ نفسك بنفسك خدمة سخية. (وأومأتُ لها بالخنجر ناحية الباب).

- لقد وعدني بخمسة خواتم ذهبية، (غيَّرت لهجتها وبدأت تنتحب) وعملت بجدٍّ لديه في الأيام العشرين الأخيرة وربما أكثر. فعلتُ كل شيء من أجله، طبخت واعتنيتُ بمنزله، وخدمته ونظفت قيأه في ثمالته. يجب أن أتلقى أجري، لن أرحل حتى تدفع لي...

قبضتُ على خصلة من شعرها الأسود الطويل ودللتُها إلى الباب، وساعدتُها، وما زلت أسوقها من شعرها، على ركوب القارب الأكثر تداعيًا. وحالما دفعت نفسها بالعصا إلى خارج متناولي، أطلقت عليَّ من الشتائم سيلًا أفزع المالك الحزين وطيور الماء في أحواض القصب من حولنا.

عندما رجعتُ إلى حيث يرقد تانوس، لم يكن قد تحرك، فتفحَّصت جرار خمره، ووجدتُ معظمها خاويًا، لكن بينها اثنتين أو ثلاثة لا تزال ملأى. تساءلت عن كيفية جمعه مخزونًا بهذا الحجم من الخمور، وخمَّنت أنه على الأرجح أرسل المرأة إلى الكرنك لتعثر على مراكبيٍّ يشحنها إليه. كان عنده ما يكفي لإثمال فرقة حرس التمساح الأزرق بكاملها لموسم كامل، ولا عجب أنه في حال كهذه.

جلست بجوار فراشه لبعض الوقت، تاركًا إشفاقي عليه يجري مجراه الطبيعي. لقد حاول تدمير نفسه. أفهم ذلك، ولا أحتقره بسببه، فحبه لمولاتي كبير حتى إنه لم يرغب بمتابعة العيش دونه.

بالطبع كنتُ غاضبًا عليه أيضًا لظلمه نفسه بهذه الطريقة، وللاستسلام للحماقة والانغماس في الملذات. لكنني حتى في حالته المحزنة المخضلة بالمشروب هذه، ظللت قادرًا على إيجاد الكثير مما هو نبيل وجذاب فيه. وفي النهاية، لم يكن حامل الذنب الوحيد، فقد حاولت مولاتي شرب السُّم للسبب نفسه الذي حاول لأجله تدمير نفسه. وقد فهمتُ ذلك وسامحتُها، فكيف أعامل **تانوس** بأقل من ذلك؟ تنهدتُ حسرةً على هذين الشابين اللذين كانا جُلَّ ما له قيمة حقيقية في حياتي. ثم وقفتُ وبدأت العمل.

وقفتُ في البداية فوق **تانوس** لبعض الوقت، أعزِّز غضبي حتى يسعني أن أقسو عليه حقًا ثم أمسكته من كعبيه وجررته على أرضية الكوخ. أفاق نصف استفاقة من ذهوله وسبَّ سبًّا ضعيفًا، لكنني لم أعر احتجاجاته أي انتباه وقلبتُه من الباب، فسقط في المستنقع رأسيًا وأثار رذاذًا هائلًا في غرقه تحته. انتظرته حتى خرج يتخبط مترنحًا على سطح الماء، ولا يزال نصف صاحٍ.

هبطتُ بجواره، وأمسكتُ حفنة مزدوجة من شعره وزججتُ رأسه تحت الماء ثانية، فكافح بضعف في البداية وقدرتُ على تثبيته في الأسفل بسهولة، ثم تولَّت غريزة بقائه الطبيعية زمام القيادة وارتفع بكل قوته القديمة، فرُفعتُ كُلِّي فوق سطح الماء وأُلقيت جانبًا مثل غُصين في عاصفة.

خرج **تانوس** يجأر في محاولته سحب النفس، ويضرب جزافًا خصمه غير المرئي، وكانت واحدة من هذه الضربات كفيلة بتدويخ فرس نهر، فتراجعت بعجالة ورحت أرقبه من بعيد.

بينما يسعلُ ويختنق وتعلَّق به وشعره يقطر في عينيه ترنَّح إلى السلَّم. بدا واضحًا أنه ابتلع الكثير من الماء وامتص الكثير منه إليَّ رئتيه، وشعرتُ بوخزة خوف. ربما كان علاجي أشدُّ مما يجب. كنتُ موشكًا أن أعينه وقتما فتح فمه على اتساعه وتفجَّر منه مزيج كريه من مياه المستنقع والنبيذ الفاسد. وصعقتني كميته.

ظل متعلقًا بالسلَّم، يلهث ويغرغر ليلتقط أنفاسه، فسبحتُ إلى إحدى سيقان الكوخ وانتظرته حتى استفرغ ثانية قبل أن أقول له، واضعًا كل

الاحتقار الذي تمكنت من حشده في صوتي: «ستشعر مولاتي **لوستريس** ببالغ الفخر إن رأتك الآن».

فنظر حوله بعينين سيَّالتين ثم ركَّز عليَّ أخيرًا: «اللعنة عليك يا **تايتا**! أكنتَ أنتَ من حاول إغراقي؟ أيها الأحمق، كان ممكنًا أن أقتلك».

- في حالك الراهنة لا يمكنك إنزال ضررٍ إلا بجرة من النبيذ. يا لك من منظرٍ مؤسفٍ مقرف! (ثم تسلقت السلم إلى الكوخ وتركته في الماء، يهز رأسه ويتمتم بينه وبين نفسه، وشرعتُ أرتِّب الفوضى والقذارة).

مر بعض الوقت حتى تبعني على السلم وجلس مستحيًا في المدخل، فتجاهلتُه وتابعتُ عملي، حتى اضطُر في آخر الأمر إلى كسر الصمت.

- كيف حالك يا صديقي القديم؟ لقد اشتقت إليك.

- وقد اشتاق إليك آخرون أيضًا. أولهم **كراتاس**. السرب يخوض معارك أسفل النهر منذ مدة، وكانوا ليستفيدون من سيف إضافي. وسيدتي **لوستريس** كذلك. إنها تتكلم عنك كل يوم، وتحفظ عهد حبها نقيًّا وصادقًا. أتساءل ما سيكون رأيها في تلك البغي التي طردتُها من سريرك؟

فأنَّ وأمسك رأسه بيديه: «أوه يا **تايتا**، لا تنطق اسم مولاتك. إن تذكيري بفعلها الذي لا يُحتمل...».

فاقترحتُ بغضب: «افتَح إذن جرة أُخرى من النبيذ وتمرَّغ في قذارتك ورثاء ذاتك».

- لقد خسرتها إلى الأبد، فما الذي تريد مني فعله؟

- أريدك أن تتحلى بالإيمان والصبر، مثلما فعلت هي.

فنظر إليَّ نظرة تُرقق القلب: «احكِ لي عنها يا **تايتا**. كيف حالها؟ أما زالت تفكر بي؟».

فنخرتُ باشمئزاز: «يؤسفني أن أقول إن ما تفكر به سواك قليل، وإنها في استعداد دائم لليوم الذي تجتمعان فيه ثانية».

- لن يحدث هذا أبدًا. لقد خسرتها مدى الحياة ولا أريد متابعة العيش.

وافقتُه سريعًا: «هذا جيد! إذن لن أهدر المزيد من الوقت هنا. وسأخبر مولاتي إنك لم ترد سماع رسالتها». (ثم دفعته من طريقي وهبطت السلم ملقيًا نفسي في القارب).

- انتظر يا تايتا! ارجع!

- لأجل ماذا؟ أنت تريد الموت، فامضِ في سبيل ذلك، وسأرسل المحنطين ليحضروا الجثة لاحقًا.

فابتسم ابتسامة محرجة: «حسنًا، إنني أتحامق. لقد أربك المشروب عقلي. ارجع أرجوك، وأبلغني رسالة **لوستريس**».

تسلقتُ السلم عائدًا بعد أن أظهرت نفوري، وتبعني إلى الكوخ لا يترنح إلا قليلًا.

- تأمرني مولاتي بأن أخبرك أن حبها لك لم يتأثر بشيء مما فُرض عليها، وإنها لا تزال امرأتك وستبقى امرأتك دائمًا.

فغمغم: «بحق **حورس**، لقد أخجلتني».

- لا، إن خجلك من صنع يدك.

انتزع سيفه من غمده المدلى فوق السرير القذر وشق صف جرار الخمر المستندة إلى الجدار البعيد، وكلما انشقت إحداها، انسكب نبيذها وراح يقطر من بين أضلاع الأرضية.

ورجع إليَّ يلهث، فهزئتُ به: «انظر إلى حالك! لقد أطلقت عنان نفسك حتى صرت ليِّنًا وضيِّق النفس ككاهن عجوز...».

- كفاك يا تايتا! لقد قلتَ قولك، فلا تزِد في الاستهزاء بي وإلا ندمت.

رأيتُ أنه يغضب مثلما انتويت، وأن إماناتي صلَّبته تصليبًا ممتازًا.

- كانت مولاتي لتريدك أن تنبري للتحدي الذي وضعه الفرعون بصدده، حتى تظل حيًا ورجلًا شريفًا وجديرًا في غضون خمس سنوات، وقتما تصير حرة لتجيء إليك.

استوليتُ على كامل انتباهه.

- خمس سنوات؟ ماذا تقول يا تايتا؟ أثمة أجلٌ لمعاناتنا حقًا؟

قلت له ببساطة: «لقد أعملتُ المتاهات للفرعون، وسيموت في غضون خمس سنوات من الآن». راح يحدق إليَّ مصدومًا ورأيتُ مئة شعور مختلف

يطارد بعضها بعضًا فوق ملامحه، إذ إن قراءته بسهولة قراءة هذه اللفيفة التي أكتب عليها.

همس أخيرًا: «المتاهات!».

كان في قديم الزمان شكاكًا يزدري تعاملي مع المتاهات، لكن تغير ذلك وصار أقوى إيمانًا بقدراتي من مولاتي حتى، فقد شهد رؤاي تتحقق مرات يمنعه عددها من البقاء على شكه.

سألتُه: «أيمكنك انتظار محبوبتك هذه المدة؟ مولاتي تقسم إنها قادرة على انتظارك الأبدية كلها. أيمكنك الانتظار بضع سنوات قصيرة لأجلها؟».

- هل وعدَت بانتظاري؟

فكررتُ: «الأبدية كلها».

وخِلتُ أنه موشك أن يبكي، ولا يمكنني مواجهة ذلك، لا يمكنني رؤية رجل كتانوس دامع العينين، لذا أردفتُ بعجالة: «ألا تودُ سماع الرؤيا التي أرتني إياها المتاهات؟».

فلجم دموعه ووافقني بتلهُف: «بلى! بلى!»، وبدأنا نتكلم. تكلمنا حتى هبط الليل، ثم جلسنا في الظلمة وتكلمنا قليلًا بعد.

أخبرته بما أخبرتُ سيدتي لوستريس، جميع التفاصيل التي أخفيتها عن كليهما عبر السنين. وعندما وصلتُ إلى تفاصيل إفلاس أبيه بيانكي سيد حاراب وتدميره على يد عدوه السري، بلغ غضب تانوس حدًّا من العُنف أحرق آخر آثار العربدة من رأسه، وبحلول بزوغ الفجر على المستنقعات، عادت عزيمته نقية وثابتة.

ثم وثب واقفًا وتقلَّد غمد سيفه قائلًا: «فلنشرع بمشروعك هذا، ذلك أنه يبدو الطريق الصحيحة والملائمة». ورغم رؤيتي أن من الحكمة الاستراحة لبعض الوقت وتركه يتعافى بالكامل من آثار النبيذ، لم يرضَ مطلقًا، وأصرَّ: «سنرجع إلى الكرنك حالًا! إن كراتاس ينتظر، وشهوة الانتقام لذكرى أبي ورؤية حُبي العذب ثانية تستعر كالنار في دمي».

***

حالما غادرنا المستنقع، تقدمني تانوس على الطريق الصخرية، وتبعتُه هرولة، وما إن ارتفعت الشمس فوق الأفق حتى تفجَّر العرق من ظهره وسال

إلى أن نقع دكة تنورته، كأن جسده يتطهر من النبيذ القديم النتن. ورغم سماعي إياه يلهث لهاثًا شديدًا، لم يسترِح أو يُخفف سرعته قطُّ، بل تابع انطلاقه إلى حرِّ الصحراء المتصاعد من دون توقف.

حتى كبحتُ جماحه بصيحة، ووقفنا كتفًا إلى كتف نحدق إلى الأمام. كانت الطيور قد جذبت انتباهي، وتبيَّنتُ خفق أجنحتها من مسافة بعيدة.

قال **تانوس** بصوت ناخر أجش: «نسور. لديها شيء ميت بين الصخور»، واستل سيفه ومضينا قدمًا بحذر.

وجدنا الرجل أولًا، وأبعدنا النسور عنه فطارت في زوبعة مضطربة من الأجنحة. عرفت أنه الزوج الذي التقيته على الطريق في اليوم الماضي من كثة شعره الأشقر، إذ لم يبق من وجهه شيء، فقد سُجِيَ على ظهره ونهشت الطيور لحمه حتى بلغت عظام جمجمته، ونقبت عينيه، فصار المحجران الخاويان يحدقان إلى السماء الرائقة، وزالت شفتاه فابتسم بأسنان دامية، كأنما يتبسم إزاء دعابة وجودنا القصير التافهة على هذه الأرض. قلبه **تانوس** على بطنه، ورأينا فورًا جراح الطعنات التي قتلته، والتي تلقت أضلاعه دزينة منها.

عقّب **تانوس**: «أيًا كان من فعل هذا، فقد حرص على نجاح مهمته». كان قلبه قاسيًا أمام الموت كما لا يقسو إلا جندي محنّك.

تابعتُ المشي إلى الصخور، وارتفعت سحابة سوداء طنانة من الذباب عن جثة الزوجة. لم أفهم قطُّ من أين يأتي الذباب، وكيف يتجسد بهذه السرعة من قيظ الصحراء اللافح الجاف. بينما خمنتُ أن الزوجة قد أجهضت كانوا منشغلين بها، ولا بدَّ أنهم تركوها حية بعد أن تمتعوا بها، فقد حملت وليدها بين ذراعيها بآخر قطرات قوتها، وماتت هكذا، مكوَّمة إلى جانب صخرة، تحمي وليدها الجهيض من النسور.

تعمقتُ أكثر في الأرض الخربة، وقادني الذباب ثانية إلى حيث جزّ قطّاع الطرق البنت الصغيرة، وكانوا على الأقل قد استحضروا الرحمة الكافية ليشقوا عنقها بعد أن انتهوا منها بدلًا من أن يتركوها تنزف ببطء حتى الموت.

حطت إحدى الذبابات على شفتيّ، فهششتها ورحتُ أنتحب، وجاءني **تانوس** في انتحابي.

سألني: «أتعرفهم؟»، فأومأتُ برأسي وتنحنحتُ لأجيب: «التقيتُهم في الطريق البارحة. حاولتُ أن أحذر... (ثم صمتتُ قليلًا، إذ شقَّت علي المتابعة، وأخذتُ نفسًا عميقًا)، كان معهم حمار. لا بدَّ أنه مع الصردان الآن».

فأومأ تانوس، وكان وجهه حزينًا عندما أعرض عني واقتفى الأثر سريعًا بي الصخور.

ثم نادى: «من هنا!» وانطلق راكضًا، متجهًا إلى الصحراء الصخرية.

فصحتُ من خلفه: «تانوس! إن كراتاس ينتظر...» لكنه لم يُعِرني أدنى اهتمام ولم يترك لي خيارًا إلا اللحاق به. أدركته ثانية وقتما فقد آثار الحمار على رقعة سيئة من الأرض واضطرَّ إلى اقتفاء الأثر من جديد.

قلتُ مُلحًا: «إنني أرثي لتلك العائلة أكثر منك حتى، لكن هذه حماقة. كراتاس ينتظرنا، ولا وقت لدينا لنهدره...».

فقاطعني من دون أن ينظر ناحيتي: «كم كان عمر الطفلة؟ هل تزيد على تسع سنوات؟ لدي الوقت دائمًا لأرى العدالة تأخذ مجراها». كان وجهه باردًا وحاقدًا، وظهر واضحًا أنه استعاد طبعه السابق، وأنا أعقل من متابعة الجدال.

كانت صورة البنت الصغيرة لا تزال ثابتة وواضحة في ذهني، فانضممتُ إليه والتقطنا الأثر ثانية، وبعد أن بدأنا نتعاون، صرنا نتقدم بسرعة أكثر.

كنتُ وتانوس قد تعقبنا غزالًا ومهاة، وحتى أسدًا، بهذه الطريقة، وصار كلانا ضليعًا في هذا الفن المستور. رحنا نعمل فريقًا، يركض كلٌّ منا على أحد جانبي الآثار التي تركتها طريدتنا، مشيرًا إلى الآخر بكل انعطافة أو تغيير فيها. وعاجلًا جدًّا، وصلت طريدتنا إلى مسار وعر يقود شرقًا من النهر ثم يتجه عميقًا في الصحراء، وسارت فيه، ما بسَّط مهمة إدراكها شديد التبسيط.

بلغنا فترة الظهيرة تقريبًا، وكانت قناني مائنا قد فرغت وقتما رأيناهم في البعد أمامنا: خمسة رجال والحمار، وبدا واضحًا أنهم لم يتوقعوا أن يتتبعهم أحد إلى عمق الصحراء وهي معقلهم، لذا تحركوا بإهمال، ولم يتكبدوا عناء إخفاء الأثر من خلفهم حتى.

بينما نلتقط أنفاسنا شدَّني تانوس منزلًا إياي في ظل صخرة، ثم دمدم: «سنلتفُّ في دائرة ونسبقهم. أريدُ رؤية وجوههم».

قفز وقادني في التفاف واسع إلى أحد جانبي المسار، واجتزنا عصابة الصردان، لكن بعيدًا عن مرمى بصرهم بمسافة جيدة، ثم عدنا إلى المسار

من أمامهم. كان لتانوس عين جندي خبيرة بالأراضي، ونصب الكمين بدقة بالغة.

سمعناهم قادمين من مسافة بعيدة، سمعنا دبدبة حوافر الحمار وغناء أصواتهم، وبينما ننتظرهم، حظيت بالفرصة الأولى لأدرس حكمة قراري في اللحاق به من دون نقاش. وعندما بدَت لنا جماعة الصردان أخيرًا اقتنعت أنني تسرعت كثيرًا، إذ كانوا ثلة من البلطجية لهم أكثر هيئة سفّاحة حطتْ عيناي عليها قبلًا، ولست مسلحًا إلا بخنجري المرصّع الصغير.

قبل مكمننا بمسافة قصيرة، توقف البدوي الطويل الملتحي فجأة، وكان واضحًا أنه قائدهم، وأمر أحد الرجال بلحاقه لإنزال قربة الماء عن الحمار، فشرب أولًا ثم مررها للآخرين. وبينما أشاهدهم يجرعون الشراب الثمين انغلق حلقي.

همس تانوس ونحن جاثمان بين الصخور: «بحق حورس، انظر إلى بقع دم النساء على أثوابهم. يا ليت لاناتا معي الآن، لكنت أرسلت سهمًا إلى بطنه فأهرقت الماء منها كما تُهرق الجعة من خابية! (ثم وضع يدًا على ذراعي)، لا تتحرك حتى أتحرك، أتسمعني؟ انتبه، لا أريد أي فعال بطولية منك الآن»، فأومأتُ بقوة ولم أشعر بأدنى نزعة إلى الاحتجاج على هذه التعليمات العقلانية للغاية.

أكمل الصردان طريقهم مباشرة إلى حيث ننتظر، وكانوا جميعًا مدججين بالسلاح. مشى البدوي في مقدمتهم، وسيفه مُزنَّر بين لوحي كتفه، جاهزًا للاستعمال، وقد ألقى قلنسوة عباءته الصوفية على رأسه لتحميه من أشعة الشمس الضارية، فعوّقت رؤيته الجانبية ولم يلاحظنا عندما مر قريبًا من أمامنا.

تبعه اثنان آخران من كثب، أحدهما يقود الحمار، ومشى الاثنان الأخيران الهوينى وراء البهيمة، منشغلين في شجار كسلان على قطعة جواهر ذهبية أخذاها من القتيلة. كانت أسلحتهم جميعها مغمدة، باستثناء رماح الطعن القصيرة برونزية السنان التي حملها الزوج الأخير.

تركهم تانوس يمرون جميعًا، ثم وقف بهدوء وتحرك من خلف الرجلين الأخيرين في الرتل. بدا يتحرك حركة عادية، مثلما يفعل النمر، لكن في الحقيقة لم يمرَّ إلا نَفَسٌ قبل أن يضرب بسيفه عنق الرجل الماشي في الميمنة.

ورغم أنني كنتُ عازمًا على مساندته أقصى المساندة، لم تترجم نواياي الطيبة بطريقة ما إلى أفعال، وبقيت جاثمًا وراء صخرتي المطمئنة. بررتُ لنفسي بفكرة أنني على الأرجح ما كنتُ لأفعل إلا إعاقته إذا ما تبعته من قرب.

لم أرَ **تانوس** يقتل رجلًا من قبل، وأذهلتني براعته رغم معرفتي أنها مِهنته وأنه قد حظي، على مر السنين، بكل الفرص الممكنة لشحذ هذه المهارات المخيفة. عندما ضَرب، قفز رأس الضحية عن كتفيه كما يقفز يَرْبُنٍ[1] صحراوي من جُحره، ومشى البدن مقطوع الرأس خطوة أخرى قبل أن تنهار الساقان من تحته. وعندما بلغت الضربة آخر قوسِ حركتِها، عكسها **تانوس** بسلاسة، وضرب بحركة راجعة المُسَلَّح التالي، فقَطع العنق الآخر بالدقة نفسها، وبينما انقلب الرأس ثم سقط تراخت الجثة إلى الأمام والدم ينفر عاليًا في الجو.

نبَّهت طرطشة الدماء والهدَّتان الثقيلتان للرأسين المقطوعين على الأرض الصخرية الصردان الثلاثة الآخرين، فاستداروا حول أنفسهم في هلع، وحدقوا للحظة في إنكار ذاهل إلى المذبحة المفاجئة في صفوفهم. ثم استلوا سيوفهم وصرخوا صرخة عاصفة هجموا بعدها على **تانوس** جماعةً، وبدلًا من التراجع أمامهم، انقض **تانوس** عليهم بضراوة وفرَّق شملهم، وتحرَّك ليواجه الرجل الذي أبعده عن رفيقيه. شقَّت طعنته جرحًا سطحيًا داميًا على جانب صدره، فصرخ الرجل صرخة حادة وسقط خلفًا، لكن قبل أن يتمكن **تانوس** من الإجهاز عليه، هاجمه الاثنان الآخران من خلفه، فاضطُرَّ إلى الاستدارة لمواجهتهم، وبينما يصد هجومهم صلصل البرونز على البرونز. أبقاهم بعيدين بسنِّ سيفه، وراح يشتبك مع واحد أولًا ثم مع الآخر، حتى استرد الرجل الجريح جرحًا خفيفًا طاقته وجاءه من خلفه.

فصحتُ به: «وراءك!»، واستدار في اللحظة المناسبة تمامًا ليستقبل الطعنة بنصله، وهجم الآخران عليه فورًا، فاضطُرَّ إلى التراجع كي يحمي نفسه من جميع الجوانب. كانت مهارته في المبارزة مشهدًا يخطف الأنفاس، وكان نصله سريعًا سرعة يبدو معها أنه أقام جدارًا متوهجًا من البرونز حول نفسه قعقعت ضربات الخصوم عليه بلا جدوى.

(1) اليَرْبُن: أو الأرنب الإفريقي، جنس من القوارض دائم القفز يعيش في شرق إفريقيا وجنوبها. (المترجم).

ثم أدركتُ أن **تانوس** قد بدأ يتعب، إذ راح العرق يتدفق من جسده في الحر وتلوّت ملامحه إجهادًا. لقد اقتصّت أسابيع النبيذ والعربدة الطويلة أجرتها مما كان عنده ذات مرة من قوة وجلد لا يُحدَّان.

تقهقر أمام الهجمة التالية التي قادها البدويُّ الملتحي عليه حتى رصّ ظهره على أحد الجلاميد على جانب المسار المقابل لحيث أجثم عاجزًا. ولما غطّت الصخرة ظهره، صار المهاجمون الثلاثة مضطرين إلى مهاجمته من الأمام، لكن ذلك لم يكن استراحة حقيقية، فهجومهم شديد البأس، وأخذوا ينبحون، بقيادة البدوي، مثل زمرة من الكلاب البرية بينما يحاوطونه، ثم تعبت ذراع **تانوس** اليمنى وبطُؤت حركتها.

كان الرمح الذي حمله أول رجلٍ قطع **تانوس** رأسه قد سقط في منتصف الطريق، وأدركتُ أن لا بدَّ لي من فعل شيء ما حالًا إن كنتُ لا أريد رؤية **تانوس** يُقطَّع أمام عينيّ. وبجهد هائل، جمعتُ شتات شجاعتي المتقلقلة، وزحفت من مخبئي، وكان الصردان قد نسيوني في لجة لهفتهم إلى القتل، فوصلتُ إلى حيث يقبع الرمح من دون أن يلاحظني أيُّهم، وامتشقتُه، وعندما صار الوزن المتين للسلاح في يدي، فاضت شجاعتي المفقودة كلها عودًا إليّ.

كان البدوي الأخطرَ بين خصوم **تانوس** الثلاثة، وكان الأقرب إليّ كذلك، مديرًا ظهره ناحيتي، وكل انتباهه متركز على المبارزة الظالمة، فسوّيت الرمح وهجمتُ عليه.

الكُلى هي النقطة الأضعف في الظهر البشري، وبمعرفتي بعلم التشريح، يمكنني توجيه طعنتي بدقة. دخل سن الرمح على بُعد إصبع من أحد جانبي العمود الفقري، واخترقَ جسمه كله، ففتح سنه العريض جرحًا فاغرًا، وسفد الكُلية اليمنى بدقة جرّاح. تخشب البدوي وجمد مثل تماثيل المعبد، إذ شلّته طعنتي من فورها. ثم، وبينما أبرم النصل بوحشية في لحمه كما علمني **تانوس**، فارمًا كليته فرمًا، سقط السيف من يده وانهار مطلقًا صيحة مُروِّعة شتّت رفاقه وقتًا كافيًا لينال **تانوس** فرصته.

أصابت طعنة **تانوس** التالية أحدهما في منتصف صدره، ورغم إرهاقه، كانت بالقوة الكافية لتعبر جسد الرجل بسلاسة وتبرز السن الملطخة بالدم شبرًا من بين لوحي كتفه. وقبل أن يتمكن من سحب نصله من العناق اللصيق للحم الحي وقتل الصرد الأخير، استدار الناجي وفرَّ راكضًا.

ركض تانوس بضع خطوات خلفه، ثم لهث قائلًا: «لقد أنهكتُ، الحقه يا تايتا، لا تسمح لذلك الواويّ القتّال بالفرار».

قلة قليلة من الرجال يمكنها أن تسبقني في العَدو، وتانوس هو الوحيد الذي أعرفه منهم، لكن ينبغي له أن يكون في قمة لياقته ليسبقني. بينما دُسْتُ ظهر البدوي مثبتًا إياه أمزمز الرمح لأخرجه من بدنه، ثم مضيتُ خلف الصرد الأخير.

أدركته قبل أن يبتعد مئتي خطوة، وكنتُ أركض بخفة حتى إنه لم يسمعني أصل إليه. شققتُ بحافة الرمح وتر عرقوبه، فوقع ناشرًا أطرافه وطار السيف من يده. وبينما يرقد على ظهره يركل ويسبني، رحتُ أتراقص حوله، وأنخسه برأس رمحي مستدرجًا إياه إلى وضعية مناسبة لطعنة قاتلة كيسة.

سألته: «بأيٍ من المرأتين استمتعتَ أكثر؟ (وطعنته في فخذه)، أكانت الأم، ببطنها الكبير، أم البنت الصغيرة؟ هل كانت ضيّقة بالحد المناسب لك أيها الوضيع؟».

فصرخ: «اعفُ عني أرجوك! لم أفعل شيئًا. البقية هم من فعلوا. لا تقتلني!».

فقلت: «ثمة دماء يابسة على مقدمة تنورتك (وطعنت بطنه طعنةً غير عميقة، وسألته..) أكان صراخ الطفلة عاليًا كصراخك الآن؟».

وعندما التفَّ على نفسه في كرةٍ ليحمي بطنه، طعنته في سيسائه، وعثرتُ بضربة حظ على الفجوة بين فقراته، فانشلَّ نصف السفلي فورًا، وابتعدتُ عنه.

قلت: «جيد جدًا. لقد طلبتَ مني أن لا أقتلك، ولن أفعل، فذلك خيرٌ لا تستحقه».

ثم استدرتُ ومشيت عائدًا إلى تانوس. جرَّ الصرد المُقعد نفسه لمسافة قصيرة ورائي، وساقاه المشلولتان تنزلقان خلفه مثل صيّاد يجر زوجين من الشبابيط الميتة، ثم صار الجهد فوق طاقته فانهار في كومة أنّانة. ورغم أن الوقت قد جاوز الظهيرة، فما يزال في الشمس حرٌّ كافٍ لقتله قبل المغيب.

نظر تانوس إليّ بفضول عندما عدتُ إليه: «ثمة عِرقٌ وحشيٌ فيك لم أشتبه في وجوده من قبل! (وهزّ رأسه متعجبًا)، لا تفشلُ في إذهالي أبدًا».

ثم شدَّ قربة الماء عن ظهر الحمار وقدمها لي، لكنني هززت رأسي: «اشرب أولًا. أنت تحتاج إليه أكثر مني».

فراح يشرب، وضاقت عيناه نشوةً، ثم شهق: «وحق أنفاس **إيزيس** العذبة إنك محق. أنا رخوٌ كامرأة عجوز. حتى حصة المبارزة الضئيلة تلك كادت تُنهيني (ثم نظر حوله إلى الجثث المبعثرة، وابتسمَ رضًى)، لكن على العموم، ليست بداية سيئة لمهمة الفرعون».

عارضتُه: «بل كانت أتعس البدايات (وعندما قوّس حاجبه أردفت..) كان ينبغي لنا إبقاء واحد على الأقل حيًا ليقودنا إلى عش* الصردان، وحتى ذاك... (وأشرتُ ناحية الرجل المحتضر الراقد بين الصخور) تجاوز سوء حاله أن يفيدنا بأي شيء. كان الخطأ خطئي، فقد سمحتُ لغضبي بأن يتملكني. لن نرتكب الخطأ نفسه ثانية».

بلغنا منتصف الطريق عودًا إلى حيث تركنا جثث العائلة القتيلة قبل أن تعيد طبيعتي الحقيقية إثبات نفسها، وبدأتُ أندم مُرَّ الندم على قسوة فؤادي ومعاملتي الوحشية للمشلح المُقعد.

قلتُ **لتانوس**: «كان إنسانًا مثلنا برغم كل شيء»، وسَخِر استهزاءً.

- لقد كان حيوانًا، واويًا مسعورًا، وقد أبليتَ بلاءً حسنًا، ورثيته أكثر مما يجب بكثير. انسه. وأخبرني بدلًا من ذلك، لمَ علينا العودة والنظر إلى الرجال الميتين بدلًا من التوجه مباشرةً إلى معسكر **كراتاس**؟

قبت: «أحتاج إلى جسد الزوج»، ولم أقلْ شيئًا آخر حتى وقفنا فوق الجثة المشوهة. كانت البقايا المؤسفة تتعفن في الحر بالفعل، ولم تترك النسور إلا قليلًا من اللحم على العظام.

قلت **لتانوس**: «انظر إلى شعره، من غيره ممن تعرفهم له كثة كهذه؟»، بدا حائرًا للحظة، ثم ابتسم ومرَّر أصابعه في خُليقات شعره الكثيفة، فأمرته: «ساعدني بتحميله على الحمار. يمكن **لكراتاس** أخذه إلى **الكرنك** ليحنّطه الحانوتيون، وسنقيم له جنازة لائقة وقبرًا فاخرًا ننقش اسمك على جدرانه. ثم، بحلول مغيب الغد، ستعرف **طيبة** كلها أن **تانوس**، سيد **حاراب**، قد هلك في الصحراء، وأكلت النسور نصف جثته».

بدا عليه القلق: «إن سمعت **لوستريس** بذلك...».

- سأرسل إليها برسالة تحذير. إن النفع الذي سيرجع علينا به تصديق العالم أنك مُت يفوق بكثير أي خطر يأتي من تخويف مولاتي.

***

كان **كراتاس** مُعسكرًا في أول واحة على طريق القوافل إلى البحر الأحمر، ما يبعد مسير أقل من يوم عن **الكرنك**، وقد اصطحب معه مئة من رجال حرس **التمساح الأزرق**، كلهم مُختار بعناية، مثلما أمرتُه. وصلتُ **وتانوس** إلى المعسكر في منتصف الليل، وكان سفرنا شاقًا أبلغنا حافة الإنهاك، فسقطنا على فراشينا بجوار نار المعسكر ونمنا حتى الفجر.

ومع إشراقة الفجر، كان **تانوس** مستيقظًا يخالط رجاله، وبدتْ غبطتهم لعودته جليّة، فعانقه الضباط وهلل له الرجال، وابتسموا افتخارًا عندما حيَّا كلًّا منهم باسمه.

على الفطور، وجَّه **تانوس كراتاس** بأخذ الجثة المتعفنة عودًا إلى **الكرنك** ليدفنها ويحرص أن تكون أنباء وفاته ثرثرة تعمُّ **طيبة**، وأعطيتُ **كراتاس** رسالة إلى مولاتي **لوستريس**، ليجد رسولًا موثوقًا يحملها أعلى النهر إلى **إلفنتين**.

انتقى **كراتاس** حامية من عشر رجال، وتجهزوا للانطلاق مع الحمار وحمله كريه الرائحة، عودًا ناحية النيل **وطيبة**.

وصاح **تانوس** من خلفه عندما خرجت الجماعة تهرول من المعسكر: «حاول أن تدركنا على الطريق إلى البحر. إن لم تستطع، فستجدنا معسكرين في واحة جبل **نقارة**. سننتظرك هناك. وتذكر أن تجلب قوسي **لاناتا** معك عندما ترجع!».

***

لم يكد **كراتاس** يغيب عن الأنظار وراء الطلعة الأولى على الطريق الغربي حتى شكَّل **تانوس** صفوف بقية الفوج وقادنا في الاتجاه المعاكس على طريق القوافل باتجاه البحر.

كان طريق القوافل من ضفتي نهر النيل إلى شواطئ البحر الأحمر طويلًا وشاقًا، وعادة ما تستغرق قافلة ثقيلة صعبة القيادة عشرين يومًا لتُكمل الرحلة، لكننا اجتزنا المسافة في أربعة أيام نتيجة دفع **تانوس** إيانا في سلسلة من المسيرات الحثيثة. عند الانطلاق، كنتُ وإياه على الأغلب الوحيدين اللذين ليسا في حالة جسدية ممتازة في الجماعة، غير أننا وبينما بلغنا جبل **نقارة**، كان **تانوس** قد أحرق الدهون الزائدة في جسده وتعرَّق آخر ما فيه من سموم النبيذ، وعاد نحيلًا وصلبًا.

أما عن نفسي، فكانت أول مرة أشارك فيها في مسير حثيث مع جماعة الحرس، وفي بضعة الأيام الأولى، عانيتُ جميع صنوف العذاب من عطش وآلام عضلية، وأقدام متقرحة وإنهاك، والتي لا بدَّ أن كا[1] الميت تُضطر إلى معاناتها في طريقها إلى العالم السفلي. لكن كبريائي لم تسمح لي بالتخلف عن الركب، بصرف النظر عن حقيقة أن التخلف في هذا المشهد البري المتوحش يعني الموت المحقق. ومما فاجأني وسرني أنني، وبعد بضعة الأيام الأولى، وجدت الحفاظ على مكاني في صفوف المحاربين المهرولين يزداد سهولة على سهولة.

عبرنا في طريقنا بقافلتين كبيرتين تتحركان ناحية النيل، وكانت سيقان حميرها متقوِّسة تحت أحمالها الثقيلة من البضائع التجارية، وقوات الحراسة المدججة بالسلاح تزيد كثيرًا على عدد التجار وخدمهم الذين شكلوا بقية الجماعة، إذ لا تأمن أي قافلة نهب الصردان إلا إن كانت بحماية قوة كهذه من المرتزقة، أو إن كان التجار متجهزين لدفع الإتاوة المعجزة التي يطلبونها ليسمحوا لهم بالمرور بحرية.

عندما التقينا أولئك الغرباء، رفع **تانوس** شاله على رأسه ليستر وجهه ويخفي كتلة شعره الأشقر، ذلك أنه شخصية مميزة إلى درجة تمنعه من المجازفة بأن يتعرَّفه أحد ويذيع في **الكرنك** أنه لا يزال حيًّا. ولم نردَّ التحيات أو نجيب الأسئلة التي طرحها علينا أولئك المسافرين، بل عبرناهم في صمت متحفِّظ من دون أن ننظر في اتجاههم حتى.

وقتما كنا لا نزال بعيدين مسير يوم عن الساحل، تركنا طريق القوافل الرئيس وانحرفنا جنوبًا، لنتبع مسارًا عتيقًا مهجورًا دلني عليه بدوي صحراوي صادقته منذ بضع السنوات. تكمن آبار جبل **نقارة** على هذا الطريق القديم إلى البحر، وقلما يزورها البشر في هذه الأيام، إلا البدو وعصابات الصحراء، إن كان بالإمكان تسميتهم بشرًا.

عندما وصلنا إلى الآبار، كنتُ بلغتُ من النحول واللياقة البدنية أفضل ما بلغتُه في حياتي، لكنني تحسَّرتُ على غياب المرآة لاقتناعي أن هذه الطاقة والقوة الجديدتين اللتين شعرتهما داخلي لا بدَّ انعكستا على ملامحي، وزادتا جمالي من غير شك، وكنتُ لأرحب بفرصة لأستبدعه بنفسي. لكن لم

(1) آمن المصريون القدماء أن الروح البشرية تتكون من خمسة أجزاء: رن وبا وكا وشيوت وإيب. كا هي جوهر الحياة، ما يفرق بين الحي والميت، وتغادر الجسد عند الوفاة. (المترجم).

يظهر نقص في آخرين يستبدعونه عوضًا عني، إذ أُلقيت حول نار المعسكر في الأمسيات نظرات شهوانية كثيرة ناحيتي، وتلقيتُ عددًا لا بأس به من العروض المختلسة من رفقائي، فحتى قوة مقاتلة نخبوية كالحرس كانت ملوَّثة بالعادة الجنسية المرخصة الجديدة التي اخترقت مجتمعنا.

كنتُ أبقي خنجري بجواري في الليل، وعندما ثقبتُ أول زائر غير مدعوٍّ لفراشي بسنِّه، سببت صرخاته الكثير من الفرح بين الآخرين، وبعد ذلك، رُحمتُ من أي كياسة أخرى غير مرحب بها.

حتى بعد أن بلغنا الآبار، لم يسمح لنا **تانوس** إلا باستراحة وجيزة، وبينما ننتظر **كراتاس**، أبقي رجاله يتمرنون بالسلاح ويتنافسون في الرماية والمصارعة والعَدْو. سرتني رؤية أن **كراتاس** قد اختار هؤلاء الرجال بصرامة وفق تعليماتي، فلم يكُن فيهم واحدٌ بهيميٌّ ضخم، وفي ما خلا **تانوس** نفسه، كانوا جميعًا رجالًا خِفافًا صِغار الحجم ملائمين تمامًا للدور الذي خطَّطتُه لهم.

وصل **كراتاس** بعدنا بيومين فقط، وبحسبان عودته إلى **الكرنك** والوقت المستغرق في أداء المهمات التي أوكله **تانوس** بها، فلا بدَّ أنه سافر أسرع منا حتى.

حياه **تانوس**: «ما الذي أخرك؟ أقابلتَ جاريةً راغبةً في الطريق؟».

فبينما يتعانقان أجابه **كراتاس**: «كنت حاملًا عِبئين ثقيلين على كاهلي؛ قوسَك وختمَ الباز. ويسرني التخلص من كليهما»، ثم سلَّمه السلاح والتُميثيل مبتسمًا، ومسرورًا كما يُسر دائمًا لعودته إلى صحبة **تانوس**.

أخذ **تانوس لاناتا** من فوره إلى الصحراء، فذهبت معه أساعده على اقتفاء أثر قطيع من الغزلان، وبينما كان مشهده وهو يدحرج أكثر من دزينة من هذه الكائنات الصغيرة الرشيقة بعددها نفسه من الأسهم تتسابق وتتقافز تباعًا مشهدًا استثنائيًا. في تلك الليلة، وفي أثناء تمتُّعنا بأكباد الغزلان وشرائح لحمها المشوي، ناقشنا المرحلة التالية من خطتي.

في الصباح، تركنا الحرس بقيادة **كراتاس**، وانطلقتُ **وتانوس** وحدنا إلى الساحل. كانت قرية صيد الأسماك الصغيرة التي ننشدها تبعد سفر نصف يوم فقط، وعلَونا عند الظهيرة آخر طلعة لنطل من التلال على البحر المتلألئ

المنبسط تحتنا. ومن هذا الارتفاع، رأينا بوضوح الحدود الداكنة للشعاب المرجانية تحت المياه الفيروزية.

حالما دخلنا القرية، نادى **تانوس** رئيس العمال، وبدت أهمية **تانوس** وسطوته واضحتين من مشيته، إذ جاء العجوز راكضًا وخرَّ ساجدًا عندما أراه ختم الباز كأن الفرعون نفسه واقف أمامه، ثم دق رأسه بالأرض بقوة خوَّفتني أن يتسبب لنفسه بإصابة خطرة. عندما أنهضته على قدميه، قادنا إلى أفخم نزل في القرية، تخشيبته الخاصة القذرة، وأخرج عائلته كثيرة الأفراد ليفسح مجالًا لنا.

بعد أن تناولنا زبدية من حساء السمك الذي قدمه لنا مضيفنا وشربنا كوبًا من نبيذ النخيل اللذيذ، نزلتُ أنا و**تانوس** إلى الشاطئ ذي الرمل الأبيض الباهر وغسلنا عرق الصحراء وغبارها في المياه الدافئة للبحيرة الشاطئة المسوَّرة بسدٍّ متعرج من المرجان والممتدة موازية للضفة. ومن خلفنا، ثقبت الجبال الخشنة الخالية من أوهى مسحة نباتية خضراء سماء الصحراء الزرقاء المتألقة.

كان البحر والجبال والسماء كيانات متناغمة في سمفونية من العظمة التي تُبهت الحواس، لكن ليس أمامي إلا قليل من الوقت لأقدِّر ذلك كله، فأسطول الصيد في طريق عودته، خمسة مراكب صغيرة متداعية، أشرعتها من سعف النخيل المفتول، تمرُّ عبر المعبر في الشعاب المرجانية، وحمولة كل منها عظيمة حتى إنها بدت في خطر الانقلاب قبل أن تبلغ الشاطئ.

إنني مشغوف بكل نِعم الطبيعة التي تمنُّ الآلهة بها علينا، لذا عاينتُ بشغفٍ الصيد عندما أُلقي على الشاطئ، وسألتُ الصيادين عن كلٍّ من الأنواع المئة المختلفة. شكّلت كومة الأسماك كنزًا براقًا من ألوان قوس القزح، وتمنيتُ لو أن معي لفائفي وعلب طلائي لأسجِّلها كلها.

كانت هذه الاستراحة قصيرة جدًا، فحالما أُنزل الصيد، ركبتُ أحد المراكب الصغيرة التي أنتنتها مهنتها، وبينما نخرج من الممر بين الشعاب لوحت **لتانوس** الواقف على الشاطئ، إذ إن عليه البقاء هنا ريثما أرجع رفقة المعدات التي نحتاج إليها من أجل الجزء القادم من خطتي. ومرة ثانية، لم أشأ أن يعرف وجهتي. وظيفته الآن منع أي من الصيادين أو عائلاتهم من التسلل إلى الصحراء ولقاء الصردان سرًا، ليخبِّر عن وجود سيِّد ذهبي الرأس يحمل ختم الباز في القرية.

أسلم المركب الصغير جؤجؤه لأول نفحة بحر قوية، وعكس قائد الدفة اتجاهه ليصعد شمالًا، فيمشي موازيًا لذلك الساحل القاتم البغيض. لم تكن أمامنا إلا مسافة قصيرة نقطعها، وقبل هبوط الليل، وجه قائد الدفة الجؤجؤ إلى الأبنية الحجرية المتكتِّلة في ميناء **سفاجا** على الخط الساحلي البعيد.

***

لألف عام مضَت، كانت **سفاجا** المرفأ الوسيط لكل التجارة القادمة إلى المملكة العليا من الشرق، وحتى في وقفتي في جؤجؤ مركبنا الضئيل، تمكنتُ من تبيُّن أشكال المراكب الأكبر حجمًا على الأفق الشمالي تغدو وتروح بين **سفاجا** والمرافئ العربية على الساحل الشرقي للبحر الضيق.

كان الظلام قد حلَّ عندما نزلتُ إلى شاطئ **سفاجا**، وبدا أن أحدًا لم يلاحظ وصولي. كنتُ أعرف وجهتي بالضبط، ذلك أنني اعتدتُ زيارة المرفأ بانتظام في قضائي أعمال السيد **إنتف** الشائنة، وفي هذه الساعة، تكون الشوارع شبه مقفرة، لكن الحانات مكتظة، فمضيتُ بسرعة إلى منزل التاجر **تيامات**، و**تيامات** رجل ثريٌّ منزله هو الأكبر في البلدة القديمة. وجدتُ عبدًا مسلحًا واقفًا بين الباب وبيني.

أمرتُه: «قُل لسيدك إن الجرّاح **الكرنكيَّ** الذي أنقذ ساقه هنا»، وخرج **تيامات** بنفسه يعرجُ ليُستقبلني. تفاجأ عندما رأى تنكُّري الكهنوتي، لكنه تحلى بحسن الإدراك الكافي لئلا يُعلق عليه، ولا يذكر اسمي أمام العبد، ثم شدَّني إلى حديقته المسورة، وحالما صرنا وحدنا قال متعجبًا: «أهذا أنت حقًا يا **تايتا**؟ لقد سمعتُ أنك قُتلت على أيدي الصردان في **الفنتين**».

كان رجلًا ضخمًا في متوسط العمر، له وجه منبسط ألمعيٌّ وعقل أريب. حُمل إليَّ في هودج منذ بعض السنوات إذ وجدته جماعة من المسافرين إلى جانب الطريق وقد تُرك على أنه ميتٌ بعد أن نهب الصردان قافلته، فقطَّبتُه، وتدبرتُ حتى إنقاذ ساقه التي كانت مصابة **بالغنغرينا** بالفعل وقتما رأيتها، إلا أنه سيمشي أعرج لبقية حياته.

قهقه قائلًا: «إنني مغتبط لرؤية أن أنباء موتك سابقة لأوانها»، وصفق بيديه ليجلب عبيده لي كوبًا من الشراب البارد وصحنًا من التين وتمرًا معسولًا.

وبعد دَور مُحترم من المحادثة المؤدبة، سأل بهدوء: «هل من شيء يمكنني خدمتك به؟ إنني مدين لك بحياتي، وما عليكَ إلا السؤال. منزلي منزلُك، وكل ما أملكه لك».

قلت له: «إنني هنا في مهمة تخص الملك»، وأخرجتُ ختم الباز من تحت غلالتي.

فتجهَّم وجهه: «أعترف بختم الفرعون، لكن لم يكن ضروريًا أن تريني إياه. اطلب مني ما تشاء. لا يمكنني رفض طلبك».

استمع لكل ما عندي من كلام من دون أن ينطق بكلمة أخرى، وعندما انتهيت، أرسل في طلب حاجبه وأملى عليه أوامره أمامي، وقبل أن يُرسل الرجل استدار إليَّ وقال: «هل نسيتُ شيئًا؟ أتريدُ شيئًا آخر أيًا ما كان؟».

- إن سخاءك لا حدود له، لكن ثمة شيء واحد آخر؛ لقد اشتقتُ إلى عدة كتابتي.

فعاد إلى الحاجب وقال: «احرص على وجود لفائف وريَش وعلبة حبر في إحدى الصُّرَر».

ظللنا نتكلم بعد أن غادر الحاجب حتى انقضى نصف الليل. يقف تيامات في مركز أكثر الطرق التجارية انشغالًا في المملكة العليا، وقد سمع كل شائعة ووشوشة من أقصى مرامي الإمبراطورية، ومن وراء البحر، فعرفت في بضع الساعات هذه في حديقته أكثر مما كنتُ لأعرفه في شهر بقصر الفنتين.

سألته: «أما زلت تدفع الفدية للصردان حتى يسمحوا لبضائعك بالمرور؟»، وهزَّ كتفيه استسلامًا.

- بعد ما فعلوه بساقي، أي خيار أمامي؟ في كل موسم تزداد مطالبهم فداحة. عليَّ أن أدفع ربع قيمة بضائعي لهم حالما تغادر القافلة سفاجا، ونصف أرباحي عندما تباع البضائع في طيبة. قريبًا سيُفقروننا كلنا، وينمو العشب على طرق القوافل، وتذوي التجارة في المملكة وتموت.

- وكيف تدفع هذه الدفعات؟ من يقرر المبلغ، ومن يجمعها؟

- لهم جواسيسهم هنا في المرفأ. يراقبون كل حمولة تُنزَّل، ويعرفون ما تحمله كل قافلة عندما تغادر سفاجا، وقبل أن تبلغ المعبر الجبلي حتى، يلاقيها أحد زعماء اللصوص ويطلب الفدية التي قرروها.

وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير وقتما نادى **تيامات** عبدًا ليضيء الطريق إلى الغرفة التي خصصها لي.

ثم بينما عانقني يقول: «سترحل قبل أن أفيق في الغد. إلى اللقاء يا صديقي الطيب. لم يُسد ديني كاملًا بعد، اطلبني مرة أخرى، متى ما كنتَ في حاجة».

أيقظني العبد نفسه قبل الفجر، وقادني إلى الواجهة البحرية في الظلمة. كانت سفينة تجارية فاخرة من أسطول **تيامات** راسية في الشعب، ورفع قبطانها المرساة حالما صعدت متنها.

تسللنا في منتصف الصباح عبر الممر بين المرجان وأنزلنا المرساة أمام قرية الصيد الصغيرة حيث وقف **تانوس** ليستقبلني.

***

في خلال غيابي، تمكن **تانوس** من جمع ستة حمير عوهاء، وخاض بحّارة سفينة **تيامات** في الماء إلى الشاطئ حاملين الصُّرر التي جلبناها من **سفاجا** فحمّلوها على هذه الكائنات اليائسة. تركتُ **وتانوس** قبطان المركب التجاري بأوامر صارمة أن ينتظر عودتنا، ثم بينما نقود سلسلة الحمير برًّا إلى آبار جبل **نقارة** عدنا.

بدا واضحًا أن رجال **كراتاس** قد احتملوا الحر وذباب الرمل والملل على مضض، إذ منحونا ترحيبًا لا يلائم الفترة التي غبناها، فأمر **تانوس كراتاس** أن يصفُّهم، وبينما راقبتني صفوف المحاربين أفكُّ أول صرة جلبناها على طابور الحمير. وعلى الفور تقريبًا، استحال اهتمامهم تسلية خفيفة عندما أخرجتُ زيَّ أمة، واستحالت هذه التسلية بدورها طنينًا من التخمينات والجدالات عندما أثمرت الصرر تسعة وسبعين زيًّا أنثويًّا إضافيًّا.

ساعدني **كراتاس** واثنان من ضباطه على وضع واحد من هذه الأزياء على الرمل أمام كلٍّ من رجال الحرس، ثم أمرهم **تانوس**: «تعروا! والبسوا الثوب الذي أمامكم!» فانطلق هدير احتجاج وبهجة مرتابة، ولم يبدؤوا بإطاعته إلا عندما مر **كراتاس** وضباطه على الصفوف بنظرات حازمة مصطنعة لتعزيز الأمر.

على عكس نسائنا اللاتي غالبًا ما يتركن صدورهن مكشوفة وسيقانهن حرةً عارية، تلبس نساء **آشور** تنورات تكنس الأرض وأكمامًا تغطي أذرعهن

حتى الأرساغ. ولأسباب تتعلق باحتشام في غير محله، يسترن وجوههن حتى عندما يمشين في الخارج، على أن هذه القيود ربما فرضتها عليهنَّ الغيرة التملكيّة لرجالهن. لكن من ناحية أخرى، فثمة فرق شاسع بين أرض مصر المشمسة وهذا المناخ القاتم حيث يسقط الماء من السماء ويستحيل صلبًا وأبيض على قمم الجبال، فتُقَشْعِر الريح لحم الإنسان وعظامه كالموت.

وما إن تجاوز الرجال الصدمة الأولى لرؤية بعضهم بعضًا بهذه الحلة الأجنبية، دخلوا في روح اللحظة، وسرعان ما صار أمامنا ثمانون أمة محجَّبة تتقافز وتتبختر بالتنورات الطويلة التي تبلغ كواحلهن، وتقرص إحداهن عجيزة الأخرى بينما يلقين نظرات غرام مبالغ فيها إلى **تانوس** وضباطه.

لم يعُد بإمكان الضباط الحفاظ على رصانتهم. وربما بسبب حالتي المميزة، طالما وجدت منظر الرجال المرتدين ثياب النساء منفرًا تنفيرًا مُبهمًا، لكن من الغريب أن قلة من الرجال الآخرين تشاركني مشاعر نفوري، ولا يتطلب الأمر إلا أن يتشح أزعر مُشعِر ما بتنورة ليهبط بجمهوره إلى حالة من الخلاعة.

في لجة هذه الجلبة، هنأتُ نفسي على أنني أصررت أن لا يختار **كراتاس** إلا أصغر رجال السرب وأنحلهم، فبينما أنظر إليهم، تيقنتُ أنهم سيتمكنون من إكمال الخديعة. لا يحتاجون إلا إلى بعض التدريب على المشية الأنثوية.

***

في الصباح التالي، مرت قافلتنا الغريبة بقرية الصيد الصغيرة وشقت طريقها إلى الشاطئ، حيث ينتظرنا المركب التجاري. شكل **كراتاس** وثمانية من ضباطه الحامية، ذلك أن الغياب التام للمرافقة المسلحة في شحنة بضاعة كهذه سيثير الشبهات بالتأكيد، وتسعة رجال مسلحين يرتدون الزي المبرقش للمرتزقة يكفون لكسر حدة ذلك، لكنهم لن يردعوا غارة كبيرة من الصردان.

سار **تانوس** في مقدمة القافلة، مرتديًا أرواب الأغنياء وغطاء رأس مطرَّز يعتمره التجار الأثرياء من البلاد وراء نهر الفرات. كانت لحيته قد طالت وكثُفت، وجعَّدتُها له في الحُليقات الأنيقة التي يفضلها الآشوريون. للكثير من هؤلاء الآسيويين، ولا سِيَّما أهل المناطق الجبلية في الشمال البعيد، كانت لهم سحناء **تانوس** نفسها ولون بشرته، لذا طابق مظهره الدور الذي اخترته له.

تبعته من كثب وقد تغلبتُ على نفوري من لبس الملابس الأنثوية، فارتديت التنورة الطويلة والخمار، وتزينت بالجواهر الباهرجة التي تتزين بها الزوجات الآشوريات. كنتُ عازمًا على أن لا يتعرفني أحد عندما أرجع إلى **سفاجا**.

نشَّط دوار البحر الذي أصاب معظم الإماء وما يزيد على بعض الضباط الرحلة، ذلك أنهم معتادون الإبحار في مياه النهر العظيم الهادئة، وفي وقت من الأوقات، سطر العديد منهم السور ليقدم أضحيته لآلهة البحر حتى مالت السفينة مَيلًا واضحًا.

أراحنا جميعًا أن نزلنا إلى شاطئ **سفاجا**، حيث أثرنا حماسًا كثيرًا، ذلك أن الفتيات الآشوريات مشهورات بمهارتهنَّ على أرائك الحب، وقيل إن معظمهن يجيد جِيلًا بمقدورها أن تعيد مومياءً عمرها ألف عام إلى الحياة. بدا بديهيًا لأولئك الذين يراقبوننا ننزل إلى الشاطئ أن إماءنا وراء خُمُرهن صور للحُسن الأنثوي بلا شك، وما كان تاجر آسيوي حصيف لينقل بضائعه كل هذه المسافة وبهذه التكاليف إن لم يكن واثقًا من تحصيل سعر جيد في سوق النخاسة على النيل.

اقترب أحد تجار **سفاجا** من **تانوس** على الفور وعرض عليه شراء سرب البنات كله في الحال، وإعفاءه من الرحلة الشاقة عبر الصحراء معهن، فلوَّح **تانوس** بيده مبعدًا إياه وأرسل قهقهة هازئة.

ألحَّ عليه التاجر: «هل حذرك أحد من أخطار الرحلة التي تنتوي خوضها؟ ستُجبر قبل أن تبلغ النيل على دفع فدية مرور آمن تُفني معظم أرباحك».

- ومن سيجبرني على الدفع؟ لن أدفع إلا ما أدين به.
- ثمة أناس يحرسون الطريق، وحتى إن دفعت ما يطلبون، لا يُجزم أن يتركوك تمر سالمًا، ولا سِيَّما رفقة بضائع مغرية كهذه التي معك. إن النسور القاطنة طريق النيل بدينة من التغذي على جثث التجار العنيدين حتى إنها بالكاد تطير. بعني الآن بفائدة مناسبة...
- معي حرس مُسلحون (وأشار **تانوس** إلى **كراتاس** وفرقته الصغيرة) وسيكونون أندادًا لأي لصوص قد نقابلهم. (فضحك جمهور المنصتين إلى الحوار ضحكة مكتومة ووكز بعضهم بعضًا إزاء تبجُّحه).

وهزَّ التاجر كتفيه: «حسنٌ جدًا يا صديقي الجسور. سأبحث في رحلتي التالية إلى الصحراء عن هيكلك العظمي إلى جانب الطريق، وسأتعرفكَ من لحيتك الحمراء المغرورة هذه».

برَّ **تيامات** بوعده لنا، وجعل أربعين حمارًا في انتظارنا. كان عشرون منها محمَّلين بقرب الماء الملأى، والبقية عليها برادع لتحمل الصرر والحزم التي أنزلناها إلى الشاطئ من السفينة التجارية.

كنت حريصًا على أن نقضي أقل وقت ممكن في المرفأ. تحت كل هذه الأعين المتطفلة، إذا لا يحتاج كشف جنس الإماء الحقيقي إلا هفوة واحدة من إحداهن، فتُنقض جهودنا. استعجلهن **كراتاس** لمرافقته عبر الشوارع الضيقة، مبقيًا المتفرجين على بعض المسافة، وحريصًا على أن تبقي الإماء خُمُرهن في مكانها وأعينهن منكّسة، وألا ترد إحداهن بصوت ذكوري جلف على التعليقات البذيئة التي تلاحقنا، حتى صرنا في الريف المفتوح وراء البلدة.

نصبنا المخيم في تلك الليلة ولا نزال على مرأى من **سفاجا**. ورغم أنني لم أتوقع هجومًا قبل أن نتجاوز أول معبر جبلي، كنتُ متيقنًا أن جواسيس الصردان يراقبوننا بالفعل.

بينما لا يزال النهار مضيئًا، حرصت على أن تتصرف إماؤنا تصرفات النساء، فيبقين وجوههن وأجسادهن مستورة، ويجلسن عندما يذهبن إلى الوادي القريب ليلبِّين مطالب الطبيعة القرفصاء بطريقة محتشمة، لا يرششن ماءهن بفظاظة واقفات.

ولم يأمر **تانوس** بفتح الحزم التي تحملها الحمير وتوزيع الأسلحة التي تحتويها على الإماء إلا بعد هبوط الظلام، فنام كل منهم وقوسه وسيفه مخبآن تحت مُفترَشه.

عيَّن **تانوس** حراسًا مضاعفين حول المخيم، وبعد أن تحققنا منهم وتأكدنا أن جميعهم في موقع جيد وانتباه تام، انسللتُ و**تانوس** مبتعدين، وعدنا تحت جنح الليل إلى مرفأ **سفاجا**. ثم قدته عبر الشوارع المعتمة إلى منزل **تيامات**، وكان التاجر يرتقب وصولنا، فبسط لنا مائدة ليرحب بنا، واستشفَيتُ أنه كان متحمسًا للقاء **تانوس**.

حيّاه قائلًا: «إن شهرتك تسبقك يا سيد حاراب. لقد عرفت أباك. كان رجلًا حقيقيًا. ورغم أنني سمعتُ إشاعات كثيرة تقول إنك مِتَّ في الصحراء منذ أقل من أسبوع، وإن جثتك في هذه اللحظة مسجاة عند الحانوتيين على ضفة النيل الغربية، تخضع للأيام الأربعين الطقسية لعملية التحنيط، مُرحبٌ بك في منزلي المتواضع».

وبينما تمتعنا بالوليمة التي قدمها لنا، ساءله تانوس باستفاضة عن كل ما يعرفه فيما يخص الصردان، وأجابه تيامات بطلاقة وصراحة.

نظر تانوس إليّ أخيرًا وأومأ برأسه، ثم استدار إلى تيامات وقال: «لقد كنتَ صديقًا سخيًا لنا، ولم نكن رغم ذلك صادقين بالكامل معك. والضرورة سبب ذلك، لأن من بالغ الأهمية أن لا يخمّن أحد غايتنا الحقيقية في هذا المسعى. أخبرك الآن أن هدفي سحق الصردان وتسليم قادتهم لقضاء الفرعون وسخطه».

ابتسم تيامات ومسّد لحيته: «لم يفاجئني هذا كثيرًا، فقد سمعتُ بالمهمة التي وضعها الفرعون على عاتقك في مهرجان أوزيريس. ولم يترك ذلك، مُضافًا إلى اهتمامك الجليّ بتلك العصابات السفاكة، إلا قليل الشك في خلدي. لا يمكنني القول إلا إنني سأقدم الأضاحي للآلهة قربانًا لنجاحك».

- سأحتاج إلى مساعدة ثانية لأنجح.
- ما عليك إلا الطلب.
- أتظن أن الصردان باتوا عارفين بأمر قافلتنا؟
- سفاجا كلها تتكلم عنكم، فحمولتك هي أثمن حمولة وصلت في هذا الموسم، إذ تبلغ قيمة ثمانين أمة جميلة ألف خاتم ذهبي على الأقل لكل واحدة منهن في الكرنك. (ثمّ قهقه وهز رأسه إثر الدعابة) ثِق أن الصردان يعلمون بأمركم بالفعل، وقد رأيت على الأقل ثلاثة من جواسيسهم في الحشد عند الساحل يراقبونكم. توقع أن يقابلوكم ويقدموا مطالبهم قبل أن تصلوا إلى المعبر الأول حتى.

عندما نهضنا لنستأذن في المغادرة، مشى معنا حتى بابه: «فلترعى الآلهة جميعها مسعاكم. ليس الفرعون وحسب، بل كل نفس حية في المملكة بأسرها ستكون مدينة لكم إن تمكنتم من القضاء على هذه المصيبة الفظيعة التي تهدد بدمار حضارتنا، وإعادتنا جميعًا إلى الهمجية».

***

عندما انطلق الرتل في الصباح التالي، كان الجو لا يزال مظلمًا وباردًا. بينما تقدم **تانوس** -**ولاناتا** مُدلاةٌ على كتفه- القافلة، أتبعُه، بكل بهائي وجمالي النسائي، من كثب.

من خلفنا، كانت الحمير ملجومة في طابور واحد، تتحرك أنفًا لذيل في منتصف الممر المتهالك، والإماء في رتل ثنائي على جانبي طابور الحمير. كانت أسلحتهن مخبأة في البرادع على ظهور الحيوانات، فلا يحتاج أي من الرجال إلا إلى مد يده لتصير على نصاب سيفه.

قسم **كراتاس** مرافقته إلى ثلاث جماعات كل منها من ستة رجال، يقودها **أستيس ورِمرِم** وهو. كان **أستيس ورِمرِم** محاربين شهيرين وأكثر من مستحقين قيادة فرقٍ خاصة بهما، لكنَّ كليهما رفض في مناسبات عديدة الترقية ليبقى مع **تانوس**. هذا هو صنف الولاء الذي ألهبه **تانوس** في جميع من خدموا تحت إمرته. لم يسعني إلا التفكير مرة أخرى في العظمة التي كان ليبلغها لو صار فرعونًا.

وراحت المرافقة تسير متراخية على طول الطابور، باذلة كل الجهد الممكن للتخلي عن مشيتها العسكرية. قد يبدو للجواسيس الذين يراقبوننا من التلال بلا شك أنها حاضرة لا لشيء إلا منع أي من الإماء من الهرب، بينما عناصرها في الحقيقة منشغلون كل الانشغال بلجم بواعثهم على الاندفاع في مشية عسكرية وصياح لازمة إحدى أغاني الفرقة الصاخبة.

سمعتُ **رِمرِم** يعترض على أحدهم: «هيه! أنت يا **كيرنيت**! لا تخطُ هذه الخطوات الطويلة يا رجل، وهزهز مؤخرتك البدينة تلك بعض الشيء! حاول أن تكون جذابًا!».

فردَّ عليه **كيرنيت**: «أعطني قبلةً أيها النقيب وسأفعل أي شيء تقوله».

كانت الحرارة تتصاعد، وبدأ السراب يجعل الصخور تتراقص، فاستدار **تانوس** إليَّ: «قريبًا سأعلن استراحتنا الأولى. كأس واحدة من الماء لكل...».

فقاطعتُه: «لقد وصل أصدقاؤك يا زوجي الصالح، انظر أمامك!».

عاد **تانوس** بنظره، وقبض غريزيًا على مقبض قوسه العظيم المدلى على جانبه: «ويا لهم من صحب راقين أيضًا!».

في تلك اللحظة، كان طابورنا يتعرج بين التلال السفحية الأولى أسفل صعيد الصحراء، ومن كلتا الناحيتين، كنا مسوَّرين بالجوانب المنحدرة للتلال

الصخرية. وقف ثلاثة رجال في الطريق أمامنا، قائدهم شخصية طويلة ماكرة، متسربل باللباس الصوفي الذي يلبسه المسافر في الصحراء، لكن رأسه مكشوف، وله بشرة شديدة السمرة نَخربَتها ندوب الجدريِّ، وأنف يشبه منقار نسر. وكانت عينه اليمنى هلامًا أغبش بسبب دودة العمى التي تحفر عميقًا في مقلة ضحاياها.

قلتُ برفق حتى لا يسمعني أحد إلا **تانوس**: «أعرف هذا السافل الأعور. اسمه **شوفتي**، وهو أسوأ زعماء الصردان سمعة. احذره، فالأسد وحش لطيف بالمقارنة به».

لم يُبدِ **تانوس** أي إشارة على أنه سمعني، بل رفع يده اليمنى ليُظهر أنها لا تحمل سلاحًا، ونادى بابتهاج: «فلتكن أيامك جميعها معطرةً بالياسمين أيها المسافر الكريم، وعسى أن تستقبلك زوجة محبة في باب بيتك عندما تنتهي رحلتك أخيرًا».

فردَّ عليه **شوفتي**: «عسى أن تظل قُرَبُ مائك ملأى وأن تهوِّي النسمات الباردة جبهتك في عبورك الرمال الظامئة» وابتسم، فكانت ابتسامة أعنف من زمجرة نمر، ولمعت عينه الوحيدة لمعانًا مروِّعًا.

- إنك لمفضالٌ يا سيدي النبيل، أودُّ لو أدعوك إلى وليمة وإلى ضيافة مخيَّمي، لكن أرجو أن تسامحني، فأمامنا طريق طويل، ولا بدَّ لنا من العبور.

تقدم **شوفتي** ليقطع الطريق: «امنحني بعضًا من وقتك بعدُ يا صديقي الآشوري اللبق، فلديَّ شيء ستحتاج إليه إن كنتَ راغبًا بلوغ النيل رفقة قافلتك بأمان»، وحمل بيده غرضًا صغيرًا.

فتعجَّب **تانوس** قائلًا: «آه، تميمة! أتراك ساحرًا؟ أي ضرب من التمائم هذا الذي تقدمه لي؟».

- ريشة. ريشة صُرَد. (ولا يزال مبتسمًا).

فابتسم تانوس، كأنما يجامل طفلًا: «حسنٌ جدًّا إذن، أعطني هذه الريشة ولن أؤخرك أكثر».

- هدية مقابل هدية. عليك أن تعطيني شيئًا بالمقابل. أعطني عشرين من إمائك، ثم، عندما ترجع من مصر، أقابلك في الطريق ثانية لتعطيني نصف أرباحك من مبيع الستين الباقيات.

فقال **تانوس** ساخرًا: «مقابل ريشة واحدة؟ تبدو هذه صفقة بائسة من ناحيتي».

- هذه ليست ريشة عادية. إنها ريشة صُرَد. هل أنت جاهل حدَّ أنك لم تسمع بالطائر من قبل؟

مشى **تانوس** ناحيته ويده اليمنى ممدودة وقال: «أرني هذه الريشة السحرية»، وتقدم **شوفتي** ليلاقيه، وفي الوقت نفسه، تمشى **كراتاس ورِمِرِم وأستيس** بصورة فضولية، كأنما ليعاينوا الريشة.

وبدلًا من أن يأخذ الهدية من يده، قبض **تانوس** فجأة على معصم **شوفتي** وبرمه رافعًا إياه بين لوحي كتفه. سقط **شوفتي** على ركبتيه مطلقًا صيحة ذعر وثبته **تانوس** بسهولة، وفي اللحظة نفسها، اندفع **كراتاس** ورجاله فباغتوا المسلَّحَين الآخرين مثلما بوغت زعيمهم، وأسقطوا الأسلحة من أيديهم، وجروهما إلى حيث يقف **تانوس**.

صاح **تانوس**: «أخُيِّلَ إليكم أيها الطيور الضئيلة أن تخيفوا **كاآريك** الآشوري بتهديداتكم؟ بلى يا بائع الريش الأنيق، لقد سمعتُ بالصردان. سمعتُ أنهم سرب من الفراخ الضئيلة المقفقفة الجبانة، والذي يثير صخبًا أكثر من سرب من العصافير (ولوى ذراع **شوفتي** بعنف أشد، حتى صرخ اللص ألمًا وانبطح)، بلى سمعتُ بالصردان، لكن أسمعتم **بكاآريك** المروِّع؟!». وأومأ **لكراتاس**، فجردوا الصردان الثلاثة بسرعة وكفاءة من ثيابهم وثبتوهم بأطراف منشورة على الأرض الصخرية.

قال له **تانوس**: «أريدك أن تذكر اسمي، وتطير بعيدًا كصُرد صغير صالح وقتما تسمعه في المرة القادمة»، وأومأ **لكراتاس** ثانيةً. ثنَّى **كراتاس** مِجلَد العبيد بين أصابعه، وكان من صنف أداة **راسفر** الشهيرة نفسها، منحوتًا من جلدِ فرس نهر مملح، ثم مد **تانوس** يده يطلبه، فسلمه **كراتاس** إياه على مضض.

فقال له **تانوس**: «لا تحزنَ أيها النخاس، سأتركك تحظى بدورك لاحقًا. لكن **كاآريك** الآشوري يغرف الغرفة الأولى من القِدر دائمًا».

ضرب **تانوس** الهواء بالسوط جيئة وذهابًا، وصفَّر كجناحيْ إوزة في طيرانها، فتلوَّى **شوفتي** حيث مُدِّد ولفَّ رأسه ليهسَّ في وجه **تانوس**: «إنك مخبول أيها الثور الآشوري! ألا تدرك أنني زعيم من زعماء عشيرة الصردان؟

إياك أن تفعل هذا بي...» كان ظهره وعجيزته العاريين مرقطين بندوب الجدري.

رفع **تانوس** السوط عاليًا، ثم أنزله بضربة وضع فيها طول ذراعه كله وكامل وزنه، فرسم كدمة أرجوانية بثخن سبابتي على ظهر **شوفتي**، وكان الألم مبرِّحًا حتى إن جسد اللص تشنج بكامله وخرج الهواء صافرًا من رئتيه فلم يستطع الصراخ. ثم رفع **تانوس** المِجلَد وأنزل بإتقان كدمة أخرى مُحزِّزة وازَت الأولى تمامًا، وكادت تمسُّها غير أنها لم تفعل. وهذه المرة، ملأ **شوفتي** رئتيه وأطلق جؤارًا أصحل، مثل جاموس وقع في وُجْرة. تجاهل **تانوس** تنازعه وجؤاره الحانق، وتابع عمله مثابرًا، ينزل عليه الضربات كأنما ينسج سجادة.

عندما انتهى أخيرًا، كانت على ساقي ضحيته وردفيه وظهره شبكة من الجَلدات القاسية، لكن لم تتراكب أي ضربة على أخرى، وظل الجلد سليمًا دون أن تقطر منه قطرة دم، غير أن **شوفتي** لم يعُد يتلوى أو يصرخ، بل رقد وجهه محشورًا في التراب، وأنفاسه تخرخر في حلقه، وكل زفرة من زفراته تثير نفخة غبار. لم يحاول الجلوس عندما تركه **رِمرم وكراتاس**، ولم يتزحزح حتى.

رمى **تانوس** السوط **لكراتاس**: «التالي لك أيها النخاس. فلنرى أي نقش جميل يمكنك وشمه على ظهره».

ضجَّت ضربات **كراتاس** قوةً، لكنها افتقرت إلى البراعة التي أظهرها **تانوس**، وسرعان ما صار ظهر اللص يزرب كجرة نبيذ معيوبة، وراحت قطيرات الدم تهطل على التراب وتتدحرج لتصير كرات طينية صغيرة.

رضيَ **كراتاس** أخيرًا، وسال منه بعض العرق، فمرر السوط **لأستيس** وأشار إلى الضحية الأخيرة: «امنَح ذاك شيئًا يذكره بالتزام الآداب كذلك».

كانت لمسة **أستيس** أجلف من **كراتاس** حتى، وعندما انتهى، بدا ظهر اللص الأخير كخاصرةٍ من لحم بقري طازج قطعها جزار مخبول.

أشار **تانوس** للقافلة بأن تتقدم ناحية المعبر بين جبال الصخر الأحمر، وتلبثنا قليلًا بجوار الرجال العراة الثلاثة.

تحرك **شوفتي** أخيرًا ورفع رأسه، فخاطبه **تانوس** بتهذيب: «وهكذا يا صديقي، أستأذنك بالمغادرة. تذكر وجهي، وامشِ بحذر عندما تراه ثانية. (ثم

التقط ريشة الصُرد الساقطة وغرزها في غطاء رأسه)، أشكرك على هديتك، وعسى أن تحتضن ليلاتك كلها أذرعُ السيدات المليحات». ولمس قلبه وشفتيه على غرار إشارة الوداع الآشورية، وتبعتُه على الطريق خلف القافلة المغادرة.

نظرت خلفي قبل أن نهبط الطلعة التالية، ورأيتُ الصردان الثلاثة واقفين، يسند واحدهم الآخر ليظل مستقيمًا. وتبينتُ رغم المسافة التعبير على وجه شوفتي. كان خلاصة الكراهية المقطَّرة.

قلت لكراتاس وبرابرته: «حسنًا، لقد حرصتم على أن ينقضَّ علينا كل صردٍ على هذا الجانب من النيل في اللحظة التي سنخطو فيها أول خطوة وراء المعبر». وما كنتُ لأسعدهم أكثر لو وعدتهم بحمولة سفينة من الجعة والبنات الجميلات.

***

نظرنا من قمة الممر وراءنا إلى زرقة البحر الهادئة مرة أخيرة، ثم هبطنا إلى البرية الصخرية والرملية القائظة الحائلة بيننا وبين النيل.

وبينما نتحرك قدُمًا، هاجمنا الحرُّ هجوم عدوٍ لدود. بدا أنه يدخل من أفواهنا ومناخرنا عندما نلهث أنفاسنا، ويمتص الرطوبة من أجسادنا مثل لص، فجفف جلودنا وشققها حتى انفتحت شفاهنا كحبات تينٍ أذبلها النُّضج. وكان الصخر تحتنا ساخنًا كأنه خرج لتوه من تنور صانع القدور، فسفع أقدامنا وقرّحها مخترقًا النعال الجلدية لصنادلنا، واستحالت علينا متابعة المسير في أشد ساعات النهار حرًا، فاستلقينا في الظل الواهي للخيام الكتانية التي منحنا إياها تيامات، ورحنا نلهث ككلاب الصيد بعد المطاردة.

تابعنا طريقنا بعد أن غاصت الشمس في أفق الصخر المتعرج، وكانت الصحراء من حولنا مشحونة بخطرٍ محيطٍ مجهولٍ كبَت حتى معنويات حرس التمساح الأزرق العالية. شق الطابور الطويل البطيء طريقه مثل أفعوان مشوّه عبر المنكشفات الصخرية السوداء والكثبان الغبراء غُبرة الأُسود فوق الطريق القديم الذي عبره من قبلنا مسافرون آخرون لا حصر لهم.

عندما أرخى الليل سدوله أخيرًا، أشرقت السماء بسناء النجوم وأنار الصحراء نور ساطع جعلني أتعرف من مكاني على رأس القافلة وشكل كراتاس في ذيلها، رغم أن مئتي خطوة تفصلنا. سِرنا عند نصف الليل قبل أن يعطي تانوس الأمر بالاستراحة، ثم أيقظنا قبل الفجر وسِرنا حتى أذاب

سراب الحر المنكشفات الصخرية من حولنا وجعل الأفق يطفو ويبدو مسبوكًا من قارٍ سائل.

لم نرَ أي أثر آخر من آثار الحياة، باستثناء مرة نبحَت علينا فيها زمرة من قرود الرباح الصفراء من جروف هضبة جرداء في مرورنا من تحتها، وحوَّمت نسورٌ في السماء الزرقاء الحارة على علو جعلها لا تبدو إلا هباءً يدور في دوائر بطيئة ومدروسة فوقنا.

عندما استرحنا في منتصف النهار، راحت الزوابع تدور حول نفسها وتتمايل برشاقة الحوريات الراقصة في السهول، وبدا كأس الماء الذي كان حصّتي يستحيل بخارًا في فمي.

تذمّر **كراتاس** بغضب: «أين هم بحق صفن بيت المتعرق؟ آمل أن تستجمع هذه الطيور الصغيرة شجاعتها قريبًا وترجع إلى مجثمها».

ورغم أننا جميعًا محاربون قدماء أشداء ومعتادون الضنك والمشقة، كانت الأعصاب والأمزجة تزداد إرهاقًا.

بدأ الرفاق المقربون والأصدقاء القدامى يزمجر أحدهم في وجه الآخر بلا سبب، ويتشاجرون على حصة الماء.

قلت **لتانوس**: «إن **شوفتي** لكلب عجوز ماكر. سيجمع قواته وينتظر أن نأتي إليه بدلًا من الإسراع إلى لقائنا. قصده أن يتركنا تنهك أنفسنا بالرحلة، ونصير -لإعيائنا- مستهترين، قبل أن يضرب ضربته».

في اليوم الخامس، عرفتُ أننا نقترب من واحة جلالة عندما رأيتُ أن الجروف القاتمة أمامنا مثقبة بكهوف المقابر القديمة. منذ قرون مضت، كانت الواحة تعيل مدينة مزدهرة، لكنْ زلزالًا زلزل الهضاب وأتلف الآبار. ورغم أن الآبار حُفرت إلى أعماق أسحق للوصول إلى المياه المنكفئة، وبلغت السلالم الأرضية مكانًا حيث يظل سطح الماء في الظل دائمًا، ماتت المدينة، وانتصبت الجدران معدومة الأسقف مُهملة في الصمت، وشمست العظاءات نفسها في الأحواش التي غازل فيها التجار الأثرياء نساءهم ذات مرة.

كان همنا الأول تعبئة قِرَب مائنا. شوَّه الصدى في البئر السحيق أصوات الرجال الذين يسحبون الماء من قعره، وبينما انهمكوا في ذلك، ذهبتُ **وتانوس** في جولة سريعة على المدينة اليباب. كانت مكانًا موحشًا وكئيبًا، في وسطه المعبد المتضعضع لإله جلالة الراعي، وقد انخسف سقفه وانهارت

جدرانه في بعض الأماكن. لم يكن له إلا مدخل واحد عبر البوابة المتفتتة في طرفه الغربي.

بينما غمغم **تانوس** يذرعه، ويقيسه بعين الجُنديَّة من أجل التحصين ونصب الكمين: «هذا سيفي بالغرض أيما إيفاء (وعندما سألته عن نواياه، ابتسم وهز رأسه) اترك هذا الجزء لي يا صديقي القديم. القتال حرفتي».

وبينما نقف في منتصف المعبد، لاحظتُ آثار مجموعة من قرود الربَّاح على التراب تحت أقدامنا، فدللت **تانوس** عليها وقلت له: «لا بدَّ أنها تأتي لتشرب من الآبار».

عندما جلسنا في ذلك المساء حول النيران الصغيرة المدخِّنة لروث الحمير المجفف في المعبد العتيق، سمعنا قردة الربَّاح ثانية، إذ راحت فحولها المسنَّة توعوع تحديًا في التلال المحيطة بالمدينة اليباب، ودوَّت أصواتها جيئة وذهابًا على طول الجروف، فأومأت **لتانوس** من فوق النار: «لقد وصل صديقك **شوفتي** أخيرًا. كشَّافته في التلال فوقنا يراقبوننا الآن، وهم من خوَّف القردة».

زمجر **تانوس** قائلًا: «آمل أن تكون محقًّا، فأوغادي على وشك التمرد، وهم يعرفون أن الأمر كله فكرتك، لذا إن كنت مخطئًا، فقد أضطر إلى تسليمهم رأسك أو دُبُرك لأسترضيهم»، ومضى ليكلم **أستيس** عند النار المجاورة.

تفشى مزاج جديد بسرعة في المخيم عندما أدركوا أن العدو قريب، فتلاشت التقطيبات وبينما ابتسم بعض الرجال لبعض في ضوء النار يختبرون خلسةً نصال سيوفهم المخبأة تحت الفُرُش الجالسين عليها. غير أنهم كانوا محاربين حذرين وظلوا على سيرة حياة القافلة العادية حتى لا ينبِّهوا مراقبيهم في التلال المعتمة فوقنا. وأخيرًا، صار جميعنا محزومًا على فراشه، وخبَت النار، لكن لم ينم منا أحد، وسمعتهم يسعلون ويتململون باضطراب في العتمة من حولي. طالت الساعات المديدة، وراقبت من خلال السقف أبراج النجوم العظيمة تدور في بهاء مهيب فوق رأسي، لكن لم يأتِ الهجوم.

وقبل الفجر بقليل، جال **تانوس** جولته الأخيرة على الحراس، ثم، وفي طريق عودته إلى مكانه بجوار رماد نيران الليلة الماضية البارد، توقف بجوار فراشي للحظة وهمس: «أنت وأصدقاؤك قردة الربَّاح يستحق بعضكم بعضًا. كلكم ينبح على الظلال».

فاحتججتُ: «الصردان هنا. يمكنني شمُّهم. التلال تعجُّ بهم».

نخر فيَّ قائلًا: «كل ما يمكنه شمُّه هو الوعد بالفطور». كان يعلم كم أبغض اقتراح أنني نهِم، وبدلًا من الرد على هذه الدعابة الفَّزة، خرجتُ إلى الظلمة لأريح نفسي وراء أقرب كومة من الحطام.

وعندما قرفصت هناك، وَعوَع رُبَّاح ثانيةً، وكسَّرت الصيحة الجامحة الملعلعة الصمت الاستثنائي لآخر هُزُع الليل وأحلكها. أدرتُ رأسي في ذلك الاتجاه وسمعت صوت المعدن يرتطم بالصخر واهيًا وبعيدًا، كأن يدًا منفعلة أسقطت خنجرًا هناك على الحافة، أو أن ترسًا مستهترًا لمس بروزًا جرانيتيًا على حين يهرع رجل مسلح ليتخذ موقعه قبل أن يدركه الفجر.

ابتسمتُ راضيًا عن نفسي، إذ لا توجد إلا قلة من المسرَّات في حياتي تضاهي جعل **تانوس** يعترف بخطأ كلامه. وفي طريق عودتي إلى فراشي، همستُ للرجال الذين أعبرهم: «تجهزوا، إنهم هنا»، وسمعتُ تحذيري ينتقل من فم ساهد إلى آخر.

بدأتِ النجوم تتلاشى من فوقي، وزحف الفجر علينا باختلاس لبؤة تلاحق قطيعًا من المها. ثم سمعتُ فجأة حارسًا عند جدار المعبد الغربي يصفِّر مرسلًا تغريدة سلسة تحاكي صيحة طائر السُّبَد، إلا أننا جميعًا نعلم حقيقتها، وضجت على الفور حركة في المخيم أوقفتها همسات **كراتاس** وضباطه الخفيضة والملحَّة: «اثبتوا أيها الزرق! تذكروا أوامركم. إلى مواقعكم!»، ولم يتزحزح رجلٌ عن فراشه.

من دون أن أنهض، وشالي يحجب وجهي، أدرتُ وجهي ببطء ونظرت إلى أعلى الجروف التي ارتفعت فوق أسوار المعبد. بدأت ظلال التلال الجرانيتية الأشبه بأسنان القرش تتبدل بأشدّ الخبث، وصرتُ أرمشُ حتى أتيقن مما أرى. ثم أدرتُ رأسي على مهلٍ في دائرة كاملة، ورأيتُ الأمر نفسه حيثما نظرت. كان خط السماء حولنا موَتَّدًا بالأشكال القاتمة والمهدِدة لرجال مسلحين، وشكلوا حولنا سياجًا غير منقطع لا يأمل فارٌّ اختراقه.

عرفتُ حينها لمَ أجَّل **شوفتي** ثأره هذا التأجيل، فجمع جيش كهذا من اللصوص يستغرق وقتًا. لا بدَّ أنهم ألفٌ أو تزيد، وإن لم يكن إحصاء عديدهم ممكنًا في الضوء الشحيح. كانوا يفوقوننا عددًا بنسبة عشرة إلى واحد على الأقل، وشعرتُ بمعنوياتي تذوي، فالاحتمالات تعِسة حتى لجماعة من الزُّرق.

وقف الصردان ثابتين ثبات الصخور من حولهم، وخوَّفني هذا الدليل على انضباطهم. كنتُ توقعتُ أن يتدفقوا علينا في جمهرة عشوائية، لكن سلوكهم

كان سلوك محاربين مدربين، وبدا ثباتهم أكثر تهديدًا وترهيبًا من أي صياح همجي وتلويح بالأسلحة.

- ومع اشتداد الضوء، صار بإمكاننا تبيُّنهم بوضوح أكثر. وَمَضَت خيوط الشمس الأولى منعكسة عن برونز تروسهم ونصال سيوفهم المسلولة، وأطلقت نبالًا من الضوء في أعيننا. كان جميعهم مُدثرًا، محيطًا رأسه بوشاح من صوف أسود لا تظهر منه إلا أعينهم في الشقوق، عيون حاقدة كعيون القروش الزرقاء الكاسرة التي تروّع مياه البحار التي تركناها خلفنا.

طال الصمت حتى ظننتُ أن أعصابي قد تتمزق وينفجر قلبي بضغط الدم داخله، ثم رنَّ صوتٌ فجأة محطمًا الصمت ومرجعًا صداه على امتداد الجروف: «كاآريك! هل أنت مستيقظ؟».

تعرفتُ **شوفتي** آنذاك على الرغم من الوشاح الذي يُقنِّعه. كان واقفًا في منتصف الجدار الغربي للجرف، الذي يمر الطريق عبره، ونادى ثانية: «**كاآريك**! لقد آن الأوان لتدفع ما تدين لي به، لكن السعر ارتفع. أريد كل شيء الآن. كل شيء! (وأماط اللثام حتى انكشفت ملامحه المجدّرة)، أريدُ كل شيء تملكه، بما في ذلك رأسك الأحمق المتعجرف».

نهض **تانوس** عن فراشه وألقى جانبًا بساط جلد الغنم الخاص به، ثم ردَّ عليه: «إذن فعليك المجيء وأخذه»، واستلَّ سيفه.

رفع **شوفتي** ذراعه اليمنى، وتلألأت عينه العمياء مثل عملة فضية، ثم أنزل ذراعه فجأة.

عند إشارته، ذاعت صيحة من صفوف الرجال التي تسطر المرتفع، ورفعوا أسلحتهم وهزُّوها ناحية سماء الفجر الصفراء الشاحبة، ثم لوَّح لهم **شوفتي** أن تقدموا، وتدفقوا وابلًا من الجروف إلى وادي **جلالة** الضيق.

أسرع **تانوس** إلى منتصف باحة المعبد حيث نصب السكان القدماء مذبحًا حجريًا مرتفعًا لإلههم **بِس**، إله الموسيقا والثمالة القزم، ثم بينما ركض **كراتاس** وضباطه لينضموا إليه، ربضتُ والإماء على فرُشنا وغطينا رؤوسنا ورحنا نولول ذعرًا.

وثب **تانوس** معتليًا المذبح، وهبط على ركبة واحدة يثني القوس العظيمة **لاناتا**. احتاج إلى كامل قوته حتى يوتِّرها، لكن عندما وقف منتصبًا من جديد، ترأرأ في لفائف سلك الإلكتروم الفضي كأنه كائن حيٌّ، ثم مد يده من فوق

كتفه وسحب سهمًا من الكنانة على ظهره وواجه البوابة الرئيسة التي لا بدَّ لحشد الصردان من الدخول منها.

تحت المذبح، كان كراتاس قد صف رجاله في صف واحد، فأوتروا أقواسهم كذلك وواجهوا مدخل الساحة. شكَّلوا جماعةً صغيرة صفرًا تِعسًا حول المذبح، وبينما أراقبهم شعرتُ بكتلة تعلو في حلقي. كانوا شجعان وغير هيَّابين، وكنتُ موشكًا أن أؤلف سونيتة في تكريمهم، قررتُ ذلك إثر اندفاعة مفاجئة، لكن قبل أن أتمكن من نظم السطر الأول، اندفع رأس غوغاء المشلحين يعوي عبر البوابة الخربة.

كان الدرج المنحدر إلى المدخل لا يتسع إلا لخمسة رجال جنبًا إلى جنب، والمسافة إلى حيث يقف تانوس على المذبح أقل من أربعين خطوة. شدَّ تانوس سهمه الأول وأطلقه محلقًا، وقتل ذاك السهم وحده ثلاثة رجال أوَّلهم مُجرم طويل يرتدي تنورة قصيرة، وله جدائل شعر طويلة زِلجة منسابة على ظهره. أصابه السهم في وسط صدره العاري ومرَّ من خلال جذعه كأنه يمرّ في دريئة مقصوصة من ورقة بردي.

بعد أن زلَّقته دماء الرجل الأول، أصاب السهم الرجل من خلفه في حلقه، ورغم أن قوَّته بدأت تتبدد، اخترق عنقه وخرج من الجانب الآخر، لكنه لم يتمكن من المرور بالكامل، إذ علقت الريشات في آخر جذعه بلحمه، في حين دفن السن البرونزي الشائك نفسه في عين رجل ثالث كان يزاحمه من كثب. ثُبِّت الصُّرَدان معًا بالسهم، فترنحا وتخبطا في منتصف البوابة، وسدَّا بذلك الطريق على أولئك الذين يحاولون تجاوزهما إلى الباحة. وأخيرًا، اقتُلع سن السهم من جمجمة الرجل الثالث، والمقلة مخوزقة عليه، فانهار الصُّرَدان الصريعان، وانصبَّ حشد من اللصوص الصارخين من فوقهم في الساحة. قابلتهم الجماعة الصغيرة حول المذبح برشقة سهام تلو الرشقة، فأخذوا يصرعونهم حتى كادت جثثهم تحجب المدخل، وصار القادمون من خلف مجبرين على التدافع فوق تلال القتلى والمجروحين.

لم يطُل ذلك كثيرًا، فضغط المحاربين القادمين من الخلف كان شديدًا جدًّا وأعدادهم عارمة. ومثل انفجار مِصدٍّ أرضي عجز عن إيقاف فيضان النيل المرتفع، اقتحموا المدخل، وتدفقت جمهرة متينة من المقاتلين إلى الساحة فطوّقت الجماعة الضئيلة حول مذبح الإله بِس.

كان الميدان مغلقًا أكثر مما ينبغي للأقواس، فألقاها **تانوس** ورجاله جانبًا واستلوا سيوفهم، ثم أطلق **تانوس** صيحته للمعركة: «سلِّحني يا **حورس**!»، وبينما تلقفها الرجال من حوله يشرعون بالعمل. دوّى البرونز على البرونز عندما حاول الصردان الانقضاض عليهم، لكنهم شكلوا حلقة حول المذبح وجوههم فيها إلى الخارج، فصاروا من حيثما هجموا لاقتهم السنان ومسايفة الحرس الفتّاكة. لم يكن الصردان ناقصي شجاعة، بل ضغطوا في صفوف متراصّة حول المذبح وصاروا كلما صُرع أحدهم قفز آخر في مكانه.

رأيتُ **شوفتي** في البوابة. كان ممسكًا عن الاشتباك، لكنه يسبُّ رجاله ويأمرهم بخوض خَومته بصيحات حنق مروِّعة، وعينه العمياء تتقلب في محجرها بينما يحثُّهم: «اجلبوا لي الآشوريّ حيًّا. أريدُ قتله بأناة وسماع صراخه».

تجاهل اللصوص النساء المنكمشات على أنفسهن فوق فرُشهن برؤوس مغطاة يولولن ويصرخن ذعرًا. وَلوَلتُ مع أشجعهم، لكنَّ ضراوة الاشتباك في منتصف الساحة أقلقتني، فقد صاروا بحلول ذلك الوقت أكثر من ألف رجل محتشدٍ في المساحة الضيقة، ورُكلت ولكزتني صنادل القبيلة المقاتلة وخنقني التراب حتى تدبرت الزحف بعيدًا إلى ركن الحائط.

زاغ أحد المشلحين عن القتال وانحنى فوقي فنزع الشال عن وجهي وحدّق إلى عينيّ للحظة ثم قال لاهثًا: «يا لأم **إيزيس**! إنك جميلة!».

كان شيطانًا قبيحًا بفجوات بين أسنانه وندب على أحد خديه، وخرجت أنفاسه نتنة كبالوعة صرفٍ صحي عندما نفث شهوته في وجهي، ثم توعدني قائلًا: «انتظري حتى ينتهي عملنا هذا، فأمنحك آنذاك شيئًا يجعلك تزعقين متعةً»، ثم لوى وجهي شادًّا إياه وقبّلني.

أمرتني غريزتي الطبيعية بالابتعاد عنه، لكنني قاومتُها ورددتُ قبلته. أنا فنان في فنون الحب، اكتسبتُ مهاراتي في مهاجع الغلمان عند السيد **إنتف**، وقبلاتي قادرة على تحويل الرجال إلى ماء.

قبّلته بكل براعتي، فشلَّتْهُ قبلتي، وإذا هو كذلك، استللتُ خنجري من غمده تحت وزرتي وحشرت رأسه في الفجوة بين ضلعيه الخامس والسادس، ولما صرخ كتمتُ صوت صراخه بشفتيّ، وبينما حضنته حُضنًا محبًا أبرمُ النصل في قلبه حتى ارتجف ثم ارتخى فوقي تمامًا، وتركته ينقلب على جانبه.

قلّبتُ نظري من حولي بسرعة، ورأيتُ أن محنة مجموعة الحرس الصغيرة المحيطة بالمذبح قد تفاقمت، وتخللت صفهم الوحيد فجوات، فقد سقط رجلان وجُرح آمسِت، وبينما نقل سيفه إلى يسراه تدلّت يمناه نازفة على جنبه.

تهافت عليّ الارتياح إذ رأيتُ أن **تانوس** لا يزال بكامل صحته، لا يزال يضحك بمتعة بربرية على حين يجهد سيفه، غير أنني ظننته قد تأخر أكثر مما يجب في إطلاق الخطة، إذ احتشدت عصابة الصردان بكاملها في الساحة وراحت تُوَعوِع مثل كلاب صيد اجتمعت على فهد يعتلي شجرة، ولا بدَّ أن تذبحه وجماعته الصغيرة الهُمامة في غضون دقائق.

وبينما أراقب، قتل **تانوس** واحدًا آخر بطعنة مباشرة في حلقه، ثم سحب النصل فحرره من اللحم الملتصق به وتراجع. ألقى بعد ذلك رأسه خلفًا وأطلق جؤارًا رجّعت الجدران المتفتتة من حولنا صداه: «إليّ أيها الزرق!».

وفي التوّ واللحظة، وثبتِ الإماء المنكمشات كلهنَّ وألقين جانبًا أثوابهن المجرجرة خلفهن. كانت سيوفهم مسلولة بالفعل، وانقضُّوا على مؤخرة قبيلة اللصوص، ففاجؤوهم مفاجأة تامة وطاغية، ورأيتهم يقتلون مئة أو تزيد قبل أن يدرك الضحايا ما هم بصدده ويحشدون للقائهم. غير أنهم عندما استداروا ليقابلوا هذا الهجوم الجديد، ولّوا ظهورهم **لتانوس** وجماعته الصغيرة.

لقد أحسنوا القتال، أقرّ لهم بذلك، رغم يقيني أن دافعهم الذعر لا الشجاعة، لكن على أي حال، كانت صفوفهم متراصة تراصًا حرمهم حرية التلويح بالسيوف، إضافة إلى أن الرجال الذين يواجهون من خيرة جنود مصر، أي من خيرة جنود العالم كله.

قاوموا لبعض الوقت رغم ذلك، ثم جأر **تانوس** ثانية من غمرة الوغى. ظننتُ للحظة أن جؤاره أمرٌ عسكري آخر، ثم أدركتُ أنه السطر الافتتاحي لنشيد المعركة الخاص بالحرس. ورغم أنني سمعتُ في أوقات كثيرة أناسًا يتكلمون بمهابة عن أن الزرق يغنونه دائمًا في أوج المعركة، لم أصدق حقًّا أن ذلك ممكن، حتى تلقف مئة صوت مُجهَد الأغنية من حولي:

*نحنُ أنفاسُ **حورس***

الحارة كريح الصحراء،

نحن حصّادو الرجال...

ضربت سيوفهم لحنًا مرافقًا للكلمات، مثل صلصلة المطارق على سنادين العالم السفلي. وفي مواجهة هذه الشراسة المتحجرفة، ارتعدت فرائص ما بقي من الصردان، وتحولت المعركة فجأة إلى مذبحة.

رأيتُ من قبل زمرة كلاب برية تمزق رعيلًا من الخراف، لكن ما يجري هنا أعنف، فقد رمى بعض الصردان سيوفهم وسقطوا على ركبهم يتوسلون الرحمة، غير أنهم لم يُلقوا رحمة، وحاول آخرون بلوغ البوابة، فوجدوا الحراس ينتظرونهم وسيوفهم في أيديهم.

رحتُ أتراقص على حواشي القتال وأصرخ من فوقه لتانوس، محاولًا جعل صوتي مسموعًا في لجة الهدير: «أوقفهم! نحتاج إلى الأسرى».

لم يسمعني تانوس، والأرجح أنه تجاهل مناشداتي ببساطة، وبينما راح يمزقهم يغني ويضحك وكراتاس عن يمينه ورمريم عن يساره. كانت لحيته منقوعة بما تفجُر من دماء قتلاه، وعيناه تلتمعان في قناع وجهه الأحمر السيَّال بجنون لم أرَه فيهما من قبل. يا لحابي البهيجة كم يزهو في تيَّار المعركة العنيف!

صرخت: «توقف يا تانوس! لا تقتلهم كلهم!»، وهذه المرة سمعني، فرأيتُ الجنون يتلاشى، واستعاد السيطرة على نفسه ثانيةً.

ثم زأر قائلًا: «ارحموا من توسَّل الرحمة!»، وأطاعه الحرس. لكن في النهاية، من أصل ألف صرد، حبا أقل من مئتي أعزل على البلاطات الحجرية الدامية وتوسلوا الإبقاء على حيواتهم.

وقفت ذاهلًا ومرتابًا لبرهة عند حافة هذه المجزرة، ثم لمحت بطرف عيني حركة مُسترَقة.

أدرك شوفتي أن الهروب من البوابة غير ممكن، فرمى سيفه وانطلق ناحية السور الشرقي للساحة بالقرب من مكان وقوفي. كان هذا الجزء أكثر الأجزاء خرابًا، حيث انخسف الجدار إلى نصف ارتفاعه الأصلي، وشكَّل الطوب الطيني الساقط منصة مرتفعة راح شوفتي يتسلقها. اقترب من قمة الجدار بسرعة رغم انزلاقه وسقوطه المتكرر، وبدا أنني الوحيد الذي لاحظ فراره، إذ كان الحرس منشغلين بأسراهم، وبينما تانوس موليًا إياي ظهره يدير عملية التخلص من بقايا العدوّ المحطَّم.

ومن دون تفكير تقريبًا، انحنيتُ والتقطتُ نصف طوبة طينية. ومع بلوغ شوفتي قمة الجدار، رميته بالطوبة بكل طاقتي، فخبطت قفا جمجمته بشدَّةٍ أسقطته على ركبتيه، ثم انهارت الكومة الغدَّارة من الكسارة الرخوة تحته وانزلق عائدًا في سحابة من الغبار ليحط عند قدميَّ نصفَ صاحٍ.

وثبتُ عليه حيث يرقد مطوقًا صدره بساقيَّ، وحشرتُ رأس خنجري في حلقه، فرفع نظره محدقًا إليَّ وعينه الوحيدة لا تزال تلمع بفعل الشرخ الذي أصبته به.

وحذَّرتُه: «ارقُد بثبات وإلا بقرتُك كما تُبقر السمكة».

كنتُ قد أضعتُ وشاحي وغطاء رأسي، وانساب شعري فوق كتفيَّ، فتعرفني حينها ولم يفاجئني ذلك، فقد التقينا مرارًا، لكن في ظروف مختلفة.

تلعثم قائلًا: «تايتا الخصيُّ! أيعلم السيد إنتف بما تفعله؟».

فطمأنتُه: «سيعلمُ بالقريب العاجل (ووكزته حتى نَخَر)، لكنك لن تكون مُطَّلِعَه».

ومن دون أن أخرج السن من حلقه، ناديت اثنين من أقرب الجنود ليأخذاه، فقلباه على وجهه وربطا معصميه بحبل كتانيٍّ ثم جراه بعيدًا.

رآني تانوس أقبض على شوفتي، فجاء إليَّ بخطًى واسعة قافزًا فوق القتلى والجرحى وقال: «رمية ممتازة يا تايتا! لم تنسَ شيئًا مما علمتك إياه (وربَّت ظهري بشدَّة رنَّحتني)، لا يزال أمامك الكثير من العمل، فقد خسرنا أربعة رجال قُتلوا، وثمة ما لا يقل عن دزينة جرحى».

سألتُه: «ماذا عن معسكرهم؟»، وحدق إليَّ.

- أي معسكر؟

- لم ينبُت ألف صُرد من الرمال مثل زهور الصحراء. لا بدَّ أن معهم بهائم وعبيد، وفي مكان غير بعيد من هنا. يجب أن لا تتركهم يفرون. يجب أن لا يفر أحد ليحكي حكاية معركة اليوم. لا ينبغي السماح لأي منهم بحمل نبأ أنك حيٌّ إلى الكرنك.

- إنك مصيب وحق إيزيس العذبة! لكن كيف سنجدهم؟

كان واضحًا أن تانوس لا يزال ذاهلًا بشهوة المعركة. أتساءل أحيانًا عما كان ليفعله من دوني.

قلتُ بصبر نافد: «نقتفي طريقهم رجوعًا، فألف زوج من الأقدام لا بدَّ ترك لنا طريقًا نتبعه إلى حيث أتى».

راق وجهه، ونادى كراتاس عبر عرض المعبد قائلًا: «خذ خمسين رجلًا واذهب مع تايتا، سيأخذك إلى معسكرهم القاعدة».

هممتُ أحتجُ: «لكن الجرحى...».

كنت قد استمتعتُ بما يكفي من القتال ليوم واحد، لكنه تجاهل اعتراضاتي وقال: «أنت أفضل متعقبٍ عندي، يمكن للجرحى انتظار رعايتك، فبرابرتي قساة كشرائح لحم الجاموس الطازجة، ولن تموت إلا قلة قليلة منهم قبل عودتك».

***

كان إيجاد معسكرهم بسهولة كلامي عنه، إذ أجريت رفقة كراتاس وخمسين رجلًا يتبعونني من كثب عملية اقتفاء واسعة حول المدينة، ووراء أول صفٍّ من التلال، التقطتُ الأثر العريض الذي تركوه عندما جاؤوا وانتشروا ليطوقوننا، فتبعناه خببًا وقطعنا أقل من ميل قبل أن نعتلي طلعةً ونجد معسكر الصردان في الوادي الضحل تحتنا.

باغتناهم مباغتة صاعقة، وما كانوا قد تركوا إلا أقل من عشرين رجلًا في حراسة الحمير والنساء، فاكتسحهم رجال كراتاس بالهجمة الأولى، وتأخرتُ هذه المرة على إنقاذ أي أسرى. لم يُبق رجالنا إلا على النساء، ولمَّا أمنوا المعسكر، سمح لهم كراتاس بهنَّ جزءًا من المكافأة التقليدية للمنتصرين.

بدت لي النساء نُخبةً أملحَ مما توقعتُ رؤيته بصحبة جماعة كهذه، ورأيتُ بينهنَّ عددًا لا بأس به من الوجوه الجميلة. استسلمن لطقوس الغزو بطيب نفسٍ استثنائي، حتى إنني سمعتُ بعضهن يضحك ويمزح على حين يلعب رجال الحرس بالنرد تراهنًا عليهنَّ، إذ إن النداء الداخلي للعمل في سلك تَبَعِ المعسكر لعصابة من الصردان لا يُعَدُّ نداءً رفيعًا، وأشكُّ أن أيًّا من هاته السيدات عذراء خَبِيَّة. قادهن ملَّاكهن الجُدد الواحدة تلو الواحدة إلى تحت جناح أقرب كتلة من الصخور، حيث رُفعت تنانيرهن من دون مراسم إضافية.

قمرٌ جديد يتلو موت سابقه، والربيع يتلو الشتاء، ومثلها، لم تظهر أيٌّ من السيدات أمارات الحداد على زوجها السابق، بل في الواقع بدا مُحتملًا أن علاقات جديدة وربما تكون قوية تُقام هنا على رمال الصحراء.

أما عن نفسي، فكُنت أكثر اهتمامًا بالحمير وحمولتها، إذ بلغت أكثر من مئة وخمسين حمارًا معظمها متين وفي أحسن حالاته، ويمكنها تحقيق أسعار ممتازة في سوق الكرنك أو سفاجا. حسبتُ أنني سأستحق حصة قائد مئة على الأقل عندما تُوزَّع الجوائز المالية، فبرغم كل شيء، كنت أنفقت بالفعل مبالغ ضخمة من مدخراتي في سبيل تعزيز هذا المغامرة، ويجب أن أُمنح تعويضًا ما. سأكلم تانوس جديًا في الأمر، وأتوقع أن يتعاطف معي، فله روح سخية.

كانت الشمس قد غربَت عندما رجعنا إلى مدينة جلالة نقود البهائم الأسيرة المحملة بالغنائم وتتبعنا شرذمة من النساء اللاتي ارتبطن على نحو طبيعي جدًا برجالهن الجدد.

حوَّلنا أحد المباني الأصغر حجمًا بجوار الآبار إلى مستشفًى ميداني، وهناك عملتُ طيلة الليل أخيط جراح رجال الحرس المصابين على ضوء مشعل وسراج زيت. وكالعادة، أثارت رصانتهم إعجابي، ذلك أن الكثير من جراحهم كانت حرجة وأليمة، ومع هذا، لم أفقد إلا مريضًا واحدًا قبل بزوغ الفجر إذ استسلم آمِست لما خسره من دماء شرايين ذراعه المقطوعة. لو أنني عالجتُه بعد المعركة مباشرة بدلًا من الذهاب إلى الصحراء، لربما تمكنت من إنقاذه، ورغم أن مسؤولية ذلك تقع على عاتق تانوس، شعرتُ بالذنب والأسى المعهودين تجاه موتٍ ربما كان بوسعي منعه. بأي حال، كنتُ واثقًا أن بقية مرضاي سيتعافون تعافيًا سريعًا ونظيفًا، فكلهم شبَّان أقوياء في حال متفوقة.

لم يبقَ صردان جرحى لأداويهم، فقد قُطعت رؤوسهم حيث رقدوا في ساحة المعركة، وبصفتي طبيبًا، لطالما أزعجتني هذه العادة البالية في التعامل مع جرحى الأعداء، على أنني أرى فيها بعض المنطق رغم ذلك، فلمَ يهدر المنتصرون مواردهم على المنهزمين المشوَّهين، في حين أنهم لا يُرجَّح أن يحملوا أي قيمة في سوق العبيد، وإن تركوهم أحياء فقد يستردون عافيتهم ويقاتلونهم في يوم آخر؟

عملتُ طيلة الليل من دون أن أحظى إلا بجرعة نبيذ وبضع لقيمات من الطعام أكلتُها بيدين داميتين لتقيتني، وأوشكتُ أن أنهك، لكن لم تُقدَّر لي الراحة بعد، إذ أرسل تانوس في طلبي فور بزوغ الضوء.

***

احتُجز الأسرى الصحيحون في معبد **بِس** بعد أن غُلّت معاصمهم خلف ظهورهم وأُجلسوا القرفصاء في صفوف طويلة على امتداد الجدار الشمالي حيث وضعوا تحت الحراسة. حالما دخلتُ المعبد، ناداني **تانوس** إلى مكان وقوفه مع مجموعة من الضباط، وكنت لا أزال في لباس زوجة آشورية، فرفعتُ تنورتي الملطخة بالدماء ومشيتُ بحذرٍ بين بقايا المعركة المبعثرة على الأرض.

سألني **تانوس**: «لقد قلتَ لي إن الصردان ثلاث عشرة قبيلة، أليس كذلك يا **تايتا**؟ (فأومأتُ برأسي)، ولكل قبيلة زعيمها. لدينا **شوفتي**، فلنرَ إن كان بمقدورك تعرُّف أي زعيم آخر في هذه الجمهرة من الرجال الكيِّسين اللطفاء!». وأشار إلى الأسرى بضحكة خافتة ثم أخذ بذراعي ليقودني إلى صف الرجال المقرفصين.

أبقيتُ وجهي مُلثمًا حتى لا يتعرفني أيٌّ من الأسرى، ورحتُ أنظر إلى كل وجه أعبره، فتعرفتُ اثنين منهم: **أخيكو** زعيم القبيلة الجنوبية التي تفترس الأراضي المحيطة **بأسوان وإلفنتين** والجندل الأول، **وسيتِك** القادم من أرض أبعد ناحية الشمال، زعيم **كوم أمبو**.

كان واضحًا أن **شوفتي** قد جمع كل ما تمكن من جمعه من الرجال في هذه المدة القصيرة، إذ رأيتُ أفرادًا من جميع القبائل بين الأسرى، وعندما عرَّفتُ عن قادتهم بنقرة على أكتافهم، جُروا بعيدًا.

بعد أن وصلنا إلى نهاية الصف، سألني **تانوس**: «أواثق أنت بأنك لم تفوِّت أحدًا؟».

- وأنَّى لي الثقة؟ لقد أخبرتك أني لم ألتقِ الرؤساء كلهم.

فهز كتفيه: «لا يمكننا ترجّي صيد هذه الطيور الضئيلة كلها برمية شبكة واحدة. ينبغي أن نعدَّ أنفسنا محظوظين لأننا قبضنا على ثلاثة بهذه السرعة. لكن دعنا نلقي نظرة على الرؤوس، لعل التوفيق يحالفنا فنجد بضعة آخرين بينهم».

كانت مهمةً شنيعة، وربما لتؤثر في شخصٍ أرقَّ مني، لكنَّ اللحم البشري، حيَّه وميتَه، مهنتي. وبينما جلسنا خالين البال على درجات المعبد نتمتّع بفطورنا، عُرضت علينا الرؤوس المقطوعة محمولةً واحدًا واحدًا من شعورها

الملبَّدة بالدم وألسنتها مدلاة من بين شفاهها، وأعينها المُطفأة تحدِّق معبِّرةً إلى العالم الآخر المحتوم عليها.

ظلَّت شهيَّتي سليمة كما هو شأنها دائمًا، ذلك أنني لم آكل إلا لُقيمات في اليومين الأخيرين، فبينما رحتُ ألتهم الكعكات والفاكهة اللذيذة التي قدمها **تيامات** لنا أدلُّ على الرؤوس التي تعرفتُها. كان فيها عدد من اللصوص العاديين الذين التقيتهم قبلًا في مجرى ما أديته من أعمال لمصلحة السيد **إنتف**، لكنْ ليس بينها إلا رئيس إضافي واحد اسمه **نيفر- تيمو** من **قنا**، وهو عضو أدنى شأنًا في هذه الأخوية المروِّعة.

قال **تانوس** بنخرة رضًى: «وهكذا صاروا أربعة»، وأمر بوضع رأس **نيفر- تيمو** على قمة هرم الجماجم الذي يشيِّده أمام بئر **جلالة**.

وقال: «إذن فقد قضينا على أربعة منهم. علينا إيجاد الرؤساء التسعة الباقين. فلنبدأ بالتحقيق مع أسرانا»، ثم نهض بحيوية، فابتلعتُ بقايا فطوري بعجالة وتبعته على مضض عودًا إلى معبد **بِس**.

وعلى الرغم من أنني مَن أوضح لـ**تانوس** ضرورة وجود مخبرين لنا من داخل القبائل، وأجل أنا من اقترح طريقة تجنيدهم، أصابني الندم والذنب عندما آن أوان تنفيذ اقتراحاتي، فاقتراح التصرُّف الوحشي شيء، لكن الوقوف متفرجًا يُنفذ شيء آخر تمامًا.

تذرعت بذريعة واهية هي أن الجرحى في المستشفى المؤقت قد يحتاجون إليّ، لكن **تانوس** نبذ ذلك ببهجة قائلًا: «الجُمْ وازعَكَ المُرهفَ الآن يا **تايتا**، ستبقى بجواري في خلال التحقيق لتحرص على أنك لم تَسهُ عن أيٍّ من أصدقائك القدامى في تفتيشك الأول».

كان التحقيق سريعًا وقاسيًا، ما أحسبه النمط الوحيد الملائم لشخصية الرجال الذين نتعامل معهم.

بادئ ذي بدء، وثب **تانوس** فاعتلى مذبح **بِس** الحجري، وبينما نظر إلى صفوف الأسرى المقرفصين حمل ختم الباز في يده مبتسمًا ابتسامةً لا بدَّ أسرَت الرعشة فيهم، رغم أنهم تحت أشعة شمس الصحراء بكامل شدتها.

ثم قال لهم بحزم وهو يحمل التُميثيل عاليًا: «أنا حامل ختم الباز الخاص بالفرعون **ماموس**، وأنطقُ بلسانه. أنا قاضيكم وجلَّادكم»، ثم توقف قليلًا

ومرر نظره ببطء على الوجوه الناظرة إليه، وكلما التقت عيناه بعيني أحدها، خفض الأخير عينيه. لم يقدِرْ أيُّهم على الثبات أمام نظرته الثاقبة.

- لقد اعتُقلتم بجُرم النهب والقتل، وإن كان فيكم من يمكنه إنكار ذلك، فليقف أمامي ويعلن براءته.

وبينما تتقاطع ظلال النسور المحوّمة بصبر نافد في السماء فوقنا على أرض الساحة المعفَّرة راح ينتظر، ثم قال: «هيا! فلتنطقوا أيها البريئون (ونظر عاليًا ناحية الطيور المحلقة برؤوسها الوردية الصلعاء المُشوَّهة)، إن صبر إخوتكم ينفد في انتظار الوليمة، دعونا لا نؤخرهم».

لكنْ لم يتكلم أحدهم ولم يتحرك، فأنزل **تانوس** ختم الباز: «إن فَعلاتكم، التي شهدها جميع الحاضرين هنا، تدينكم، وصمتُكم يؤكد القرار. أنتم مذنبون. وباسم الفرعون الإلهي ألفظ الحكم عليكم: أحكُم عليكم بالإعدام بقطع الرأس، ونشر رؤوسكم المقطوعة على طول طريق القوافل، ليرى جميع المواطنين الممتثلين للقانون عندما يعبرون هذا الطريق جماجمكم تبتسم لهم من جانبه، ويعرفوا أن الصّردان قد قابلت العُقاب. سيعرفون أن زمن مخالفة القانون قد ولّى من هذه الأرض، وعاد السلام إلى مصرنا. لقد نطقتُ بالحكم، وبه نطق الفرعون **ماموس**».

أومأ **تانوس** بعد ذلك، فجُرَّ أول أسير قُدمًا وأُنزل على ركبتيه أمام المذبح، ثم قال له **تانوس**: «إن أجبت على ثلاثة أسئلة بصدق، أصفح عن حياتك، وتُجنَّد مقاتلًا في فوجي، وتحصل على كامل الحقوق والمزايا. وإن رفضتَ الإجابة، يُنفذ حُكمك مباشرة»، ونظر بحزم إلى السجين الراكع.

- السؤال الأول: إلى أي القبائل تنتمي؟

لم يُجب المُدان، إذ إن قَسَم الدم الخاص بالصردان أقوى مما يمكنه الحنث به.

ثم سأله: «سؤالك الثاني: أيُّ الرؤساء تأتمرُ بأمره؟»، وظل الرجل صامتًا.

ثم سأله: «السؤال الثالث والأخير: هل ستقودني إلى مخابئ قبيلتك السرية؟».

رفع الرجل نظره، ونخع في حلقه ثم بصق، وتناثر البلغم الأصفر على الأحجار، فأشار **تانوس** للحارس الواقف فوقه حاملًا السيف.

كانت الضربة نظيفة، فتشقلب رأسه على الدرجات أسفل المذبح، وقال **تانوس** بهدوء: «رأس آخر للهرم»، وأشار أن يُجلب الأسير التالي قُدمًا.

سأله الأسئلة الثلاثة نفسها، وعندما أجابه الصرد بقذاعة متحدية، أومأ **تانوس** للحارس، لكنه هذه المرة أساء توقيت الضربة وراحت الجثة تتخبط بعنق نصف مقطوعة فقط، وتطلب الأمر ثلاث ضربات أخرى قبل أن يقفز الرأس على الدرجات.

قطع **تانوس** ثلاثة وعشرين رأسًا أحصيتها لألهي نفسي عن موجات الإشفاق المُوهِن التي تتكالب عليَّ، حتى انهار أولُ المُدانين. كان صغيرًا، بالكاد تجاوز الصِّبا، وراح يُبربر بصوتٍ حاد الإجابات قبل أن يتمكن **تانوس** من طرح الأسئلة الثلاثة عليه.

- اسمي **هُوي**، وأنا من أخوة الدم في قبيلة **باستي** المتوحش. أعرف أماكنه السرية، وسأدلك عليها.

ابتسم **تانوس** بارتياح عابسٍ وأشار أن يؤخذ الغلام بعد أن نبَّه سجَّانيه: «اعتنوا به أيما عناية، فقد صار أحد جنود الزُّرق، ورفيق سلاحكم».

سار الأمر بيُسر بعد انشقاق أحدهم، رغم أن الكثير منهم تحدوا **تانوس**، فشتمه بعضهم، وبعضهم ضحك في وجهه تحديًا حتى هبط النصل منهيًا استنساده بانفجار آخر أنفاسه من رغاماه المقطوعة في نفخة قرمزية.

ملأني الإعجاب بأولئك الذين، وبعد حياة سافلة وخسيسة، اختاروا في النهاية الرحيل بشكل من أشكال العِزة، وضحكوا في وجه الموت. أعرف أنني عاجز عن هذه النوعية من الشجاعة، ولو خُيرتُ ذاك الخيار، أثق بأنني كنتُ لأرد مثلما رد بعض الأسرى الضعاف.

اعترف أحدهم: «أنا من قبيلة **أور**»، وقال آخر: «وأنا من قبيلة **مع- إن- تِف**، وهو زعيم الضفة الغربية حتى مدينة **الخارجة**»، حتى صار معنا مخبرون يقودوننا إلى معاقل كلٍّ من زعماء اللصوص الباقين، وكومة بارتفاع الكتف من الرؤوس المتمردة لنضيفها إلى الهرم بجوار البئر.

***

من المسائل التي أوليتها وتانوس كثيرًا من التفكير كانت مسألة التخلص من زعماء اللصوص الثلاثة الذين قبضنا عليهم بالفعل، ومصير المخبرين الذين التقطناهم من صفوف الصردان المُدانين.

كنا نعرف أن نفوذ الصردان متغلغل حدَّ أننا لا نجرؤ على إبقاء أسرانا في مصر، فلا يوجد سجن آمن بما يكفي لمنع آخ- سِت وزعمائه من الوصول إليهم، إما لتحريرهم من خلال الرشوة والقوة، أو لإسكاتهم بالسُّم أو بطريقة بغيضة أخرى، ونعرف أن آخ- سِت أشبه بأخطبوط رأسه مُخبأ لكن مجسَّاته تصل إلى جميع أركان حكومتنا وإلى نسيج وجودنا نفسه.

وكان في هذا الوقت أن دخل صديقي تيامات، تاجر سفاجة، في حسابي.

عُدنا زاحفين بصفتنا وحدة من وحدات حرس التمساح الأزرق، لا قافلة إماء، إلى المرفأ على البحر الأحمر بنصف الوقت الذي استغرقناه لبلوغ جلالة. ثم عُجِّل بأسرانا ليصعدوا متن إحدى سفن تيامات التجارية التي تنتظرنا في الميناء، وأبحر القبطان من فوره قاصدًا الساحل العربي، حيث يبقي تيامات مُجمَّع عبيد آمن على جزيرة صغيرة اسمها جيز بقوان قبالة الساحل يديرها حُراسه الخاصون، والمياه المحيطة بها تحت حراسة مجموعات القروش الزرقاء الضارية. أكد لنا تيامات أن لا أحد ممن حاولوا الفرار من الجزيرة تمكن من تفادي كلٍّ من نباهة الحراس وشهية القروش قطُّ.

أبقينا أسيرًا واحدًا فقط لم نرسله إلى الجزيرة هو هُوي من قبيلة باستي المتوحش، الشاب نفسه الذي كان أول من أذعن لتهديد الإعدام. في خلال زحفنا إلى البحر، أبقى تانوس الغلام قريبًا منه ووجّه كامل سطوة شخصيته التي لا تُقاوَم عليه، فصار عبدَه الطائع. لم تفشل موهبة تانوس هذه في كسب ولاء وإخلاص أبعد الأوساط احتمالًا في إذهالي قطُّ، وكنتُ واثقًا بأن هُوي، الذي انهار ببالغ السرعة تحت تهديد الإعدام، سيضحّي الآن طواعيةً بحياته التافهة من أجل تانوس.

وتحت سحر تانوس، دلَقَ هُوي كل ما يتذكره من تفاصيل عن القبيلة التي أقسم لها ذات مرة قسَم الدم، ورحت أنصت بصمت وريشة مستعدة، بينما يسأله تانوس أدوِّن ما يقوله.

عرفنا أن معقل باستي المتوحش في صحراء جبل أم البحري المُريعة، على ذروة أحد الجبال مسطحة القمم التي تحميها الجروف شديدة التحدُّر من كل الجهات. مستورٌ ومنيع، لكنه يبعد مسير أقل من يومين عن الضفة

الشرقية للنيل وطرق القوافل المزدحمة التي تمتد على ضفتيه، أي إنه عشٌ مثالي لطير جارح.

قال لنا **هُوي**: «لا توجد إلا طريق واحدة إلى الأعلى، منحوتة في الصخر كالدرَج، ولا تتَّسع لأكثر من رجل واحد».

سأله **تانوس**: «لا توجد طريق أخرى إلى القمة؟»، فابتسم **هُوي** ووضع إصبعه على طول أنفه في حركة تآمُرية.

- ثمة دربٌ آخر استخدمتُه مرارًا للعودة إلى الجبل بعد أن هجرتُ مخفري لأزور صديقتي، إذ كان **باستي** ليأمر بقتلي لو علم أنني مفقود. فيه تسلُّق خطِر، لكنْ بينما بإمكان دزينة من الرجال الأقوياء صعوده واحتلال قمة الجرف تصعد القوة الرئيسة الممر إليهم. سأقودك إليه يا **آخ- حورس**.

كانت أول مرة أسمع فيها هذا الاسم، **آخ- حورس**، أخو الإله العظيم **حورس**، وكان اسمًا لائقًا **بتانوس**. بطبيعة الحال، لا يمكن **لهُوي** وبقية أسرانا أن يعرفوا هوية **تانوس** الحقيقية، إلا أنهم عرفوا بطريقتهم البسيطة أن **تانوس** لا بدَّ أنه إله من صنف ما، فمظهره مظهر إله، ويقاتل كإله، وقد ابتهل باسم **حورس** في لجة المعركة، لذا استخلصوا أنه أخو **حورس** بلا شك.

آخ- حورس! الاسم الذي عرفته مصر كلها حق المعرفة في الشهور التالية، تناقلته الصرخات بين قمم التلال، وحملته طرقات القوافل. سافر امتداد النهر على شفاه المراكبيين، من مدينة إلى مدينة، ومن مملكة إلى أخرى. وكبرت الأسطورة حول الاسم مع تكرار حكايات فعاله وتضخيمها في كل رواية.

آخ- حورس! المحارب الجبَّار الذي ظهر من اللامكان، الذي أرسله أخوه **حورس** ليستأنف الصراع الأبدي ضد الشر، ضد **آخ- سِت**، رئيس الصردان.

آخ- حورس! الاسم الذي كلما ردده شعب مصر، ملأ قلوبهم بآمال جديدة.

بينما نجلس في حديقة **تيامات** التاجر كان ذلك كله ينتظرنا في المستقبل. لم يعرف سواي شدة تحمُّس **تانوس** لمواجهة **باستي**، ومدى توقه إلى قيادة رجاله إلى جبل **أم البحري** لاصطياده. وليس الأمر أن **باستي** أشدُّ الزعماء ضراوة ووحشية فحسب، بل هو أكبر من ذلك، إذ ثمة أحقاد شخصية يبتغي **تانوس** تسويتها مع هذا اللص، فقد علم مني أن **باستي** هو الأداة المُحددة التي استخدمها **آخ- سِت** لإبادة ثروة والده، **بيانكي** سيد حاراب.

وعده **هُوي** قائلًا: «يمكنني قيادتكم في صعود جروف جبل **أم البحري**. يمكنني وضع **باستي** بين يديك».

بينما يستَطِيب ذلك الوعد ظل **تانوس** صامتًا لبعض الوقت في الظلمة، ثم جلسنا وأنصتنا إلى غناء العندليب في آخر حديقة **تيامات**. كان صوتًا أجنبيًا تمامًا عن الشر والشؤون التي نناقشها، وبعد فينة، تنهَّد **تانوس** وصرف **هُوي** بعد أن قال له: «لقد أبليتَ حسنًا أيها الفتى. برَّ بوعدك، وستجدني ممتنًا».

سجد **هُوي** كأنما يسجُد لإله، فوكزه **تانوس** بقدمه بانفعال قائلًا: «كفاك من هذا السُّخف. انصرف الآن».

تسبب رفع **تانوس** الأخير المفاجئ هذا إلى مراتب الألوهة بإحراجه. لم يكن بمقدور أحد اتهامه بالاعتدال أو التواضع من قبل، لكنه على الأقل كان عمليًا، من دون أوهام زائفة فيما يتعلق بمنزلته، إذ لم يتطلَّع قطُّ إلى الصيرورة فرعونًا ولا إلهيًا، ولطالما كان ضيق الخلق بأي سلوك متذلل أو صاغر يصدر عن المحيطين به.

حالما غادر الفتى، التفت **تانوس** إليَّ وقال: «كثيرًا ما أرقد صاحيًا في الليل أفكر في كل ما أخبرتنيه عن أبي، ويؤلمني كل نسيج في جسدي وروحي حُرقة للانتقام ممَّن أودى به إلى الفاقة والذل وطارده حتى موته. بالكاد يمكنني ضبط نفسي. تملؤني رغبة بهجران الخطة الملتوية هذه التي حِكتَها لمحاصرة **آخ- سِت**، وأتحرق بدلًا من ذلك إلى البحث عنه مباشرة وتمزيق قلبه النجِس بيديَّ العاريتين».

- إن فعلتَ ما تشتهي، فستخسر كل شيء. وأنت تعرف ذلك حق المعرفة. أما إن تبعت طريقتي فلن تستعيد سمعتك وحسب، بل سمعة أبيك النبيل فوق ذلك. بطريقتي، ستستعيد الأملاك والثروة التي سُرقت منك. لن تمنحك طريقتي انتقامك بكامل اتساعه وحسب، بل ستوصلك أيضًا إلى **لوستريس** وتحقيق الرؤيا التي راودتني عن كليكما في متاهات **آمون رع**. ثق بي يا **تانوس**، لمصلحتك ومصلحة مولاتي، ثق بي.

فسألني وقد لمس ذراعي: «إن لم أثق بك، فبمن أثق؟ أعرف أنك محق، لكنني لطالما افتقرتُ إلى الصبر. دائمًا ما أرى الطريق السَّريع والمباشر أسهل».

- في الوقت الراهن، لا تفكر بآخ- بِت. لا تفكر إلا بالخطوة التالية في الطريق الملتوية التي علينا قطعها معًا. فكر بباستي المتوحش، فباستي مَن اجتاح قوافل أبيك التجارية في عودتها من الشرق. لخمسة مواسم، لم تعُد قافلة واحدة من قوافل سيد حاراب إلى الكرنك قطّ، إذ هوجمت جميعها ونُهِبَتْ في الطريق. كان باستي من دمَّر مناجم نحاس أبيك في سيسترا وقتل مهندسيها وعمَّالهم العبيد، ومذ ذاك الحين وعروق المعدن الخام الغنية تلك ترقد من دون أن يستغلها أحد. باستي من نهب بانتظام أملاك أبيك على طول النيل، وهو ذابح عبيده في الحقول وحارق محاصيله، حتى لم تعُد تنمو إلا الحشائش في حقول سيد حاراب، واضطرَّ إلى بيعها بشذرة من قيمتها الحقيقية.
- قد يكون ذلك كله صحيحًا، لكن آخ- بِت هو من أعطى باستي الأوامر.

قلت له بسأم: «لا أحد سيصدق ذلك. لن يصدقه الفرعون، إلا إن سمع باستي يعترف به. لمَ تعاندُ دائمًا؟ لقد تكلمنا في هذا مئة مرة. الزعيم أولًا، وفي آخر الأمر رأس الأفعى، آخ- بِت».

- إن صوتك صوت الحكمة، أعرف ذلك، لكن يشق عليَّ احتمال الانتظار. إنني أتوق إلى الانتقام. أتوق إلى تطهير شرفي من وصمة الفتنة والخيانة، وأتوق، آهٍ كم أتوق، إلى لوستريس!

انحنى إلى الأمام وأمسك كتفي بقبضة أجفلتني: «لقد فعلتَ ما فيه الكفاية هنا يا صديقي القديم. ما كنت لأنجز ما أنجزتُ لولاك، فلو لم تأتِ باحثًا عني، لربما كنتُ لا أزال منقوعًا في المشروب وراقدًا في حضن عاهرة آسنةٍ ما. أدينُ لك بأكثر مما يمكنني سداده أبدًا، لكن لا بدَّ لي من صرفك الآن، فثمة مكان آخر يحتاجك. باستي لحمُ غدائي، ولا أريد أن تشاركني وليمتي. لن تذهب معي إلى جبل أم البحري، بل إنني مُعيدُك إلى حيث تنتمي -إلى حيث أنتمي أنا أيضًا، لكنه محرم عليَّ- إلى جوار السيدة لوستريس. أغبطك يا صديقي القديم، وإنني مستعدٌّ للتخلي عن أملي بالخلود مقابل أن أذهب إليها عوضًا عنك».

اعترضتُ اعتراضًا جميلًا أشد ما يكون بالطبع، وأقسمتُ إن كل ما أريده هو فرصة أخرى في محاربة أولئك الأشرار، وأنني رفيقه وسأحزن حزنًا جادًا إن لم يمنحني مكانًا بجواره في حملته التالية، وفي خلال ذلك كله، كنت مطمئنًا بمعرفتي أن تانوس حالما يستقر رأيه على خطة سير ما، يصير

متعنتًا ولا يسهل صرفُهُ عنها، إلا في أوقات نادرة أيّما ندرة، وعلى يد صديقه ومستشاره، العبدُ **تايتا**.

أما الحقيقة فهي أنني استمتعتُ بكفايتي من البطولات ومحاولة الآخرين قتلي. لستُ جنديًا بطبيعتي، لستُ مقاتلًا جلفًا معدوم الشعور. كرهتُ خشونة العسكرة في الصحراء، ولم يعُد بمقدوري احتمال أسبوع آخر من الحر والتعرق والذباب من دون أن ألمح المياه الخضراء العذبة للنيل الأم. اشتقتُ إلى ملمس الكتان النظيف على جلدي المستحم والمدهون بالزيت. اشتقت إلى مولاتي شوقًا لا تتسع الكلمات للتعبير عنه. حياتنا الهادئة المتحضِّرة في الغرف المطلية لجزيرة **إلفنتين**، وموسيقانا ومحادثاتنا الطويلة المتروية، وحيواناتي الأليفة ولفائفي، مارست كلها عليَّ استمالة لا يمكن مقاومتها.

كان **تانوس** محقًا، لم يعد في حاجة إليَّ، ومكاني الآن بجوار مولاتي. لكن الانصياع بسهولة لأوامره قد يحطّ من شأني عنده، ولم أرِد ذلك أيضًا.

أخيرًا، سمحتُ له بإقناعي، وبدأتُ، ساترًا لهفتي، بتحضيرات عودتي إلى **إلفنتين**.

***

أمر تانوس **كراتاس** بأن يرجع إلى **الكرنك** فيجمع التعزيزات ويأتي بها من أجل الحملة إلى صحراء جبل **أم البحري**. قُرر أن أسافر تحت حمايته حتى **الكرنك**، لكنَّ استئذان **تانوس** في الانصراف لم يكن مسألة سهلة، فقد ناداني مرتين ليحمِّلني رسالة أخرى إلى مولاتي بعد مغادرتي منزل **تيامات** للانضمام إلى **كراتاس** حيث ينتظرني عند أطراف البلدة.

- قل لها إنني أفكر فيها كل ساعة من كل يوم!

فاحتججتُ قائلًا: «لقد حمَّلتَني هذه الرسالة بالفعل».

- قل لها إن أحلامي حافلة بصور وجهها الحبيب.
- وهذه أيضًا. يمكنني قراءتها عليك عن ظهر قلب. أعطني شيئًا جديدًا أرجوك.
- قل لها إنني أومن برؤيا المتاهات، بأننا في بضع سنوات قصيرة سنكون معًا...
- **كراتاس** ينتظرني. إن أبقيتني هنا، فأنى لي توصيل رسالتك؟

- قل لها إن كل شيء أفعله أفعله من أجلها، كلُ نفَسٍ أتنفسُه من أجلها... (ثم توقف فجأة وعانقني) الحقيقة يا تايتا هي أنني أشك في أن بإمكاني العيش يومًا آخر من دونها.

- ستمرُّ السنوات الخمس كما يمرُّ يوم واحد. عندما تلتقيها تاليًا، ستكون قد استرددت شرفك ورفعت منزلتك في البلاد، ولا يمكنها إلا أن تحبك أكثر من أجل ذلك.

ثم أفلتني.

- اعتنِ بها جيدًا حتى أتمكن من تولّي هذا الواجب البهيج عنك. انصرفِ الآن، وأسرع إلى جوارها.

فقلت له بسخرية: «وهذه نيَّتي منذ ساعة»، ونجحتُ بالفرار.

قطعتُ الرحلة رفقة كراتاس على رأس جماعتنا الصغيرة إلى الكرنك في أقل من أسبوع. ولخوفي أن يكتشفني راسفر أو السيد إنتف، قضيت أقل وقت ممكن في مدينتي الحبيبة ريثما تدبرت العبور على إحدى العبَّارات المتجهة جنوبًا، ثم تركتُ كراتاس منشغلًا في تجنيد الرجال الألف الممتازين الذين طلبهم تانوس من بين أفواج حرس الفرعون، وصعدتُ متن العبَّارة.

صادقت الرياح الشمالية أشرعتنا طيلة الطريق، وربطنا الحبال برصيف شرق إلفنتين البحري بعد اثني عشر يومًا من مغادرتنا طيبة. كنتُ لا أزال معتمرًا الباروكة ولباس الكهانة، ولم يتعرَّفني أحد عندما نزلت إلى الشاطئ.

بثمن خاتم نحاسي صغير، استأجرتُ زورقًا ليعبر بي النهر إلى الجزيرة الملكية، وبينما أنزلني عند الدرجات التي تؤدي إلى البوابة المائية لحديقة الحريم، خفق قلبي بين ضلوعي أصعد الدرج، ذلك أنني مفترق عن مولاتي منذ وقت طويل جدًا، ولم أدرك شدة مشاعري ناحيتها إلا في أوقات كهذه. كنتُ واثقًا بأن حب تانوس ليس إلا نسيمًا نهريًا خفيفًا بالمقارنة مع خماسين مشاعري.

لاقتني إحدى عذارى لوستريس الكوشيات عند البوابة، وحاولت منعي من الدخول قائلة: «مولاتي متوعكة أيها الكاهن، وثمة طبيب آخر معها في هذه اللحظة، لذا لن تقابلك».

قلت لها: «بل ستقابلني»، ونزعتُ عن باروكتي.

فزعقت: «تايتا! (ثم سقطت على ركبتيها وهي ترسم الإشارة الحارسة من الشر)، إنك ميت. هذا ليس أنت، بل شبح شرير ما من العالم الآخر».

نحيتها جانبًا وعجّلت إلى مخدع مولاتي، لأرى عند الباب أحد كهنة أوزيريس الذين يحسبون أنفسهم أطباء.

سألته بانفعال وقد أفزعتني فكرة اقتراب أحد هؤلاء الدجالين من مولاتي: «ما الذي تفعله هنا؟ (وقبل أن يتمكن من الإجابة زمجرتُ فيه..) اخرج! اخرج من هنا! خذ تعويذاتك وتمائمك وجرعاتك القذرة واخرج ولا ترجع أبدًا».

بدا أنه مستعدٌ للجدال، لكنني وضعتُ يدي بين لوحي كتفه ودفعته دفعة مستمرة إلى البوابة، ثم هُرعتُ إلى جوار سرير مولاتي.

كانت رائحة المرض تملأ الغرفة، لاذعة وقوية، واستبدَّ بي كدَرٌ جامح عندما نظرت إلى السيدة لوستريس، إذ بدا أنها تقلصت حجمًا، وشحبت بشرتها حتى صارت مثل رمادِ نار مخيم قديمة. كانت إما نائمة وإما في غيبوبة، ولم أستطع التوثق من ذلك، لكنني رأيتُ ظلالًا داكنة مكدومة تحت جفنيها، ورأيتُ لشفتيها مظهرًا جافًا وقشريًّا ملأني رعبًا.

سحبتُ عنها ملاءة الكتان التي تغطيها، ووجدتها عاريةً تحتها، فوقفتُ أحدق بذعر إلى جسدها، إذ ذاب اللحم عنها فصارت أطرافها نحيلة كالعصي وأضلاعها وعظام حوضها بارزة من خلال الجلد السقيم كماشيةٍ أصابها الجفاف. ثم وضعتُ يدي برقة تحت إبطها لأتحسس وجود حرارة أو حمى، لكنني وجدتُ جلدها باردًا، فاغتظت غيظًا شديدًا. أي صنف من الأسقام هذا؟ لم أصادف شيئًا مثله من قبل.

ناديتُ الإماء من دون مغادرة جانبها، لكنْ لم تجرؤ أيهنَّ على مواجهة شبح تايتا، فيما اضطررتُ في النهاية إلى اقتحام مهجعهنَّ وجر إحداهنَّ تتذمر من تحت السرير.

صحت: «ماذا فعلتن لمولاتي حتى أبلغتمنها هذا المبلغ؟» وركلتُ مؤخرتها البدينة لتركز انتباهها على سؤالي، فناحت وغطت وجهها حتى لا تنظر إليّ.

- لقد أبت الطعام. بالكاد تناولت لقمة في كل هذي الأسابيع، منذ سُجيت مومياء تانوس سيد حاراب في قبره بوادي النبلاء. حتى إنها فقدت طفل الفرعون الذي كانت تحمله في رحمها. ارحمني أيها الشبح الطيب، فأنا لم أرتكب بحقك شرًّا.

حدقت إليها متحيرًا للحظة، ثم أدركتُ ما جرى؛ لم تصلِ الرسالة التي أرسلتها لتصبِّر مولاتي **لوستريس** قطُّ. خمَّنتُ على البديهة أن الرسول الذي ابتعثه **كراتاس** من **الأقصر** حاملًا الرسالة لم يصلْ إلى **إلفنتين**، وربما انتهى به الأمر ضحية أخرى للصردان، مجرد جثة إضافية تعوم في النهر رفقة حقيبة فارغة وجرح بليغ في حلقه. أملتُ أن الرسالة قد وقعت في يدي لص أميٍّ ما، ولم تُحمَل إلى **آخ- سِت**، لكنْ لا وقت أمامي لأقلق حيال ذلك الآن.

أسرعتُ إلى جوار مولاتي وهبطتُ على ركبتيَّ عند سريرها، ثم بينما أدلّك جبهتها المُدنَفة همستُ: «مولاتي، هذا أنا، عبدُكِ **تايتا**».

تزحزحتْ بعض الشيء وغمغمتْ كلامًا لم أفهمه، وتبيَّنتُ أن ليس أمامي من الوقت إلا القليل، فقد أوشكت أن تقضي أجلها، إذ مرَّ أكثر من شهر على موت **تانوس** المزعوم، وإن كانت الأمة صادقة في أنها لم تأكل شيئًا في خلال هذا الوقت كله، إذن فنجاتها حتى الآن أعجوبة.

وثبتُ واقفًا وعدوتُ إلى غرفتي، ووجدتها، على الرغم من «مصرعي»، لم يتغير فيها شيء، ولا يزال صندوق أدويتي في الكوَّة حيث تركته. حملته بين ذراعيَّ وأسرعتُ عائدًا إلى مولاتي، ثم أشعلت بيدين مرتعشتين غصينًا من شجيرة ذنب العقرب من سراج الزيت بجوار سريرها وحملتُ طرفه المتقد تحت أنفها، فشهقت من فورها تقريبًا وعطسَت وجاهدت لتفادي الدخان الوخَّاز.

- مولاتي، هذا أنا تايتا، كلميني.

فتحت عينيها، ورأيتُ إدراكها الحديث لفاجعتها يُخمِدُ فجر المسَرَّة سريعًا فيهما، ثم مدَّت لي ذراعيها النحيلتين الشاحبتين، فضممتُها إلى صدري.

راحت تنشجُ برفق وتقول: «لقد مات يا تايتا. مات **تانوس**. لا يمكنني العيش دونه».

- لا! لا! إنه حي. لقد جئت من جواره مباشرة حاملًا رسائل حبه وإخلاصه لك.

- ما أقساك لتهزأ بي في هذا! أعرف أنه ميت، لقد أغلق قبره...

فصحتُ بها: «كانت حيلة لتضليل الأعداء. **تانوس** حي. أقسم لك على ذلك. إنه يحبك، وينتظرك».

- أوه، صدقتُك الآن! إلا أنني أعرفك حق المعرفة؛ أعرف أنك ستكذب لتحميني. كيف يمكنك تعذيبي بوعود فارغة؟ أكرهك جدًّا... (وحاولت التملص من ذراعيَّ).

- **تانوس** حيٌّ، أقسم لك.

- أقسِم بشرف أمك التي لم تعرفها، أقسِم بغضب جميع الآلهة. (بالكاد فيها من القوة ما يكفي لتقاومني).

- أقسم بكل ذلك، وبحبي لك والتزامي بك يا مولاتي.

- أيمكن ذلك؟ (رأيتُ قوة الأمل تطفو عائدة إليها، ولونًا أحمر باهتًا يزهر في خديها)، واه يا **تايتا**، أيمكن أن يكون حقًا؟

وبينما تحدق إلى عيني، باشرتُ بسرد كل ما حدث منذ غادرت جوارها قبل أسابيع عديدة، ولم أُغفِل إلا تفاصيل الحال التي وجدتُ **تانوس** عليها في العرزال القديم بين المستنقعات، والرفيقة التي كانت معه.

لم تنطق بكلمة، لكنْ لم تُزِحْ نظرها عن وجهي على حين تلتهم كلماتي، وتوهَّج وجهها الشاحب، الذي أحاله الجوع شفًافا تقريبًا، مثل لؤلؤة وهي تنصت إلى حكايتي لمغامراتنا في **جلالة**، وقتال **تانوس** مثل إله، وغنائه المبتهج البربري في أوج المعركة.

ثم اختتمتُ كلامي قائلًا: «وهكذا، كما ترين، فقد قلتُ حقًا، **وتانوس** حيٌّ»، فتكلمَت لأول مرة منذ بدأتُ الكلام.

- إن كان حيًا، فاجلبه إلي. لن آكل لقمةً حتى أرى وجهه ثانيةً بأم عيني.

عاهدتها: «سأجلبه إلى جانبك حالما أتمكن من إرسال رسول إليه، إن كان ذلك ما تشائين»، وأخرجتُ المرآة البرونزية من صندوقي فوضعتُها أمام عينيها، وسألتها برفق: «أتريدينه أن يراك على هذه الحال؟».

حدَّقت إلى صورتها الضاوية جوفاء العينين.

- سأرسل في طلبه اليوم إن تأمريني. يمكنه الوصول في غضون أسبوع، إذا ما أردتِ ذلك بحق.

شاهدتها تصارع مشاعرها، ثم همسَت: «إنني قبيحة، أبدو مثل عجوز».

- لا يزال جمالك موجودًا، لكنه مختبئ تحت السطح وحسب.

ثم انتصرت الخُيلاء الأنثوية على بقية مشاعرها وقالت: «لا يمكنني السماح بأن يراني تانوس بهذه الهيئة».

- عليكِ أن تأكلي إذن.
- أتعاهدني (وارتعشت)، أتعاهدني على أنه لا يزال حيًا، وأنك ستجلبه إليَّ حالما أستردُّ عافيتي؟

شعرتُ بجميع أضلاعها، وبقلبها يرفرف مثل طير مَصِيد تحت أصابعي، وقلت: «أعاهدك».

- سأثق بك هذه المرة، لكن إن كنت كاذبًا فلن أثق بك ثانية. ائتوني بالطعام!

عندما أسرعتُ إلى المطبخ، لم يسعني إلا الشعور بالغرور، فقد نال تايتا المحتال مراده ثانية.

مزجتُ زُبدية من الحليب الدافئ والعسل لنبدأ برويَّة، فقد أودَت بنفسها إلى شفا الموت جوعًا. وتقيأت محتوى الزبدية الأولى، لكنها حافظت على الثانية. لو أنني أجّلتُ عودتي يومًا آخر، لربما فات الأوان.

***

بفضل الإماء الثرثارات، اجتاحت أنباء عودتي العجائبية من القبر الجزيرة كما الجدريّ، وقبل أن يرخي الليل سدوله، أرسل الفرعون أتون ليحضرني إلى مقابلته. حتى صديقي القديم أتون كان متوترًا ومتحفظًا في حضرتي، وقفز إلى الخلف برشاقة عندما حاولت لمسه، كأنما قد تمرُّ يدي في لحمه كنفخة دخان. وبينما يقودني عبر القصر، فر العبيد والنبلاء على حد سواء من طريقي، وبينما نعبر راحت الوجوه الفضولية تراقبني من كل نافذة وركن معتم.

استقبلني الفرعون بمزيج عجيب من الاحترام وتوتر الأعصاب، مزيج تُستغرب رؤيته أشد الاستغراب على ملك وعلى إله.

سألني: «أين كنتَ يا تايتا؟»، كأنه لا يرغب حقًا بسماع الإجابة.

سجدتُ عند قدميه: «أيها الفرعون الإلهي، بما أنك جزء من الألوهية، أعي أنك تسألني هذا السؤال اختبارًا لي. أنت تعلم أن شفتيَّ مختومتان، وأن كلامي عن هذه الأسرار انتهاكٌ للمقدسات وإن كان معك. أرجوك أن تبلغ بقية الآلهة

أقرانك، وأنوبيس إله المقابر بالتحديد، أنني مخلص للمُهمة التي كُلفتُ بها، وأنني حافظ لقسم الصمت الذي فُرض عليَّ. أخبرهم أنني نجحت في الاختبار الذي أعددتَه لي».

بينما يتفكَّر في ذلك صار وجهه كالزجاج، وتحرَّك في مجلسه باضطراب. رأيته يصوغ الأسئلة واحدًا تلو الآخر، وينبذ كلًّا منها بدوره، إذ لم أترك له فاتحة يستغلها.

وفي آخر الأمر قال ببلادة من دون تفكير: «صحيح يا تاييتا، لقد نجحت في الاختبار الذي أعددته لك. أهلًا بعودتك، لقد افتقدناك». بيد أنني رأيتُ تأكُّدَ شكوكه، وعاملني بالاحترام الذي يستحقه شخص حلَّ اللغز الأعلى.

حبوتُ مقتربًا منه وخفضتُ صوتي حتى الهمس: «يا عظيم مصر، أتعرفُ لمَ أُرجعتُ؟».

بدا حائرًا، لكنه أومأ بتردد، فنهضتُ واقفًا ونظرت من حولي بريبة، كأنني أتوقع وجود قوى خارقة تراقبني، ورسمتُ الإشارة الحامية من الشر قبل أن أكمل: «السيدة لوستريس؛ لقد أصابها ما أصابها من سقم بتأثير مباشر من...» لم أتمكن من نطق الاسم، لكنني شكَّلتُ بإصبعين إشارة القرنين، إشارة الإله الخبيث سِت.

بدَّل وجههُ الحيرة بالوجَل، وارتعش لا إراديًا ثم اقترب مني أكثر، كأنما يَنشُد الحماية، بينما أكمل كلامي: «قبل أن أؤخذ، كانت مولاتي حاملة في رحمها كنز عائلة ماموس، ثم تدخل الخبيث، وبسبب سقمها، أسقِط الابن الذي كانت تحمله من رحمها».

ظهر على الفرعون شديد الاضطراب، وهمَّ يقول: «إذن فهذا سبب إجهاضها»، ثم سكت فجأة.

فهمتُ ما يعنيه وقلت بسلاسة: «إياك والخوف يا عظيم مصر، لقد أعادتني قوى أعظم من الخبيث لإنقاذها، حتى يسير القدر الذي تكهَّنته في متاهات آمون رع في دربه المقسوم. سيأتيك ابن آخر بدلًا من فقيدك، وستظل سلالتك في أمان».

قال: «لا تتركنَّ جوار السيدة لوستريس حتى تسترد عافيتها (وارتجف صوته تأثرًا)، إذا أنت أنقذتها وحملت لي ابنًا آخر، فلك أن تطلب مني ما تشاء،

لكن إن ماتت...» ثم سكت وراح يفكِّر في أي تهديد عساه يخيف رجلًا عائد من العالم الآخر، وفي النهاية ترك الأمر يتلاشى تدريجيًا.

- إنْ تأذن لي يا صاحب الجلالة، عليَّ الذهاب إليها من فوري.

- من فورك! اذهب! اذهب!

***

كان تعافي مولاتي سريعًا حتى إنني بدأت أشك في أنني استدعيت بلا قصد قوة ما تفوق استيعابي، وشعرت بمهابة خرافية إزاء قواي.

أخذ جسمها يكتنز وينشدُّ تحت ناظري تقريبًا، فانتبج كيسا اللحم الهزيلان حتى عادا نهدين مكوَّرين ممتلئين، نهدين عذبين عذوبة تكفي أن تشعل نار الحسد في تمثال الإلهة **حابي** الحجري الواقف في مدخل حجرتها، وضرَّجت الدماء الشابة الجديدة جير بشرتها حتى عادت إلى تورُّدها، ورنَّت ضحكتها كنوافير الحدائق المائية.

سرعان ما صار إلزامها بسريرها محالًا، وفي غضون ثلاثة أسابيع من عودتي إلى **الفنتين**، صارت تلعب ألعاب التراشق مع إمائها، وترقص من حول الحديقة وتقفز لتمسك بالمثانة المنفوخة من فوق رؤوس الأخريات، حتى صادرتُ الكرة خشية أن تثقل على طاقتها العائدة وأمرتها بالعودة إلى حجرتها. وما أطاعتني من دون إبرام صفقة، فوافقت على الغناء معها، أو تعليمها ألغز صيغ **الباو** التي ستمكنها من التمتع بنصرها الأول على **أتون** الذي كان مدمنًا للعبة.

كان **أتون** يحضر كل عشية للاستعلام عن صحة مولاتي بالنيابة عن الملك، وليلعب معنا بعد ذلك اللعبة اللوحية. بدا عليه أنه قرر في نهاية الأمر أنني لستُ شبحًا خطرًا، ورغم أنه عاملني باحترام جديد، صمدت صداقتنا القديمة أمام هلاكي.

في كل صباح، كانت مولاتي **لوستريس** تحملني على تكرار وعدي لها، ثم تتناول مرآتها وتتفحص انعكاسها من دون أوهى أمارات الغطرسة، مقيِّمة جميع أوجه جمالها لتقرر أكانت جاهزة ليراها السيد **تانوس** أم لا.

ناحت قائلة: «إن شعري يبدو كالقش، وثمة بثرة أخرى تقترب من الظهور في ذقني، أعد لي جمالي يا **تايتا**، اجعلني جميلة من أجل **تانوس**».

فتبرَّمتُ: «تنزلين هذا الضرر بنفسك، ثم تنادين تايتا ليحسّنه». فضحكت وألقت بذراعيها من حول عنقي.

- هذا سبب وجودك هنا أيها الوغد العجوز. لتعتني بي.

وفي كل عشية، عندما أمزج لها شرابًا مقويًا وأجلب وعاء التبخير، بينما تتحضر للنوم كانت تحملني على تكرار وعدي لها: «أقسم على أنك ستجلب **تانوس** إليّ حالما أصير مستعدة لاستقباله».

حاولتُ تجاهل المصاعب والأخطار التي سيجلبها هذا الوعد علينا، ورددتُ بإخلاص: «أقسم لك». فاستلقت متكئة إلى مسند الرأس العاجي وغطت في النوم بابتسامة على وجهها. لن أشغل بالي بالبر بوعدي حتى يحين وقته.

***

بلغ الفرعون تقرير كامل عن تعافي **لوستريس** من **أتون**، وجاء شخصيًا لزيارتها. جلب لها قلادة جديدة من الذهب واللازورد في هيئة عُقاب وجلس حتى المساء يلعب ألعاب الكلمات والأحاجي معها. عندما استعد للمغادرة، ناداني لأمشي معه حتى مخدعه.

- انقلاب حالها أمرٌ استثنائي، إنها معجزة يا تايتا. متى يمكنني أخذها إلى فراشي ثانية؟ تبدو بالفعل في صحة تكفي لأن تحمل ابني ووريثي.

فأكّدتُ له بشدة: «ليس بعد يا عظيم مصر، فأدنى إجهاد لمولاتي قد يسبب ارتكاسًا».

لم يعد يشكك في كلامي، ذلك أنني صرتُ أتكلم بكامل نفوذ من مات وعاد، وإن هزلت مهابته السابقة إياي بعض الشيء بفعل الألفة.

بدأت الإماء أيضًا تألفن بعثي، وصار بوسعهن النظر في وجهي من دون رسم الإشارة. في واقع الأمر، لم تعد عودتي من العالم السفلي أكثر موضوعات الثرثرة رواجًا في القصر، بل صار عندهنَّ شيء آخر يشغلهن، وهو دخول **آخ- حورس** في حيوات وضمائر جميع سكان الأراضي الممتدة مع امتداد النهر العظيم.

عندما سمعتُ اسم آخ- **حورس** أول مرة يُهمس في أروقة القصر، لم أتعرّفه مباشرة، فقد بدت حديقة **تيامات** بجوار البحر الأحمر بعيدة أشد البعد عن عالم **إلفنتين** الصغير، وكنتُ قد نسيت الاسم الذي أسبغه **هُوي** على

تانوس، غير أنني، عندما سمعتُ حكايات فعاله الجبارة المنسوبة إلى نصف إله، أدركتُ هوية من يتكلمن عنه.

ركضتُ في اشتعالة حماسة عائدًا إلى الحريم ووجدت مولاتي في الحديقة محاطة بدزينة من الزوار بين سيدات نبيلات وزوجات ملكيات، ذلك أنها استردت من عافيتها بعد سقمها قدرًا يمكّنها من استئناف دورها بصفتها مفضلةُ البلاط.

كنتُ منفعلًا حتى إنني نسيت مقامي وأنني محض عبد، وعاملت السيدات النبيلات بوقاحة تامة لأتخلص منهن، فانتفضن متخبطات في خروجهن من الحديقة زاعقات كسرب من الإوزات المُهانة، وانقضّت عليَّ مولاتي: «هذا ليس من شيمك، ما الذي دهاك بحق السماء يا تايتا؟».

نطقت: «تانوس!».

قلت الاسم كأنه تميمة، فنسيت غيظها كله وأمسكت بكلتا يدي.

- عندك أنباء من تانوس! أخبرني! بسرعة قبل أن أموت من نفاد الصبر!

- أنباء؟ أجل عندي أنباء عنه، ويا لها من أنباء! يا لها من أنباء استثنائية! يا لها من أنباء لا تصدق!

تركت يديَّ وأمسكت بمروحتها الفضية المرعبة فهددتني بها: «كُفَّ عن هرائك الساعة، لن أحتمل معاكستك أكثر من ذلك. أخبرني وإلا أقسم أن أجعل في رأسك كُتلًا أكثر ما في رأس النوبي من براغيث!».

قلت: «تعالي! فلنذهبْ إلى حيث لا يسمعنا أحد»، وسقتها إلى المرسى ثم اتجهنا إلى زورقنا الصغير، وفي منتصف النهر، صرنا آمنين من الآذان الخفاقة الكامنة وراء كل زاوية من زوايا جدران القصر.

قلت لها: «ثمة ريح جديدة نقية تهب على الأرض، ويسمون هذه الريح آخ- حورس».

نطقت: «أخو حورس!».

لهثت الكلمة بإجلال، وأردفت: «أهذا ما يسمون تانوس به الآن؟».

- لا يعرف أي منهم أنه تانوس. يظنونه إلهًا.

فأصرَّتْ قائلة: «إنه إله حقًا. إله في عيني».

- هكذا يرون الأمر أيضًا. لو أنه ليس إلهًا، فكيف يعرف إذن أين يتوارى الصردان؟ وكيف يزحف إلى معاقلهم بدقة؟ وكيف يعرف غريزيًا أين يكمنون للقوافل القادمة ويباغتهم في كمائنهم التي نصبوها بأيديهم؟

فسألتني متعجبة: «هل أنجز كل هذه الفعال؟».

- هذه ومئة غيرها، إن كان بمقدورك تصديق الشائعات التي تحلق في القصر. يقولون إن كل لص وقاطع طريق في البلاد يهرب مذعورًا لينجو بحياته، وإن قبائل الصردان تتبعثر واحدة واحدة. يقولون إن جناحين نبتا لأخ- حورس، جناحين كجناحي عُقاب، وإنه حلق إلى الجروف المنيعة في جبل أم البحري ليظهر ظهورًا عجائبيًا في وسط قبيلة باستي المتوحش، وبيديه العاريتين، ألقى بخمسمئة من قطاع الطريق من أعلى الجرف...

صفقت بيديها قائلة: «أخبرني بالمزيد!» وكادت تقلب الزورق بحماستها.

- يقولون إنه بنى عند كل مفترق طرق وبجوار كل طريق قوافل نصبًا تذكارية لمروره.

- نصبًا تذكارية؟ أي نصب هذه؟

- أكوامًا من الجماجم البشرية، أهرامات شاهقة من الجماجم. رؤوس قطاع الطرق التي قطعها، تحذيرًا للآخرين.

ارتعشت مولاتي رُعبًا لذيذًا، لكن ظل وجهها مشرقًا، وسألتني: «هل قتل كل هذا العدد؟».

- يقول البعض إنه ذبح خمسة آلاف، والبعض يقول خمسين ألفًا. وثمة من يقولون مئة ألف حتى، لكنني أظن أن أولاء يبالغون بعض الشيء.

- أخبرني بالمزيد! المزيد!

- يقولون إنه أسر بالفعل ستة على الأقل من زعماء اللصوص...

فقاطعتني بمتعة وحشية: «وقطع رؤوسهم!».

- لا، يقولون إنه لم يقتل أولاء، بل حولهم إلى قردة ربَّاح. يقولون إنه يبقيهم في أقفاص ليتسلى بهم.

فقهقهت قائلة: «أهذا كله ممكن؟».

- كل شيء ممكن لإله.

- إنه إلهي. أوه يا **تايتا**، متى ستسمح لي برؤيته؟
- قريبًا. إن إشراق جمالك يزداد سطوعًا كل يوم، وقريبًا يسترد تمامه.
- في الوقت الراهن، عليك أن تجمع كل قصة وشائعة عن **آخ- حورس** وتأتيني بها.

وصارت ترسلني إلى رصيف التحميل كل يوم لأسأل طواقم العبّارات القادمة من الشمال عن أنباء **آخ- حورس**.

أنبأتها بعد إحدى هذه الزيارات: «يقولون إن أحدًا لم يرَ قطُّ وجه **آخ- حورس**، ذلك أنه يعتمر خوذة لها واقية تغطي كل شيء إلا عينيه. يقولون أيضًا إن رأس **آخ- حورس** يضطرم في وطيس المعركة لهيبًا يعمي أعداءه».

فأكدت لي: «لقد رأيت شعر **تانوس** تحت أشعة الشمس، يبدو مضطرمًا بضوء سماوي».

وذات صباح آخر أخبرتها: «يقولون إنه قادر على إكثار جسمه الدنيوي كصور منعكسة في مرآة، وإنه قادر على أن يكون في أماكن مختلفة عديدة بوقت واحد، ذلك أنه شوهد في اليوم نفسه في **قنا** وفي **كوم أمبو**، وبينهما مئة ميل».

فسألتني بإجلال: «أهذا ممكن؟».

- يقول البعض إنه غير صحيح. يقولون إن بمقدوره تغطية هذه المسافات الشاسعة لأنه لا ينام أبدًا. يقولون إنه يعدو تحت جناح الليل على ظهر أسد، ويسمو في أعالي السماء نهارًا على ظهر عُقاب أبيض عملاق لينقض على أعدائه في غفلتهم.

فأومأت بجدية: «هذا يمكن أن يكون صحيحًا. لا أصدق أمر صور المرآة، لكن الأسد والعُقاب قد يكونان حقيقيين. يمكن **لتانوس** أن يفعل شيئًا كهذا. إنني أصدقه».

قلت: «أظن أن المرجح أكثر هو أن جميع أهل مصر متحرقٌ لرؤية **آخ- حورس**، وأن رغبة الناس مبعث تصرُّفاتهم. يرونه وراء كل شجيرة. وأما عن سرعة سفره، حسنًا، لقد زحفتُ مع الحرس ويمكنني أن أشهد...» لم تتركني أكمل، بل قاطعتني بتكلُّف.

- إن روحك خلو من الرومانسية يا **تايتا**، وإنك لتشكُّ في أن الغيوم جِزَز صوف من قطعان **أوزيريس**، وأن الشمس وجه **رع**، وذلك ببساطة لأنك

عاجز عن الصعود ولمسها. أما أنا، عن نفسي، فأصدق أن تانوس قادر على كل ذلك.

ووضعت بذلك الجزم حدًّا للجدال، فدلَّيتُ رأسي خاضعًا.

***

عدنا إلى تجوالنا المعهود في أوقات الظهيرة في الشوارع والأسواق، وكما كانت الحال قبل مرضها، رحبت بها الجموع المشغوفة، وتوقفت لمحادثة الجميع، أيًا تكن منزلتهم أو مهنتهم. لم يكُن أحدٌ، من الكهنة إلى العواهر، منيعًا أمام بهائها وسحرها الصادق.

دائمًا ما تمكنت من تحويل الحديث إلى آخ- حورس، ولم يقِلَّ توق الناس عن توقها إلى مناقشة أمر الإله الجديد. بحلول هذا الوقت، كان قد ترفع في المخيلة الشعبية من نصف إله إلى عضو دائم في مجمَع الآلهة، وبدأ مواطنو إلفنتين بالفعل حملة تبرعات من أجل بناء معبد لآخ- حورس، ما قدمت له مولاتي أسخى التبرعات.

اختير موقع للمعبد على ضفة النهر المقابلة لمعبد أخيه حورس، وأعلن الفرعون رسميًا نيته تدشين المعبد شخصيًا، إذ إن لدى الفرعون جُملة من أسباب الامتنان، فقد حلَّت روح جديدة من الاطمئنان خارج البلاد، ولما صارت طرق القوافل التجارية آمنة، ازدهر حجم التجارة بين المملكة العليا وبقية العالم.

حيث كانت تصل من قبل قافلة واحدة من الشرق، صارت أربعًا تعبر الصحراء بأمان، ومثلها تنطلق في رحلة العودة. واحتيجت أعداد كبيرة من حمير النقل لإعانة قادة القوافل، فراح المزارعون والمربون يقودونها إلى المدينة وعلى وجوههم ابتسامات عريضة إزاء الأسعار المرتفعة التي يتوقعون الحصول عليها.

ولأن العمل في الحقول البعيدة عن حماية أسوار المدينة صار آمنًا، زُرعت المحاصيل في بقاع لم تنمُ فيها إلا الحشائش الضارة لعقود، وبدأ الفلاحون، الذين تدهورت حالهم حتى صاروا متسولين، بالنماء من جديد، فراحت الثيران تجرُّ العربات المحملة بالغلال على الطرقات التي باتت تحت حماية جحافل آخ- حورس، وامتلأت الأسواق بالغلال الطازجة.

أنفق التجار ومُلاك الأراضي بعضًا من أرباح هذه المشاريع على بناء فيلات جديدة في الريف، حيث عادوا يعدُّونه آمنًا لمعيشة عائلاتهم، وازداد الطلب فجأة على الفنانين والحرفيين الذين كانوا يجوبون شوارع طيبة **وإلفنتين** بحثًا عمن يوظف مهاراتهم، ولم يسخِّروا أجورهم لشراء ضروريات الحياة وحسب، بل الرفاهيات لأنفسهم وعائلاتهم أيضًا. وعجَّت الأسواق بالحشود.

ازدادت كثافة حركة المرور في صعود النهر وهبوطه ازديادًا هائلًا، فازدادت الحاجة إلى المراكب، وصارت أحواض السفن جميعها ملأى بعارضات القعر الجديدة. أنفق قباطنة القوارب النهرية وطواقمها وعمال الأحواض ثروتهم الجديدة في الحانات والمواخير حتى اصطخبت المومسات والبغايا في طلب الملابس والحليّ الفاخرة، فأفلح الخياطون والجواهرجيون وبنوا بيوتًا جديدة، بينما طافت زوجاتهن الأسواق حاملات الذهب والفضة في حقائبهن، باحثات عن كل شيء من العبيد الجدد إلى قدور الطبخ.

بدأت الحياة تدبُّ في مصر من جديد، بعد أن خنقها **آخ- ست** والصردان طيلة هذي السنوات سلبًا ونهبًا.

نتيجة لكل ذلك، نمَت عوائد الدولة، وحوّم جامعو ضرائب الفرعون فوقها بتلذُّذِ النسور المحوّمة فوق الجثث التي يذرّيها **آخ- حورس** وجحافله في جميع أرجاء الريف. وبالطبع، كان الفرعون ممتنًا.

وكذا كُنت ومولاتي، ذلك أن كلينا، وباقتراحٍ مني، استثمر في بعثة تجارية كانت تتجهز للانطلاق إلى سوريا، وعندما رجعت البعثة بعد ستة أشهر، وجدنا أننا ربحنا خمسين ضعف قيمة استثمارنا الأصلي. اشترت مولاتي لنفسها عقدًا من اللآلئ وخمس إماء جديدات يزدن حياتي بؤسًا، أما أنا، وبحصافتي المعهودة، فاشتريت بحصتي خمس رُقعات من خيرة الأراضي على الضفة الشرقية للنهر، وكتب أحد كتّاب العدل الصكوك ثم سجلها في دفاتر المعبد.

***

ثم جاء اليوم الذي كنتُ أخشاه، فذات صباح، تفحصت مولاتي انعكاسها في المرآة باهتمام يفوق اهتمامها المعتاد حتى، وأعلنت أنها باتت مستعدةً أخيرًا، وحتى أكون منصفًا، اضطُررت إلى أن أوافق على مضض على أنها لم تكُن أجمل قَطُّ. كأنما أكسبها كل ما عانته مؤخرًا مرونةً جديدة، فتلاشت آخر آثار الصِّبا والحيرة ودهون الطفولة من ملامحها، وصارت امرأة ناضجة ورصينة.

- لقد وثقتُ بكَ يا **تايتا**، فأثبت لي الآن أن ذلك لم يكُن سخفًا مني. اجلب لي **تانوس**.

عندما فارقتُ **تانوس** في **سفاجا**، لم نجد سبيلًا إلى الاتفاق على وسيلة لتبادل الرسائل.

- سأكون في المسير كل يوم، وأنى لأحد معرفة إلى أين تودي هذه الحملة بي؟ أوصِ السيدة **لوستريس** أن لا تقلق إذا لم تسمع مني خبرًا، وقُل لها إنني سأرسل رسالة عندما تتم مهمتي. لكن قل لها إنني سأكون حاضرًا وقتما تنضج ثمار حبنا على شجرتها، وتصير جاهزة للقطاف.

وهكذا، لم نسمع منه شيئًا إلا الشائعات الجامحة المتدفقة من أرصفة المرافئ والبازارات.

ومرة أخرى، بدا لي أن الآلهة قد تدخلت وأنقذتني، وهذه المرة من سُخط مولاتي **لوستريس**. إذ ذاعت شائعة جديدة في السوق ذلك اليوم تقول إن قافلة قادمة من الطريق الشمالي صادفت هرمًا من الرؤوس البشرية شُيِّد حديثًا في نقطة تبعد أقل من ميلين عن أسوار المدينة. وكانت الرؤوس طازجة حتى إن نتانتها خفيفة ولم تجردها الغربان والنسور من جلدها بعد.

راح الثرثارون يقولون لبعضهم: «هذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا، وهو أن **آخ-حورس** في كورة **أسوان**، وعلى الأرجح في نقطة تُرى منها أسوار **إلفنتين**. لقد انقضّ على بقايا قبيلة **أخيكو** المتوارية خوفًا في الصحراء منذ أن قُطع رأس رئيسهم في **جلالة**، فذبح قطاع الطرق عن آخرهم، وكوَّم رؤوسهم على قارعة الطريق. وبفضل الإله الجديد، صار الجنوب خاليًا من الصردان مرهوبي الجانب!».

كان ما سمعته أنباء جديدة بحق، وهي أفضل ما سمعته منذ أسابيع. لذا تحمَّستُ أشد الحماس لأنقلها إلى مولاتي، ورحتُ أشق طريقي بين البحارين والتجار والصيادين على الرصيف لأجد نوتيًا يُعيدني إلى الجزيرة.

جذب شخص ما ذراعي، ونترتُها بانفعال، فعلى الرغم من البحبوحة الجديدة التي تجتاح البلاد، وربما بسببها، صار المتسوِّلون أكثر عنادًا من أي وقت مضى، لكن هذا لم يستسلم بسهولة. فالتفتُ إليه رافعًا عصايَ بغضب حتى أطرده.

تأوّه المتسوّل قائلًا: «لا تضربنّ صديقًا قديمًا! أحمل إليك رسالة من أحد الآلهة»، فأوقفتُ الضربة ونظرتُ إليه بفم فاغر.

صحتُ: «هُوي! (ضاق قلبي عندما تعرفتُ الابتسامة الماكرة للص السابق)، ما الذي تفعله هنا؟ (ولم أنتظر إجابة عن سؤالي الأحمق)، اتبعني على مسافة».

قُدته إلى أحد المواخير في زقاق ضيق وراء المرفأ يُقدم غرفًا للأزواج، سواء أكانوا من الجنس نفسه أم من جنسين مختلفين. كانوا يؤجّرون الغرفة لفترة قصيرة تحددها ساعة مائية مثبتة عند الباب، ويأخذون خاتمًا نحاسيًا كبيرًا أجرًا لهذه الخدمة. دفعتُ الأجرة الباهظة، وحالما صرنا وحدنا قبضتُ على **هُوي** من عباءته البالية.

سألته بإلحاح: «ما أخبار سيدك؟».

فقهقه بسلاطة مُسخطة: «إن حلقي قاحل وبالكاد يمكنني الكلام». كان قد اعتنق بالفعل اختيال جنود الزُّرق الوقح كله. يا لسرعة تعلم القرد الحيَل الجديدة! ناديتُ البوّاب أن يجلب لنا إبريق جعة، وشرب **هُوي** كما يشرب حمار ظمآن، ثم أنزل الإبريق وتجشأ بسعادة.

- يرسلُ الإله آخ- **حورس** تحياته، لك ولطرف آخر لا ينبغي ذكر اسمه، ويأمرني أن أخبرك بأن المهمة قد تمت وأن جميع الطيور باتت في القفص، ويُذكرك بأن أشهر قليلة فقط تفصلنا عن مهرجان **أوزيريس** المقبل، وآن أوان كتابة نص جديد لمسرحية الآلام من أجل تسلية الملك.

فسألتُه بتلهُف: «أين هو؟ كم ستستغرق من وقتٍ حتى ترجع إليه؟».

فصرَّح قائلًا: «يمكنني أن أبلغ جواره قبل أن يغوص **آمون رع**، إله الشمس، وراء التلال الغربية»، وألقيت نظرة من خلال النافذة إلى الشمس التي كانت في منتصف طريق هبوطها من السماء. كان **تانوس** مختبئًا قريبًا جدًا من المدينة، وتهللتُ من جديد، فكم اشتقتُ إلى شعور عناقه القاسي، وسماع ضحكته المدوّية العظيمة!

وبينما أبتسم في سري ترقبًا، رحتُ أذرعُ أرضية الغرفة القذرة ريثما استقررتُ على رسالة أحمّلها **لهُوي** فيرجع بها إليه.

***

كان الليل قد هبط تقريبًا وقتما نزلتُ إلى الشاطئ عند مرسانا الصغير وأسرعت صاعدًا الدرج. وجدتُ إحدى الإماء تنتحب عند البوابة وتفركُ أذنها المتورمة. قالت متذمرة: «لقد ضربَتْني»، ورأيتُ أن كرامتها قاسَت أكثر من أذنها.

فزجرتُها: «لا تُشيري إلى السيدة لوستريس بتاء التأنيث. بأي حال، مِمّ تشتكين؟ خُلق العبيد ليُضربوا».

على الرغم من ذلك، لم يكُن من عادة مولاتي رفع يدها على أي شخص في بيتها، فقُلت في قرارتي: لا بدَّ أنها في مزاج بائس حقًا، وأبطأتُ خطوي.

وصلتُ -متقدمًا بحذر- مع فرار أمة باكية أخرى من الغرفة، ثم ظهرت مولاتي في الباب من ورائها، والغضب يحمّر وجهها، قائلةً: «لقد حولتِ شعري إلى كومة قش...».

رأتني آنذاك وقطعت شتيمتها، ثم انقضَّت عليَّ بحيوية عرفتُ منها أنني السبب الحقيقي لثائرتها.

وسألتني ملحّة: «أين كنت؟ أرسلتك إلى الميناء قبل الظهيرة. كيف تجرؤ على جعلي أنتظر كل هذه المدة؟»، وتقدمت ناحيتي بسحناء حملتني على التراجع بخوف.

فقلت لها بسرعة: «إنه هنا (ثم أخفضتُ صوتي حتى لا تسمعني إحدى الإماء، وهمست) تانوس هنا. بعد غدٍ سأبرُّ بوعدي لك».

تحوَّل مزاجها تحولًا كاملًا وقفزت ملقية بذراعيها حول عنقي، ثم مضت تبحث عن البنتين المُهانتين لتواسيهما.

***

أرسل ملك العموريين التابع في مجمل خَراجه السنوي للفرعون زوجًا من فهود الصيد المُدرَّبة من مملكته وراء البحر الأحمر، وكان الملك متشوقًا لإطلاق هذين المخلوقين البديعَين خلف قطعان الغزلان التي تتقافز بين الكثبان الصحراوية على الضفة الغربية، فأمر حاشية البلاط بأكملها، بما فيهم مولاتي، بحضور المطاردة.

بينما أبحرنا عبر الضفة الغربية في أسطول من المراكب النهرية الصغيرة، تخفق الأشرعة البيضاء والرايات زاهية الألوان، وترافقنا الضحكات وموسيقا

العود والصلاصل. سيبدأ الفيضان السنوي للنهر العظيم في غضون أيام، وحسَّن هذا الترقُّبُ، رفقة المناخ المزدهر الجديد للبلاد، المزاج الاحتفاليَّ للحاشية.

كانت مولاتي في مزاج أبشَّ من أيِّهم، وبينما يشق زورقنا المياه الصيفية الخضراء بسرعة تكفي لزخرفة مقدمته بطوق أبيض مخرَّم من الزبد وترك أثر متألق وراءنا، راحت تصيح بالتحيات المرِحة لصديقاتها في القوارب الأخرى.

بدا أنني كنت الوحيد غير السعيد وخالي البال، فقد حملت الريح جِدةً خشنة وجلفة، وكانت تهبُّ من الجهة الخاطئة. ظللتُ أنظر بقلق إلى غرب السماء، وكانت رائقة وصافية، لكنها التمعت ببريق نُحاسيٍّ غير عادي، تقريبًا كأن شمسًا أخرى تشرق من الناحية المعاكسة للشمس التي نعرفها حق المعرفة.

نحَّيتُ هواجسي جانبًا وحاولت الاندماج مع روح الرحلة، وفشلت، ذلك أن عندي أشياء غير الطقس أقلق بشأنها، فإذا ما أخفق جزء واحد من أجزاء خطتي، ستكون حياتي، وربما حيوات أخرى أثمن من حياتي، في معرض الخطر.

ولا بدَّ أن وجهي أظهر ذلك كله، إذ وكزتني مولاتي بإصبع رجلها الجميل المطليّ قائلة: «فيمَ هذا التجهُم يا تايتا؟ سيعرف أي ناظر إليك أنك تخطط لشيء ما. ابتسم! آمرك أن تبتسم!».

عندما رسونا على الضفة الغربية، وجدنا جيشًا من العبيد بانتظارنا، وساسة يمسكون بلُجُم حمير ركوب بيضاء فخمة مكسوة بالحرير المزركش من الإصطبلات الملكية، وحمير نقل مثقلة بالخيام والبُسُط وسلال الطعام والشراب وبقية مؤونة النزهة الملكية. حضر فوج من العبيد، بعضهم وظيفته حمل المظلات فوق السيدات، وبعضهم خدمة الضيوف النبلاء، وحضر مهرجون وبهلوانات وموسيقيون لتسليتهم، ومئة صياد لتأمين المطاردة.

كان قفص الفهدين محمولًا على عربة زلاجة يجرها زوجان من الثيران البيضاء، واجتمعت حاشية البلاط حول المركبة لاستبداع هذين الوحشين النادرين، فالفهود لا تظهر بصورة طبيعية في بلادنا، ذلك أنها من مخلوقات السهول العشبية الواسعة، وهذه التضاريس غير موجودة على طول النهر. كان ذلك أول لقاء لي معها على الإطلاق، وثار فضولي حتى إنني نسيتُ

همومي الأخرى واقتربت من القفص بقدر ما أمكنني المرور في الحشد من دون أن أصدم رجلًا نبيلًا نزِقًا ما أو أدوس على رجله.

كانت أجمل قطط يمكن لمخيلتي تصويرها، أطول وأنحل من نمورنا، ولها أطراف طويلة ودقيقة وبطون ضامرة. بدا أن ذيولها الملتوية تدلُّ على مزاجها، وكانت جلودها الذهبية مرصَّعة بوُريدات سوداء حالكة، بينما امتد من الركن الداخلي لأعينها خط أسود نازل إلى خدودها كأنه مجرى دمع، وقد أعطاها ذلك، رفقة جلستها الملكية، سحنة مأساوية ورومانسية ساحرة في نظري. تحرقتُ شوقًا إلى امتلاك أحد هذه المخلوقات، وقررتُ من فوري أن أزرع الفكرة في رأس مولاتي، إذ لم يرفض لها الفرعون رغبةً قطُّ.

وصل القارب حامل الملك إلى الضفة الغربية بأسرع مما رغبتُ، وهرعتُ مع بقية الحاشية إلى الرصيف لاستقباله.

كان الفرعون مرتديًا لباس صيد خفيف، وبدا لأول مرة مسترخيًا وسعيدًا. توقف بجوار مولاتي، واستفسر بكياسة عن صحتها. بينما نفذت الانحناءة الطقسية ملأني الخوف من أن يقرر إبقاءها بجواره طيلة اليوم، فسيخرِّب ذلك ترتيباتي كلها، لكن الفهد الصياد جذب انتباهه فمرَّ من دون أن يعطيها الأمر باللحاق به.

ضيَّعنا نفسينا في الحشد وشققنا طريقنا إلى حيث نحى خادمُ دواب حمارًا لمولاتي، وبينما ساعدتها على امتطائه، كلمتُ الخادم بهدوء، وعندما أسمعني ما رغبتُ بسماعه، دسست في يده خاتمًا فضيًّا، فاختفى كأنما بسحرٍ ما.

تسلَّم عبدٌ قيادة حمار مولاتي وحمل آخرٌ مظلة فوقها، وتبعتُ وإياها الملك والعربة الزلاجة إلى الصحراء. استغرقنا -مع وقفات الإراحة المتكررة- نصف الصباح لنبلغ وادي الغزلان، وعبرنا من بُعْد في طريقنا مقبرة تراس العتيقة التي يرجع تاريخها إلى زمن الفراعنة الأولين. قال بعض الحكماء إن القبور نُحتت من جرف الصخور السوداء قبل ثلاثة آلاف عام، رغم أنني عجزتُ عن معرفة طريقة وصولهم إلى هذا الاستدلال. بينما نمر تفحصتُ من دون أن أثير الانتباه مداخل القبور بتمعُّن، غير أنني لم أتبيَّن من هذا البعد أي أثر على وجود بشري حديث فيها، فخاب أملي خيبة غير عقلانية، وبينما نمضي ظللتُ ألقي نظرات إلى الخلف.

كان وادي الغزلان إحدى محميات الصيد الملكية، التي تحميها مراسيم خط طويل من الفراعنة، وتتمركز في التلال فوقه سريّةٌ من الحرّاس الملكيين الدائمين لتنفيذ بيان الملك القاضي بأن جميع المخلوقات فيه محفوظة له شخصيًا. كانت عقوبة الصيد فيه من دون إذن ملكيٍّ الموت شنقًا.

ترجَّل النبلاء على قمة إحدى هذه التلال المطلة على الوادي الأسمر الفسيح، فنُصبت الخيام بسرعة لتظللهم، وفُتحت أباريق الشراب والجعة لتنقع عطش رحلتهم.

حرصت على تأمين موقع جيد نراقب منه الصيد أنا ومولاتي، لكن يمكننا أيضًا الانسحاب منه بصمت من دون جذب أي انتباه لا داعي له، ثم تبينتُ في المسافة قطعان الغزلان من خلال السراب المائي المرتعش على أرض الوادي، ونبهتُ مولاتي إليها.

فسألتني: «أي طعام تعثر عليه هناك؟ لا أرى أثرًا للخضرة. لا بدَّ أنها تأكل الصخور، إذ ثمة ما يكفي منها».

قلت لها: «إن الكثير مما ترينه ليس صخورًا، إنما نباتات حية»، وعندما ضحكت تكذيبًا، فتشتُ الأرض الصخرية وقلعتُ حفنة من تلك النباتات العجيبة.

فقالت بإصرار: «إنها صخور، (حتى أمسكَت واحدة بيدها وسحقتها، فقطَرت العُصارة الكثيفة على أصابعها، وتعجبَت من دهاء الإله الذي حاك هذه الخديعة) أهذا ما تعيش عليه؟ لا يبدو ذلك ممكنًا».

لم نتمكن من إكمال هذه المحادثة لأن الصيد بدأ، إذ فتح اثنان من الصيادين الملكيين القفص ووثب الفهدان إلى الأرض. توقعتُ أن يهربا، لكنهما كانا أليفين كقطط المعبد، وراحا يحتكان بمودة بسيقان مدربيهما، ويصدران صوتًا مغردًا غريبًا، أقرب إلى طائر منه إلى مفترس متوحِّش.

تبينتُ في الطرف القصيِّ من قعر الوادي الأسمر المسفوع صفَّ حاملي الرايات، بهيئات ضئيلة شوهتها المسافة والسراب. كانوا يتقدمون ببطء ناحيتنا، وقطعان المها تنساق أمامهم.

وبينما يتقدم الملك وصيادوه رفقة الفهدين المُقيدين هابطين الجرف باتجاه قعر الوادي، ظللتُ وبقية الحاشية على القمة. كان رجال البلاط

يتراهنون فيما بينهم بالفعل، وتشوَّقتُ بقدر أي منهم إلى مشاهدة نتيجة الصيد، لكن عقل مولاتي كان مشغولًا بمسائل أخرى.

همسَت لي: «متى يمكننا الذهاب؟ متى يمكننا الهروب إلى الصحراء؟».

قلت: «حالما يبدأ الصيد، تتعلق جميع الأنظار عليه، وآنذاك تكون فرصتنا»، وبينما أتكلم، سكنت الريح التي دفعتنا عبر النهر وبرَّدتنا في المسير فجأة، وكما لو أن نحَّاسًا فتح باب مَصهَره، صار الهواء تقريبًا أسخن من أن نتنفسه.

نظرتُ مرة ثانية إلى الأفق الغربي. كانت السماء فوقه قد استحالت صفراء كبريتية، وبينما أتفرَّج، بدت البقعة كأنها تتصاعد إلى السماوات، وأربكني ذلك، لكنني كنتُ الوحيد الذي ظهر عليه الانتباه إلى هذه الظاهرة الغريبة بين الجموع.

ورغم أن فريق الصيد قد وصل إلى سفح التلة، ظلت المسافة قريبة بما يكفيني لمراقبة القطط العظيمة. كانا قد رأيا قطعان الغزلان التي تُساق ببطء ناحيتهما، وردُّهما ذلك من الحيوان الأليف الودود إلى طبيعتهما الصيَّادة المتوحِّشة، فبرز رأساهما بعزم وأهبة، وانتصبت آذانهما قُدمًا، وراحا يشدَّان الرسَن وقد امتصَّا بطنيهما وصارت جميع عضلاتهما مشدودةً كوتر قوس شُدَّت عن آخرها.

جذبت مولاتي تنورتي وهمست بإلحاح: «فلنذهب يا تايتا»، وبدأتُ أتدرَّج على مضض ناحية كتلة صخور من شأنها ستر انسحابنا وحجبنا عن بقية الجماعة. أمَّنتْ لنا رشوة الفضة التي دفعتُها لخادم الدواب حمارًا مربوطًا متواريًا عن الأنظار بين الصخور، وحالما بلغناه، تأكدتُ من أنه يحمل ما طلبتُ: قربة الماء وكيس المؤونة، ووجدتُ كل شيء في مكانه.

لم أتمكن من ضبط نفسي، واستحلفتُ مولاتي قائلًا: «لحظة أخرى فقط»، ثم تسلقتُ، قبل أن تتمكن من نهيي، إلى قمة المنكشف الصخري وألقيت نظرة إلى الوادي من تحته.

كانت أقرب، المها تمرُّ على بُعد بضع مئات من الخطوات من حيث وقف الفرعون قابضًا على رسن الفهدين، ومددتُ رأسي في الوقت المناسب تمامًا لأراه يفلت الرسن ويطلقهما. بدأ انطلاقتهما بوثبة متأنية ورأسين مرفوعين، كأنهما يدرسان قطعان المها الخابئة بأناقة ليختارا فريستهما، وفجأة، أدركت

القطعان اقترابهما الخاطف وانطلقت راكضة بأقصى سرعتها، فغشَّت السهل الترابي كسرب من السنونوات.

راحت القطتان تبسطان جسديهما الطويلين، وتمدان أطرافهما الأمامية قُدُمًا ثم تمرُّ الخلفية من بينها خافقَة، فينطوي جذعاهما اللينين قبل أن ينبسطا من جديد. سرعان ما بلغتا سرعتهما القصوى، ولم أرَ من قبل حيوانًا بهذه السرعة. وبالمقارنة بهما، بدت قطعان الغزلان كأنها صارت فجأة تعدو في أرض مستنقعية أعاقت فرارها. ثم بأناقة عفويَّة، أدركت القطتان القطيع، فتجاوزتا مهاة شاردة أو اثنتين قبل أن تبلغا ضحيتيهما المنتقاتين.

حاولت المهاتان الهَلِعتان تفادي الهجوم الفتَّاك، فقفزتا عاليًا وغيرتا اتجاههما في الهواء، ثم التوَتا مرتدَّتين على أعقابهما حالما لمست حوافرهما الدقيقة الأرض المسفوعة. استقرأت القطتان التواءاتهما بسلاسة أنيقة، وكانت النهاية محتومة، إذ أوقعت كل منهما إحدى الغزالتين على الأرض في سحابة منزلقة متشقلبة من التراب، وربضت فوقها مطبقة فكيها على قصبتها لتخنقها، بينما تركل سيقان الغزالتين الخلفية بتشنُّج، حتى تيبست أخيرًا وخشَّبها الموت.

ألفيتُ نفسي مهزوزًا ومنقطع النفس حماسةً، ثم نبهني صوت مولاتي: «تايتا! انزل فورًا! سيرونك جاثمًا هناك»، فهبطتُ ورجعتُ إليها.

ورغم أنني لا أزال مهتاجًا، رفعتها على السرج وقدتُ الحمار إلى الأرض المحتجبة حيث صرنا خارج مرمى بصر الجماعة التي تركناها على التل وراءنا. لم تحتمل مولاتي كبت انزعاجها مني طويلًا، وعندما ذكرتُ اسمَ تانوس ثانية بمكر، نسيت الأمر برمَّته، وحثَّت مطيَّتها إلى الموعد.

لم أتجه مباشرة إلى مقبرة تراس حتى اطمأننت إلى أننا صرنا بعيدين عن وادي الغزلان ووضعنا قمة أخرى وراء ظهرينا. وفي الهواء الساخن الجامد، راح صوت حوافر حمارنا يقعقع ويقرقع على الحصاة كأنه يمرُّ على فراش من زجاج مهشَّم. سرعان ما شعرتُ بالعرق يتصبب على جلدي، فقد كان الهواء خانقًا يثقله شعور اقتراب الرعد، وقبل أن نبلغ المقبرة بوقت طويل، قلت لمولاتي: «الهواء جاف كالعظام العتيقة. يجب أن تشربي بعض الماء...».

- تابع المضي! سيكون أمامنا وقت مديد لنشرب ملء بطوننا لاحقًا.

فقلتُ محتجًا: «لستُ قلقًا إلا حيالك يا مولاتي».

قالت: «لا ينبغي أن نتأخر، فكل لحظة تضيعها تُنقِص من وقتي مع تانوس». كانت محقة بالطبع، إذ لن نحظى إلا بوقت قليل قبل أن يفتقدنا الآخرون، ومولاتي محبوبة إلى درجة أن الكثيرين سيتطلعون إلى التمتع بصحبتها حالما ينتهي الصيد ويرجعون إلى النهر.

ظل تشوُّقها يزداد مع اقترابنا من الجروف حتى لم يعد بإمكانها احتمال مشية مطيَّتها، فوثبت عن ظهرها وركضت إلى الطلعة التالية، ثم صاحت: «ها هو! ها هو المكان الذي سينتظرني فيه!»، بينما تشير أمامها.

وبينما ترقص على خط الأفق، انقضَّت الريح علينا انقضاض الذئب المفترس بعواء ملأ التلال والأخاديد، وقبضتْ على شعر مولاتي فنشرته مثل راية تقصف وتتشابك من حول رأسها، ثم رفعَت تنورتها عاليًا فوق فخذيها السمراوين الممشوقتين، فضحكت مولاتي ودارت من حول نفسها مغازلةً الريح كأنها عشيقها، لكنني لم أشاركها غبطتها.

استدرتُ ونظرتُ خلفي، ورأيتُ العاصفة قادمة من الصحراء، إذ ارتفعت، قاتمة ومُريعة، إلى السماوات الصفراء الكالحة، وأخذت تتموَّر على نفسها كأمواج تتكسر على حيد مرجاني. حفَّ الرمل الذي نفخته الريح ساقيَّ، فانطلقتُ راكضًا أجرُّ الحمار خلفي من لجامه، وكادت الريح المنشبة في ظهري توقعني أرضًا، لكنني أمسكت بمولاتي.

صرختُ من فوق الريح: «علينا أن نسرع. يجب أن نبلغ حِمى المقبرة قبل أن تضربنا».

ارتفعت سحبٌ عالية من التراب أمام قرص الشمس، فأعتمته حتى صار بإمكاني النظر إليه مباشرة بعيني المجردة. غُسل العالم كله بلون المُغْرة الكئيب، وصارت الشمس كرة برتقالية باهتة، ثم راح الرمل المتطاير يسحج ما انكشف من جلد أطرافنا وقفَايَنا، حتى لففتُ شالي من حول رأس مولاتي لحمايتها، وسقتُها قُدمًا من يدها.

طوقتنا صفائح الرمل المنثور وطمست محيطنا حتى خشيتُ أنني أضعتُ الاتجاه، ثم فجأة، انفتحت ثغرة في ستائر الرمل ورأيتُ الفم المظلم لأحد القبور يظهر أمامنا، فبينما مشيتُ أترنَّح أجر الحمار بيد ومولاتي بالأخرى إلى أن دخلنا كنف الكهف. كان المدخل منحوتًا من صخر أصم، ويقود إلى عمق سفح التلة، ثم ينعطف انعطافًا حادًّا قبل أن يدخل المدفن حيث سُجيت المومياء العتيقة ذات يوم لترقد. قبل قرون خلَت، تصرَّف لصوص القبور

بالجسد المُحنَّط وجميع كنوزه، ولم يبقَ إلا الرسوم الجصية الذاوية على الجدران الحجرية؛ صور للآلهة والوحوش صيَّرتها الظلمة شبحية.

خرَّت مولاتي جالسة عند الجدار الحجري، لكن حبيبها كان أول ما فكرت فيه، فانتحبت يائسة: «الآن لن يجدنا **تانوس** أبدًا»، وجرحني جحودها، أنا الذي أوصلتها إلى بر الأمان. فككتُ سرج الحمار وكوَّمت الحمولة في أحد أركان القبر، ثم صببت كأس ماء من القربة وحملتها على الشرب.

سألتني بين جرعات الماء: «ماذا سيحدث للآخرين؟ الملك وجميع أصدقائنا؟». كانت مجبولة على التفكير في سلامة الآخرين، حتى في ضائقتها الشخصية.

قلت لها: «سيعتني الصيادون بهم. إنهم رجال بارعون يألفون الصحراء»، غير أنني فكرتُ في قرارتي متكدرًا: لكن ليسوا بارعين بالقدر الكافي ليتوقعوا العاصفة. ورغم أنني حاولتُ طمأنتها، عرفتُ أن الحال ستكون شاقة على النساء والأطفال في الخارج.

سألتني: «و**تانوس**؟ ماذا عنه؟».

- **تانوس** تحديدًا يعرف ما ينبغي فعله. إنه كالبدو. ثقي بأنه توقع قدوم العاصفة.

وأخيرًا، فكرت بسلامتها الشخصية: «أسنرجع إلى النهر أبدًا؟ أسيجدوننا هنا؟».

قلت: «إننا آمنان هنا. لدينا ماء يكفينا أيامًا عديدة، وعندما تهدأ العاصفة، سنجد طريقنا عودًا إلى النهر». وعندما فكرتُ بالمياه الثمينة، حملتُ القربة المنتفخة إلى عمق القبر حتى لا يدوسها الحمار. بحلول هذا الوقت، كان الظلام قد عمَّ بالكامل تقريبًا، فرحتُ أتلمَّس في الصرَّة بحثًا عن السراج الذي زودني العبد به، ونفختُ على الفتيل المُدخِّن، فالتهب مضيئًا القبر بضوء أصفر مُبهج.

وبينما كنتُ مشغولًا بالسراج ومُديرًا ظهري للمدخل، صرخت مولاتي صرخة مجلجلة تفيض ذعرًا رهيبًا إلى درجة أصابتني بخوف مكافئ وأجرت دمي سميكًا وبطيئًا كالعسل في مجاريه، رغم أن خفقان قلبي تسارع كتسارع حوافر غزال هارب. استدرتُ ومددتُ يدي إلى خنجري، لكن عندما رأيت الوحش الذي سَدَّ جسمه المدخل، تجمدتُ من دون أن ألمس السلاح على

حزامي، إذ عرفتُ غريزيًّا أن نصلي التافه لن يُجدي البتة أمام هذا المخلوق كائنًا ما قد يكون.

كانت هيئته مشوهة ومُبهمة في ضوء السراج الواهي، وتراءى لي أنه بشريٌّ الشكل، لكنه كان أضخم من أن يكون بشرًا، وأقنعني رأسه البشع أنه لا بدَّ وحش العالم السفلي المخيف ذو رأس التمساح الذي يلتهم قلوب من يقرر ميزان **تحوت** أنهم عاصون، الوحش المرسوم على جدران القبر، إذ تلألأ رأسه بحراشف زاحفيَّة، وكان فمه أشبه بمنقار عقاب أو فم سلحفاة عملاقة، أما عيناه فحفرتان عميقتان لجيَّتان تحدقان إلينا بحقد، ومن كتفيه، نبتت أجنحة عملاقة راحت تخفق -ملتفةً نصف التفافة- حول الجسد الشامخ كما يخفق جناحا صقر جاثم. توقعتُ أن يحلِّق المخلوق بتلك الأجنحة ويمزِّق مولاتي بمخالبه الفظيعة، ولا بدَّ أنها خافت ذلك بقدر ما خفته، فبينما هي رابضة عند قدمي الوحش صرخت ثانية.

ثم أدركتُ فجأة أن المخلوق ليس مُجنحًا، بل كانت طيَّات رداء صوفي طويل، كالذي يلبسه البدو، ترفرف في الريح خلفه. وبينما ما زلنا جامدين في حضوره المُروِّع، رفع كلتا يديه ونزع خوذة الحرب المذهَّبة وقناعها المصنوع على هيئة رأس عقاب، ثم هزَّ رأسه وهبطت كومة من اللفائف الحمراء الذهبيَّة إلى كتفيه العريضتين.

وقال بصوته الحبيب المعهود: «رأيتكما من قمة الجرف تأتيان عبر العاصفة».

فصرخت مولاتي ثانية، لكن هذه المرة بفرحٍ رنَّان جامح: «**تانوس**!».

وركضت إليه، فاحتواها بذراعيه كأنها طفلةٌ ورفعها عاليًا حتى لمس رأسها السقف الصخري، ثم أنزلها وضمها إلى صدره. ومن مهد ذراعيه، رفعت فمها بحثًا عن فمه، وبدا أنهما قد يلتهم أحدهما الآخر من شدَّة حاجته.

وقفتُ منسيًا في ظلام القبر. ورغم أنني تآمرتُ وجازفتُ بالكثير حتى جمعت شملهما، لا يمكنني حمل نفسي على تدوين المشاعر التي تكالبت عليَّ عندما جُعلتُ شاهدًا مُكرَهًا على نشوتهما. الغيرة أرذل مشاعرنا، ومع ذلك، فقد أحببت السيدة **لوستريس** بقدر ما أحبها **تانوس**، وليس حبَّ الأب أو الأخ كذلك. كنتُ خصيًّا، لكن ما كننتُه لها كان حب رجل طبيعي، وهو مستحيل بالطبع، لكن لم تزده استحالته إلا مرارةً. لم أستطع البقاء ومشاهدتهما،

وبدأت أنسلُّ من القبر كجروٍ جُلِدَ بالسوط، لكن **تانوس** رآني أغادر وقطع تلك القبلة الموشكة أن تُهلِكَ روحي.

- لا تتركني وحدي مع زوجة الملك يا **تايتا**، ابقَ معنا واحمني من هذا الإغواء المهول. إن شرفنا في معرض الخطر، ولا يمكنني الثقة بنفسي، يجب أن تبقى وتحرص على أن لا ألطخ زوجة الفرعون بالعار.

فصاحت مولاتي **لوستريس** من بين ذراعيه: «اذهب واتركنا وحدنا. لن أنصت إلى أي كلام عن العار والشرف الآن. لقد حُرمنا حبنا منذ وقت بعيد، ولا يمكنني انتظار أن تتحقق نبوءة المتاهات. اتركنا وحدنا الآن يا **تايتا** اللطيف».

فررت من الحجرة كأن حياتي في خطر، وربما كنتُ لأخرج إلى العاصفة وأهلك فيها واضعًا حدًا لها، لكنني أجبنُ من ذلك بكثير، فتركتُ الريح ترجعني. ثم تعثرت إلى ركن من أركان المدخل حيث لم يعد بإمكان الريح دفعي، وتراخيتُ على الأرض الحجرية، ثم رفعت شالي من فوق رأسي لأغطي عينيَّ وأسدُّ أذنيَّ، لكن رغم هدير العاصفة فوق الجروف، ظلت الأصوات المنبعثة من حجرة الدفن مسموعة.

ظلت العاصفة تنفخ ليومين بضراوة لا تنقطع، ونمتُ جزءًا من الوقت، مُجبرًا نفسي على الانطواء في النسيان، لكنني كنتُ أسمعهما كلما استيقظت، وعذبني صوتُ حبهما. غريبٌ أنني لم أعِش ضيقًا كهذا عندما كانت مولاتي بصحبة الملك، لكنه من ناحية أخرى ليس غريبًا جدًا، ذلك أن العجوز لا يعني لها شيئًا.

دخلتُ عالمًا مختلفًا من اللوعة، فمزقت الآهات والأنات والهمسات قلبي، وهددت تنهُّدات الشابة الموزونة، التنهُّدات غير النابعة من الألم، بإفنائي، أما صرختها الجامحة عند نشوتها الأخيرة، فآلمتني أكثر من سكِّين الخصي.

وأخيرًا، خمدت الريح وخبَت، وراحت تنوح في سفح الجروف، ثم اشتد الضوء وأدركتُ أنه اليوم الثالث من سجني في القبر. رفعتُ نفسي وناديتهما من دون أن أجرؤ على دخول الغرفة الداخلية من خشية ما قد أكتشفه، ولبعض الوقت، لم أسمع ردًا، ثم تكلمت مولاتي بصوت مبحوح ذاهل ردد المدخل صداه المخيف: «**تايتا**، أهذا أنت؟ خُيِّل إليَّ أنني متُّ في العاصفة وحُملت إلى حقول الفردوس الغربية».

❖❖❖

لم يبق معنا إلا قليل من الوقت بعد أن هدأت العاصفة، إذ لا بدَّ أن الصيادين الملكيين كانوا يبحثون عنا بالفعل، وقد منحتنا العاصفة أفضل عذر ممكن لغيابنا. كنتُ واثقًا بأن الناجين من جماعة الصيد سيكونون مبعثرين فوق هذه التلال الشنيعة، لكن لا ينبغي لجماعة البحث أن تعثر علينا برفقة **تانوس**.

من ناحية أخرى، بالكاد تكلمتُ و**تانوس** في هذه الأيام الأخيرة، ولدينا أمور كثيرة نناقشها، فبينما نقف في باب المدخل خَطَطنا خُططنا على عجل.

كانت مولاتي هادئة ورصينة في صورة قلما رأيتها من قبل، فقد وقفَت بجوار **تانوس**، من دون هذرها التلقائي، تراقب وجهه بسكينة جديدة، وذكرتني بكاهنة تؤدي طقوسها أمام صورة إلهها. لم تزح نظرتها عنه لحظة، وراحت تمد يدها بين الحين والآخر تتلمسه، كأنما لتؤكد لنفسها أنه **تانوس** بحق.

وعندما تفعل ذلك، يصمت **تانوس** عن أي شيء يقوله ويمنح تينك العينين الخضراوين الداكنتين كل اهتمامه، فأُضطَرُّ إلى ندائه حتى يرجع إلى المسألة التي لم نتمَّها بعد. في حضرة هُيام ظاهر كهذا، كانت مشاعري الشخصية خسيسة وحقيرة، وأجبرتُ نفسي على الفرح لأجلهما.

استغرقنا حتى أنهينا مسائلنا وقتًا أطول مما عددتُه حكيمًا، لكنني في آخر الأمر عانقت **تانوس** عناق الوداع وحثثت الحمار لنخرج إلى ضوء الشمس الذي يصفّيه غبار أصفر بديع لا يزال يملأ الجو. وتخلّفَت مولاتي عني، فانتظرتها في أسفل الوادي.

نظرت خلفي، ورأيتهما يخرجان من الكهف أخيرًا. وقفا يحدق واحدهما إلى رفيقه مدة طويلة من دون أن يتلامسا، ثم استدار **تانوس** ومضى موسعًا خطاه. راقبته مولاتي حتى غاب عن نظرها، ثم نزلت إلى حيث أنتظرها، ماشيةً كامرأة تحلُم.

ساعدتها على الركوب، وبينما أضبط السرج، مدّت يدها فأمسكت بيدي وقالت ببساطة: «شكرًا لك».

فاعترضتُ قائلًا: «لا أستحق امتنانك».

قالت: «إنني أسعد مخلوقات العالم. كل ما قلته لي عن الحب حقيقي. أرجوك افرح لأجلي، وإن كان...» لم تنهِ جملتها، وأدركتُ فجأة أنها اكتنهت

أعمق مشاعري. حتى في قمة ابتهاجها، أسفت لأنها سببت لي الألم، وأحسب أنني أحببتها في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى.

أدرتُ وجهي وتلقفت اللجام، ثم قدتها عودًا ناحية النيل.

***

رصدنا أحد الصيادين الملكيين من قمة تلة بعيدة، وحيَّانا تحية قلبية، ثم بينما يسرع لينضم إليها قال: «كنا نبحث عنكما بأمر من الملك».

سألته: «هل أُنقذ الملك؟».

- إنه آمن بقصره في جزيرة إلفنتين، وقد أمرنا بأن نأخذ السيدة لوستريس إليه مباشرة حالما نجدها.

عندما هبطنا إلى مرسى القصر، وجدنا أتون بانتظارنا، وراح ينفخ خديه المتبرِّجين ارتياحًا ويغرق مولاتي باهتمامه. قال لنا بتلذذ وحشي: «وجدوا جثث ثلاثة وعشرين شقيًّا هلكوا في العاصفة. كان الجميع متأكدًا أننا سنعثر عليكما ميتين أيضًا، لكنني صليتُ في معبد حابي من أجل أن ترجعا سليمين».

بدا راضيًا عن نفسه، وأزعجتني محاولته نيل الفضل في نجاتها. لم يسمح لنا إلا بوقتٍ يكفي أن نغتسل على عجل وندهن بشرتينا الجافتين بالزيت العطري قبل أن يسرع بنا إلى مقابلة الملك.

تأثر الفرعون تأثرًا حقيقيًّا بعودة مولاتي إليه. كنتُ متأكدًا أنه أحبها بقدر ما أحبها الآخرون، وليس لمجرد وعد الخلود الذي رآه فيها، وعندما ركعتْ أمامه، تعلقت دمعة برمشه وأسالت طلاء خديه.

قال لها: «ظننتُك هلكتِ (وكان ليعانقها لو تسمح له آداب السلوك بذلك)، لكن بدلًا من ذلك، أجدك أجمل وأكثر إشراقًا من أي وقت مضى»، وكان ذلك صحيحًا، فقد طلاها الحب بسحره الخاص.

قالت له: «لقد أنقذني تايتا. قادني إلى مأوى وحماني في خلال هذه الأيام الرهيبة. كنتُ لأهلك من دونه، كتلك الأرواح الشقية».

سألني الفرعون مباشرة بإلحاح: «أهذا صحيح يا تايتا؟»، فلبستُ أكثر تعابيري تواضعًا وغمغمت: «لستُ إلا أداة حقيرة بأيدي الآلهة».

ابتسم لي، وعرفتُ أنه غدا مولعًا بي كذلك، ثم أمرني: «لقد أسديتنا خدمات كثيرة أيتها الأداة الحقيرة، لكن هذه أثمنها. اقترب!»، وركعتُ أمامه.

وقف أتون بجواري، حاملًا صندوقًا صغيرًا من خشب الأرز، ثم رفع غطاءه وقدمه للملك، فأخرج الملك منه سلسلة ذهبية. كانت من أنقى أنواع الذهب الخالص، وتحمل وسوم الجواهرجيين الملكيين التي توثق أن وزنها عشرين دبنًا[1].

حمل الملك السلسلة من فوق رأسي وترنّم قائلًا: «أهديك **ذهب الثناء**»، ثم أنزلها إلى كتفي، فحطَّ الثقل الباهظ بهجةً على قلبي. كانت هذه الميدالية أعلى نياشين الحظوة الملكية، وتُدخر في العادة للجنرالات والسفراء، أو كبار المسؤولين كالسيد **إنتف**، وأشك في أن هذه السلسلة الذهبية قد أحاطت عنق عبد وضيع في تاريخ مصرنا هذه.

لم تكُن تلك آخر الهدايا والجوائز التي أُسبغت عليَّ، إذ ما كانت مولاتي لتقبل بأن يغلبها أحد، وفي ذلك المساء، عندما كنتُ أعتني بأمر حمّامها، صرفت إماءها فجأة وقالت بعد أن وقفت عاريةً أمامي: «يمكنك أن تساعدني بارتداء ملابسي يا **تايتا**». كانت تمنحني هذا الامتياز عندما تكون مسرورة مني سرورًا خاصًا، فهي تعرفُ كم أستمتع بالانفراد بها في هذه الظروف الحميمية.

لم يستر حُسنها شيء إلا خصلات شعرها الداكن البراقة، وبدا أن تلك الأيام التي قضتها مع **تانوس** قد ملأتها بصنف جديد من الجمال، صنف ينبعث من أعماقها. عندما يوضع سراج داخل برطمان من المرمر، يشعُّ من خلال جوانبه الشفيفة، وبالطريقة نفسها أشعت مولاتي **لوستريس**.

قالت: «لم أحلم قطُّ أن وعاءً بائسًا كجسدي هذا قادر على احتواء هذه المتعة (دلَّكت جنبيها عندما قالتها، وأخفضت نظرها إلى جسدها، داعيةً إياي لأفعل مثلها)، كل ما وعدتني به تحقق عندما كنت مع **تانوس**. لقد أسبغ الفرعون **ذهب الثناء** عليك، ومن الملائم أن أريك تقديري كذلك. أريدكَ أن تشاركني سعادتي بطريقة ما».

- خدمتكِ أقصى جائزة يمكن أن أتمناها.

أمرتني قائلة: «ساعدني على ارتداء ثيابي»، ثم رفعت يديها من فوق رأسها، وأخذ شكل نهديها يتغير كلما تحركت. كنت قد راقبتهما يكبران

(1) الدبن: وحدة مصرية قديمة لقياس الوزن عادلت 13.6 غرامًا في عصر المملكة القديمة والوسطى و91 غرامًا في عصر المملكة الجديدة. (المترجم).

عبر السنين من تينتين غضتين ضئيلتين إلى هاتين الرمانتين المكوَّرتين الممتلئتين، الأجمل من الجواهر والمنحوتات الرخامية. رفعتُ ثوب النوم الهفهاف فوقها، وتركته يطفو على جسدها حتى غطاه، لكنه لم يحجب شيئًا من جمالها، كما تزيِّن غشاوةُ الفجر مياهَ النيل.

- أمرتُ بإقامة مأدبة، وأرسلتُ دعوات للسيدات الملكيات.
- حسن جدًّا يا مولاتي، سأشرف على ذلك.
- لا لا يا تايتا. المأدبة على شرفك. ستجلس بجواري ضيفًا.

كان هذا صادمًا بقدر أيٍّ من المكايد التي فكرتْ فيها مؤخرًا.

- هذا ليس لائقًا يا مولاتي، ستنتهكين حرمة الأعراف.
- أنا زوجة الفرعون. أنا من يقرر الأعراف. سأهديك هدية في خلال المأدبة، وسأمنحك إياها على مرأى من الجميع.

سألتها مرتعدًا بعض الشيء: «أستخبرينني ما هي؟» لم يسبق أن تيقنتُ من أي شيطنة قد تخترعها تاليًا.

فابتسمتْ ابتسامة غامضة: «بالطبع سأخبرك ما هي: إنها سر».

***

رغم أنني كنتُ ضيف الشرف، لم أقدر على ترك ترتيبات المأدبة للطباخين والإماء المقهقهات، ففي النهاية، سمعة مولاتي بصفتها مضيفة على المحك، لذا نزلتُ إلى السوق قبل الفجر لأؤمِّن أفخر وأطزج منتجات الحقول والنهر.

وعدتُ أتون أنه سيتلقى دعوة، ففتح لي مخزن خمور الملك وسمح لي باختيار تشكيلتي، ووظفتُ أفضل موسيقيي المدينة وبهلواناتها ودريتهم، وأرسلتُ العبيد ليجمعوا زهور الياقوتية والزنبق واللوتس من ضفاف النهر من أجل إكثار جموع الزهور التي تُزين حديقتنا بالفعل، وطلبتُ من النسَّاجين جَدل سفن ضئيلة من البوص عوَّمتُ عليها سُرُجًا زجاجية ملونة وتركتها تنجرف فوق بِرَك حديقتنا المائية، وجهزتُ وسائد جلدية وأكاليل زهور لجميع الضيوف، وحناجير من الزيوت العطرية تخفف حرَّهم في الليل الخانق وتطرد البعوض.

عند الغروب، بدأت السيدات الملكيات بالوصول بكامل بهرجتهنَّ وتعاليهنَّ، حتى إن بعضهنَّ حلقن رؤوسهنَّ واستبدلن بشعورهن الطبيعية

باروكات مُتقنة حيكت من الشعر الذي اضطُرَّت زوجات الفقراء إلى بيعه لتطعمن أطفالهن. كنت أشمئز من هذه الموضة، وتعهدت أن أفعل كل ما في قدرتي لأمنع مولاتي من الرضوخ لحماقة كهذه، إذ إن خصلات شعرها اللماعة من أحسن مباهجي، لكن حينما يتعلق الأمر بالموضة، لا يمكن الوثوق حتى بأعقل النساء.

عندما قعدتُ، بعد إصرار مولاتي، على وسادة بجوارها بدلًا من أن أتخذ موقعي المعتاد وراءها، رأيتُ الصدمة على وجوه العديد من ضيفاتنا إزاء هذا السلوك غير اللائق، ورحن يتهامسن من وراء مراوحهنَّ. كنتُ متضايقًا مثلهنَّ، ولأستر ارتباكي، أشرتُ للعبيد أن يبقوا كؤوس النبيذ ملأى، وللموسيقيين أن يعزفوا، وللراقصين أن يرقصوا.

كان النبيذ قويًّا، والموسيقا مثيرة، وجميع الراقصين ذكورًا، وقد قدموا دليلًا وافيًا على جنسهم، ذلك أنني أمرتهم بالأداء في عري تام، وسحر العرض السيدات حتى إنهنَّ سرعان ما نسين غضبهن المحتشم وأعطين النبيذ حقه. لم يساورْني أيُّ شك في أن العديد من الراقصين لن يغادر الحريم قبل الفجر، فلبعض السيدات الملكيات شهية نهِمة، والكثير منهن لم يزرهنَّ الملك منذ سنوات.

في هذا الجو الأنيس، نهضت مولاتي واقفة ونادت على ضيفاتها لينتبهن، ثم أثنت عليَّ أمامهن بلغة مُغالية دفعت الدم إلى وجهي، واستمرَّت فحكَت أحداثًا مسليةً ومؤثرة من الحياة التي قضيناها معًا. بدا أن النبيذ ليَّن موقف النساء مني، فضحكْن وصفقن، حتى إن بعضهنَّ بكى قليلًا بفعل النبيذ والعاطفة.

وأخيرًا، أمرتني مولاتي أن أركع أمامها، ففعلت، وسادت تمتمة التعليقات. كنتُ قد اخترت ارتداء تنورة بسيطة من أفخر أنواع الكتان، وصففت الإماء شعري في أفضل صورة تلائمني، ولم ألبس حليةً إلا ذهب الثناء حول عنقي، فكان مظهري البسيط ساحرًا في وسط هذه الأبهة. وقد حافظت، بالسباحة والتمرين المنتظمين، على الجسد الرياضي الذي جذب السيد إنتف إليَّ في المقام الأول، وكنت في ريعان شبابي في تلك السنين.

سمعتُ إحدى النساء الكبيرات تغمغم لجارتها: «يا لها من خسارة أن يفقد جواهره، كان ليصير دمية مسلية»، وتمكنت في ذلك المساء من تجاهل الكلمات التي كانت لتنزل بي ألمًا ممضًا في ظروف أخرى.

بدا على مولاتي أنها راضية جدًّا عن نفسها، فقد نجحت في إبقائي جاهلًا لطبيعة هديتها، ولم يكن من عادتها أن تبلغ من الحذاقة حدًّا يمكنها من أن تفوقني دهاءً. ثم أخفضت نظرها إلى رأسي المنحني وتكلمت ببطء ووضوح، معتصرة أقصى متعة اللحظة: «أيها العبد تايتا، طيلة سنوات حياتي، كنتَ درعًا حاميةً تكتنفني، كنت مرشدًا ومعلمًا، علمتني القراءة والكتابة، ووضَّحت لي أسرار النجوم والفنون المُلغزة، علمتني الغناء والرقص، ودللتني على طريق إيجاد السعادة والرضا في أشياء كثيرة. وإنني ممتنة».

بدأ التململ يرجع إلى السيدات الملكيات، إذ لم يسمعن من قبل مديحًا فيَّاضًا كهذا يُقال في عبد.

- في يوم *الخماسين*، أسديتني خدمة لا بدَّ لي من مكافأتك عليها. لقد أسبغ عليك الفرعون ذهب الثناء، وأنا عندي هديتي الخاصة لك.

نزعت من تحت ردائها لفيفة برديٍّ مُحكمة بخيط ملوَّن، وحملتها قائلة: «ركعتَ أمامي عبدًا، والآن تنهض رجلًا حرًّا. هذا صك إعتاقك الذي أعدَّه نسَّاخو البلاط. من هذا اليوم فصاعدًا، أنت رجل حر».

رفعتُ رأسي للمرة الأولى وحدقتُ إليها غير مصدق، فدسَّتْ لفيفة البردي بين أصابعي المخدَّرة، وابتسمت لي بعطف.

- لم تتوقع هذا، أليس كذلك؟ إنك متفاجئ حتى إن ليس لديك ما تقوله لي، قل لي شيئًا ما يا تايتا، أخبرني بمدى امتنانك لهذه المنَّة.

جرحتني كل كلمة قالتها كسهم مسموم، وصار لساني حجرًا في فمي وأنا أفكر في حياة من دونها، ذلك أنني، وبصفتي رجلًا حُرًّا، سأُستبعد من حضرتها إلى الأبد. لن أعدَّ لها طعامها ثانية، ولا أحضر حمامها. بينما تتجهَّز للنوم لن أنشر الأغطية من فوقها، ولن أوقظها عند الفجر وأجلس بجوارها عندما تفتح عينيها الخضراوين الداكنتين الحبيبتين في مطلع كل يوم جديد. لن أغني معها ثانية، أو أحمل كأسها، أو أساعدها على لبس ثيابها وأتمتع برؤية حسنها كله.

كنت مشدوهًا، ورحتُ أحدق إليها يائسًا، كمن بلغت حياته نهايتها.

أمرتني: «افرح يا تايتا، افرح بهذه الحرية الجديدة التي أمنحك إياها».

فقلت من دون تفكير: «لن أفرح ثانية أبدًا. لقد نبذتني. أنَّى لي الفرح؟».

تلاشت ابتسامتها، وحدقت إليَّ باضطراب: «إنني أمنحك أثمن هدية في قدرتي منحها. إنني أمنحك حريتك».

هززتُ رأسي: «إنك تُنزلين أوجع العقوبات بي. إنك تُبعدينني عنك. لن أعرف الفرح ثانية أبدًا».

– هذا ليس عقابًا يا **تايتا**. كان القصد منه مكافأتك. أرجوك، ألا تفهمني؟

قلت: «المكافأة الوحيدة التي أرغب بها هي البقاء بجوارك لبقية حياتي (شعرتُ بالدموعِ ترتفع من أعماقي، وحاولتُ كبتها). أرجوك يا مولاتي، أتوسل إليك، لا تُبعديني عنك. إن كنت تكنين لي أي مشاعر، فاسمحي لي بالبقاء معك».

فأمرتني قائلة: «لا تبكِ، لأنك إذا ما بكيت فسأبكي معك، أمام كل ضيوفي». أعتقد بحقٍّ أنها لم تفكر، حتى تلك اللحظة، بعواقب حركة السخاء مغلوطة الموضع هذه. فاضت الدموع من فوق جفنيَّ وسالت على خديَّ.

قالت: «ألجِمْ دموعك! هذا ليس ما أردتُه! (وكانت دموعها صحبة طيِّبة لدموعي)، لم أفكِّر إلا بتكريمك، مثلما كرَّمك الملك».

رفعتُ لفيفة البردي: «أرجوك اسمحي لي بتمزيق قطعة الحماقة هذه مزقًا. أعيديني إلى خدمتك. اسمحي لي بالوقوف خلفك، حيث أنتمي».

قالت: «كفَّ عن ذلك يا تايتا! إنك تفطر قلبي»، وراحت تتنشق دموعها بصوت عالٍ، لكن قلبي لم يلِن.

– الهدية الوحيدة التي أبتغيها منك هي أن تمنحيني الحق بخدمتك طيلة أيام حياتي. أرجوك يا مولاتي، أبطلي هذا الصك. ائذني لي في تمزيقه.

أومأت برأسها إيماءً شديدًا، وأخذت تنتحب مثلما اعتادت أن تفعل في صغرها عندما تقع وتسحج ركبتيها، فمزَّقتُ ورقة البرديِّ مرة ثم مرة ثانية، وعندما لم يُرضني هذا التدمير، حملتُ الجذاذات فوق لهب السراج وتركتها تحترق حتى صارت لفائف سوداء هشَّة.

– عديني أن لا تحاولي إبعادي مرة أخرى. أقسمي إنكِ لن تحاولي ثانية فرض حريتي عليَّ.

أومأت برأسها من وراء دموعها، لكنني لم أقبل بذلك، وألححتُ عليها: «قوليها، قوليها جهارًا حتى يسمعها الجميع».

همسَت بصوت مبحوح من خلف الدموع: «أعدُ أن أبقيك عبدي، وأن لا أبيعك أبدًا، ولا أحررك (ثم لمع شعاع شيطنة من تينك الخضراوين الداكنتين الحزينتين)، إلا إذا ما أزعجتني إزعاجًا زائدًا بالطبع، آنذاك سأستدعي كتَّاب العدل فورًا (ومدَّتْ يدها لتنهضني)، انهض أيها السخيف، واعتني بواجباتك. أقسم إن كأسي فارغة».

استعدتُ موقعي الملائم من ورائها، وأعدتُ ملء كأسها. ظنت الجماعة المخمورة أن ذلك كله تسلية رتبناها من أجلهم، وراحت تصفق وتصفر وترمي أوراق الزهور علينا إعرابًا عن تقديرها. رأيتُ أن معظمهنَّ ارتحن لأننا لم نخرق آداب اللياقة، وأن العبد لا يزال عبدًا.

رفعت مولاتي كأس نبيذها إلى شفتيها، لكن قبل أن تشرب، ابتسمَت لي من فوق حافته، ورغم أن عينيها لا تزالان رطبتان بفعل الدموع، رفعت تلك الابتسامة معنوياتي وردت لي سعادتي. شعرتُ أنني أقرب إليها من أي وقت في السنين الماضية.

***

في الصباح التالي للمأدبة وساعة حريتي، استيقظنا لنجد أن النهر قد ارتفع في الليل مع بدء الفيضان السنوي، ولم نتلقَّ أي تحذير حتى أيقظتنا صيحات ابتهاج المراقبين عند الميناء. غادرت سريري، ولا يزال رأسي ثقيلًا بفعل النبيذ، وركضتُ إلى جانب النهر، فرأيتُ الضفتين محفوفتين بسكان المدينة، يحتفلون بالمياه بالصلوات والأغاني والتلويح بسعف النخيل.

كانت المياه في انخفاضها خضراء فاقعة بلون الزنجار الذي ينمو على قضبان النحاس، لكن مياه الطوفان شطفتها وامتلأ النهر حتى صار رماديًا متوعِّدًا. كان قد زحف في خلال الليل إلى أن بلغ منتصف أعمدة المرفأ الحجرية، وقريبًا سيضغط على الدكات الترابية للحاجز، ثم يشق طريقه بالقوة إلى أفواه قنوات الري المتشققة والجافة منذ شهور عديدة، ومن هناك، يلفُّ خارجًا ويفيض على الحقول مغرقًا أكواخ الفلاحين وجارفًا مؤشرات الحدود بين الأراضي.

كان تفحُّص الحدود واستبدالها بعد كل فيضان مسؤولية حارس المياه، وقد ضاعف السيد إنتف ثروته من خلال تأييد مزاعم الأثرياء والأسخياء عندما يحين وقت إعادة وضع أحجار المؤشرات كل عام.

تردد من أعلى المجرى صدى دويّ الجندل، وطغى الطوفان الآخذ بالارتفاع على حواجز الجرانيت الطبيعية التي وضعت في طريقه، وبينما يمرُّ هادرًا من خلال الخوانق، تصاعد الرذاذ إلى السماء الزرقاء الجامدة في عمود فضي يُرى من جميع أرجاء مقاطعة أسوان. وعندما طاف الرذاذ الصافي على الجزيرة، مرَّ باردًا ومنعشًا على وجوهنا المرفوعة، واغتبطنا في هذه النعمة، ذلك أنها المطر الوحيد الذي عرفناه في وادينا على الإطلاق.

وبينما أراقب، أكلِ الطوفان الشواطئ المحيطة بجزيرتنا، وسرعان ما سيغمر مرسانا، ويطفُ النهر على بوابة حديقتنا، أما عن نقطة توقفه، فهذه مسألة لا يمكن حسابها إلا بدراسة مستويات مقياس النيل. تلك المستويات تقرر رخاء البلاد كلها وكل فرد فيها أو مجاعتها.

عجَّلتُ بالعودة لأبحث عن مولاتي وأحضِّر لمراسم المياه التي أؤدي فيها دورًا بارزًا، فلبسنا أفخر ثيابنا وارتديت القلادة الذهبية الجديدة، ثم انضممنا رفقة بقية أهل دارنا وسيدات الحريم إلى الطابور العفوي المتجه إلى معبد حابي.

ترأسنا الفرعون وجميع أسياد مصر الكبار، وانتظرنا الكهنة الذين سمَّنتهم رغد العيش على درج المعبد. كانت رؤوسهم حليقة تتألق بفعل الزيت، وأعينهم تتلألأ شرهًا، ذلك أن من عادة الملك الإسراف في الأضاحي اليوم.

حُمِلَ أمام الملك تمثال الإله من المقدِس، وزُين بالأزهار والكتان القرمزي، ثم نُقع بالزيوت والعطور بينما نغني تراتيم الثناء والشكر له لإرساله الطوفان.

في الجنوب البعيد، في الأرض التي لم يطأها إنسيٌّ متحضر قطُّ، جلس الإله حابي على قمة جبله وصبَّ من إبريقين لا ينتهيان المياه المقدسة في نيله. كانت لمياه كل إبريق لون وطعم مختلفين، إحداها خضراء مشرقة وعذبة، والأخرى رمادية ومثقلة بالطمي الذي يُغْرِق حقولنا كل موسم ويمنحها حياة وخصوبة جديدتين.

وبينما نغني، قدم الملك أضحية الذرة واللحوم والنبيذ والفضة والذهب، ثم نادى حكماءه ومهندسيه ورياضييه، وأمرهم بدخول مقياس النيل للبدء بالرصد وإجراء الحسابات.

عندما كنت مِلكًا للسيد إنتف، رُشحت لأصير أحد مراقبي المياه. كنتُ العبد الوحيد في تلك الزمرة المرموقة، لكنني عزيتُ نفسي بحقيقة أن قلة

قليلة غيري ترتدي ذهب الثناء، وأنهم عاملوني باحترام. كانوا قد عملوا معي من قبل، ويعرفون قيمتي، فقد ساعدتُ على تصميم مقاييس النيل التي تقيس فيضان النهر، وأشرفت على بنائها، وأنا من صغت المعادلة المعقدة التي تقرر من عمليات الرصد الارتفاع والحجم المتوقعين لكل فيضان.

أضاءت مشاعل الأسل المغمس بالقار المرتعشة طريقنا، وتبعت الكاهن الأعلى إلى فم مقياس النيل، وهو فتحة مظلمة في الباب الخلفي للمقدِس. ثم هبطنا منحدر المدخل، وكانت الدرجات الحجرية زلقة بفعل الوحل وتسربات النهر، ومن تحت أقدامنا، انزلق صلٌ ماء أسود قاتل بعيدًا، وغاص، مصدرًا هسيسًا حانقًا، في المياه الداكنة التي ارتفعت بالفعل إلى منتصف المدخل.

اجتمعنا على آخر درجة مكشوفة، وتفحصنا على ضوء المشاعل العلامات التي نقشها البناؤون على جدران المدخل. كان كل رمز يحمل قيمة سحرية وتجريبية مخصصة له.

قرأنا القراءة الأولى والأهم معًا بعناية فائقة، وفي الأيام الخمسة التالية، سنتناوب على مراقبة ارتفاع المياه وتسجيله، وتوقيت القراءات على فيضان ساعة مائية. ومن عيِّنات الماء، نقدِّر كمية الطمي التي تحملها، وتؤثر هذه العوامل جميعها في استنتاجاتنا النهائية.

عندما تتم أيام الرصد الخمسة، ندخل في ثلاثة أيام إضافية للحسابات التي تملأ العديد من لفائف البرديّ، وأخيرًا، نصير مستعدين لتقديم نتائجنا للملك. في ذلك اليوم، يرجع الفرعون إلى المعبد في هيئة ملكية، ويرافقه نبلاؤه ونصف سكان إلفنتين ليسمعوا التقديرات.

عندما قرأها الكاهن الأعلى جهارًا، بدأت الابتسامة ترتسم على وجه الفرعون، فقد تنبأنا بطوفان بنِسَب مثالية تقريبًا، لا منخفضًا أكثر من اللازم، فيترك الحقول مكشوفة تتحمَّص تحت الشمس، حارمًا إياها من طبقة الطمي السوداء الغنية الضرورية جدًّا لخصوبتها، ولا مرتفعًا زيادة فيجرف القنوات والدكات الترابية، ويغرق القرى والمدن على الضفتين. سيجلب هذا الموسم حصادًا وفيرًا وقطعانًا سمينة.

ابتسم الفرعون، ولم تكن ابتسامته لحسن حظ رعاياه، ولكن للمكافأة التي سيجمعها جباة الضرائب، فالضرائب السنوية تُحسب بناء على قيمة الفيضان، وستُضاف هذا العام كنوز جديدة ضخمة إلى مستودعات معبده الجنائزي. لاختتام مراسم مباركة المياه في معبد **حابي**، أعلن الفرعون تاريخ

الحج الذي يُقام كل عامين إلى طيبة للمشاركة في مهرجان **أوزيريس**، وبدا لي من غير الممكن أن عامين قد انقضيا منذ أدَّت مولاتي دور الإلهة في آلام **أوزيريس** الأخيرة.

لم أنم تلك الليلة إلا بقدر ما نمت وقتما سهرت أراقب مقياس النيل، ذلك أن مولاتي كانت في حماسة مفرطة منعتها من الخلود إلى سريرها، وحملتني على البقاء معها حتى الفجر نغني ونضحك ونكرر قصص **تانوس** التي لم تسأم من سماعها قطّ.

في غضون ثمانية أيام، سيبحر الأسطيل الملكي شمالًا على فيضان النيل المتزايد، وعندما نصل، سنجد **تانوس**، سيد **حاراب**، في انتظارنا **بطيبة**، وكانت مولاتي محمومةً من فرط السعادة.

***

كان الأسطيل الذي احتشد في أزقة ميناء **إلفنتين** غفيرًا حتى إنه بدا يغطي المياه من الضفة إلى الضفة، وعلّقت مولاتي مازحةً بقولها إن رجلًا قد يتمكن من عبور النيل من دون أن تتبلل قدماه من خلال التمشّي بين أبدان السفن. وبالرايات والأعلام المرفرفة من كل صارية، قدم الأسطيل عرضًا أنيقًا.

كنت وبقية حاشية البلاط قد ركبنا بالفعل المراكب المخصصة لنا، ورحنا نهلل من فوق متونها عندما هبط الملك درجه الرخامي من القصر وصعد إلى الصندل الأميري العظيم، وعندما صار آمنًا على متنه، أطلق مئةُ بوق إشارة الإبحار، فاستعدَّ الأسطول كله كأنه سفينة واحدة، ووجهت جميع المراكب جآجئها إلى الشمال، ثم انطلقنا، بدفع النهر وصفوف المجاديف.

سادت روح مختلفة في البلاد خارج الجزيرة منذ أباد **آخ- حورس** الصردان، فنزل سكان كل قرية عبرناها إلى أطراف الماء لتحية ملكهم، وجلس الفرعون عاليًا على مؤخرة السطح، معتمرًا التاج المزدوج الثقيل، حتى يراه الجميع بوضوح. راحوا يلوّحون بسعف النخيل ويصيحون: «عسى أن تبتسم الآلهة كلها للفرعون!»، إذ لم يجلب لهم النهر ملكهم وحسب، بل الوعد بإحسانه أيضًا، وكانوا سعداء.

في خلال الأيام التالية، نزل الملك وبطانته كلها إلى الشاطئ مرتين لمعاينة النصب التذكارية التي أقامها **آخ- حورس** لمروره على مفترقات

طرق القوافل. كان الفلاحون المحليون قد حافظوا على أكوام الجماجم الشنيعة هذه بوصفها مخلفات مقدسة للإله الجديد، فلمَّعوا الجماجم كلها حتى أشعَّت كالعاج، وثبتوا الأهرامات بملاط البناء لتصمد أمام السنين. ثم بنوا أضرحة من فوقها وعينوا كهنة لتخدم هذه الأماكن المقدسة.

في كلا هذين الضريحين، قدمت مولاتي خاتمًا ذهبيًا أضحية، وقبَّله الأولياء الذين عينوا أنفسهم بأنفسهم بسعادة، وسُدى احتججتُ على هذا التبذير. في أغلب الأوقات، كانت مولاتي تفتقر إلى الاحترام المناسب للثروة التي بذلتُ بالغ الجهد في جمعها لها. ولولا يدي الرادعة، لربما منحتها كلها للكهنة الطمَّاعين أو الفقراء النهمين وهي تبتسم.

في الليلة العاشرة بعد مغادرتنا إلفنتين، خيَّمت الحاشية الملكية على رأسٍ بهيٍّ فوق منعطف في النهر. كان مقررًا أن تضم التسلية في ذلك المساء أحد أشهر الحكواتية في البلاد، وفي العادة تفضِّل مولاتي سماع قصة جيدة على معظم المتع الأخرى. كنت وإياها نتطلع إلى هذه المناسبة ونناقشها بتوقٍ منذ غادرنا القصر، لذا ما فاجأني وأصابني بخيبة مريرة أن مولاتي أعلنت أنها مرهقة ومتوعِّكة إلى درجة تمنعها من حضور القصة. ورغم أنها حثتني على الذهاب وأخذ بقية أهل دارنا معي، لم أستطع تركها وحيدةً ومريضة، فأعطيتها شربة ساخنة ونمت على الأرض أسفل سريرها، حتى أكون قريبًا إذا ما احتاجت إليَّ في الليل.

قلقتُ حقًا عندما حاولت إيقاظها في الصباح، إذ كان من عادتها أن تقفز من سريرها وعلى وجهها ابتسامة تطلُّع، مستعدةً لالتهام النهار الجديد، نهِمةً لمتعة العيش، لكنها في هذا الصباح جذَبت الأغطية من فوق رأسها وغمغمت: «اتركني أنام قليلًا بعد. أشعر بالبلادة والخمول كامرأة عجوز».

قلت: «لقد أمر الملك بالبدء مبكرًا، علينا الصعود إلى السفن قبل شروق الشمس. سأجلب لك نقيعًا ساخنًا من شأنه أن يبهجك»، وصببتُ مياهًا مغليةً من فوق زبدية فيها أعشاب قطفتها بيديَّ في أكثر أطوار القمر الماضي ملائمة.

عبسَت قائلة: «توقف عن المجادلة»، لكنني لم أسمح لها بالعودة إلى النوم.

نخزتها حتى أفاقت وحملتها على شرب المُنشِّط، فلوَت قسمات وجهها متذمرةً: «أقسم إنكَ تحاول تسميمي»، ثم من دون تحذير، وقبل أن أتمكن من فعل أي شيء لمنع ذلك، تقيأت بغزارة.

بدتْ بعد ذلك مصدومة مثلي، وراح كلانا يحدق مذعورًا إلى البركة التي يتصاعد منها الدخان بجوار سريرها.

ثم همستْ: «ما خطبي يا تايتا؟ لم يحدث لي ما يشبه هذا من قبل».

فصرختُ: «*الخماسين*! مقبرة تراس! تانوس!».

حدقت إليَّ بذهول للحظة، ثم أنارت ابتسامتها ظلام الخيمة كمصباح وهتفتْ: «إنني أصنع طفلًا!».

فناشدتها: «اخفضي صوتك يا مولاتي».

قالت: «إنه طفل تانوس! إنني حاملة طفل تانوس!» لا يمكن أن يكون جنين الملك، فقد نجحتُ في إبعاده عن سريرها منذ أن مرضتْ من جوعها وأجهضت.

خرخرت قائلة وهي ترفع ثوب نومها وتتفحص بطنها المسطَّح المشدود بمهابة: «واه يا تايتا، فكر في الأمر فقط! عفريت صغير يشبه تانوس تمامًا ينمو بداخلي (ثم تلمَّست معدتها بأملٍ)، كنت أعرف أن الآلهة لن تترك اللذائذ التي اكتشفتها في مقبرة تراس تمرُّ مرور الكرام. لقد أعطتني ذكرى ستدوم طيلة حياتي».

فحذرتها: «إنك تستبقين الأمور، قد يكون مجرد مغص. يجب أن أجري الاختبارات لنتأكد».

- لا أحتاج إلى اختبار. أعرف ذلك في صميم قلبي وفي أعماق جسدي الدفينة.

قلت لها بامتعاض: «سنجري الاختبارات رغم ذلك»، وذهبت لأجلب المبولة، فقرفصتْ فوقها لتزودني بمياهها الأولى لذلك النهار، وقسمتُها إلى قسمين متساويين.

مزجتُ القسم الأول من بولها بما يعادله من مياه النيل، ثم ملأت برطمانين بتربة سوداء زرعت في كل منهما خمس بذور ذرة بيضاء. سقيت أحد البرطمانين بمياه النيل النقية، والآخر بالمزيج الذي قدمته لي مولاتي. وكان ذلك الاختبار الأول.

ثم تصيدتُ بين قصب البحيرة المجاورة للمخيم عشر ضفادع، ولم تكن من الصنف الأخضر والأصفر الرشيق ذي السيقان القفَّازة، بل مخلوقات

سوداء لزجة لا تفصل بين رؤوسها وأجسادها البليدة البدينة أعناق، وتستقرُّ أعينها على جماجم مسطحة، لذا يسميها الأطفال بالناظرة إلى السماء.

وضعت كل خمسة من الناظرين إلى السماء في برطمان منفصل، أضفت إلى أولها مفرزات مولاتي الحميميَّة وتركت الآخر نقيًا. في الصباح التالي، في خلوة مقصورة مولاتي على متن القادس، نزعنا القماشة التي غطينا البرطمانات بها، وعاينًا محتوياتها.

أخرجت الذرة التي سقتها مولاتي **لوستريس** براعم خضراء ضئيلة، فيما ظلت البذور الأخرى خاملة. وكان خمسة الناظرين إلى السماء الذين تلقوا نعمة مولاتي عقيمين، فيما وضع كل من البقية الأحسن حظًا سلاسل فضية طويلة مرقَّطة بالبيوض السوداء.

زقزقت مولاتي بتعجرف قبل أن أتمكن من إعلان تشخيصي الرسمي: «لقد أخبرتكَ! أوه، شكرًا لجميع الآلهة! لم يحدث لي شيء أجمل من ذلك في حياتي كلها».

قلت لها بتجهُّم: «سأكلم **أتون** حالًا، وستشاركين الملك سريره في هذه الليلة»، وحدقت إليَّ في ذهول.

قلت: «حتى الفرعون الذي يصدق معظم ما أخبره به، لن يصدق أنك حبلتِ ببذور نفختها فيك رياح *الخماسين*. علينا أن نجد أبًا بالتبني للقيطنا الصغير هذا». كنتُ بالفعل قد عددتُ الجنين جنيننا، لا جنينها وحده، ورغم أنني حاولتُ إخفاء ذلك وراء هزلي، كنتُ مغتبطًا بخصوبتها بقدر غبطتها تمامًا.

ثارت في وجهي قائلة: «إياك أن تدعوه باللقيط مرة أخرى. سيكون أميرًا».

- لن يصير أميرًا إلا إن تمكنتُ من إيجاد أبٍ ملكيٍّ له. جهزي نفسك، إنني ذاهب لرؤية الملك.

***

قلت للفرعون: «راودني حلم البارحة يا عظيم مصر، حلم مذهل حتى إنني أعملتُ متاهات **آمون رع** لأتأكد منه».

مال الفرعون إلى الأمام بتشوُّق، ذلك أنه صار مؤمنًا بأحلامي والمتاهات بقدر أيٍّ من مرضاي الآخرين.

- إنه قاطع هذه المرة يا صاحب الجلالة. ظهرت في حلمي الإلهة **إيزيس** ووعدت بإبطال التأثير المشؤوم لأخيها **ست**، الذي حرمك بكل وحشية من ابنك الأول عندما أصاب السيدة لوستريس بالمرض المُضني. خذ مولاتي إلى فراشك في اليوم الأول من مهرجان **أوزيريس**، وستُبارَك بابن آخر. هذا وعد الإلهة.

بدا الملك مبتهجًا: «الليلة عشية المهرجان. في الحقيقة يا **تايتا**، كنت مستعدًّا لأداء هذا الواجب السارّ طيلة الشهور الماضية، لو أنك سمحت لي بفعل ذلك. لكنك لم تخبرني بما رأيته في متاهات **آمون رع**»، ومال إلى الأمام بتشوُّق ثانية، وكنتُ متجهزًا له.

- الرؤيا الماضية نفسها، إلا أنها هذه المرة أمتن وأوضح: الغابة اللانهائية نفسها من الأشجار النامية على ضفتي النهر، وكل الأشجار متوجة وفاخرة. سلالتك تمتد عبر العصور، قوية ومستمرّة.

تنهّد الفرعون راضيًا وقال: «أرسل إليَّ البنت».

عندما رجعتُ إلى الخيمة، كانت مولاتي تنتظرني، وقد جهَّزت نفسها بأناقة ومرح.

أسرَّت إليَّ: «سأغمض عيني وأتخيل أنني في مقبرة **تراس** مع **تانوس** (ثم قهقهت بوقاحة)، رغم أن تخيُّل الملك مكان **تانوس** كتخيُّل أن يصير ذيل الفأر خرطوم فيل».

جاء **أتون** ليأخذها إلى خيمة الملك حالما أنهى الملك تناول عشاءه، فرافقته بوجه هادئ وخطوة ثابتة، حالمةً ربما بأميرها الصغير، وبأبيه الحقيقي الذي ينتظرنا في **طيبة**.

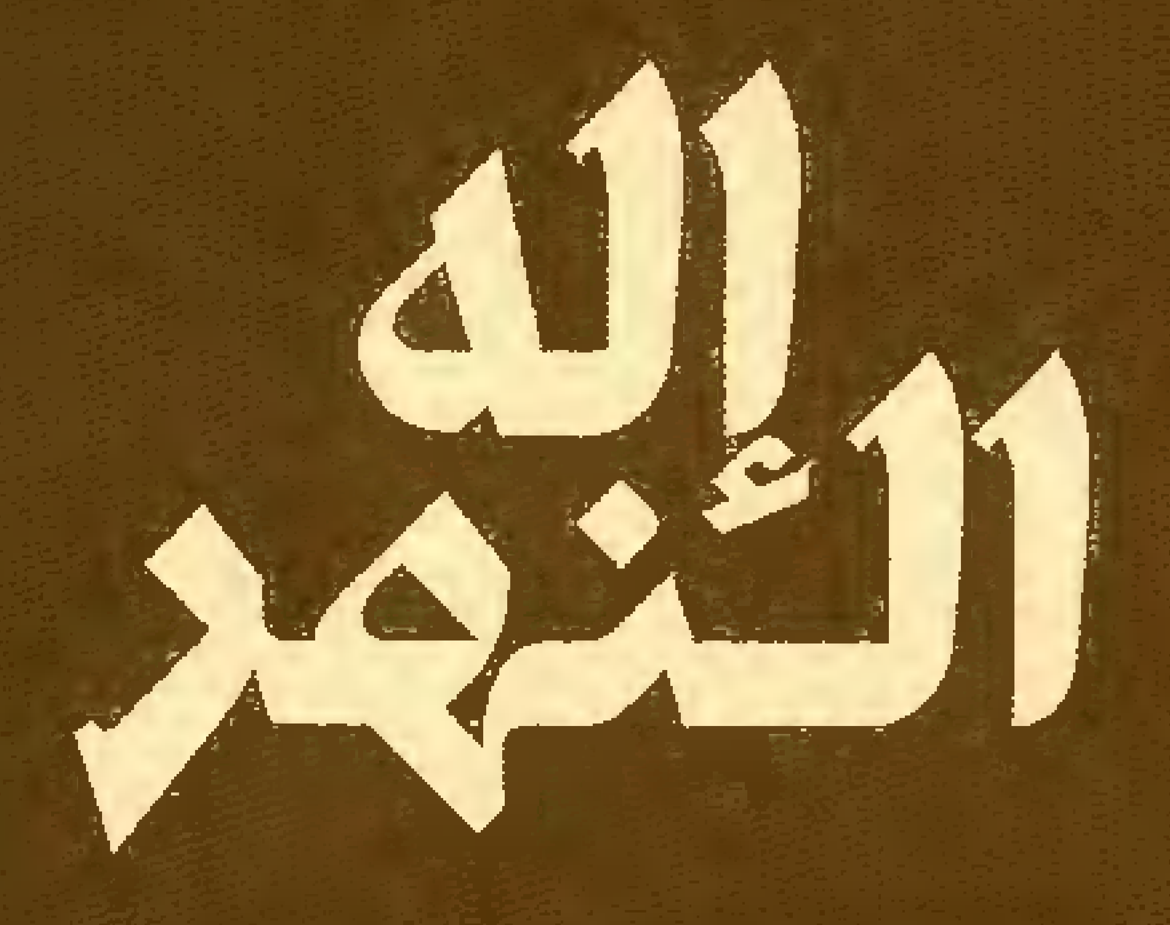
***


عصير
الكتب



ويلبر سميث

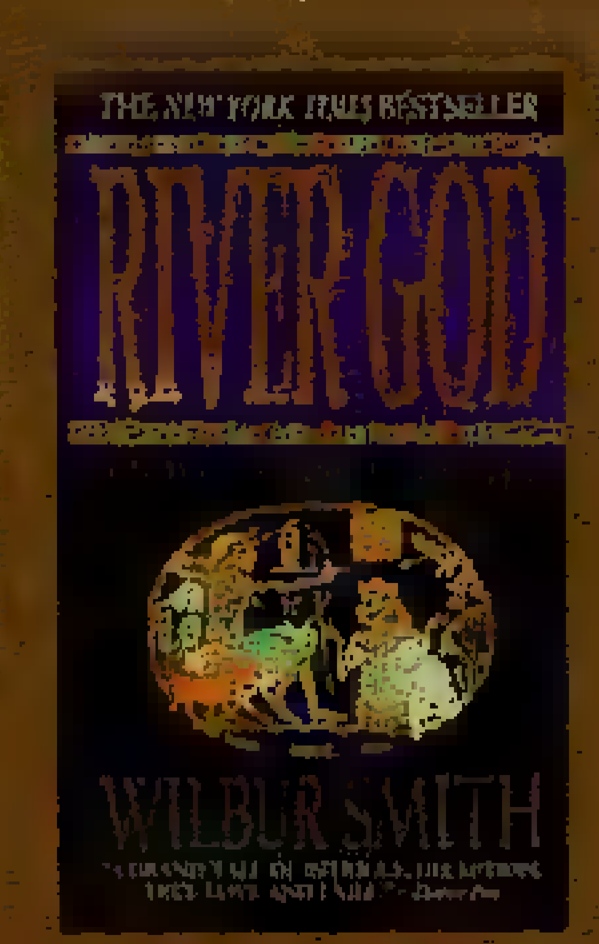
وُلد ويلبر أديسون سميث في 9 يناير 1933 في زامبيا، وتُوفي في 13 نوفمبر 2021، وهو روائي بريطاني من أصل جنوب إفريقي تخصص في كتابة روايات الخيال التاريخي حول التدخل العالمي بإفريقيا الجنوبية على امتداد أربعة قرون.



مصر القديمة، أرض الفراعنة، مملكة قامت على الذهب، وأسطورة حطَّمها الطمع...

بعد أن ورث ضعفاء الرجال التاج المُقدَّس، اندلعت نيران الحرب الأهلية في وادي الملوك فأهلكته، وامتصَّت الحياة من أطرافه.

وقضت الآلهة أن يقود المحارب الشاب تانوس جيش مصر في محاولة جسورة لإعادة توحيد المملكة. لكن تانوس يجد نفسه مضطرًّا إلى تحدي الآلهة لإحراز مجد أعظم: لوستريس الجميلة ابنة السيد إنتف، التي لم يعرف البتَّة أن الفرعون قد وُعد بالزواج بها بالفعل. وصار متروكًا لأكثر خدم الفرعون إخلاصًا، الحكيم الموهوب تايتا، أن يحل المشكلة.



«حكاية عظيمة عن المكر والخداع، والحب الحقيقي والمنفى».

-The Denver Post

تصميم الغلاف كريم آدم



عصير الكتب



contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb